الشيخ فؤاد كاظم المقدادي

قضايا معاصرة

على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام

مكتبة
مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

قضايا معاصرة

على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام

تأليف

الشيخ فؤاد كاظم المقدادي

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الكتاب :	قضايا معاصرة على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام
المؤلف :	الشيخ فؤاد كاظم المقدادي
الناشر :	مؤسسة الإمام علي عليه السلام
الطبعة :	الأُولى
المطبعة :	ستارة/قم
الكمية:	٣٠٠٠
سنة الطبع:	١٤٢٣ هـ ق
شابك:	٤ ـ ٠٩ ـ ٤٠٩ ـ ٣١٩ ـ ٩٦٤

«حقوق الطبع محفوظة»

بسم الله الرحمن الرحیم

المقدّمة

يتواصل التحديث وتتوارد المستجدات على مستوى النظريات كما هي على مستوى التطبيق في وقت يشهد إرهاصات يقظة الفطرة الإنسانيّة وتفتح العقول البشريّة التائهة في ميدان البحث عن مسارب الخلاص وموارد الحق وسفينة النجاة في ظلِّ عالم يسوده الضلال والظلم والجور، كما تشهد أمة الاسلام المجيدة تجليّات موقعها في الشهادة والقيمومة علىٰ الأمم الأخرى، لأنها خير الأمم وأكرمها: ﴿**كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس**﴾[1] لكونها ترفع لواء الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[2]، ولأن الله تعالى جعلها الأمّة الوسط بين الأمم: ﴿**وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[3]، ويؤكد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله في وصف أمته: (**إنّكم تتّمون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله**)[4].

والباحث عن الحقيقة وطالب الحقّ المنصف لا يجد عبر تاريخ الإسلام الغابر والمعاصر آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومبلّغين رسالات ربهم بأمانة وصدق، وقد ضحّوا بأرواحهم وما يملكون من أجل إقامة حدود الله

(١و٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) كنز العمال: ٣٤٤٦٢.

تعالىٰ غير رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل بيته عليهم السلام وأتباعهم المخلصين من علماء وفقهاء مدرستهم الإسلامية الأصيلة، مصدّقين قوله تعالى: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾(١).

وليس هذا من بنات المعقول المدلولة للاستقراء والتحقيق التأريخي وبرهانه القطعي وحسب؛ بل من المنقول الشريف المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة أهل بيته المعصومين عليهم السلام أيضاً، منه ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

(إنّي قد تركت فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض)(٢).

(والذي بعثني بالحق نبيّاً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبيّاً ثمّ لم يلقه بولاية أولي الأمر منّا أهل البيت ما قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً)(٣)

(إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق)(٤).

ومنه ما ورد عن الإمام علي عليه السلام:

(انظروا أهل بيت نبيّكم، فالزموا سمتهم، واتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدىً، ولن يعيدوكم في ردىً)(٥).

(نحن شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) البحار ٢٣: ١٠٦ / ٧ وكنز العمال: ٨٧٠ ـ ٨٧٣.

(٣) البحار ٢٧: ١٩٢ / ٤٩.

(٤) البحار ٢٣: ١٠٥ / ٣.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٧٦.

الحكم)[١].

(تالله لقد عُلّمت تبليغ الرسالات، وإتمام العِدات، وتمام الكلمات، وعندنا [أهل البيت] أبواب الحُكم، وضياء الأمر)[٢].

وعنه عليه السلام وفي وصف أئمة أهل البيت عليهم السلام:

(جعلهم الله حياة للأنام، ومصابيح للظلام، ومفاتيح للكلام، ودعائم للإسلام)[٣].

(لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد)[٤].

(فإنّهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق)[٥].

(إنّما الأئمّة قوّام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه)[٦].

وعنه عليه السلام فيمن تركوا أهل البيت عليهم السلام:

(آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً، وتركوا صافياً وشربوا آجناً، كأنّي أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه)[٧].

ومنه ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٢١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٢٨٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٨٨.

(٤) غرر الحكم ٦: ٤٣٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٩: ١٠٦.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٥٢.

(٧)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٨٨.

(أما إنّه ليس عند أحد من الناس حقّ ولا صواب إلاّ شيء أخذوه منّا أهل البيت...)[١].

ويؤسّس عليه السلام على ذلك قوله:

(كلّ ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل)[٢].

ومنه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

(معنا راية الحق، من تبعها لَحِق، ومن تأخّر عنها غَرق..)[٣].

ومنه ما ورد عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه):

(فكانوا [أهل البيت عليهم السلام] هم السبيل إليك [الله] والمسلك إلى رضوانك)[٤].

بهذا وغيره تتم الحجة علينا في تعيين مظانّ الحق ومعادن العلم وينابيع الحكم؛ فمحطّ الرسالة إذن هو كتاب الله المجيد ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام، الذين هم معالم الحق المطلق وراية الإسلام الأصيل، نتعلم منهم فهم قدوتنا ونتأسى بهم، فلا نتقدمهم فنهلك ولا نتخلّف عنهم فنهلك، وهذه الشروط في اتّباعهم ألزمنا الرسول صلى الله عليه وآله بها في قوله عن الثقلين:

(فلا تَقَدّموهما فتهلكوا، ولا تُقَصّروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم)[٥].

وبعد فإنّ الذي دفعني إلى تأليف هذا الكتاب يتلخص في أمور أهمها:

١ـ كثرة المقولات المستحدثة والموضوعات المستجدة في عالم الفكر والثقافات المعاصرة، ومحاولة تغلغلها ومحاصرتها لثقافتنا الإسلامية التي

---

(١) أمالي المفيد: ٩٦ / ٦.

(٢) بصائر الدرجات: ٥٣١ والفصول المهمة ١: ٥٢٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٧٦.

(٤) البحار ١٠٢: ١٠٥.

(٥) ينابيع المودّة ١: ٣٤.

ترتكز على القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، وتراث أئمتنا الأبرار صلوات الله عليهم أجمعين، ثم مهاجمتها لعقليات الكثير من المثقفين الإسلاميين بما فيهم أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ استهداف الاستكبار الدولي، وقوى الكفر العالمي للفكر الإسلامي الأصيل بالتشويه والدسّ عليه، لتغيير مفاهيمه وحرفه عن نهجه القويم لصرف الأنظار عنه وعن أطروحته الحضارية المعطاءة في شتى الميادين الاجتماعية والسياسية والعقائدية، وركوب أتباعه من العلمانيين المتربصين بالإسلام موجة تخريب حركته الميدانية في داري الإسلام والكفر وكذلك تخريب محاولة تطبيق أطروحته في بعض دار الإسلام المتمثلة اليوم بالجمهورية الإسلامية في إيران.

٣ ـ إن المكتبة الإسلامية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام القائمة على منهج الاجتهاد المستمر غنيّة ولا تزال وستبقى بأصولها ومصنفاتها العلمية في مختلف فروع المعرفة والاختصاصات بتحقيق أقلام أعلامها وأقطابها من المفكرين والفقهاء والفلاسفة والمحققين، إلّا أن الذي ينقصها أحياناً في يومنا هذا هو الخطاب التفصيلي، واللغة المعاصرة، والبيان المبسوط لمعارفها ونظرياتها بهدف ترجمة رؤاها وتطبيقها على مستجدات الوقائع والموضوعات، خصوصاً في المجالين الحركي الاجتماعي والثقافي السياسي المعاصرين، المواكبين للحركة الفكرية والحضارية العالمية؛ فكان هذا الكتاب محاولة في هذا الطريق.

وخلاصة القول فإن هذا الكتاب يتناول رؤية مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مجموعة قضايا معاصرة تهمّ الرساليين من حملة لواء الإسلام والدعوة إليه في المجالين الثقافي والحركي حيث تتضمّن:

مدخلاً، يؤسس لرؤية قرآنية في أبعاد العداء الثقافي للإسلام والموقف منه، ثم ينقسم إلى فصول أربعة: ـ الأول: رؤية رسالية في قضايا معاصرة. والثاني: قضايا في أفق الصحوة الإسلامية المعاصرة. والثالث: ثقافتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب. والرابع: شبهات علمانية في الميزان «نماذج معاصرة»، ثم يُختم الكتاب بخاتمة، تضمنت دعوة الغرب لإعادة تقويمه للإسلام وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ولا يفوتني أن أنوّه إلى أن كتابة الكثير من فصول هذا الكتاب جاءت معاصرة لهموم ثقافية مباشرة، اجتاحت الساحة الإسلامية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين الميلادي، وقد نشرنا العديد منها في دوريات إسلامية مختلفة. ثم أعدنا النظر فيها تنقيحاً وتحقيقاً، توخّياً للسلامة والأمانة العلمية، وتحقيقا للهدف الرسالي المنشود من هذا الكتاب؛ تصديقاً لقول الإمام علي عليه السلام: (**الكتاب ترجمان النيّة**)[1]، والله من وراء القصد.

فؤاد كاظم المقدادي

١٥ شعبان المعظم ١٤١٣ هـ ق

---

(١) غرر الحكم: ٢٩٨.

المدخل

رؤية قرآنية في أبعاد العداء الثقافي للإسلام والموقف منه

رؤية قرآنية
في أبعاد العداء الثقافي للإسلام

إنّ أبرز بؤر العداء للإسلام نجدها في المؤسسات الغربية ذات النزعة الاستعمارية، ثم يسري هذا العداء وتنظيراته إلى امتداداته وذيوله في البلاد الإسلامية. وكثيراً ما يقف المتأمل المنصف والمقوّم الحصيف أمام ظاهرة العداء الغربي الاستعماري للإسلام، وإذا وُجد ما يمكن أن يدّعىٰ من مبررات للعداء السياسي أو العمل المتواصل للاستحواذ على خيرات ومقدّرات بلاد المسلمين والهيمنة الاقتصادية عليها، فإنه لا يوجد مثل ذلك في عدائهم الثقافي، حيث إن المنطق الطبيعي يقتضي النظر إلى الجانب الفكري والثقافي من منظار علمي بحت، ووفق معايير التقويم الموضوعي للطروحات الفكرية والمقولات الثقافية، ولعل الأنكىٰ من ذلك أن نجد أن الغالب علىٰ منظومة التنظير الغربية الاستعمارية التي يعرضها أغلب مفكريها، وفي مقدمتهم المستشرقون، من خلال مؤلفاتهم وموسوعاتهم، هو تعريف الإسلام مشوهاً مزيّفاً مليئاً بالشبهات والأباطيل، فهم يُشوهون التاريخ الإسلامي ويُشككون في المقدسات الإسلامية، ويُثيرون الشبهات المختلفة حول نسبة القرآن الكريم للوحي الإلهي، وحول الهوية الرسالية لرسول الإسلام الكريم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام وسيرتهم المباركة.

ولكننا لو أمعنا النظر جيداً وسبرنا غور الأصول والجذور؛ فإننا نجد أن

هؤلاء قد تناولوا الإسلام من خلال موقف نفسي مسبق ملؤه الحقد والعداء، بل والتمهيد لتحقيق هزيمة نفسية للمسلمين، وصدّ حركة الدعوة الإسلامية من الانتشار في الحواضر الغربية. إلّا أن السؤال يبقىٰ معلّقاً حول ماهو الأصل والجذر في الموقف السلبي المسبق، المملوء بالحقد والنزعة المفرطة لتشويه الإسلام؟

وللجواب علىٰ ذلك علينا أن نعود إلى سالف التاريخ بدءاً بأوائل زمن بزوغ فجر الإسلام، وصدع الرسول محمد صلى الله عليه وآله بالدعوة الجديدة. وعند استقصائنا لهوية وطبيعة المعادين الأوائل للإسلام والصادّين عن سبيله نكتشف أن أعداء الإسلام اليوم هم أبناء أولئك المعادين الأوائل، وان خط العداء قائمٌ دائماً علىٰ طول التاريخ الغابر بدوام علّته، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم نصاً في قوله تعالىٰ: ﴿**ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتّىٰ تتبع ملّتهم ...**﴾[1].

ومن أجل أن نحقق استيعاباً إجمالياً لأبعاد وجذور وصور هذا العداء سنتناول الموضوع من خلال رؤية القرآن الكريم ـ كمصدر مطلق ـ في بيان صور وأسباب عداء أولئك الأوائل، حيث نجد أن هناك عشرات الآيات الصريحة في عرض صور وبيان أسباب عداء المشركين للإسلام ورسوله الأمين صلى الله عليه وآله، ويمكننا إجمالها في الصور التالية:

١ ـ موقف العداء المتمثل في كتمان الحق وتحريفه رغم علمهم القاطع به، وهذا ما تشير إليه مجموعة من الآيات الكريمة، وتكشف عمّا بذله الأعداء من جهد وحيل ومن مكائد وخداع ومن كذب ولبس للحق بالباطل، وبثّ الريب والشكوك وتبييت الشرّ والضرّ للإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله، ومن تلك الآيات الكريمة:

---

(١) البقرة: ١٢٠.

قوله تعالىٰ: ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه...**﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام اللّٰه ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وإذ أخذ اللّٰه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون**﴾[٣].

ومن الغريب في موقف هؤلاء الأعداء هو أنهم كانوا يترقبون ظهور رسول جديد يأتي بدين جديد، وكانوا يبشّرون به ويفتخرون علىٰ غيرهم من الأمم والأديان بأن النبي المترقّب سيكون منهم، ولكن ما إن جاءهم حتّىٰ كفروا به، وأعلنوا عداءهم له ولدينه الذي بشّر به. ويبيّن لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالىٰ: ﴿**ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّٰه مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللّٰه علىٰ الكافرين**﴾[٤].

والأكثر غرابة هو أنهم كانوا يعرفون النبي محمداًﷺ باسمه وصفاته، ورغم ذلك أصرّوا علىٰ كفرهم به ونكرانهم لرسالته. ولهذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾[٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين**

---

(١) النساء: ٤٦.

(٢) البقرة: ٧٥.

(٣) آل عمران: ١٨٧.

(٤) البقرة: ٨٩.

(٥) البقرة: ١٤٦.

خسروا أنفسم فهم لا يؤمنون﴾[١].

٢ ـ موقف العداء الآخر تمثّل بنقض العهود والمواثيق التي أخذها عليهم أنبياؤهم بالإقرار بالرسول محمد صلى الله عليه وآله المبشّر به في كتبهم والإيمان به وبما يأتي به من كتاب اللّه.

وقد صرّح القرآن الكريم بذلك في مجموعة من الآيات الكريمة، منها:

قوله تعالىٰ: **﴿وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيّننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾**[٢].

وقوله تعالىٰ: **﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾**[٣].

ومنها قوله تعالىٰ: **﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كلّ مرّة وهم لا يتقون﴾**[٤].

٣ـ أما موقف العداء الثالث فكان النفاق والتضليل، حيث حاول قطّاع واسع منهم انتهاج هذا السبيل للاندساس في أوساط المسلمين والتوغل في صفوفهم، ومما جاء في القرآن الكريم بياناً لذلك:

قوله تعالىٰ: **﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكَلِمَ من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يُرِد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئاً أولئك**

---

(١) الأنعام: ٢٠.

(٢) آل عمران: ١٨٧.

(٣) البقرة: ١٠٠.

(٤) الأنفال: ٥٦.

الذين لم يرد اللّٰه أن يُطهّر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾(١).

ومنها قوله تعالىٰ أيضاً: ﴿**وقالوا قلوبنا غُلف بل لعنهم اللّٰه بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون**﴾(٢).

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿**أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾(٣).

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن خطتهم من وراء هذا الاندساس والتوغل في صفوف المسلمين ترمي لتمرير مؤامرة قذرة، كشفها اللّٰه سبحانه وتعالىٰ لرسوله الكريمﷺ بهدف زعزعة إيمان المسلمين عقائدياً وإخراجهم من دينهم، مبيّناً أن الخطة تقوم علىٰ أساس تظاهرهم بالايمان بالاسلام المبطن بالنفاق ثم الارتداد عنه بحجة توصلهم إلى قناعة تامّة ببطلانه وبطلان دعوىٰ النبي محمدﷺ بالنبوة. ومن الآيات الكريمة التي تناولت أبعاد هذه المؤامرة الدنيئة، وكشفت للرسول الكريمﷺ فصولها واحداً تلو الآخر هي:

قوله تعالىٰ: ﴿**ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلّا أنفسهم وما يشعرون**﴾(٤).

وزادت آية كريمة أُخرىٰ بياناً لطبيعة المؤامرة في قوله تعالىٰ: ﴿**وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل علىٰ الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون**﴾(٥).

---

(١) المائدة: ٤١.

(٢) البقرة: ٨٨.

(٣) البقرة: ٤٤.

(٤) آل عمران: ٦٩.

(٥) آل عمران: ٧٢.

ولبيان جانب آخر من المؤامرة جاءت الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: **﴿وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند اللّٰه وماهو من عند اللّٰه ويقولون علىٰ اللّٰه الكذب وهم يعلمون﴾**[١].

٤ ـ ومن مواقفهم العدائية أيضاً هو الحسد والتعصب؛ حيث استولت علىٰ فريق منهم حالة طاغية من الحسد والحقد والتعصب، خصوصاً عندما حصحص الحق وبانَ لهم حدّه، وفات عليهم ما كانوا يرمون إليه من استغلال النبي الموعود ودعوته الجديدة لتكريس مصالحهم ومواقعهم الاجتماعية والاقتصادية، فراحوا يكيدون للنبي محمد صلى الله عليه وآله ولدعوته الإسلامية ما وسعتهم المكائد وانطوت عليه نفوسهم المريضة من خداع وتزييف، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: **﴿ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ...﴾**[٢].

ومن صور حسدهم وحقدهم ما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: **﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خير من ربكم واللّٰه يختص برحمته من يشاء واللّٰه ذو الفضل العظيم﴾**[٣].

ومن صور تجاهلهم المتعصب للرسالة الجديدة ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: **﴿ولما جاءهم رسول من عند اللّٰه مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أُتوا الكتاب كتاب اللّٰه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾**[٤].

---

(١) آل عمران: ٧٨.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) البقرة: ١٠٥.

(٤) البقرة: ١٠١.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿**ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّٰه مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللّٰه علىٰ الكافرين**﴾(١).

ومن صور إصرارهم وتعصبهم علىٰ جهلهم قوله تعالىٰ : ﴿**ألم تر إلىٰ الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدىٰ من الذين آمنوا سبيلاً**﴾(٢).

وأيضاً قوله تعالىٰ: ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾(٣).

٥ ـ وموقف عدائي آخر تميزوا به علىٰ طول مواجهتهم للإسلام وهو تعاليهم علىٰ الدين الجديد وترفعهم المكابر عليه واستهزاؤهم به وبنبيّه ﷺ، وهو أسلوب آخر تميّز به المكابرون من الأعداء؛ حيث التجأوا إلى هذه اللغة بعد أن أعيتهم السُبل فراحوا يتخبطون في وهمٍ، أغمضوا فيه أعينهم عن الحقائق، نابذين به الحق ومصرّين علىٰ الباطل، فهم تارةً يسلكون مسلك العتوّ والاستعلاء، وأُخرىٰ يسلكون مسلك السخرية والاستهزاء وبصور مختلفة، منها:

الصورة التي تشير إليها الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: ﴿.. **ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم اللّٰه بكفرهم فلا**

---

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) النساء: ٥١.

(٣) البقرة: ١٣٥.

يؤمنون إلّا قليلاً﴾(١).

ومن صور تعاليهم ومكابرتهم العدائية ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: **﴿وقالت اليهود والنصارىٰ نحن أبناء اللّٰه وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وللّٰه ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾**(٢).

ومنها أيضاً الآية الكريمة في قوله تعالىٰ: **﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلّا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأُميين سبيل ويقولون علىٰ اللّٰه الكذب وهم يعلمون﴾**(٣).

٦ـ ومن مواقفهم العدائية المشهودة، التي صعّدوا بها مواجهتهم العنيدة للإسلام، هو صدّهم عن سبيل اللّٰه ومسارعتهم في الإثم والعدوان، خصوصاً عندما رأوا أنّ دين الإسلام يعلو ودعوته تنتشر، وأنّ أمر نبوة محمد صلى الله عليه وآله ورسالته يذاع بين القبائل والشعوب والأوطان والأمصار، فلم يجدوا مناصاً وطريقاً يطفيء نائرتهم تجاه الإسلام ونبيه الكريم إلّا الإثم والعدوان والصدّ عن سبيل اللّٰه، فأعدوا عدّتهم وتنادوا للكيد والعدوان، ولم يكتفوا بما خاضوه من معارك وحروب متوالية داخل الحجاز مهد دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله؛ بل تألبوا عليه من خارج الجزيرة العربية، فكانت معركة مؤتة التي استشهد فيها جعفر بن أبي طالب وعبداللّٰه بن رواحة وزيد بن حارثة، ومنها معركة اليرموك.

وقد عرضت آيات القرآن الكريم هذا الموقف العدواني بما اشتمل عليه من

---

(١) النساء: ٤٦.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) آل عمران: ٧٥.

إثم وصدٍّ عن سبيل اللّٰه كما في قوله تعالىٰ: ﴿**قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلّا أن آمنا باللّٰه وما أُنزل إلينا وما أُنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون**﴾[١].

ومنها أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل اللّٰه**﴾[٢].

وعن الموقف العدائي لليهود جاء قوله تعالىٰ: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات احلّت لهم وبصدّهم عن سبيل اللّٰه كثيرا**﴾[٣].

وعن الإثم والعدوان قال تعالىٰ: ﴿**وترىٰ كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون**﴾[٤].

هذه خلاصة خاطفة عن رؤية القرآن الكريم في صور وجذور العداء السافر للإسلام ورسوله الكريمﷺ والمتتبع تاريخياً وعلمياً يجد أن سيرة اللاحقين من المعادين للإسلام فكرياً وعقائدياً لم تخرج عن مجمل هذه الأطر العدائية، بل زيد تفصيلاً وتعميقاً في تنظير منظومته الثقافية، ليواكب تطور العقل البشري في بحثه عن الحقيقة، فأمعنوا في الشبهات والدس والتشويه.

فهم تارة يتناولون الأسس والأصول التي يقوم عليها الإسلام كدين إلهي؛ فينكرون مثلاً الوحي الإلهي بالقرآن الكريم إلى النبي محمدﷺ، ويبتدعون نظريات يسبغون عليها الوصف العلمي ليمعنوا في شبهتهم حول الوحي الالهي، كما في دعوىٰ نظرية الوحي النفسي التي حاولوا بواسطتها سلب النسبة الإلهية

---

(١) المائدة: ٥٩.

(٢) التوبة: ٣٤.

(٣) النساء: ١٦٠.

(٤) المائدة: ٦٢.

للوحي القرآني وأرجعوه إلى نوع من الإدراك الوهمي، أو ينفون الإعجاز القرآني في إسلوبه البلاغي ليسقطوا بذلك الدليل الذي يثبت إلهية القرآن الكريم وخلوده بخلود إعجازه من جهة، وإسقاط دعوىٰ نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وأنه رسول اللّٰه تعالىٰ للعالمين من جهة أخرىٰ؛ ليفقد القرآن الكريم والنبي الأمين صلى الله عليه وآله قدسيتهما[1].

ولتحقيق هذا الهدف أثاروا الشك برواية الشعر العربي الجاهلي، وادعوا نظرية قالوا فيها: لعلّ في الشعر العربي الجاهلي الذي لم يرو ما هو أبلغ من القرآن. ولمّا كان الشعر العربي الجاهلي بمنزلة الأمارة والعلامة علىٰ بلاغة القرآن وفصاحته، فعليه من الممكن التشكيك في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم[2].

وأمثال هذه الادعاءات الباطلة، كدعوىٰ أن في القرآن تناقضاً وأن رسول الإسلام محمداً صلى الله عليه وآله تأثر باليهودية والنصرانية والجاهلية وغير ذلك.

وهم تارةً ينتهجون اسلوب التجديف والاستخفاف بوسائل مختلفة، منها: إصدار بعض الكتب علىٰ شكل روايات تجديفية تنال من قدسيَّة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وتستخف به وبأهل بيته عليهم السلام، كما في رواية «الآيات الشيطانية» للمرتد سلمان رشدي، ومنها: تضمين بعض المقدّسات الإسلامية في أفلام سينمائية رخيصة، القصد منها إثارة السخرية بمقدسات الإسلام والاستخفاف

---

(١) راجع في ردّ هذه الشبهة: رضا، محمد رشيد ـ الوحي المحمدي. والدكتور الصالح، صبحي ـ مباحث علوم القرآن. والحكيم، محمد باقر ـ علوم القرآن. ومعرفة، محمد هادي ـ التمهيد في علوم القرآن ج ١. والمقدادي، فؤاد كاظم ـ الإسلام وشبهات المستشرقين.

(٢) راجع في ردّ هذه الشبهة: الخوئي، أبو القاسم ـ البيان. والبلاغي، محمد جواد ـ الهدىٰ إلى دين المصطفىٰ. والحكيم، محمد باقر ـ علوم القرآن. وابن نبي، مالك ـ الظاهرة القرآنية. والمقدادي، فؤاد كاظم ـ الإسلام وشبهات المستشرقين.

بها.

ومنها: الانتقاص من الرسولﷺ والقرآن الكريم والاستخفاف بهما عن طريق زج اسم الرسولﷺ وبعض آيات القرآن الكريم في دعاياتهم وإعلاناتهم التجارية المهينة.

ولا شك أننا لا نحتاج إلى مزيد جهد تحقيقي لمعرفة أنّ كل هذه الصور والأساليب الثقافية والإعلامية التي ينتهجها أعداء الإسلام المعاصرون ترجع في روحها وأصولها وصورها إلى تلك الجذور والاصول والصور العدائية الأولىٰ.

وهكذا نضع أيدينا علىٰ صُوَر وأُصول الموقف العدائي المسبق والنزعة المفرطة لتشويه الإسلام ثقافياً لدىٰ العديد من مفكري الغرب ومستشرقيه من ذوي النزعات الاستعمارية ومن سار علىٰ نهجهم وحذا حذوهم.

بقي علينا أن نعرف رؤية القرآن الكريم في الموقف من حالة العداء الثقافي والخصومة الفكرية للاسلام، وكيف أرشد اللّٰه نبيه الكريمﷺ في احتوائها ومواجهتها؟

❊ ❊ ❊

رؤية قرآنية
في الموقف من أعداء الإسلام

ولأجل أن نسلط الضوء علىٰ الرؤية القرآنية في الموقف من حالة العداء الثقافي والخصومة الفكرية والعملية للإسلام، وكيف أرشد اللّٰه نبيه الكريم صلى الله عليه وآله لاحتوائها ومواجهتها؟ لابد لنا أن نصنف مستويات العداء وطبيعة الأعداء ليتضح لنا تفصيلاً الموقف الإسلامي، منها:

الصنف الأول: أهل الجهل البسيط، وهم الذين يجهلون بأن الإسلام هو الدين الحق الذي يجب أن يدينوا به، ويرسم معالم حياتهم علىٰ ضوء شريعته السمحاء، ولو عُلّموا لاستجابوا، وهم السواد من الأُمم والشعوب غير الإسلامية، وعداء هذه الشريحة معلول لجهلهم بالإسلام، وهو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿**بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾[1]، وعن الإمام علي عليه السلام قال: «**من جَهِلَ شيئاً عاداه**»[2].

والموقف الذي يرشد القرآن الكريم إليه في التعامل مع هذا الصنف من الأعداء، هو دعوتهم إلى الحق وبيانه لهم وترغيبهم فيه، قال اللّٰه تعالىٰ في مقام احتجاج أهل العلم علىٰ الذين لا يعلمون:

---

(١) يونس: ٣٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٩٤ / ١٠٨٢.

﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب اللّٰه إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾[١].

ويؤكد القرآن الكريم أن الإيمان مقوّمٌ بالعلم في قوله تعالىٰ: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإنّ اللّٰه لهادِ الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ويرىٰ الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾[٣].

وقال رسول اللّٰهﷺ: «**العلم حياة الإسلام وعماد الدين**»[٤]. ولهذا تجد أن القرآن الكريم يرغّب أهل الكتاب للخروج من جهلهم برسول الإسلام، ويدعوهم إليه وإلى الكتاب المبين الذي جاء به:

﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من اللّٰه نور وكتاب مبين﴾[٥].

وقال أيضاً: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم علىٰ فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير واللّٰه علىٰ كل شيء قدير﴾[٦].

الصنف الثاني: أهل الجهل المركّب، وهؤلاء جهلهم مركّب من الجهل بالحق والجهل بأنهم يجهلون الحق، ولذا فهم يتصورون أنهم أهل العلم والعقيدة

---

(١) الروم: ٥٦.

(٢) الحج: ٥٤.

(٣) سبأ: ٦.

(٤) كنز العمال: ٢٨٩٤٤.

(٥) المائدة: ١٥.

(٦) المائدة: ١٩.

الصحيحة، وهؤلاء هم أدعياء العقائد الفاسدة، وعداؤهم عادةً أشدّ من عداء الصنف الأول، وحالهم أكثر تعقيداً، لأنهم بحاجة أولاً إلى دحضٍ لعقائدهم الفاسدة، وثانياً إلى بيان الحق لهم وتعريفهم به، ومما ورد من وصف حالتهم في القرآن الكريم هو قوله تعالىٰ: **﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فَلِمَ تُحاجّون فيما ليس لكم به علمٌ والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**(١)، وفي ذلك قال الإمام علي عليه السلام: **«لو أنّ العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا ولم يضلّوا»**(٢).

والموقف الإسلامي من هؤلاء مركّب من عاملين متعانقين ومتعاقبين في الرتبة:

العامل الأول سلبي: ويتمثل ببيان مواطن الفساد والخطأ والباطل فيما يدّعون من عقائد وأفكار وآراء، وبتحقق ذلك ينفك ارتباطهم المعنوي بعقائدهم الفاسدة، ويُسلب انتماؤهم العقلي والنفسي إليها، وتتهيأ الأرضية المناسبة للعامل الثاني.

والعامل الثاني إيجابي: وبه يتم عرض العقيدة الحقّة، وطرح الأفكار والآراء الصحيحة علىٰ أساس من الدليل المحكم، والحجة القاطعة والبرهان الساطع.

والقرآن الكريم يشير إلى هذين العاملين في بعض آياته قائلاً:

﴿قل يا أهل الكتاب لستم علىٰ شيء...﴾(٣) وهي إشارة إلى العامل السلبي: **﴿... حتىٰ تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم...﴾**(٤) وهذه إشارة

(١) آل عمران: ٦٦.

(٢) غرر الحكم: ٧٥٨٢.

(٣) المائدة: ٦٨.

(٤) م. ن.

إلى العامل الإيجابي.

وجامع الموقف القرآني من هذا الصنف من الأعداء يمكن إجماله في مقولة التحاجّ إلى الحق، والجدال بالّتي هي أحسن، المدلولة لكثير من الآيات الكريمة، منها:

﴿أُدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[١].

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن إلّا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[٢].

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾[٣].

﴿ألم تر إلى الذين أُتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم ثم يتولىٰ فريق منهم وهم معرضون﴾[٤].

﴿أفغير اللّه أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾[٥].

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات اللّه وأنتم تشهدون﴾[٦].

الصنف الثالث: طلاّب الحق، وهم المنصفون من أهل العقائد المخالفة،

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) العنكبوت: ٤٦.
(٣) آل عمران: ٦٤.
(٤) آل عمران: ٢٣.
(٥) الأنعام: ١١٤.
(٦) آل عمران: ٧٠.

وهؤلاء لا يمكن تصنيفهم ضمن الأعداء بالعنوان الأولي، وإنما بالتبع وبالعنوان الثانوي، وذلك عندما يخضعون وفي مرحلة جهلهم بالحق، إلى إرهاصات المرجفين وإعلام المعاندين للحق، وهذا ما نجده في شرائح الباحثين والناقدين في المجتمعات العلمية والثقافية التي تعيش مخاضات البحث عن البديل والانفتاح علىٰ الآخر في عالم الصراع أو الحوار الثقافي.

وعلامة طلاّب الحق الإنصاف، وهو قبولهم بالحق لو بان لهم دليله وحجته، فعن الإمام الجواد عليه السلام قال: «.. **ومن إنصافه [المرء] قبوله الحقّ إذا بان له**»[١].

والموقف القرآني من هذا الصنف هو إنصافهم والانفتاح عليهم وإلحاقهم بصفوف المؤمنين، والآيات الكريمة، التي تعرض لحقيقة طلاّب الحق وتصفهم وتصنّفهم في مراتب الإيمان، غالباً ما تتعلق بمن هم من أهل الكتاب والعلم، ممن كان ينتظر ويترقب ظهور خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، وبعثته بالرسالة الإسلامية الموعودة، ومن هذه الآيات:

﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن باللّه وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين للّه لا يشترون بآيات اللّه ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إنّ اللّه سريع الحساب﴾[٢].

﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون باللّه واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾[٣].

﴿الذين آيتناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يُتلىٰ عليهم قالوا آمنّا

---

(١) كشف الغمة ٣: ١٣٨.

(٢) آل عمران: ١٩٩.

(٣) النساء: ١٦٢.

به إنّه الحق من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين * أولئك يؤتَون أَجرهم مرَّتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة وممّا رزقناهم يُنفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾(١).

الصنف الرابع: أهل الشبهات والدس والتحريف، وهؤلاء يستهدفون عادةً الفتنة في الدين الحق، فعن الإمام عليعليه السلام قال: «**احذروا الشبهة؛ فإنّها وُضعت للفتنة**»(٢).

والرد علىٰ أهل الشبهات هي من أبرز مهمات الرسل والرسالات الإلهية، فعن أمير المؤمنينعليه السلام قال: «.. **وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهود، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات**»(٣).

وقالعليه السلام أيضاً: «**إنّما سمّيت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحقّ، فأمّا أولياء اللّٰه فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدىٰ، وأمّا أعداء اللّٰه فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمىٰ**»(٤).

والشبهات، التي يثير الأعداء بها الفتن، إمّا هي متشابهات لا تُدرك ولا يرتفع لبسها واشتباهها بالحق إلّا بردّها إلى المحكمات؛ وذلك لقصور في إدراك مدلولها، وإمّا هي مغالطات مغرضة لابدّ من الردّ عليها بالبرهان الساطع والدليل القاطع إتماماً للحجة وبياناً للحق؛ كما أشار إلى ذلك أميرالمؤمنينعليه السلام في خطبته السابقة الذكر.

---

(١) القصص: ٥٢ ـ ٥٥.

(٢) نهج السعادة ٢: ٣٢٠.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٣٨.

والقرآن الكريم طافحة آياته بردّ الشبهات وإزالة اللبس، وكشف حقيقة من يروّجها ويغرّر الناس بها، ومن هذه الآيات الكريمة:

﴿ وما قدروا اللّه حق قدره إذ قالوا ما أنزل اللّه علىٰ بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل اللّه ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾[1].

﴿وقالت اليهود يد اللّه مغلولة غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّه ويسعون في الأرض فساداً واللّه لا يحب المفسدين﴾[2].

﴿ وقالوا لن تمسّنا النار إلّا أياماً معدودة قل أتخذتم عند اللّه عهداً فلن يخلف اللّه عهده أم تقولون علىٰ اللّه ما لا تعلمون﴾[3].

﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ اللّه هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من اللّه شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً وللّه ملك السموات والأرض وما بينهما يخلقُ ما يشاء واللّه علىٰ كل شيء قدير﴾[4].

﴿ أم اتخذوا آلهةً من الأرض هم ينشرون * لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللّه لفسدتا فسبحان ربِّ العرش عمّا يصفون * لا يُسألُ عمّا يفعل وهم يُسألون * أم اتخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا برهانكم هذا ذِكرُ من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) المائدة: ١٧.

يعلمون الحق فهم معرضون﴾[١].

﴿قل أرأيتم إن جعل اللّٰه عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير اللّٰه يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل اللّٰه عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير اللّٰه يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾[٢].

أما الدس والتحريف، فالموقف القرآني منه كان الكشف والتعرية، وبيان الحق وتمييزه عن الزيف والباطل، وردع أهله والقائلين به، ومن الآيات الكريمة التي تبين هذا الموقف:

﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[٣].

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾[٤].

﴿سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه﴾[٥].

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام اللّٰه ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[٦].

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[٧].

الصنف الخامس: المخالفون المسالمون، وهم أهل العهود والمواثيق،

---

(١) الأنبياء: ٢١ ـ ٢٤.
(٢) القصص: ٧١ ـ ٧٢.
(٣) النساء: ٤٦.
(٤) المائدة: ١٣.
(٥) المائدة: ٤١.
(٦) البقرة: ٧٥.
(٧) آل عمران: ٧١.

سواءً كانت هذه العهود والمواثيق علىٰ نحو التسالم الاجتماعي كما هو الحال في المجتمعات المركّبة من أتباع الأديان السماوية من أهل الكتاب،بل ومن غيرهم بناءً علىٰ إطلاق الآيات الكريمة في المورد، أو كانت علىٰ نحو العهد والميثاق والعقد كما كان علىٰ عهد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله، وكما هو بين الدول أو المنظمات اليوم.

والموقف القرآني من هؤلاء هو احترام العهود والمواثيق معهم ما داموا يحترمون العهد، ويلتزمون بالميثاق والعقد، ولا يمنع ذلك من دعوتهم إلى الدين الحق والسعي لهدايتهم إليه، بل هي فرصة سانحة استثمرها رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله في الدعوة إلى الإسلام ونشره في مجتمع الحجاز آنذاك، ولعل نفس الحالة نجدها اليوم في المجتمعات الغربية من خلال ما تمنحه بعض قوانينهم من فرص ومجالات للدعوة إلى الإسلام، ونشر حقائقه ومعالمه في أوساطهم؛ لتنفتح عقولهم وتنشرح صدورهم للإسلام وهديه. ومن الآيات الكريمة التي تقرّر هذا الموقف:

﴿وأذانٌ من اللّٰه ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ اللّٰه بريءٌ من المشركين ورسولُهُ فإن تُبتم فهو خير لكم وإن تولّيتم فاعلموا أنّكم غير معجزي اللّٰه وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم * إلّا الذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأَتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إن اللّٰه يحبُّ المتقين﴾(١).

﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتىٰ يسمع كلام اللّٰه ثم أبلغهُ مأمنه ذلك بأنّهم قومٌ لا يعلمون﴾(٢).

---

(١) التوبة: ٣ ـ ٤.

(٢) التوبة: ٦.

﴿كيف يكون للمشركين عهدٌ عند اللّٰه وعند رسوله إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن اللّٰه يحبُّ المتقين﴾(١).

الصنف السادس: المنافقون، وهم الأخطر على الإسلام، لأنهم يمثّلون الحربة الخفيّة التي تطعن كيان الإسلام ومجتمع المسلمين من داخله، وهم الذين يصطلح عليهم اليوم بالطابور الخامس، فهم يتظاهرون بالإسلام والإيمان والولاء، ويخفون الكفر والضلال والعداء، وخطورتهم تكمن في عدّة أبعاد، منها:

تغريرهم بالمسلمين وخلق الفتنة في أوساطهم من خلال ما يبثونه من أراجيف وأكاذيب وشبهات خفيّة، ومنها:

أنهم عين العدو وأداته الفعّالة في تشخيص مواطن القوة والضعف في المسلمين، وإحاطته بأسرارهم، ومنها:

أنهم يد العدو الضاربة والمحاربة للمسلمين عندما تقتضي مصلحة العدو ضرب الكيان الإسلامي من داخله من خلال التآمر والإجهاز عليه بالقوة.

وقد حذّر رسول اللّٰه ﷺ أُمّته منهم وخصّ منهم أهل المكر والبيان فقال: **«إنّي لا أتخوّف على أُمتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيحجُره إيمانه، وأمّا المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عالم اللسان؛ يقول ما تعرفون، ويعمل ما تُنكرون»**(٢).

والموقف القرآني من المنافقين هو كشفهم وتعريتهم وتحذير المسلمين من إغوائهم وتضليلهم، والحدّ من نفوذهم وسطوتهم والغلظة عليهم. ومن الآيات

---

(١) التوبة: ٧.

(٢) كنز العمال: ٢٩٠٤٦.

الكريمة التي تحكي لنا الموقف منهم هي:

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام اللّه ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح اللّه عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون * أولا يعلمون أن اللّه يعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾(١).

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثمّ جاءوك يحلفون باللّه إنْ أردنا إلّا إحساناً وتوفيقا * أولئك الذين يعلم اللّه ما في قلوبهم فأَعرض عنهم وعظهم وقُل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾(٢).

﴿إن المنافقين يُخادعون اللّه وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالىٰ يُراءون الناس ولا يذكرون اللّه إلّا قليلاً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل اللّه فلن تجد له سبيلاً﴾(٣).

﴿وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا اللّه ورسوله إلّا غرورا﴾(٤).

﴿ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم واللّه يشهد إنهم لكاذبون﴾(٥).

﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ غَرَّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل

---

(١) البقرة: ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) النساء: ٦١ ـ ٦٣.

(٣) النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٤) الأحزاب: ١٢.

(٥) الحشر: ١١.

علىٰ اللّٰه فإنّ اللّٰه عزيزٌ حكيم﴾[١].

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول اللّٰه واللّٰه يعلم إنك لرسوله واللّٰه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنّةً فصدّوا عن سبيل اللّٰه إنهم ساءَ ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع علىٰ قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشبٌ مسنّدةٌ يحسبون كلّ صيحة عليهم همُ العدوّ فاحذرهم قاتلهم اللّٰه أنّىٰ يُؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول اللّٰه لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون * سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر اللّٰه لهم إنّ اللّٰه لا يهدي القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا علىٰ من عند رسول اللّٰه حتّى ينفضّوا وللّٰه خزائن السماوات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ وللّٰه العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾[٢].

﴿يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير﴾[٣].

الصنف السابع: الحكّام وأئمّة الكفر والظلم والجور، وهم الذين ملكوا وسائل القدرة والقوة الماديّة فاستكبروا واستضعفوا الأمم، وحكموا بأهوائهم ودالت دولهم علىٰ مصالحهم وشهواتهم ففسدوا وطغوا وعاثوا في الأرض فساداً، فأهلكوا الحرث والنسل، ومحقوا الدين ومنعوا الحق وأدالوا الباطل، وكم هلكت أممٌ وأقوامٌ، واندثرت مدنيات ودول بما ظلموا، وهي سنّةُ

---

(١) الأنفال: ٤٩.

(٢) المنافقون: ١ ـ ٨.

(٣) التحريم: ٩.

اللّٰه في خلقه التي أشار إليها القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته، منها:

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾(١).

﴿فتلك بيوتهم خاويةً بما ظلموا إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعلمون﴾(٢).

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾(٣).

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبهُ الظمآن ماءً... ومن لم يجعل اللّٰه له نوراً فما له من نور﴾(٤).

﴿ومن يكفر باللّٰه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾(٥).

ولا نقصد من أئمّة الكفر والظلم والجور من امتلك صولجان السلطة السياسية فحسب، بل حتىٰ أولئك الذين يشكّلون قوىٰ اجتماعية واقتصادية وثقافية وإعلامية ضالّة ومضلّة، ومن أبرزهم وعّاظ السلاطين، الذين يسيطرون من خلال قدراتهم تلك علىٰ مقدّرات الشعوب، ويعينون أئمة الكفر والظلم فيسوسون الناس بالباطل،ويخلقون حاجزاً معنوياً يحول بين الناس وبين معرفة الحق المبين.

ولعل من نافلة القول بيان الموقف القرآني من هذا الصنف البارز والصريح من الأعداء، ويمكن إجماله في ثلاثة مواقف:

---

(١) يونس: ١٣.

(٢) النمل: ٥٢.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

(٤) النور: ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) النساء: ١٣٦.

الموقف الأول: الحذر من كيدهم وأهوائهم وإغوائهم، قال اللّٰه تعالىٰ في كتابه الكريم:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾(١).

﴿ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين﴾(٢).

الموقف الثاني: رفض ولايتهم والبراءة منهم، قال اللّٰه تعالىٰ في قرآنه المجيد:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن اللّٰه لا يهدي القوم الظالمين﴾(٣).

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا اللّٰه إن كنتم مؤمنين﴾(٤).

﴿ولو كانوا يؤمنون باللّٰه والنبي وما أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾(٥).

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون اللّٰه من أولياء ثم لا تُنصرون﴾(٦).

---

(١) آل عمران: ١٠٠.

(٢) البقرة: ١٤٥.

(٣) المائدة: ٥١.

(٤) المائدة: ٥٧.

(٥) المائدة: ٨١.

(٦) هود: ١١٣.

﴿قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾[(١)].

﴿براءةٌ من اللّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنّكم غير معجزي اللّه وأنَّ اللّه مخزي الكافرين * وأذانٌ من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ اللّه بريٌ من المشركين ورسولُه فإن تبتم فهو خيرٌ لكم وإن توليتم فاعلموا أنّكم غير معجزي اللّه وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم﴾[(٢)].

﴿وإذ ابتلىٰ ابراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[(٣)].

وعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «من مشىٰ مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنّه ظالم فقد خرج من الإسلام»[(٤)].

الموقف الثالث: إعلان الحرب عليهم والعمل علىٰ إسقاط سلطانهم لئلا تدول دولهم فينتشر الفساد في البر والبحر، ولئلا تعمّ فتنتهم فلا تصيب الذين ظلموا خاصّة، وقد جاءت الآيات الكريمة صريحة في ذلك منها:

﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾[(٥)].

﴿.. فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾[(٦)].

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه والذين كفروا يقاتلون في سبيل

---

(١) القصص: ١٧.

(٢) التوبة: ١ ـ ٣.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) كنز العمال: ١٤٩٥٥، ٧٥٩٦.

(٥) الأنفال: ٢٥.

(٦) التوبة: ١٢.

الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا﴾[١].

﴿قاتلوهم يعذّبهم اللّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين﴾[٢].

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾[٣].

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من اللّه فأتاهم اللّه من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أُولي الأبصار﴾[٤].

﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾[٥].

﴿وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتىٰ يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾[٦].

﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه للّه فإن انتهوا فلا عدوان إلّا

---

(١) النساء: ٧٦.

(٢) التوبة: ١٤.

(٣) التوبة: ٢٩.

(٤) الحشر: ٢.

(٥) الأحزاب: ٢٦.

(٦) البقرة: ١٩٠ ـ ١٩١.

علىٰ الظالمين﴾[١].

﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه للّه فإن انتهوا فإنّ اللّه بما يعملون بصير﴾[٢].

﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أنّ اللّه مع المتقين﴾[٣].

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غِلظة واعلموا أن اللّه مع المتقين﴾[٤].

شبهة ورد:

وبعد هذا الاستعراض السريع للرؤية القرآنية في الموقف من أعداء الإسلام، نجد لزاماً علينا أن ندفع مداخلةً طالما أُدّعيت علىٰ الإسلام ورسوله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من قبل أعدائهم، تلك هي فرية أن الإسلام لم يُنشر علىٰ عهد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم والعهود التي تلته إلّا بالقوة والسيف، فدعوة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذن قائمة علىٰ الإرهاب والتسلط. وقد أخذت هذه الفرية كيفيات وصيغاً مختلفة لتتناسب ومراحل مواجهة الكفر وكيد أئمّته وقواه الغاشمة للإسلام والمسلمين.

وفي مقدّمة من نظّر لهذه الشبهة وتمحّل ادعاءها هم الحاقدون من رجال الاستشراق ودعاة الصليبية، ولعلهم بذلك أرادوا أن يبرّروا محاكم تفتيشهم الدموية بعد سقوط الأندلس بأيديهم، ويدفعوا عنهم أصوات الإنكار علىٰ حروبهم الصليبية التي أهلكوا فيها الحرث والنسل، وأفنوا أجيالاً من المسلمين

---

(١) البقرة: ١٩٣.

(٢) الأنفال: ٣٩.

(٣) التوبة: ٣٦.

(٤) التوبة: ١٢٣.

الأبرياء طيلة قرون متمادية.

إلّا أنّ الأهم في استهدافهم من إثارة هذه الشبهة هو الحطّ من قيمة الإسلام وعقائده، وقدرته علىٰ إثبات أحقيّته المطلقة وهيمنته علىٰ الأديان كلها، وتهافت جميع الأطروحات الوضعية أمامه بالحجة البالغة والدليل الحاسم. وهم يعرفون حق المعرفة أن الإسلام بسموّ مبانيه وتكامل تشريعاته مَلَكَ العقول، وتألقت بعشقه القلوب واستسلمت النفوس لبياناته المشرقة بالحق.

وهذه المسألة ينبغي تناولها بالنظر إلى المباني والعمل علىٰ رفع الستار عن دعواهم الباطلة هذه؛ حتىٰ يرىٰ طالب الحق أنها كسراب بقيعة، إذا جاءه الضمآن لم يجده شيئاً.

وفي معرض ردّ هذه الشبهة يجب ابتداءاً أن نشير إلى أصول عقلائية وعقلية هي المدخل المنطقي لبيان موقف الإسلام من القوة في نشر دعوته وإعلاء كلمته وهي:

١ ـ إن الإسلام مأخوذ في مبانيه الأساسية توجيه الخطاب للبشرية جمعاء، ودعوتهم إلى عقائده وتشريعاته التي يرىٰ بالدليل والحجة أنها تضمن لهم العدل والسعادة؛ بدلالة قوله تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿**وما أرسلناك إلّا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿**وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين**﴾[2]. وغيرها من الآيات الكريمة.

بل يؤكد حتمية ظهوره بالهدىٰ والحق اللازم للحجة والبرهان في قوله تعالىٰ: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كلّه ولو**

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

كره المشركون﴾[١].

ولكونه فرقاناً بين الحق والباطل قائماً بالملازمة علىٰ الدليل والبرهان في قوله سبحانه: **﴿تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾**[٢].

وهذا أمر يلتزم العقلاء بلوازمه، وفي مقدّمتها حق العمل لنشر دعوته هذه في الناس، وإقامة سلطته علىٰ من أعلن إسلامه وإيمانه به، وهذا مختلف تماماً عن مفهوم الاستعمار الذي يعني تسلّط قوم علىٰ قوم بوازع عرقي، أو فئة علىٰ أخرىٰ بوازع الغلبة السياسية أو التفوق الاقتصادي والاجتماعي.

فإقامة سلطة الإسلام علىٰ مَن قَبِلَ به يعني تسلط مبادئ الإسلام وقوانينه وتشريعاته التي أنزلها اللّٰه، وأرسل رسله بها للناس علىٰ اختلاف أجناسهم وأقطارهم وأزمانهم وطبائعهم، تحقيقاً لمصالح البشرية في، إقامة الحق والعدل، ودرءاً للمفاسد عنها بإزهاق الباطل وإزالة الظلم.

٢ ـ إنّ أيّ حق يحكم به العقل ويذعن له العقلاء يتفرّع عليه حق المطالبة به،وإزالة الموانع والعقبات التي تقف في طريق تحقيقه، بل استخدام الوسائل الكفيلة لإحقاقه. فنشر الإسلام والدعوة إليه حق باعتباره دعوة عالمية وخطاباً لكل البشرية في كل مكان وزمان، وهو المفروض أولاً، وعليه تترتب كل لوازمه التي تضمن القيام به كما قلنا.

وتأسيساً علىٰ هذا الأصل العقلائي نجد ما يلي:

أولاً: إن آيات الحثّ علىٰ القتال في القرآن الكريم ـ وكما نُقّح في محله[٣] ـ لا دلالة فيها إطلاقاً علىٰ تشريع القتال لتحميل العقيدة الإسلامية محضاً.

---

(١) التوبة: ٣٣، والصف: ٩.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) راجع الحائري: السيد كاظم ـ كتاب الكفاح المسلّح في الإسلام: (٢٣ ـ ٦٤).

وإنها منحصرة في موارد الحرب الدفاعية وما في حكمها من الحروب التي تسمّىٰ بالوقائية، أو التي تستهدف إزالة الموانع والعقبات التي تقف في طريق نشر الدعوة الإسلامية، وتحرير الناس من الطاغوت وأسر الأوهام الباطلة، بقرينة دفع الفتنة كغاية تشير إليها بعض الآيات الكريمة، وإحباط خطط الأعداء المتربصين بالدعوة الإسلامية للقضاء عليها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين * وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه للّٰه فإن انتهوا فإن اللّٰه بما يعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن اللّٰه مولاكم نِعمَ المولىٰ ونِعمَ النصير**﴾[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وقاتلوا في سبيل اللّٰه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّٰه لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتىٰ يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن اللّٰه غفورٌ رحيم * وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدين للّٰه فإن انتهوا فلا عدوان إلّا علىٰ الظالمين**﴾[(٢)].

ثانياً: كما نجد أن التجربة الإسلامية الكبرىٰ التي قادها رسول اللّٰه ﷺ قد انطلقت من أفق هذه الأصول وحدود مفادها، فنجد هذه التجربة الإسلامية الرائدة تحكي لنا هذه الأصول فيما يلي:

أ ـ إن جميع معارك وغزوات رسول اللّٰه ﷺ ـ كما نقّح في محله[(٣)] ـ لم تكن في مبدئها وهدفها تحميل العقيدة الإسلامية بالقوة.

---

(١) الانفال: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣.

(٣) راجع الحائري: السيد كاظم ـ كتاب الكفاح المسلح في الإسلام.

ب ـ موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام من غزوات حكّام الخلافة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث إنها محكومة بمبدأ أساسي، أعلنه رسول الله صلى الله عليه وآله وأكّده أئمّة أهل البيت عليهم السلام من بعده، وهو أن الجهاد مشروط بقيادة أو إذن الإمام المعصوم أو العادل؛ ضماناً لتحقيق صورته الشرعية وهدفه الرسالي المنشود بدلالة روايات عديدة منها:

عن الإمام الرضا عليه السلام في كتابه إلى المأمون: «**والجهاد واجب مع الإمام العادل**»[1].

وعن الإمام أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال أميرالمؤمنين عليه السلام: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يُؤمَن علىٰ الحكم ولا يُنفذ في الفيء أمر الله عزّوجل، فإنه إن مات في ذلك المكان كان معيناً لعدوّنا في حبس حقّنا والإشاطة بدمائنا وميتته ميتة جاهلية**»[2]. وغيرها من الروايات.

بل نجد أن أئمّة أهل البيت عليهم السلام خصوصاً في عهد حكّام الخلافتين الأموية والعباسية يحرّمون خوض الحروب والغزوات لبلاد الكفر والشرك تحت لوائهم، لأن الأصل في حروبهم وغزواتهم هذه هو توسيع رقعة خلافتهم المنحرفة وبسط سلطانهم الباطل، وعليه لا يمكن تحميل هذه الحروب والغزوات علىٰ الإسلام والأئمّة من أهل بيت نبيّه صلى الله عليه وآله. وما ورد عنهم من ترخيص في هذا السبيل منحصر أمره بحفظ ثغور المسلمين، وبحدّ الدفاع المحض عن بلاد الإسلام وبيضته من كيد الكفار والمشركين المتربصين بالإسلام والمسلمين.

وفي روايات كثيرة تصريح بذلك منها: ما في خبر يونس بسند صحيح قال:

---

(١) الوسائل ١١: ١١، الباب ١ من أبواب جهاد العدو، ح ٢٤.

(٢) الوسائل ١١: ٣٤، الباب ١٢ من أبواب جهاد العدو، ح ٨.

«سأل أبا الحسنعليه السلام رجل وأنا حاضر، فقال له: جعلت فداك، إنّ رجلاً من مواليك بلغه أن رجلاً يعطي سيفاً وقوساً في سبيل اللّٰه، فأتاه فأخذهما منه وهو جاهل بوجه السبيل، ثم لقيه أصحابه فأخبروه أنّ السبيل مع هؤلاء لا يجوز (يعني خلفاء بني العباس)، وأَمَرَه بردّهما. قال: **فليفعل**. قال: قد طلب الرجل فلم يجده وقيل له قد قضىٰ الرجل. قال: **فليرابط ولا يقاتل**. قال: مثل قزوين وعسقلان والديلم وما أشبه هذه الثغور؟ فقال: **نعم**. قال: فإن جاء العدو إلى الموضع الذي هو فيه مرابط كيف يصنع؟ قال: **يقاتل عن بيضة الإسلام**. قال: يجاهد؟ قال: **لا إلّا أن يخاف علىٰ دار المسلمين**. أرأيتك لو أن الروم دخلوا علىٰ المسلمين لم ينبغ لهم أن يمنعوهم؟ قال: **يرابط ولا يقاتل، وإن خاف علىٰ بيضة الإسلام والمسلمين قاتل فيكون لنفسه ليس للسلطان، لأن في دروس الإسلام دروس ذكر محمد**صلى الله عليه وآله»(١).

وقد نستثني بعض الحروب والغزوات التي وقعت أيام الخلفاء الثلاثة الأوائل بعد رسول اللّٰهصلى الله عليه وآله، والتي يستشعر فيها تأييد أو رضا الإمام عليعليه السلام عليها، أو أنها شارك فيها الإمام الحسنعليه السلام، والإمام الحسينعليه السلام ـ إن صحّ ما نقلته كتب التاريخ ـ وهي على الأرجح تُحمل غالباً علىٰ حروب الدفاع الوقائية، وعلىٰ أساس مبدأ إسقاط حكم الطاغوت وتحرير الناس من استعبادهم وطغيانهم؛ ليتمتّعوا بحرية الإسلام، وينفتحوا علىٰ حقائقه وأنوار هدايته. وهكذا فهي لا تخرج عن حدود الحقوق العقلائية والعقلية كحق رفع الموانع التي تحول بين الناس وبين إدراكهم لحقيقة الدعوة الإسلامية ومبانيها الحقة.

---

(١) الوسائل ١١: ١٩، الباب ٦ من أبواب جهاد العدو، ح ٢.

ثالثاً: إن الأصل في الدعوة الإسلامية هي انتهاج سبيل الحكمة والموعظة الحسنة بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿**أُدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربّك هو أعلم بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾[١]. بل لا يجوز في الشريعة الإسلامية البدء بالقتال إلّا بعد عرض الإسلام علىٰ العدو وإن كان غازياً، فإن قَبِلَ به بإعلان الشهادتين حقنت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، وهو في واقعه طلب التسليم لسلطة الإسلام العادلة في مقابل سلطة الطاغوت، ولهذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هم أبرز مصداق لهذا النهج في نشر الدعوة الإسلامية.

وقد بلغوا الكمال في الحجّة والبيان رغم كل ما تعرضوا له من اضطهاد وتشريد، ولم تكن معارك وغزوات رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله رغم كونها دفاعية أو وقائية أو ابتدائية إلّا بعد أن أتمّ الحجّة وأسقط العذر في البلاغ. وعلىٰ هذا النهج كانت رسائل الرسول صلى الله عليه وآله إلى ملوك ورؤساء الأمم الأخرىٰ[٢] والتي دعاهم فيها إلى الإسلام.

رابعاً: إن الحكم الشرعي الإسلامي بتخيير أهل الكتاب بين قبول الإسلام، أو دفع الجزية كضريبة مقابل تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية لهم، تعبير آخر علىٰ عدم اعتماد الإسلام مبدأ استخدام القوة في تحميل العقيدة الإسلامية؛ إذ لو كان الهدف من استخدام القوة تحميل الإسلام عليهم؛ لما كان هناك خيار يتضمن بقاءهم علىٰ دينهم.

خامساً: هناك فرق في سعة وقوة التأثير، وتنوع أساليب نشر الدعوة

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) راجع المقدادي: الشيخ فؤاد كاظم ـ كتاب أهل البيت (ع) ومصلحة الإسلام العليا: ٣١٢ ـ ٣١٤.

الإسلامية بين حالتي قوة المسلمين وسلطتهم، وبين ضعفهم وعدم سلطتهم.

وامتلاكهم للقوة والسلطة لا يعني أبداً استخداماً للقوة في نشر الدعوة وتبليغها خارج دائرة الأصول العقلائية التي أشرنا لها. إذ أنّ الحرية الإنسانية والعدالة الإلهية تتحققان بأفضل صورهما في ظرف سلطة الإسلام واقتداره، حيث يصبح الناس وجهاً لوجه أمام حقائق الإسلام وفرقانه المطلق، بلا إرهاب ولا موانع ولا أوهام، فتنفتح عقولهم وتشرق نفوسهم بنور الإسلام وهديه، وهو ما لا يتحقق في ظرف اقتدار الطواغيب، وانبساط سلطانهم وانحسار سلطة الإسلام أو غيابها؛ لاتكائهم علىٰ القوة والقهر في سياسة الناس واستعبادهم وإخراجهم من النور إلى الظلمات كما هي طبيعتهم وقوامهم، وكما هي سيرتهم عبر التاريخ طرّاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله عزّوجل: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾[1]. وهذا هو الملاك الذي يكمن في حكمة بسط سلطان الإسلام، وتمكين عدله في الناس؛ تحقيقاً للطف الإلهي في هداية الناس للحق ورشدهم وكمالهم علىٰ صراطه. وهو مضافاً إلى ذلك حق بلحاظ كونه لازماً عقلياً للدعوة العالمية المشار إليه في الأصل الثاني القاضي بإزالة جميع الموانع والعقبات التي تحول بين الناس، ووعي الدعوة وبيانها بكامل الحرية والاختيار، وهذا ما لا يتحقق في ظلّ سلطة الطاغوت وهيمنته.

❊ ❊ ❊

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

الفَصلُ الأَوّلُ

رؤية رساليّة لقضايا معاصرة

رسالتنا
بين الأهداف والوسائل

لو استقرأنا عالم الفكر لوجدنا أن الفكر نوعان: فكر لا تجد حقيقته، ولا تفقه جوهره إلّا بحركته الشاملة والعميقة في الواقع ـ واقع الإنسان والكون والحياة ـ وفكر آخر يأبىٰ أن يتفاعل في الواقع، وحركته لا ترى لها وجوداً إلّا في بطون الكتب المتراكمة وخيال المتفكرين وألسنتهم المتمنطقة به، مثله كمثل سراب كلّما اقتربت منه علىٰ أرض الواقع تلاشى وانتهىٰ.

والفكر الإسلامي هو من النوع الأول من الفكر (وهو الفكر الواقعي) يعاني في مسيرته الموضوعية علىٰ يد حملته صراعاً في انتهاج أحد سبيلين:

فهو إما أن يبقىٰ فكراً مجرّداً محاطاً بهالة من الذاتية، لا يترجم إلى الواقع العملي كمفردة من مفردات حركة الأمة، فيبقىٰ بذلك كالفكر الترفي، يحتفظ بإناقته وجماله المسطور بعيداً عن إثبات الحقيقة علىٰ محجّة الواقع البيضاء، بما تحتويه من نقد بنّاء ومحاكمة عقلية ميدانية، وهذا السبيل يكرّس ظلماً للفكر الإسلامي عن إثبات سلامته علىٰ ساحة التطبيق ، ويبتعد به عن حقيّته أشواطاً ، وبذلك تفقد الأمة والأجيال حقّها في نقل الأمانة إليها سليمة ناصعة.

وإما أن ينتهج السبيل الآخر ـ سبيل الحق والأمانة ـ وهو الذي يرىٰ الفكر الإسلامي حركة فاعلة حيّة، يحمل معه كل مبررات البقاء أولاً، ومبررات التحرك والتطور وملاءمة الظروف المختلفة ثانياً، وفي مثل هذه الحالة، وهو

يحاول فرض نفسه علىٰ الواقع، لابدّ له أن يصارع العقبات الكبيرة التي تحاول تحجيمه وتذويبه إلى حد التلاشي، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الفكر ـ الفكر الإسلامي ـ لابدّ له من علماء رساليين ومفكرين أمناء، يجدّدون حيويته ويترجمون أصالته، ويتحركون به دوماً إلى أمام، متحدين تخرصات الجهلة والخصوم ، متحمّلين قسوة الظروف ومتغيراتها، ومستوعبين تحولات العصر ومستجداته. كما لابدّ لهؤلاء الرساليين من وسائل وأساليب تتماشى مع متطلبات الظروف والعصر ، لترجمة هذا الفكر بكل اقتدار إلى واقع موضوعي ملموس، يتناغم مع المسار الواضح الذي يوصل إلى الهدف الاسلامي؛ بعيداً عن الانحراف والزيغ. وهذا ما تتحمل مسؤوليته اليوم بأمانة وكفاءة الحوزات العلمية الكبرىٰ لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، ومرجعيتها الإسلامية العليا، وأجهزتها الرشيدة، فهي بحق حصن الإسلام الحصين، ومنار الحق والأصالة لرسالة محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ومسألة أخرىٰ هي أن بين الأساليب والأهداف يتشعب العاملون للإسلام، وتختلف المناهج، فكثيراً ما يعمي حب الوصول السريع إلى الهدف الإسلامي أعيُن العاملين للإسلام، فيتوسلون بكل الوسائل للوصول إليه حتى لو كانت هذه تطعن الهدف الإسلامي في العمق، بينما يصرُّ الآخرون علىٰ أن تبقىٰ وسائلهم طاهرة كأهدافهم، سليمة كغاياتهم، وكأن استعمال الوسيلة السليمة التي تتحرك في إطار الهدف الإسلامي، هدف بحد ذاته، بغض النظر عمّا ستكون عليه نتائج هذه الوسيلة، سلباً أم إيجاباً، وربما يعيش المسلم الرسالي الهادف صراعاً في داخله بين مغريات الوصول العاجل للهدف الإسلامي بكل الوسائل المتاحة، وبين التحرك في دائرة الهدف الإسلامي واستعمال الوسائل المباحة فقط. يقول اللّٰه تعالىٰ في بيان هذه الحالة: **﴿قل لا يستوي الخبيث**

والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا اللّه يا أُولي الألباب﴾[1]. فلا هَمُّ الوصول إلى الهدف الإسلامي يلغي دور الوسيلة ونزاهتها، ولا التحجر علىٰ وسائل معيّنة يبرّر التخلف عن تحقيق الأهداف الإسلامية المنشودة، بل لابد من الوسيلة السليمة والأصيلة المتطورة، والتحرك بخطى ثابتة إلى الهدف الإسلامي. ومن المهم جداً أن يبقىٰ الهدف الإسلامي قائماً بطهره ونقائه أمام أنظار العاملين الإسلاميين ، وهم يتجهون إليه في مسيرتهم.

ولابد للعاملين الإسلاميين من معرفة أربعة أركان أساسية حين تحركهم الرسالي للتغيير الإسلامي، وهي:

١ ـ الواقع الموضوعي الذي يراد التحرك فيه، ورسم المناهج علىٰ صعيده.

٢ ـ الهدف الإسلامي الذي يراد نقل الواقع له، أو ترجمته الىٰ الواقع.

٣ ـ الخط الواصل بين الواقع والهدف الإسلامي، والطريق الذي لابد للعاملين من المرور عبره في رحلتهم التغييرية.

٤ ـ البنية الذاتية لوسائل وأساليب العمل التغييري.

ومن خلال الفهم الواعي والدقيق لهذه الركائز الأربع، يستطيع المسلم الرسالي أن يضع أولىٰ خطاه علىٰ طريق التغيير الإسلامي، ويستطيع الرسالي أن يتحرك بنجاح لنقل الفكر الإسلامي إلى واقعه الجديد. ومن خلال العمل الرسالي للإسلام يكتشف المسلم مواقع القوة في فكره، ليسلّطها علىٰ مواقع الضعف في الواقع ، ويكتشف مواقع القوة في الواقع ليعزّزها، بما يحملهُ الفكر الإسلامي من فهم جديد ونظرة عامة عن الكون والإنسان والحياة.

وليس العمل الرسالي للإسلام تحوير آراء، ولا تعويم مواقف، ولا إتقان فنّ جدل بيزنطي عقيم، بقدر ماهو توضيح المفاهيم وربطها بالواقع، والأخذ بيد

---

(١) المائدة: ١٠٠.

الأمة والسير بها علىٰ النهج الذي يوصل للهدف الإسلامي المنشود.

وقد قيل لأبي عبد اللّٰه عليه السلام: «ما العقل؟ قال، **ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان.** قيل: فالذي كان في معاوية ؟ قال: **تلك النكراء، تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل**»(١).

وفي هذا إشارة الى أن العمل الرسالي للإسلام هو مجموعة أساليب ووسائل، باستطاعة الإنسان أن يجعلها صفة تحمل كل أبعاد الشيطنة والسلبية، إذا ما جرّدها عن إطارها الرباني: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتبعهُ الشيطانُ فكان من الغاوين**﴾(٢)، وباستطاعته كذلك أن يسيّر هذه الأساليب والوسائل في طريق اللّٰه، فتكون إيجابية النتائج، وتقترب من الأهداف الاسلامية بخطىٰ ثابتة وسريعة، فتذلّل بذلك كلّ العقبات التي يفرضها الواقع: ﴿**ومن يتق اللّٰه يجعل له مخرجاً**﴾(٣).

وبين هذه النظرة الربانية وتلك الشيطانية، يفرز الواقع الإسلامي حالات اللاثبات المرَضيّة عند البعض، فيبقىٰ موقفه هو اللاموقف: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يُضلل اللّٰه فلن تَجد له سبيلاً**﴾(٤).

ويستمر الصراع بين الخطين، في حين يبقىٰ الثالث منتظراً ليميل مع الأقوىٰ في أيّ موقع كان، فانتصار لهذا هنا، واندحار لذاك هناك: ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلمَ اللّٰهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداءَ واللّٰهُ لا يُحبُّ الظالمين**﴾(٥).

---

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي ٦: ١٣.

(٢) الأعراف: ١٧٥.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) النساء: ١٤٣.

(٥) آل عمران ١٤٠.

وعبر مسار الصراع الطويل يبقىٰ الأسلوب المرتبط بالفكر الإسلامي الأصيل هو الأمثل، ويبقىٰ العمل الرسالي للإسلام المرتبط بالخُلق الرباني هو الأسمىٰ.

ومن هنا كان لابد لنا ألّا نكتفي بإيضاح معالم الفكر الإسلامي الأصيل هذا، بل كان من مسؤوليتنا أيضاً إيضاح الخطوط الفكرية، التي تؤثّر في مجرىٰ الواقع ومتغيراته في داريه العالميتين، دار الإسلام ودار الكفر، التي كثيراً ما تتحرك بنفس المساحة التي يتحرك بها العمل الرسالي الإسلامي، لكي تكتمل صورة التحرك الآني للمسلم المعاصر، انطلاقاً من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**العارف بزمانه لا تلتبس عليه اللوابس**»[١].

❊ ❊ ❊

(١) نهج البلاغة.

رسالتنا
بين النظرية والتطبيق

المشهور أن أول ما خوطب به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قرآناً مبيناً ووحياً إلهياً هي الآيات الكريمة: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1] ولعلّ الحكمة في ذلك أن هذه الآيات الكريمة تدعو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وكل إنسان سوي إلى التفكر وقراءة الكون والحياة والإنسان ومعرفة مبدئها ومسارها ومآلها. حيث لا يختلف اثنان في أن الإنسان جُبل علىٰ التفكير، وخُلق منطقياً بالطبع في أول خطواته، في هذه الحياة الدنيا، ينطلق من رحاب الفطرة السليمة، فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها، وتبدأ نفسه بالصيرورة والتكون، إلّا أنه ومنذ البداية تبرز في طريقه مخاطر الانحراف. ونحن هنا لا نريد أن نخوض ببحوثنا هذه في مسارات حياة بني الإنسان سمواً وانحطاطاً، ونغور في أسباب الانحراف يميناً أو شمالاً، فلهذا حديث آخر؛ إنّما الذي نريد أن نشير إليه هو أن عملية التفكير، لو قدّر لها أن تكون سليمة ومنطقية؛ فليس بالضرورة أن الترجمة العملية لها في ساحة الواقع ستكون علىٰ الدوام سليمة وصحيحة. صحيح أن المفكّر يُفترض فيه عندما يبلور فكرته ويرسم خطىٰ مسيرته أن يأخذ بنظر الاعتبار الأركان الأساسية لأية عملية تفكير وتخطيط سليمة؛ فيحدّد الهدف

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

بوضوح أولاً، ويقرر ما لابد منه للبداية بالمسير نحو الهدف المحدد ثانياً، ولا يغفل ثالثاً عن تشخيص مراحل المسير وأبعاده، وما تتطلبه من عوامل وضوابط، وما تعرض عليه مسيرته من سنحات وأحوال، وما سيعترض طريقه من موانع وعقبات، وكيف السبيل إلى تذليلها وأجتيازها؟ كل هذا لو افترضنا حصوله في الذهن أو سُطِّر علىٰ القرطاس، ولكن الصعب العسير أن يكون ـ كلّ هذا ـ علىٰ أرض الواقع ممارسة متكاملة، وحركة فعّالة مستقيمة بـاتجاه الهدف، فكم من نظريات وأفكار، ومشاريع وخطط بقيت حبيسة في بطون الكتب، تراكم عليها التراب، واندرست في أعماق أرشيف التاريخ القديم.

وقد تحصل البداية، ويُشرَعُ في الحركة علىٰ أرض الواقع؛ ولكن لا تلبث هذه الحركة أن تقف لوعورة الطريق، ووخز الأشواك ، فيكبو حصانها، وتنهار العزائم، وينفذ الصبر عن مواصلة المسير.

ولو قدّر لهذه المسيرة أن تستمر، ولهذه الحركة أن تدوم، فهل حتماً سنظفر بمرامنا، ونصل إلى هدفنا بسلامة واستقامة؟ لا غرابة إذا كان جوابنا سلبياً، ولعلّ السِّر في ذلك، هو أن هناك ما يجب حسابه في مقومات المسيرة حساباً جوهرياً، ولا يمكن الاستغناء عنه في أيّة خطوة من خطواتها، وفي أيّة مرحلة من مراحلها، ولعلّهُ يضاهي الصبر والاستمرار في المسيرة، بل يتقدم عليه رتبة في الأهمية والقيمة، ذلك هو الحضور الدائم، والذكر المستمر للهدف ـ بكل حقيقته الناصعة وحدوده الواضحة ـ في وجدان السائرين، وفي ضمير السالكين، ألا تلاحظ البنّاء أو المهندس الذي يريد أن يُشيّد داراً، أو يعبّد طريقاً، لو أغفل هدفه وفقد حضوره الذهني للخارطة، تعرّض بناؤه للانحراف وفقد الاستقامة، ولو حصل ذلك بمقدار ضئيل لتضاعف عند النهاية، ولانهار ذلك البناء؟ فما دام الهدف حاضراً بوضوح في أعماق وجدان العاملين، وذكره

قائماً في ضمير المؤمنين، لن يحصل لديهم الانحراف لا في العقيدة ولا في المسيرة، ويمكنهم ـ حال سيرهم نحو أهدافهم ـ أن يضعوا أصابعهم، بكل وضوح واطمئنان، علىٰ الخلل في المسيرة، ما هو وأين يكمن؟ وما هي أسبابه؟

ومن هنا يتضح لنا قول الحكماء: أن شروط قيام ونجاح أية حركة حضارية رائدة في المجتمع هي:

* وجود النظرية السليمة الصالحة للتطبيق.
* الإيمان الراسخ بها.
* التطبيق الصالح لها.
* الاستقامة عليها بالحضور الدائم لها وعدم الغفلة عنها.
* الاستمرار بالمسيرة، والصبر عليها حتىٰ النهاية.

وهذا يعني أن من الشروط الأساسية لاستقامة أية مسيرة ودوامها باتجاه أهدافها هي: المراقبة والنقد، والتسديد والترشيد، والتواصي بالصبر، فيما بين رجالها، رجال المسيرة الواحدة، والطريق الواحد، ولا يمكن لفرد، مهما أوتي من قُدرات ـ إلّا من تلطف اللّٰه عليهم بالعصمة من الأنبياء والأوصياء ـ أن ينهض بأعباء المهمة منفرداً، وهكذا هي سنّة اللّٰه في خلقه:

*(**بسم اللّٰه الرحمن الرحيم**)*

﴿**والعصر**﴾، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم!

﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾، تلك حقيقة ثابتة بحق كل فرد من بني الإنسان.

﴿**إلّا الذين آمنوا**﴾، استثناء، ولكنه لجماعة بني الإنسان، بما هم جماعة وعصبة مؤمنة باللّٰه ورسله ورسالاته، وهذا أول شروط الاستثناء.

﴿**وعملوا الصالحات**﴾، تطبيقاً لما آمنوا به وتصديقاً له، وهو الشرط الثاني.

﴿وتواصوا بالحق﴾، الذي آمنوا به، فبالتواصي بالحق تُضمن استقامة المسيرة، ولا يتم ذلك إلّا بالعصبة أولي القوة، التي يشدّ بعضها أزر بعض، ويثبّت بعضها البعض الآخر، بذكر الحق وقول الصدق، وهذا هو الشرط الثالث.

﴿وتواصوا بالصبر﴾[1]، علىٰ ما يعانونه من محنة المسيرة، وبه ـ بالتواصي بالصبر ـ تضمن مواصلة المسيرة ويتم الشرط الأخير.

تلك هي شروط المسيرة الصالحة، وبها يصل السائرون إلى النصر والفوز المبين.

وتتميز مسيرتنا الإسلامية بأنها تسير نحو الكمال المطلق، ومن ضروراتها الاستقامة التامة، والحفظ الدائم من الانحراف كنظرية وهدف، وكحركة وسلوك، تحقيقاً للحجة البالغة علىٰ الناس، ولطفاً بهم، ولا يتأتىٰ ذلك إلّا بتوفير عامل جوهري من فيض الهدف المطلق، يُصطفىٰ حافظاً للرسالة، ورقيباً علىٰ المسيرة، وقيّماً علىٰ السائرين نحو اللّٰه تبارك وتعالىٰ، وهو حجة اللّٰه في الخلق.

ومن هذا ندرك لماذا جعل اللّٰه تعالىٰ آدم عليه السلام أول إنسان خلقه نبياً بالضرورة؟ فذلك لضرورة العصمة تحقيقاً للحجة البالغة للّٰه علىٰ خلقه .

ومن هذا القانون الإلهي نستوحي الحقيقة العقلية الناصعة، من المقولة الشريفة: (**إن الأرض لا تخلو من حجة**)[2]، حجّة لها قيمومة رسالية علىٰ المسيرة، بما تملك من علم اليقين وعينه، وسمو الإيمان وعمقه، وبما تتحلىٰ من استقامة وصبر في المسير، ووضوحٍ وحفظٍ للهدف، (لو كشف لها الغطاء ما ازدادت يقيناً)، ذالكم هم أنبياء اللّٰه ورسله، والأوصياء الأمناء من بعدهم.

---

(١) العصر: ١ ـ ٣.

(٢) رسائل في الغيبة للمفيد: ١٥/٢، الاحتجاج: ٧٨/٢.

وبنفس الملاك، مع اختلاف في الرتبة والدرجة، تكون القيمومة والولاية للفقهاء الربانيين، والعلماء المجاهدين، أولئك الذين وصلوا إلى مشارف اليقين الرباني، وسُقوا كأس المعرفة الإلهية، واعتركوا مع نفوسهم بالجهاد فانتصروا؛ فكانوا في ساحات الوغىٰ أعظم وأقدر.

❊ ❊ ❊

مسيرتنا الرسالية بين الثبات والتغيّر

في خضم مسيرتنا الرسالية نعيش صراعاً مريراً، محوره الأساس هو الصراع بين الثبات والتغير، وهو صراع ممتدّ بامتداد ما تحمل الكلمات من معانٍ كثيرة، وقد تكبر ساحة الصراع بينهما فتشمل الإنسان وحضارته وآثاره، كما أن التحدي بينهما قد يصل إلى حد كبير وشرس لا يحتويه حتىٰ وعاء الكلمات ذاتها.

فالثبات يعني أحياناً الأصالة والانتماء والاستقرار، وهذا هو الجانب الإيجابي الحي من هذه الكلمة، ويعني أحياناً أخرىٰ المحافظة علىٰ الأجواء الميتة، ورفض قيم التقدم والتحرر من أغلال العبودية والاستغلال، وهذا هو الجانب السلبي بكل أبعاده.

والتغير يعني أحياناً التحول نحو الأحسن، ورفض التحجر والجمود في وعي المفاهيم والرؤىٰ والمناهج والوسائل، كما يعني احياناً أخرىٰ القلق وعدم الاستقرار، والهدم والفوضىٰ.

وبين هذا وذاك (الثبات والتغير) يتطرف من يتطرف إلى أقصىٰ اليسار، والبعض الآخر إلى أقصىٰ اليمين.

وتبقىٰ كل الحقائق سالكة المسافة الشاسعة بينهما، إذ لا تناقض في منطق الحقيقة بين الثبات والتغير، فالثبات الرسالي يعني الأصالة، والانتماء الواعي للقيم الحقّة، والرجوع للمفاهيم المتحركة الحية الناصعة، ويعني إستيعاب حركة

التاريخ وأحداثه ومواقفه، ورصد كل المتغيرات لمعرفة موقع الفكرة وحدودها، ونقاط الالتقاء مع الفِكَرِ الأخرىٰ، ونقاط الافتراق معها، ويعني كذلك تحول الفكرة عبر ممّرِ الإنسان إلى كائن حي يتحرك علىٰ الصراط المستقيم.

والتغيّر الرسالي يعني حالة الثورة الدفّاقة لتعبئة الآراء والمواقف باتجاه الصراط المستقيم، ويعني ديمومة الرفض الإيجابي لكل القيود والأغلال التي تحاول أن تجعل الفكر مؤطّراً بأُطر سميكة من التطرف والتخلف، ويعني كذلك الانتقال من درجة معيّنة في سلّم الحياة إلى درجة أعلىٰ، ففي الوقت الذي تتفاعل فيه الفكرة مع الحياة والإنسان علىٰ مستوى معين، يكون طموح الانتقال إلى المستوىٰ الأعلىٰ، فالأعلىٰ حالة مشروعة، بل ومطلوبة لإدامة الفاعلية للفكرة والإنسان علىٰ السواء.

إذن لا تناقض بين الكلمتين، فالثبات علىٰ الصراط المستقيم لا يتنافىٰ مع التحرك عليه إلى الأمام، ففكر الإسلام وأنظمته ثابتة تستوعب المتغيرات، اصيلة تواكب التطور.

وعلىٰ أساس هذا الفهم لابد أن يكون عملنا الرسالي يتمتع بهذين العنصرين بشكل متوازن وواقعي، تجتمع فيه أصالة الماضي المبدئي، واستيعاب الحاضر الرسالي وطموح المستقبل الأمثل، لأننا نسعىٰ لكي نكون من ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾[1].

ونحن في مرحلتنا الحاضرة، حيث تتشابك السبل، وتتوسع الدوائر أو تضيق، وتتوزع الأدوار، ويتحرك المغيّرون، ويتمسك المحافظون بقيمهم التي ارتبط وجودهم بها؛ في هذه المرحلة لابد أن يستمر المسلم الرسالي عبر كل

---

(١) الزمر: ١٨.

هذا الصعاب، يتحدىٰ لكي يبقىٰ، ويرفض لكي يتقدم، ويحرّك كل الوسائل المتاحة باتجاه فكرته وقيمه، ويستفيد من مواقع قوّته وضعفه، فهو ينمّي مواطن القوة في شخصيته ومجتمعه، ويصحح مواطن الخطأ، بعيداً عن الخوض في أوحال الذات والنرجسية، وبعيداً أيضاً عن ضحالة اللامبالاة.

فالقائد العسكري مثلاً مهما كان مجرّباً ومحنّكاً، لا يستطيع أن ينتصر علىٰ خصمه ما لم يُحط بساحة المعركة خبراً، وما لم يعرف طبيعة خصمه وطريقة مناوراته، وجغرافية الأرض ومواقع الدفاع والهجوم، ويحيط بكل مفردات عدوّه كما يحيط بمفردات قواته وتحصيناتها. واليوم عندما يتحرك الرسالي المسلم في عالم يعيش معه ويتفاعل معه، ويؤثّر فيه ويتأثر به؛ لابد له من أن يفهم مفردات الساحة الفكرية والاجتماعية ومتغيراتها، وأن يتسع أُفقه الثقافي باتساع أُفقها؛ لكي يستوعب الأفكار والأحداث، ويحدّد المواقف ويتفهم القضايا، كما أنه لابد أن يجيد استعمال أدوات التحرك؛ ليحدّد مواقع خُطاه، ويحصي تطوره وتقهقره.

وفي كل يوم تتفاعل عشرات الأطروحات الفكرية، والأحداث الاجتماعية الكبيرة والصغيرة علىٰ شتىٰ المستويات، لتلقي بشيء من ثقلها ولو بنسب مختلفة علىٰ كاهل تفكير المسلم الرسالي، الذي لابد له أن يُظهر ردَّ فعلٍ معيّن سلباً أو إيجاباً، فمن يحدّد يا ترىٰ وجهة نظره في هذا المعترك الكبير؟ إنّ وجهة النظر هذه يحددها فهم الرسالة بكل أبعادها وخصوصياتها، أي (الأصالة الفكرية)؛ بل وطريقة التفكير والتحاور، والعمل الثقافي والاجتماعي الملتزم، (الأصالة في الأسلوب). والحوار الفكري والثقافي الهادف خطوة ملتزمة في طريق العمل الرسالي للإسلام، ولابد له ـ كباقي الممارسات الرسالية ـ أن يمر بتطور في الأساليب، ويجب ألّا يبقىٰ نتاجاً متواضعاً لحوار بعض المهتمين

بالعمل الثقافي فحسب، بل يجب أن يعبّر عن مجموعة من الاهتمامات والمواضيع الفكرية والعملية الشاملة علىٰ جميع المستويات، ولا يقف عند هذا الحد، بل يتطور عبر تطور الصراع مع الكفر ومؤسساته، فيسلك نهج البحث العلمي المعمّق، وأُسلوب الاستقراء الإحصائي، والمتابعة الدقيقة لجزئيات الأحداث والمواقف المختلفة في العالم، ويهتم بتطلعات الإنسان المسلم، وبناء فكره الإسلامي بناءً أخلاقياً وفق القيم الرسالية ومتطلبات العصر، ليُساهم بجد واجتهاد في رفع الأستار عن خفايا المخطّطات الاستكبارية، الرامية إلى انتهاك كرامة الانسان المسلم وخنق أنفاسه ، وفي هذا الطريق الرسالي لابد للأيدي الإسلامية المخلصة من أن تتصافح وتتضافر لبناء صرح إسلامي شامخ. وليكن رائدها أن النقد البنّاء هو أول أسس التطور علىٰ طريق التغير، وهو جدار يمنع المسيرة من الانحراف، ويجعلها علىٰ طريق الثبات والإصالة الرسالية.

❊ ❊ ❊

الواقعية في العمل الرسالي

الواقعية في العمل الرسالي شعار طالما نادىٰ به أصحاب الرسالات والدعوات والثورات الإصلاحية في وصف رسالاتهم ودعواتهم وأطروحاتهم، ولا شك في أنها أمر عقلائي مطلوب وملح لتجنب الخوض في مجالات الخيال الواسعة والتفكير البعيد عن محيط الإنسان وما يدور حوله.

ونريد هنا أن نحدّد بعض معالم أبعاد هذا المصطلح لنكون في معزل عن الخلط العشوائي في المصطلحات أثناء التعامل الثقافي معها:

فالواقعيّة لغةً: لفظ مشتق من الواقع، والواقع نعني به: حقيقة الشيء كما هو، كحقيقة الإنسان ـ مثلاً ـ أو هو ظرف محيط اجتماعياً وفكرياً بالإنسان أو المجتمع أو الدولة وما إلى ذلك، أي سواء كانت هذه الحقيقة موضوعاً خارجياً أو ذاتياً ذا علاقة بملكات الإنسان وطبيعته الوجودية مثلاً.

ونحن هنا لا نريد أن نخوض في دراسة حقائق الأشياء - فليس ذلك ما نرمي إليه في موضوعنا هذا - بل نقتصر علىٰ الواقعية بمعناها الاجتماعي وهي المحيط والظروف الاجتماعية والثقافية في إطار الزمان والمكان.

وكثيراً ما تصبح الواقعية بمعناها الاجتماعي أثناء الانحسارات أو الإحباطات الاجتماعية والثقافية لفظة دعائية ولافتة تمويه يحملها المتصدون؛ علىٰ أن آراءهم ومناهجهم قريبة من الواقع، بل من صلب الواقع.

ولقد اختلف المفكرون في فهم معنىٰ الواقعية في بعدها الاجتماعي، والتعاطي معها تطبيقياً، حتىٰ ظهرت عدة مدارس في ذلك من خلال منظورها

الذي تعيشه هذه المدرسة أو تلك، ويمكن حصرها بما يلي:

المدرسة الاولىٰ:

وهي المدرسة التي ترىٰ أن الواقعية في بعدها الاجتماعي هي القبول بما هو الواقع فعلاً في الظرف الثقافي أو الاجتماعي أو الموروثات التأريخية، وضرورة اتخاذ المواقف ورسم سياسات العمل علىٰ أساسه، وعلىٰ ضوء الإفرازات اليومية له. أي أننا نكتفي بما يتحقق بين أيدينا من إنجازات وفق الظرف المعاش، ونخطّط آنياً ومستقبلاً تبعاً للظرف الواقعي الفعلي. وهذا الفهم للواقعيّة الاجتماعية يحمل بين طياته الكثير من حالات الانهزامية أمام تغيرات المستقبل، والخوف من المستجدات، والشعور بالتردد والضعف تجاه الوقائع والأحداث. وهذا الشعور لا يتناسب وقدرات الإنسان الخلّاقة وقيمة طاقاته المختزنة فيما يتمخض عنه من مواقف وآراء وأفكار. وهذا الفهم المشوّه للواقعيّة يسود دائماً في الأوساط الاجتماعية والثقافية التي خضعت للاستعمار بكل أشكاله، وعاشت التبعية الذليلة له ردحاً من الزمن، ثم انعتقت شكلياً، وتصدّت ميدانياً؛ علىٰ أنها تملك القرار المستقل؛ دون أن تدرك أنها لا زالت مُستعمرة نفسياً ومنهجياً، ومحاصرة في إطار التأثيرات القومية والاقليمية المحدودة، وأنها لا زالت تعيش الهزائم السابقة علىٰ صعيد العمل الاجتماعي والمواجهة الميدانية، ومن أبرز تلك الأوساط العديد من الوجودات المتصدية في العالم الثالث؛ التي عاشت هزائم متكررة عبر مسيرة صراعها مع أعدائها التقليديين. فليس غريباً أبداً ما أفرزته مؤامرة «كامب ديفيد» علىٰ صعيد التحرك السياسي العربي، وإن كانت قد جوبهت للوهلة الأولىٰ برفض مصطنع. لأن الفهم السائد عربياً هو أن مراكز قوىٰ المواجهة لإسرائيل عجزت عن تسجيل نصر أو أيّ تغيير معيّن في ميزان الواقع

السياسي، فلجأت إلى القبول بالكيان الصهيوني كأمرٍ واقع؛ لا يمكن أن يتحداه أحد، بل ولا في أن يفكر يوماً ما بعدم وجوده علىٰ ساحة الواقع. ولم تكن مؤتمرات القمة العربية المتوالية إلّا صيغ ممهدة لتقويم هذه المواقف السياسية المتخاذلة مستقبلاً. والواقع أن القائلين بهذا الفهم للواقعية يتخيلون أنها ستوفّر للدول مسلوبة الإرادة واقعاً اقتصادياً واستقراراً سياسياً يوحي بالديمومة أكثر مما توفره لهم سياسة رفض الأمر الواقع أو تحدّيه.

المدرسة الثانية:

هي المدرسة التي ترىٰ أن القبول بالأمر الواقع أمر لابد منه؛ علىٰ أن يتم التوفيق بينه وبين طموحات وأهداف نسبية، غالباً ما تطال الشكل دون المضمون. وهذا النهج هو الذي عليه حركات التغيير العلمانية عادةً، سواء كانت يسارية أو يمينية ـ إن صح التعبير ـ وملخص هذا الفهم هو: أن أصحابه يسلّمون بالأمر الواقع، ويستفيدون من مميزاته للتخطيط لمستقبل، ربما يكون جديداً في الشكل، ومعبّراً نسبياً عن الطموح. فحركة التحرير الفلسطينية ـ مثلاً ـ وافقت علىٰ مشروع الدولة الفلسطينية في نطاق الحكم الذاتي علىٰ أرض فلسطين مقارناً للدولة الصهيونية، وفي إطار سيادتها الدوليّة، وهذا المشروع يمتد في الجذور الأوليّة للمشاريع التصفوية للقضية الفلسطينية، علىٰ أساس أنها ـ أي المشاريع التصفوية ـ أمر واقع لا محالة، أي أنها تتفق حالياً علىٰ إقامة دويلة فلسطينية في ظل السيادة الصهيونية؛ علىٰ أن لا ننسىٰ أنها ستسعىٰ في المستقبل لتكون دولة مستقلة ذات سيادة، وفي موقع المنافس للدولة الصهيونية.

وهذا الفهم للواقعيّة يتبلور في سَوق الواقع ـ بدعوىٰ وجود رصيد وخزين حيوي ـ نحو المستقبل المنشود، أيّ نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة، تملك

حقها في ممارسة سيادتها علىٰ ترابها ووجودها الفلسطيني.

ويرد علىٰ هذا الفهم مؤاخذات أساسية كثيرة، من أبرزها:

١ ـ إن النتائج تتبع أخسّ المقدمات ـ كما يقولون ـ فلو نشأت دويلة فلسطينية في إطار السيادة الصهيونية؛ لفقدت هذه الدويلة هويتها الذاتية، وقدرتها علىٰ تحقيق ما تصبو إليه وإن كان ضئيلاً ونسبياً.

٢ ـ طروء تغييرات في منهاج عمل وفهم هذه الدويلة علىٰ أساس نظرية الأمر الواقع، والنتيجة هي قبولها بحالتها الفعليّة دائماً، بل والتطبّع والخضوع التدريجي للواقع الأولي الذي نشأت فيه.

٣ ـ في الوقت الذي قد تبدو فيه هذه الدويلة الفلسطينية الناشئة قويّة قادرة علىٰ الاستقلال تكون دولة الصهاينة قد قطعت أشواطاً أكبر في ميزان القوىٰ، تفوق به هذه الدويلة أضعافاً مضاعفة، وستقف دائماً أمام طموحات تلك الدويلة الفلسطينية الناشئة.

٤ ـ إنّ حالة الأمن الهشّ علىٰ الحدود سوف تكون الفتيل القابل للاشتعال في أيّ لحظة تسخن؛ لتنهي مقولة الدولة الفلسطينية المستقلة وهذا ما أثبتته عملية الاحتلال الصهيونية لمناطق السلطة الفلسطينية عام ٢٠٠٢م.

المدرسة الثالثة:

وهي المدرسة التي عليها أكثر الحركات (الراديكالية) المتطرفة. ويدّعي أصحاب هذه الاتجاه أنهم يتخذون الحديّة ـ والحديّة الصارمة فقط ـ منهجاً لتحركاتهم وسياستهم، أيّ أن الصورة النظرية التي تدين بها مثل هذه الحركات والركائز الثابتة، التي تدّعي أنها مطلقة هي المحرك الوحيد، والضابط الحدّي الدائم في اتخاذ مواقفها الحركية في جميع المجالات، بغض النظر عن جميع

الظروف والملابسات الأخرىٰ التي تحيط بها. وهذا النهج أثبت في مجال الممارسة والتطبيق أنه يصطدم بجدار يأبىٰ التناغم معها، بل ويؤدي إلى الوقوع في تناقضات متوالية عند اتخاذ القرارات، سواءً المصيرية منها أو الاستثنائية، لأنها ستجد بأن ما تؤتيه الحدّية الصارمة من ثمار، تختلف كثيراً عن حسابات الواقع الموضوعي، بل تتراجع عنه بمسافات كبيرة أحياناً. فمثل هذا النهج كالعملية الكيمياوية التي تقول: إن إضافة (الحامض) إلى (القاعدة) ينتج عنه (ملح) و (ماء)، إلّا أنّ هذه المقولة وأمثالها ـ كأي مقولة ماديّة بحتة ـ لا يمكن أن تطبّق في المجال الاجتماعي علىٰ إطلاقها، وفي جميع الظروف والمتغيرات، سواءً كانت هذه الظروف والمتغيرات، سلبية أو إيجابية. أي أننا لا نستطيع أن نجزم دائماً ـ علىٰ فرض صحة المبادئ المدّعاة ـ أن التحدي مضافاً إليه القوة الماديّة يعطي نتيجة واضحة هي النصر. أمّا لو أن أصل المبادئ والأطروحات كانت خيالاً لا يلتقي مع الطبيعة الواقعية للإنسان والمجتمع والحياة، فسيكون أمر الدعوة إليها والعمل علىٰ تغيير الواقع باتجاهها ضرباً من الجهل المركب، وعملاً في المستحيل، ويكون من باب (السالبة بانتفاء الموضوع) كما يقول المناطقة. إذ كيف يثمر السعي لتطبيق نظرية تناقض الواقع الطبيعي للإنسان والحياة؟. وقد كشفت مثل هذه النظريات خطلها في مجال التجربة الميدانية، كما هو شأن الحركات والدول التي قامت علىٰ نظام، قائل بالنظرية الماركسية المعروفة، وانتهت إلى أن ترمىٰ في مزبلة التاريخ، كالانهيار الذي حصل في تجربة الاتحاد السوفياتي السابق.

المدرسة الرابعة:

وهي المدرسة الإسلامية التي تفهم الواقع، وتتحرك معه، وتَشْرُعُ منه بلحاظ بعدين أساسيين:

البعد الأول: وهو أن مبادئها وتشريعاتها تعبّر عن حاقّ الواقع وطبيعته الأولية في نفس الإنسان والوجود والحياة، لأنها إلهيّة، واللّٰه تعالىٰ أعلم بخلقه وأخبر بما يصلحهم.

البعد الثاني: وهو أن حركتها الرسالية ـ في الوقت الذي تُشخّص الظرف الفعلي بلحاظ الزمان والمكان الذي يعيشه الإنسان، ويمرّ به المجتمع وتصفه كما هو فعلاً ـ لا تقع أسيرة له أو تتحدد بحدوده، بل تجعل منه نقطة البداية التي تَشْرُعُ منها في عملية التغيير المرحلي المتدرج نحو الهدف الرسالي، والمثل الأعلىٰ الذي تصبو إليه.

وبهذين البعدين ـ بُعد واقعية المبادئ والتشريعات، وبُعد واقعية الحركة الرسالية في التغيير والسير المرحلي المتدرج نحو التكامل والكمال يَفهم الإسلام الواقعية الرسالية، وهو بذلك يُقوّم مسيرته الرسالية وُفق هذا الفهم علىٰ ثلاث ركائز أساسية، هي:

أولاً ـ المبدئية القائمة علىٰ واقع الإنسان والوجود والحياة:

وهذه الركيزة هي السياج الحصين، والجدار العقائدي والشرعي الضخم الذي يمنع المسيرة الرسالية من الانحراف. ونعني بالمبدئية هنا: تحكيم الموازين العقائدية والشرعية الصرفة في تقويم أُصول المسيرة الرسالية للإنسان والمجتمع والحياة، وإحاطتها بنوع من الحصانة الدائمة من التخلف والانحراف عنها.

وفي ذلك جاء قوله تعالىٰ في كتابه الكريم:

﴿ومن يتق اللّٰه يجعل له مخرجاً﴾(١).

وقوله تعالىٰ أيضاً:

---

(١) الطلاق: ٢.

﴿ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه﴾(١).

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«كن موقناً تكن قوياً»(٢).

وقوله عليه السلام أيضاً:

«لا معقل أمنع من الإسلام»(٣).

أي أن عملية التقويم واستلهام المبادئ والتشريعات الإسلامية يجعل المسيرة الرسالية وتحرّكها الميداني أصيلاً في مبدئيته، وقوياً في انطلاقته، وفاعلاً في تأثيره.

ثانياً ـ الإحاطة بالظرف الموضوعي بلحاظه الزماني والمكاني، أي لحاظ الواقع الذي يحيط بالرسالة والرساليين أفراداً وجماعات، والذي له تأثير كبير علىٰ منهج حركتها، ومنطلقاتها الفكرية وأهدافها المرحلية. والابتعاد عن فهم مثل هذا الواقع وعدم تشخيص أبعاده، والإحاطة به بكلّ دقة وعمق؛ سيُدخل العمل الرسالي في متاهات، ويوقعه في مطبّات، بل ويضعه أحياناً في زاوية حرجة جداً؛ قد تؤدي أحياناً إلى حالة من الانتحار الميداني، أو المغامرة غير المحسوبة.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الحقيقة في قوله:

«العالم بزمانه لا تلتبس عليه اللوابس»(٤).

ثالثاً ـ تقديم المصلحة الاسلامية العليا: وهي أن ينظر الرسالي بمنظور

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) نهج البلاغة.

(٣) ن. م.

(٤) م. ن.

إلهي لا أرضي إلى المكاسب والنتائج المتوخاة من كل تحرك رسالي، بحيث يُحْكِمُ المسيرة الرسالية بعيداً عن الأهواء والمنافع الخاصة والآنية أو التحرك العشوائي والتخبط المرتجل. فغياب الهدف الرسالي عن الحركة يبتعد بها شيئاً فشيئاً عن المسار الحقيقي الذي رسمته الرسالة لها من قبل.

هذه الركائز الثلاث إذا تحرك الرساليون علىٰ أساسها؛ أصبحوا أكثر استقامةً علىٰ المبادئ وأكثر قرباً من الواقع وحسباناً للمستقبل، وأكثر عطاءاً للرسالة وتكاملاً علىٰ طريق أهدافها الكبرىٰ. وعند غياب إحدىٰ هذه الركائز سوف لا يمكننا الخوض في أعماق التاريخ البعيد أو القريب؛ لنفتش عن تجربة رسالية رائدة أو دور إصلاحي ثرّ، لنستنسخه ونطرحهُ حرفياً في مرحلة خاصة نعايشها فعلياً، لأن التحولات والأدوار والتجارب التأريخية يجب أن تؤخذ في إطار ظروفها وملابساتها ومقوّماتها، نعم نستفيد منها في اكتشاف السنن التاريخية المتحكّمة في حركة التغيير الرسالي.

فالواقعية في بعدها الاجتماعي هي: التحرك المبدئي في ظرف معلوم، وفي إطار مصلحة عليا معيّنة وواضحة. وبهذا يمكننا التفريق بين ماهو واقعيٌ حقاً وبين ماهو ادعاءٌ للواقعية. ولسنا دائماً نتوقع أن يكون هذا التحرك الرسالي ـ بوصفه الواقعي ـ منتجاً إنتاجاً حسّياً آنياً، فالنتائج الحسيّة الآنية ليست هي المقياس في كون هذا التحرك الرسالي واقعياً أم لا، فقد ينتج التحرك الرسالي الواقعي نتائج ظاهرة بيّنة في ظرفه، وقد لا تظهر بل تُختزن لتتوالد بالتدريج في عمود الزمان.

وأبرز مصاديق هذه الحقيقة هي سيرة رسول الإسلام الكريم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، ومن أبرزها بالذات عبر التاريخ الرسالي للسيرة المعصومة هي نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وملحمته الفدائية علىٰ أرض الطف؛

التي أصطبغت بدمائه الطاهرة ودماء أهل بيته وأصحابه الأبرار، والتي جسّدت أعظم بُعد رسالي، وظّف التضحية في ظرفها لهدف بعيد، أخذت ثمارها تينع جيلاً بعد جيلٍ، كان منها بروز الجماعة الرسالية الصالحة في محور الأمة الإسلامية؛ متمثلة بأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ حيث تمخّض جهادهم المتواصل عن رفع كلمة الإسلام، وانتشار معالمه المحمدية الأصيلة، وتوالد الثمرات الطيبة منه؛ حيث كان منها الانتصار العظيم للثورة الإسلامية بقيادة أحد أبرز روّادها المعاصرين الإمام الخميني الكبير قدس سره، والذي توّجها بإقامة دولتها الإسلامية الفتية علىٰ أرض إيران الإسلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة من خلال خطاب اللّه سبحانه لرسوله الأمين صلى الله عليه وآله في قوله تعالىٰ:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين﴾(١).

❊ ❊ ❊

(١) هود: ٤٩.

مسيرتنا
بين الحالة المرحلية والحالة المرضيّة

إنّ كلّ حركة واعية في الواقع الانساني، وهي تسير باتجاه الكمال؛ لابد لها من أن تتوفر فيها شروط ومواصفات جوهرية، هي السر في نجاحها واستمرار سيرها نحو الكمال المنشود، وهذه الشروط والمواصفات كما تصدق علىٰ حركة الأمم والمجتمعات، كذلك تصدق علىٰ حركة أفرادها بما هم أفراد، ويمكن إجمال هذه الحقائق بما يلي:

١ ـ تعيين الهدف بكل وضوح ويقين، والحضور الدائم والذكر المستمر له ـ بحقيقته الناصعة وحدوده الواضحة ـ في وجدان السائرين بوعي شطره وفي ضمير السالكين الطريق إليه.

٢ ـ توفر عوامل الانطلاق والتحرك، أي ما لابد منه لبدء الحركة، فكما أن المسافر حتىٰ يشرع بسفره يحتاج إلى توفير واسطة نقل، وإلى تهيئة مؤنة الطريق؛ كذلك فإن من رام البدء بحركته الواعية نحو هدفه المنشود؛ لابد له من توفير مقومات شروعه بالحركة، والتي تحددها طبيعة الهدف وطبيعة الحركة المتجهة نحوه، ولعل أبرز نموذج تطبيقي يحكي لنا هذه الحقيقة هو مسيرة الأنبياء والأئمة المهديين عليهم السلام؛ وهم يترجمون حركتهم الرسالية علىٰ أرض الواقع.

٣ ـ معرفة مراحل الطريق وأشواطه، والحدود الفاصلة، والنسبة المتداخلة

بين كل مرحلة وأخرىٰ؛ لأجل توفير متطلبات كل واحدة من هذه المراحل، واستيعاب شروطها وإشباع موضوعها من جهة، ومنع الجمود والتكلس في إطار مرحلي معيّن، أو الوقوع إمّا في الاستغراق أو التخلف في إحداها من جهة أخرىٰ، الأمر الذي سيؤدي إلى أن تنكفىء الحركة وينزوي رجالها في بؤر مرحلية، تاركين هدفهم شاقّ المسافة عصيّ المنال، ألا تلحظ كيف يشيّد المهندس البناء، وكيف يسير الطالب في مراحل الدراسة؛ وهو يطويها مرحلة بعد أُخرىٰ، وصولاً إلى ما يصبو إليه، في أن يكون فقيهاً في الشريعة الإسلامية، أو طبيباً أو مهندساً معمارياً؟ وكذا أيضاً تكون مراحل الدعوة إلى أية فكرة أو رسالة، وهكذا كانت مسيرة الثورات الإلهية في تاريخ البشرية ومسيرة الأنبياء والأولياء نحو اللّه، فالرسولﷺ لم يأمر بإعلان الدعوة إلى الإسلام إلّا بعد أن تكاملت شروطها، وعندما حانت مرحلة الهجرة وإقامة أوّل دولة للإسلام بقيادته الرسالية الشريفة في مدينة يثرب، ثم لم يأذن بالقتال حتىٰ أُذن له؛ فكان إيذاناً ببدء مرحلة الجهاد بالسيف بعد أن قويت شوكة المسلمين، وكَمُلت الحجة علىٰ المشركين، وبعد أن باتت بيضة الإسلام في خطر من كيدهم ونيلهم منه.

٤ ـ تشخيص وتحديد الموانع والعقبات التي ستعترض الحركة وأفرادها، وتمييز ما هو من طبيعة الطريق وما هو طارئ عليها، لعلاج كل منها بحسبه، وذلك بإزالة أسبابه واحتواء أعراضه، صبراً في مواطن الامتحان وحسماً في ميادين الوغىٰ.

ولا يخلو أيّ طريق تسلكه الأمم، أو يطويه بنو الإنسان من عقبات كؤود، وموانع عنيدة؛ ينوء بها من يريد مواصلة المسير، وبدون وعيها ومعرفة السبيل لتذليلها واجتيازها لا يجد السائرون أنفسهم إلّا وقد طوتها سنن الحياة، وتلك

سنّة الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلا. وتاريخ البشرية ملئ بالشواهد علىٰ كلا النموذجين المتقابلين: من واصل الطريق ومن انكفأ في أوله أو بعض أشواطه. **﴿ألم أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾**[١].

٥ ـ معرفة الحالات التي تطرأ علىٰ مجمل حركة الأمم والمجتمعات، والحالات التي تطرأ علىٰ حركة كل فرد من أفرادها، والإحاطة بمواصفات كلّ حالة ونسبتها إلى سلّم التدرج في مسيرة التكامل نحو الهدف، مثلها مثل الحالات التي تطرأ علىٰ مراحل نمو الإنسان، وهو جنين في بطن أُمه، لا حول له ولا قوة، وهو طفلٌ لمّا يدرك ويعِ ما حوله، ثم مميّز، ثم شاب مراهق يعيش الطموح ويهوىٰ الحركة، وهكذا في مراحل نموه الأُخرىٰ.

هنا نقف عند هذه الحقيقة لبيان بعض أبعادها وإدراك بعض أغوارها:

إن التكامل في تصورنا عن كنه «الحالة» ومفهومها يقتضي منّا تمييزها عن معنىٰ «المرحلة» وحقيقتها، فالأخيرة تعني جزءاً جوهرياً من مسيرة هادفة لا يمكن تجاوزها، فهي بين بداية يُنطلق منها وهدف يُنتهىٰ عنده، وهي بذلك لا تنفك بأيّ حال من الأحوال عن وجودها الجوهري في موضوع الحركة وبنائها، والذي يتشكل من مجموعة مراحلها، إذ لا يمكن للمسيرة الهادفة أن تصل إلى كمال هدفها إلّا إذا قطعت كل مراحلها واحدةً تلو الأخرىٰ، ووفق وجودها الطبيعي في هذه المسيرة، فهل يستطيع الكائن الإنساني «الطبيعي» أن يطوي مرحلة الطفولة منتقلاً من رحم أُمه إلى مرحلة المراهقة مرةً واحدةً؟ أم هل نَقَلَ لنا فلّاح؛ وهو يزرع الأرض ويرعىٰ الزرع أنّ نواة التمر طوت مرحلة الفسيل لتكون نخلة مثمرة دفعة واحدة؟ وهكذا في مسيرة الأمم

---

(١) العنكبوت: ٢ ـ ٣.

والرسالات، غاية الأمر أن كل حركة هادفة لها مراحلها المتميّزة عن غيرها بحسب طبيعتها وموضوع هدفها.

أما «الحالة» فهي وضع ووصف عرضي يطرأ علىٰ حركة الأمم والمجتمعات، وعلىٰ كل متحرك من أفرادها، ولكل مرحلة من مراحل الحركة حالات معيّنة تناسب تلك المرحلة، فحالة الاستغراق النظري والتأمل الفكري تطرأ غالباً علىٰ الحركة التغييرية، كالتنظيمات الاجتماعية والحركات السياسية، وهي علىٰ مشارف نهاية مرحلتها الفكرية، وحالة الحذر والتحفظ السياسي تطرأ عادة في أول أشواط مرحلتها السياسية، وفرق آخر هو أن «الحالة» قد تكون طروءاً طبيعياً يلازم مرحلة معيّنة، وقد تكون هذه «الحالة» طروءاً مرضياً يعكس صورة من صور الانحراف والشذوذ في الحركة، أو التخلف والانتكاس في شوط من أشواطها، ففرق في الثورة الرسالية وهي في مرحلة تطلعها وامتدادها السياسي بين انفتاحها علىٰ قوىٰ العالم، وبين الوقوع في حالة الاندماج اللاشعوري، والتناغم المنهجي مع تلك القوىٰ.

من هنا كان لابد لكلّ القيّمين علىٰ حركة مسيرتهم الهادفة أن يميّزوا بين الحالة المرحلية، وبين الحالة المرضية، فيُحكموا أمر الأولىٰ، ويمنعوا أو يعالجوا وقوع الثانية.

وأمر آخر يجب أن نعيه، وهو: أن الحالة المرحلية قد تصبح حالة مرضية متىٰ ما تجاوزت حدّها الطبيعي في إطار مرحلتها المعينة، فكما أن حالة الغضب الثوري التي ترافق عادة المرحلة السياسية الثورية لأيّة ثورة هادفة لو استمرت، أكثر من حدودها الزمنية، المرافقة لخطوات الحسم الثوري؛ لتحولت في المراحل اللاحقة إلى تطرّف أهوج، سرعان ما يَقضي علىٰ كل ما اكتسبته الثورة من رصيد معنوي في مختلف أوساط الأمّة وقطاعاتها، وتبقىٰ كلُّ

مسيرة رهينة كفاءة ووعي مركز القرار والقيادة فيها أولاً، ومدىٰ رُشد رجالها وأبنائها وإدراكهم لخطوات المسير ثانياً.

من هنا نعرف سرّ الانتكاسات التي حصلت في الكثير من الأمم والدعوات، والاندحارات التي مني بها العديد من القادة والرجال، كما نكتشف أسرار العظمة والحكمة التي تنطوي عليها المواقف الفريدة للأنبياء عليهم السلام في جهادهم اللاحب، وأهل البيت عليهم السلام في صراعهم الدامي علىٰ طول مسيرتهم الربانية عبر التاريخ.

ومن نماذجها الرائدة النهضة الإسلامية الخالدة للإمام الحسين عليه السلام، فعندما نقلّب صفحات تاريخها الدامي لنقرأ ما قيل فيها ونعي بعض أسرارها من بين السطور نتساءل: هل كانت نهضته عليه السلام مرحلة طبيعية لمسيرة الإسلام في الأمة؟ أم أنه رأىٰ أن الأمة قد أُصيبت بمرض عضال، والخلافة قد وقعت بيد أهل الجاهلية والضلال؟ وهل كانت نهضته علاجاً حاسماً لكشف الحقيقة الجاهلية للحكام، وحفظ الرسالة من الانحراف والتزييف وإعادة الأمة إلى إرادتها ووعيها؟

لنقرأ ما كتبه الحسين عليه السلام بيده الشريفة، ففي إحدىٰ رسائله لمعاوية بن أبي سفيان يشير إلى الحالة الخطيرة التي وصلت إليها الخلافة، ذلك المنصب الإلهي المقدس الذي تبوأه أعداء اللّٰه ورسوله وأعداء رسالته، فيقول لمعاوية: «**أُنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد واتقِ شقّ عصا هذه الأمة، وأن تردّهم إلى فتنة، واني لا أعلم فتنةً أعظم علىٰ هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى اللّٰه، وإن تركته فإنّي أستغفر اللّٰه لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري، إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكدني، فكدني ما بدا لك فإني أرجو اللّٰه أن لا يضرني كيدك وأن لا يكون**

علىٰ أحدٍ أضرّ منه علىٰ نفسك، لأنك قد ركبت جهلك وتحرّصت علىٰ نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق، قتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلّا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقّنا، قتلتهم مخافة أمر لعلّك لو لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا، فأبشر يامعاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن للّٰه كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، وليس اللّٰه بناسٍ لأخذك بالظنّة وقتلك أولياءه علىٰ التهم ونفيك أيّاهم من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس بيعة ابنك، غلامٌ حدثٌ يشربُ الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلّا قد خسرت نفسك وبترت دينك وغششت رعيتك وأخربت أمانتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل، وأخفت الورع التقي والسلام»(١).

وفي احدىٰ خطبه يوم الطف كشفعليه‌السلام عن حالة الانحراف والانحطاط الذي منيت به الأمة؛ وهي تستسلم لأعداء اللّٰه كمعاوية وابنه يزيد، خانعة ذليلة، حتىٰ تحوّل الكثير من أبنائها عن دين اللّٰه الحق، ومُسخوا عبيداً للدنيا ولحكام الجور، وشبّ جيلٌ من ناشئتها علىٰ ما لم ينزل به اللّٰه من سلطان، وظنّوا أن معاوية ويزيد هما في مقام الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله وخلافة اللّٰه علىٰ الأرض، يؤوّلون القرآن كما روي عنهصلى‌الله‌عليه‌وآله ويحكمون بما جاء به فيقولعليه‌السلام لأمثال هؤلاء: **«سحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنّا تتخاذلون؟! أجل واللّٰه غدرٌ فيكم قديم وشجت عليه أُصولكم، وتأزّرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر وأكلة للغاصب»**(٢).

---

(١) أعيان الشيعة ٤: ١٤٢ ـ طبعة ١٩٤٨م.

(٢) العسكري، السيد مرتضى، معالم المدرستين: ٣/ ١٠٠.

ثم يعود عليه السلام في مقالته إلى مرتكز الانحراف ورأسه ليعلن موقفه الرسالي منه فيقول: «**ألا وأن الدعي ابن الدعي(*) قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة وهيهات منا الذلّة، يأبىٰ اللّٰه لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجورٌ طهرت وأنوفٌ حمية ونفوسٌ أبية؛ من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام**»[1].

ويدرك الحسين عليه السلام كل هذه الحالات المرضية، ويرىٰ أن الخطر المحدق يهدّد صميم الرسالة وقلب المسيرة، وأنّ بذل دمه ودماء أهل بيته والصفوة من أصحابه هو العلاج الوحيد لإزالة هذا الخطر ودفع غائلته عن دين اللّٰه، وأجيال في أصلاب أُمةٍ، فقدت إرادتها وأسلمت قيادها لشذّاذ الأحزاب وعصبة الإثم، فالتضحية بالجزء، ـ وإن كان مهماً وأساسياً في معايير الرسالة ـ تصبح ضرورية عندما تُحفظ بها الأجزاء الأخرىٰ من المسيرة وتصل الأمانة سليمة نقية إلى الأجيال اللاحقة، فتعرف الحق وأهله، وتجاهد في سبيله، وتنتصر له وتعلو كلمته في الأرض، ويكون الدين كله للّٰه.

فيعلن الإمام الحسين عليه السلام أمام الملأ: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، وأُريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي**»[2]، لذا كان خروجه فتحاً رسالياً كالفتح علىٰ يد الرسول صلى الله عليه وآله في بدر وحنين والأحزاب، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إن الحسين عليه السلام لمّا فصل متوجهاً إلى العراق أمر بقرطاس وكتب: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم: من الحسين بن علي إلى بني هاشم أما بعد فإنه من لحق بي**

(*) يعني يزيد وأباه معاوية بن أبي سفيان.

(١) بحار الأنوار: ٩/٤٥ و١٦٢/٧٤.

(٢) بحار الانوار: ٣٢٩/٤٤.

استشهد ومن تخلّف لم يبلغ الفتح والسلام»[1].

وهكذا حقق الإمام الحسين عليه السلام هدفه وحفظ الإسلام وكشف زيف أعدائه وخبث كيدهم، فقد سأل الإمام زين العابدين عليه السلام سائل: «من كان الغالب يوم كربلاء فقال: **اسمع المؤذن تعرف الجواب»**.

وتمرّ الأيام وتتعاقب الأجيال ويجاهد أئمة أهل البيت عليهم السلام عبر مراحل المسيرة الربانية، ويستشهدون الواحد تلو الآخر، ويمتحن اللّٰه الأمة بالغيبة الصغرىٰ وتليها الغيبة الكبرىٰ؛ لتصفو وتسمو في مراتب الإخلاص والجهاد في سبيله سبحانه.

وتتراكم ثمرات الجهاد التي تميّزت علىٰ طول أشواطها ومراحلها بصرخات ثورة الطف الهادرة وبصبغة الدم الحسيني المتدفق، ويقيّض اللّٰه للأمة رجلاً من أحفاد أبي عبد اللّٰه عليه السلام فقيها ورعا، حكيما شجاعا، هو الإمام الخميني، يضع يده علىٰ مكامن القوة في الأمة فيفجّرها إرادةً جبارة لا تلين، ويشخّص مواطن الخطر فيها فيقود الأمة نحوها، لتدكّ بأيديها العزلاء صروحه الكاذبة فيتحقق حلم الأنبياء، وتقوم دولة الإسلام في عصر الجاهليات العظمىٰ وهي في أوج غرورها واستكبارها، ويقف معسكرا الكفر والإلحاد عاجزين أمام قوّة الإسلام، وإرادة جيل سقته دماء الحسين عليه السلام ودماء صحبه الأبرار، لا يخافون في اللّٰه لومة لائم، ولا يرجون إلّا حُبّه ورضاه.

ونقف هنا أيضاً لنقرأ بعضاً من كلمات الإمام الخميني قدس سره وهو يشخّص بكل وعي وعمق مواطن الخطر المحدق بالإسلام، ومسيرته وعوامل القوة في الأمة وعلمائها المجاهدين، ففي حوار جرىٰ بينه وبين أحد العلماء أجاب السيد الإمام علىٰ سؤال وُجّه له: «ماذا يمكن أن نفعل؟ وما هو الأثر الذي يترتب

---

(١) كامل الزيارات: ١٥٧، دلائل الامامة: ١٨٨.

علىٰ تقديم القتلىٰ؟ فقال الإمام الخميني: إن الأعمال المعادية للإسلام تنقسم إلى نوعين:

أحدها: مثلما كان يفعله (رضا خان) من معاداة الدين، وهو يقول: أنا أفعل كذا، وكذا ولا يعنيني ما يقوله الشرع، وطبعا فإنّ التصدي له كان من باب النهي عن المنكر، لكن (الشاه محمد رضا) يرتكب كلّ عمل ينافي القرآن والدين ويقول: إنه من الدين، وأن هذا الأمر هو علىٰ رأي القرآن، وإنني أتحدث من وحي القرآن الكريم» هذه القضية بدعة عظيمة، تلحق الضرر بأساس الدين، ولا يمكن تحمّلها، يجب التفاني والتضحية. دع التاريخ يكتب في طياته أنه تعرّض الدين للخطر والهجوم، فإنّ عدداً من علماء الشيعة ثاروا، وإن قسماً منهم قد استشهدوا، ألم تقدّم ثورة الحسين بن علي عليه السلام للتاريخ أعظم الخدمات؟ وفي إجابة علىٰ سؤال آخر عن عدم اتّباع الناس لهم، وكذب استعدادهم للتضحية يقول السيد الإمام الخميني: «كيف يكذّب الناس؟ هؤلاء الناس قد ضحّوا بأرواحهم وتحمّلوا المعاناة والآلام، ودخلوا السجون ونفوا من بلدانهم، ونهبت أموالهم، كيف يمكن أن يكون الناس من البقّال والعطّار الذين يواجهون الرصاص بصدورهم، كيف يمكن أن يكونوا كاذبين؟»[١].

من هذه المواقف والآراء وأمثالها نكتشف حكمة الإمام ووعيه البعيد لأهداف المسيرة الإسلامية، وواقع الأمة فيها، عرف بؤرة الخطر فاستهدفها بكل قوة، وعرف أين تكمن القوة ففجرها بكل قوة، وتحقق النصر الإلهي علىٰ يده؛ فكانت ثورة عظيمة أيقظت غفلة المستضعفين، جبّارة سفّهت أحلام المستكبرين.

---

(١) مترجم عن الفارسية / صحيفة كيهان الإيرانية ـ العددان ١٢٤٦٦، ١٢٤٦٧ بتاريخ ٦ ـ ٨ / ٦ / ١٩٨٥م ـ منقول عن كتاب «نهضت إمام خميني» ج ٢ بقلم سيد حميد روحاني.

وهكذا يتواصل نهجه في قيادة حركة الثورة الإسلامية وترشيد نظامها الفتي لوقايته من كيد المتربصين به، وليشتدّ عوده ويينع ثمره، ويكون الدين كله للّٰه.

هذه هي مواقف قادة الإسلام العظام، تحكي لنا كمال الحكمة والوعي لديهم ، وتترجم لنا وضوح الرؤية لسنن اللّٰه في هذه الحياة، فلكلٍّ مرحلة دور ورجال، ولكلٍّ حالة موقف وعطاء، وصدق صادق أهل البيت عليهم السلام عندما قال: **«العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»**(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) تحف العقول: ٢٦١.

لا تُلبسوا الحقّ بالباطل

لم يتوان دهاقنة الاستكبار عن التصعيد المستمر للهجوم الحاقد، والصخب المتعصّب علىٰ الإسلام ودعوته الصادقة ودعاته الأُمناء، منذ أن علا له في الآفاق صوت، واستطالت له في بعض الحواضر شوكة، وامتدت بقوة الحق وعلوّه إلىٰ حواضر أُخرىٰ. فبعد أن قطعت يد ظلمهم المتسلطة في إيران الإسلام انفلتت أزمّة الأمور من أيديهم في فلسطين ولبنان والجزائر، ولم تنفعهم عمليات الترقيع في مصر، ومسرحية الإرادة الدولية في العراق، وجرّت جيوشهم أذيال الخيبة في الصومال، وتشرذموا بين كرّ وفرّ في بلدان شبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، وأعيتهم المماطلة واستنفدوا ما في جعبتهم من خداع وتضليل في البوسنة والهرسك، وانكشفت ازدواجيّتهم الرخيصة في إفغانستان والشيشان وباقي دول آسيا الوسطى، وهكذا في كل مكان خفقت للإسلام فيه راية، وانبلج له صبح صادق.

بل وفي تصعيد آخر جنّ جنون أقزام الاستكبار، وراحوا يتخبّطون في تصريحات منكرة ومواقف متشنّجة؛ عندما وجدوا أن من كانوا يأملون انصهارهم في بوتقة ماديتهم المقيتة، وحضارتهم الزائفة من المسلمين المهاجرين إلىٰ ديارهم قد تحولوا إلىٰ دعاة إنقاذ لأبناء أوربا من الموت في ماديتها التي لا ترحم، والضياع في ظلماتها التي لا تنتهي، حتىٰ وصل بهم الأمر إلى تشريع قوانين صارمة واتخاذ إجراءات من شأنها سلب الحريات،

وقمع الآراء.

ومن موقع الزعامة الاستكبارية كانت أميركا أول من بادر لذلك؛ فقد صادقت حكومتها علىٰ قوانين جديدة، تهدف إلى تقييد حركة المجموعات والشخصيات الإسلامية المقيمة في أميركا لتقليص نشاطاتها. ولم يُخفِ ساستها انفعالاتهم فراحوا يصرّحون بنواياهم، ويكشفون عن البعد الاستراتيجي لإجراءاتهم تلك، ومنهم وزير الخارجية الأميركية الأسبق هنري كيسنجر الذي أبدىٰ مخاوفه ـ في كلمة له بلجنة الدفاع التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي ـ من أن تنامي الأصولية الإسلامية خلال السنوات المقبلة سيشكّل أكبر خطر علىٰ الأمن القومي الأميركي، وسيؤدي إلى إيجاد تحوّل خطير في الشرق الأوسط. كما أن الأصولية التي انتفضت بوجه الأنظمة العلمانية وشبهها في الشرق الأوسط، يمكنها أن توجه ضربة لمسار السلام في المنطقة.

وتناغمت روسيا مع أميركا بعد أن أصابها الهلع من تنامي الوعي الإسلامي، وتصاعد نزعة الاستقلال لدىٰ شعوب القوقاز، وصدعها بهويتها الإسلامية الأصيلة، وانكشف لها واقع يخالف تماماً ما نشرته وكالة أنباء «نوفوستي» في الستينات من أخبار؛ تضمنت صورة لآخر متدين في آسيا الوسطىٰ ـ حسب زعمها ـ مدعية أن مهام الدين قد انتهت في تلك المنطقة، في حين أن نشاطات الجماعات الإسلامية التي تشكّلت في حينه كانت من السرّية؛ بحيث لم يستطع جهاز التجسس السوفيتي كشف أمرها.

وتبعتهم الدول الغربية التي عقدت اجتماعاً موسّعاً لخبرائها لتدارس طرق وأساليب مواجهة تنامي الأصولية الإسلامية في أوربا، وذلك بناءً علىٰ اقتراح تقدمت به الحكومة الفرنسية المعروفة تأريخياً بعدائها الآيديولوجي للإسلام والمسلمين. هذه الدولة التي تدعي أنها مهد الديمقراطية ومنتجع الحرية،

والمنظّرة الأولىٰ للائحة حقوق الإنسان، يختنق وزير تربيتها الوطنية «فرانسوا بايرو» عندما يكتشف أن ثمة (١٥) ألف طالبة مسلمة في الثانويات الفرنسية قد ارتدين الحجاب مع بداية عام ١٩٩٤م. ويندفع مستشار وزير داخليتها فيقول: «نحن لن نسمح بإنشاء أرخبيل أصولي في فرنسا».

وتزداد هذه الدولة «ديمقراطية» وحرصاً علىٰ حقوق الإنسان المزعومة، فتنشر إحدىٰ كبريات صحفها المعروفة «أكسبريس» حواراً بين أحد فلاسفتها الماديين: «أندريه غلوكسمان» والباحث السياسي: «جان كلود كازانوفا» حول مسألة الحجاب وأبعادها السياسية والاجتماعية، بعد أن أثارت في المقدمة التساؤل بأنه: هل يمكن اعتبار الحجاب كمظهر ديني بسيط، أو كعامل تحريض سياسي؟ فيجيب مدعي الفلسفة «أندريه غلوكسمان»: أن الحجاب لا يعتبر رمزاً للإيمان! إنه رمز أصولي وليس إسلامياً ولا يعرفه التراث الديني في شمال أفريقيا، وفي شكله القسري الحالي، فهو مستورد من إيران، والإسلام: رجمٌ في إيران، وقتل واغتيالات في الجزائر. إن الحجاب إجراء وعمل إرهابي. وفي فرنسا فإن طالبات الثانويات والمتحمسات يعلمن بأن حجابهن ملطخ بالدم، ويجب علىٰ الفتيات اللواتي يرتدين الحجاب تأييد «تسليمة نسرين» وأن يصرخن: بأن من حق «رشدي» أن يعيش، عند ذاك، لا يشكل الحجاب خطراً. إنّ الأصولية الإسلامية تساهم بموجة ثالثة من التطرّف بعد النازية والشيوعية، ويشكّل الحجاب جداراً ثالثاً بعد جدار الأطلنطي وجدار برلين، وحائطاً نفسياً، رمزاً للعدوانية.

وبهذه اللغة المليئة بالحقد والتعصّب والعدوان يصوّرون الإسلام والمسلمين وبنفس اللسان، وبدون حرج أخلاقي يتكلمون عن حقوق الإنسان وحريته وديمقراطية النظام والحكم، وهم أبعد ما يكونون عنها في ديارهم. فمن يصدّق

دعوتهم هذه في باقي بقاع العالم؟

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل تمادوا في هوسهم الحاقد، فأظهر رئيس أركان قوات حلف شمال الأطلسي البعد الأعمق لنوايا الغرب في قوله: «لقد كسبنا الحرب الباردة بعد (٧٠) عاماً ونعود مرة أخرىٰ إلى الصراع الرئيسي منذ ١٣٠٠ عام، إنها المواجهة مع الإسلام. إن الجيش الذي أمكن أن يعيش (١٣٠٠) عام وليس (٧٠) عاماً لابد أن يكون خطيراً».

وجسدت أميركا هذه النوايا بحركتها المحمومة، التي استطاعت من خلالها أن تقنع دول أوربا وفي مقدمتها فرنسا وإيطاليا وألمانيا بأن يساهموا في خطتها الجديدة بالتدخل المباشر وأداء دور أمني وعسكري مرسوم في المناطق الإسلامية لمواجهة ما يسمونه بالأصولية الإسلامية التي أخذت تهدد المصالح الاستراتيجية للغرب في تلك المنطقة.

وصبّت في نفس الهدف الإجراءات التي أقدمت عليها السلطات الفرنسية بتعطيل جميع الإصدارات الصحفية والثقافية التي يقوم بها الإسلاميون الجزائريون، وحرمتهم حتىٰ من التعبير عن آرائهم ونشر ظلامتهم، ناهيك عن الاعتقالات التعسفية، والإبعادات الجماعية. فالهوية والانتماء الإسلامي جرم كافٍ لحرمان الإنسان من أبسط حقوقه في بلاد وضعت ما يسمىٰ بـ«ميثاق حقوق الانسان»، ودعك عن تصريحاتهم المعلنة بأنهم لن يسمحوا بسقوط النظام الجزائري بأيدي الإسلاميين وحتى لو جاء ذلك من خلال الديمقراطية وانتخاب الشعب.

إن هذا التنكّر الفاضح لحقوق المسلمين، والكيد المتعصّب للإسلام الأصيل وحركته النبيلة، لو كان مقتصراً علىٰ قوىٰ الاستكبار ودوائره لهان الأمر، إذ إن الأصل في الكفر هو العداء للإسلام وأتباعه، أما أن تظهر أصوات نكرة

ودعوات ضالّة، تنمو فيها تجمعات طفيلية لا همّ لها إلّا إثارة النعرات وتغذية البدع ودفع الغوغاء، بعصبيات تراق فيها الدماء البريئة للمسلمين، وتهتك حرماتهم ومقدساتهم باسم الدين، لتكمل شوط الاستكبار في التآمر علىٰ أصالة الإسلام العظيم ووحدة أمته المجاهدة، فذلك غاية النفاق والنكوص عن الحق ورسالته.

ففي الوقت الذي تعيش الأمة الإسلامية صحوتها الكبرىٰ، وحركتها الشاملة من أجل إبراز هويتها الذاتية وبيان أطروحتها الرسالية للعالم، والتي اضطرها الاستكبار والصهيونية وأذنابهما إلى خوض جهادٍ ضارٍ من أجل تحقيق ذلك الهدف المقدس في أغلب أنحاء البلاد الإسلامية، وعلىٰ مختلف الأصعدة والأساليب في هذا الوقت الحساس والخطير تظهر جماعات متطرفة، ومندفعة بهوس تلك العصبيات الجاهلية والدعوات الضالة لتساهم في مواجهة يقظة الأمة الإسلامية ونهضتها الوحدوية، مستهدفة تكريس الفرقة وإحباط كلّ محاولات رأب الصدع وتوحيد أوصال هذه الأمة، التي عانت الكثير من ذلك في عهود الاستعمار المظلمة. ففي بلدٍ واحدٍ كالباكستان ـ مثلاً ـ الذي طالما عانىٰ من كيد الاستعمار الانجليزي في تمزيق أوصاله إلىٰ كيانات متعددة، تكفّر تلك الجماعات عقائد أهل البيت عليهم السلام، وتبيح سفك دماء أتباعهم؛ لا لذنب إلّا أنهم آمنوا بأهل البيت عليهم السلام، واتبعوهم تمسكا منهم بوصية رسول اللّه صلى الله عليه وآله التي قال فيها: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي»، فتهاجم جماهير الموالين لأهل البيت؛ وهم يحيون شعائر ذكرىٰ شهادة أبي عبداللّه الحسين عليه السلام وأصحابه البررة في يوم عاشوراء الخالد، وتفجّر مساجدهم وتهدم دورهم وتحرق محلّاتهم ويُقتل ويُجرح من خلال ذلك علماؤهم وآلاف من رجالهم ونسائهم وأطفالهم. ومما

يثير الدهشة والحيرة ويوقظ في النفس كوامن الغضب الإسلامي أن تصدر من ادعياء العلم فتاوىٰ تدعم هذه الممارسات وتزوّر معالم الشريعة الإسلامية السمحاء، وتحدث فيها البدع والضلالات، وتصدر علىٰ اساسها فتاوىٰ التكفير وإباحة دماء المسلمين من أتباع أهل البيت، وغيرهم من أتباع الفرق الإسلامية الأخرىٰ، بدلاً من السعي للتقريب والتوحيد والتأليف بين المسلمين، وبدلاً من إصدار فتاوىٰ الجهاد ضد الكفار وهم يحتلّون أرض المقدسات في فلسطين، ويسفكون دماء المسلمين فيها، ويهتكون أعراضهم، ومقدساتهم، وبدلاً من دعم الحركات الإسلامية التي تخوض جهاداً مريراً ضد المستكبرين، في الكثير من بلدان العالم الإسلامي.

وتزداد الدهشة والحيرة ويتفجّر الغضب الإسلامي عندما يذهب هؤلاء في ضلالاتهم حدّاً لا يطاق، فيتوج كبيرهم فتاواه السلطانية بفتوىٰ جواز الصلح مع إسرائيل، هذه الفتوىٰ الفاضحة في خروجها عن أصول الإسلام ومبادئه العليا في ردع الظلم، وإقامة العدل وإعلاء كلمة اللّٰه والإسلام، لم نجد لها سابقة في تاريخ الإسلام، بل حتىٰ في تاريخ الإنسانية، فلم يحدث في التاريخ أن تنازل أحد عن حقه لمغتصبه عن إرادة واختيار، ولم تسمع البشرية بمن سلّم لقاتله ومدّ له يد الصلح والأمان، ولم تأت الأديان ـ كل الأديان ـ علىٰ امتداد البشرية بالدعوة إلىٰ مثل ذلك، بل علىٰ العكس منه فقد وقف جميع الأنبياء والأولياء والمصلحين بوجه المعتدين، وكانت من أولى مهامّهم الرسالية القضاء علىٰ دواعي البغي والشر والفساد ونشر الحق وإقامة العدل في ربوع الأرض.

وامتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿**وآمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمونَ**﴾[1]. فقد انبرىٰ الكثير من علماء المسلمين

---

(١) البقرة: ٤١ ـ ٤٢.

ومفكريهم من مختلف البلاد الإسلامية للرد علىٰ هذه الفتاوىٰ الباطلة للتعبير عن سخطهم وغضبهم حيالها، فتصدوا لدحضها وتفنيدها؛ لما رأوا فيها من خروج عن الإسلام وتجاوز فاضح علىٰ حقوق المسلمين، كما فعل علماء ومفكرون أمثالهم قبل ذلك مع الفتوىٰ الباطلة بتكفير أتباع أهل بيت النبوة عليهم السلام، وإباحة دمائهم.

ومن الضروري أن ينبري علماء الأمة المخلصون الأحرار للمزيد من الرفض والشجب لفتاوى وعّاظ السلاطين، اعتقاداً منّا بأن هذه الردود والمواقف الإسلامية حَريّة بأن تردع كل من تسوّل له نفسه تجاوز أحكام اللّٰه والاستهانة بمقدسات الأمة الإسلامية ومقدراتها، وأن توقف كل ذي بدعة عند حدّه. والمطلوب من جميع المسلمين أن يقفوا صفاً واحداً بوجه أمثال هؤلاء الذين بفعل فتاواهم السلطانية أضفوا الشرعية علىٰ الطواغيت، وأحدثوا في الدين أخطر البدع وأعظم الضلالات.

إن هؤلاء بفتاواهم الباطلة، ودعواتهم الضالة هذه يشكلون خطراً كبيراً من داخل البيت الإسلامي علىٰ وحدة الأمة الإسلامية ورسالتها الإلهية، ويساهمون مع قوىٰ الكفر العالمي في تهديم كيانها والانقضاض عليها، لقد جعلوا أنفسهم جسوراً لتطبيع وعي المسلمين علىٰ جور قادتهم وبغي حكامهم وتنفيذ إرادة ومخططات الاستكبار وجرثومته الفاسدة إسرائيل المغتصبة في ضرب الأمة الإسلامية في الصميم، ألا ساء ما يزرون.

وخير ردٍّ لهم ولأسيادهم هو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأمثالهم من وعّاظ السلاطين في خطابه الخالد: «**لا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تُنكرون، واعذروا من لا حجّة لكم عليه....**»[١].

---

(١) نهج البلاغة: خ ٨٧.

مسار وعي الأُمم ونهضة الشعوب

إنّ وعي الأمم ونهضة الشعوب لم تكن يوماً أمراً عشوائياً، محكوماً للصدفة والعفوية، بل هو مسار محكوم بعوامل وقوانين وسنن، وأوضح الدليل عليه هو حركة الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام عبر تاريخ البشرية، وأعظمهم نموذجاً خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله ويبرز ذلك من خلال سيرته الكبرىٰ في تغيير الأمم وإخراجها من جاهليتها المظلمة إلى أنوار الإسلام العظيم.

وفي عصرنا الحاضر كثيراً ما يقف أبناء الأمة المخلصون متأملين، تتلاحق في أذهانهم العديد من علامات الاستفهام، بل الكثير من حالات التعجب والاستغراب، يقولون لماذا لا تنهض الأمة بوجه أعدائها؟ خصوصاً وقد جاوز الأعداء المدىٰ، وأمعنوا في إذلالها واستعبادها وسرقة ثرواتها وجهدها، بغية تمييع شخصيتها وأخلاقيّتها، هل من المعقول أن يستمر هذا الصمت؟ وتتلاشىٰ أصوات الحق والثورة في أمّة عقرت أفراس روما، وهدّمت قوائم كسرىٰ، وأرست قواعد لا إله إلّا اللّٰه، بهتاف اللّٰه أكبر من أعماق النفوس المؤمنة برسالة الإسلام العظيمة؟!

إنّ إزالة هذا التعجّب، وإخماد هذه الإثارة في الأسئلة الحائرة، يكمن في بيان العوامل والقوانين التي تتحكّم بحركة الأمة، ومسار وعيها، فلو علم كلّ هؤلاء المخلصين من أبناء الأمة، شعوباً وجماعات، أنّ عملية التغيير الجوهرية لأيّ مجتمع باتجاه الإسلام، باعتباره الطريق الوحيد لخلاص المعذبين من

ظلم الجائرين، والمبدأ الأعلىٰ الذي يوقظ المستضعفين في الأرض، ويمنّ عليهم ويجعلهم أئمّة ويجعلهم الوارثين، لو علم هؤلاء العاملون في سبيل اللّٰه، أن عملية التغيير هذه لا تتم إلّا من خلال تفاعل عاملين رئيسيّين، يعانق أحدهما الآخر، ويقترن معه لتكون الولادة الجديدة هي الثورة بكلّ جذورها، وبكلّ أبعادها الحقيقية. الثورة علىٰ الذات لتُحررها من كلّ العبوديّات الأرضية الباطلة، ولتسمو بها في مراتب عبودية اللّٰه عزّوجل حيث العزة والقوة والكرامة، ثم هي ثورة علىٰ كل الواقع الفاسد.. الثورة علىٰ كلّ الأفكار المنحرفة.. الثورة علىٰ كلّ الأنظمة الوضعية.. الثورة علىٰ كلّ الطواغيت في الأرض. هذا العاملان هما:

أولاً: العامل السلبي:

إنّ أوّل هذين العاملين من حيث التسلسل في الوجود، هو العامل السلبي من عملية التغيير والتوعية؛ ويتمثّل هذا العامل بمجموعة التوجهات والممارسات التي تستهدف تحسيس الأمة وتوعيتها علىٰ حقيقة الواقع الفاسد، وما يكمن فيه من زيف وبطلان في شعاراته المطروحة، وفي أفكاره المتداولة، ونظرياته المتبناة، والعمل بكلّ عمق فكري وجرأة علميّة علىٰ نسف كلّ الأسس التي يقوم عليها البناء الواهي لهذا الواقع الفاسد، والاستعانة بكل ما يزودنا به الاستقراء الميداني للمشاكل والمآسي؛ التي تعاني منها الشعوب الرازحة تحت نير هذه الأنظمة الفاسدة والطواغيت الحاكمة.

وكنموذج ميداني فريد جسّد هذا العامل في عصرنا الراهن؛ هو النهج الرائد الذي انتهجه الإمام الخميني الكبير قدس سره في تعرية حقيقة نظام الشاه الفاسد، وأساليب الاستكبار العالمي، وعلىٰ رأسه أميركا في استضعاف الشعب الإيراني المجاهد، وامتهانه ونهب ثرواته وخيراته، والتآمر عليه في إجهاض

انتفاضاته المتوالية، وضرب مواطن القوة والاقتدار فيه، وقد قرن الإمام الخميني ﷺ بياناته هذه بحركة واسعة عبأ لهاالآلاف من علماء الإسلام وطلبة الحوزات العلمية المجاهدين، والملايين من أبناء الشعب المجاهد، علىٰ اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الثقافية والاجتماعية، فأحدث نهضة إسلامية عارمة، رفضت الشاه ونظامه وأسياده الأميركان.

ونموذج تاريخي معاصر آخر علىٰ هذا الدور الأساسي هي الحركة الفكرية العظيمة الرائدة التي قادها المفكر الإسلامي الرائد الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﷺ، عندما تصدّىٰ لأكبر أطروحتين تتقاسمان العالم، وتتحكمان في رسم طريقة حياة شعوبه وأممه، وهما الرأسمالية في الغرب، والماركسية في الشرق.

وقد ترنّحت هاتان الأطروحتان، تحت وطأة ضرباته الفكرية الحاسمة، وجعلت منهما هراءً، ترفضه العقول السليمة من رجال الفكر والعلم؛ عندما أثبت للفكر والعلم بأسلوب علمي رصين، من خلال الجزء الأول من كتابيه الشهيرين: (فلسفتنا واقتصادنا) أنّهما أطروحتان متهافتتان في مبادئهما ومنهجهما، ومدمّرتان في نتائجهما وآثارهما.

وكان لابد أن يرافق هذا العمل الجبّار الذي حمل لواءه وتحمّل همّه الإمام الشهيد السيد الصدر عملية أخرىٰ مكمّلة في نتائجها،وواسعة في مساحتها، ومباشرة في تأثيرها، تتكامل بها عملية تحسيس الشعوب وتوعيتها علىٰ واقعها الفاسد، وواقع حكوماتها وأنظمتها الباطلة، هذه العملية التكميليّة المهمة هي فضح واقع الأنظمة والحكام بالأرقام والوقائع من صميم الممارسة والتطبيق؛ التي بطرحها علىٰ الأمة، ستُتَرجم الأدلّة العلمية علىٰ بطلان وزيف النظريات والمبادئ الفكرية والسياسية التي تقوم عليها أنظمتهم وشعاراتهم،

وتصدّق البراهين المطروحة في إثبات تهافت هذه النظريات والمبادئ وانحرافها.

إن الغفلة أو التغافل الذي وقع فيه كثير من الدعاة المخلصين في ساحة العمل الإسلامي هو الذي فوّت عليهم الفرصة في توعيّة الأمة، وبيان ما يفعل الحكّام الطغاة، وماهي المآسي التي أمعنت في تحطيم الطاقات ونهب الثروات من الشعوب؟

صحيح أنّ الكثير من الدعاة الواعين يدركون أكثر هذه الحقائق، ولكنّ المهمّ هو دورهم في توعية شعوبهم علىٰ ذلك، وطرح كل هذه الحقائق لها في كلّ فرصة سانحة ووسيلة فعّالة.

إنّ التخطيط لذلك كفيل بتحقيق الهدف الكبير في التوعية العامّة والشاملة لكافة القطاعات والمستويات علىٰ واقعها المأساوي هذا.

إنّ إدراك الشعوب لواقعها السيء ونظامها الفاسد، ومعرفة حقيقة حكوماتها الجائرة هو الذي سيحوّلها من شعوب خاضعة وموالية لحكوماتها وأنظمتها الفاسدة، إلى شعوب رافضة ومتمردة وثائرة، تطالب بتغيير هذه الحكومات والأنظمة الجائرة، وتعمل علىٰ إسقاطها وإزالتها من مواقع الحكم والسلطة.

ثانياً - العامل الإيجابي:

وهو العامل الرئيسي الثاني، الذي يأتي من حيث التسلسل في الوجود بعد العامل السلبي في توعية الأمة من عملية التغيير والتوعية، فحين تنتبه الأمة علىٰ واقعها هذا، وتدرك السرّ الكامن وراء مآسيها وآلامها، يبدأ وبشكل معاصر للعامل السلبي، دور العامل الإيجابي، ويتمثل بالعطاء الرسالي، والأطروحة الفكرية والبديل المبدئي للنظريات الباطلة، والأفكار المزيّفة والأنظمة الفاسدة، هذا العطاء وهذه الأطروحة وذلك البديل هي التي ستعالج

هذا الواقع الفاسد، وتجتثّ مشاكله ومآسيه من جذورها وتبني للأمة حياة، تتمثّل فيها كافة صور الحق والعدل، وكافة أبعاد التكافل والتوازن، وتتفاعل فيها كافة المجالات الطبيعية مع حاجات الإنسان المتنوعة.

وهنا أيضاً نجد في نهج الإمام الخميني الكبير﷤ نموذجاً رائعاً جسّد هذا العامل فأعطىٰ أفضل ثماره وأعظم النتائج، وذلك بطرحه لنظرية الحكومة الإسلامية المقوَّمة بحكومة الولي الفقيه العادل الكفوء، في دروس أبحاث الخارج التي ألقاها علىٰ طلاّبه في النجف الأشرف، ثم طُبعت ونشرت في أوساط المثقفين علىٰ اختلاف رُتبهم، بل وأصبحت هذه النظرية هي المادة الأساسية لثقافة أبناء الشعب الإيراني، التوّاق إلى الخلاص من ظلم وفساد حكومة الشاه العميل لأميركا وحلفائها.

كما وجسّد هذا العامل المفكر الإسلامي العظيم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر﷤ من خلال كتبه الجليلة وتوجهاته التبليغية الهادفة، ومن خلال المؤتمرات والندوات الفكرية في مختلف المجالات، وعند كل فرصة سانحة لذلك وبأيّ مستوىٰ كان، سواءً علىٰ المستوىٰ الشعبي العام أو علىٰ المستوىٰ الاختصاصي أو الرسمي، فمن خلال سلسلته الرائعة (المدرسة الإسلامية) ومن خلال الجزء الثاني من كتابيه (فلسفتنا) و (اقتصادنا) عرض معالم وأسس الأطروحة الإسلامية في تربية الإنسان، وبناء النظام والدولة المشيّدة علىٰ مبادئ الإسلام العظيمة، ونظرته للإنسان والكون والحياة.

وهنا نقول أيضاً: إنه كان من الضروري تبسيط أفكار ومبادئ هذه المدرسة الإسلامية، وطرحها علىٰ أوسع القطاعات الشعبية، ونشرها بمختلف الوسائل والأساليب المناسبة ولكلّ المستويات الجماهيرية، وعدم الاقتصار في عرضها وبيانها علىٰ القطاعات الفكرية والمثقفة فقط، وكنموذج رائد علىٰ ذلك

هو النهج الذي سلكه الإمام الخميني قدس سره في تبسيط ثقافة نظرية الحكومة الإسلامية وجعلها في متناول إدراك الجماهير لتكون ثقافتهم الإسلامية العامّة، وشعارهم اليومي.

إنّ القيام بعملية الإعلام الجماهيري الواسعة والتوعية الشعبيّة الشاملة علىٰ الأطروحة الإسلامية كفيلة بخلق تيار شعبي عارم يكتسح كلّ الضلالات، ويسقط كل الأفكار والنظريات المزيّفة من واقع الأمة الإسلامية وشعوبها.

بقي أن نشير إلى أنّ القيام بالدور السلبي المتمثل بتحسيس الأمة علىٰ واقعها الفاسد، وتوعيتها وتعريفها بالسرّ الكامن وراء مآسيها وآلامها، سيبقىٰ مفتقراً إلى ضرورة الدور الإيجابي المتمثّل بالعطاء الفكري والأطروحة الرسالية التي ستكون البديل المبدئي، الذي تتحوّل إليه الأمة وتؤمن به وتتبنّاه عقيدةً ورسالةً لها في الحياة، عندما ترفض كلّ الأفكار المزيّفة تلك، وتتمرّد علىٰ واقعها الفاسد وتثور علىٰ حكوماتها الجائرة.

فالأمة تبقىٰ متخبطة في ظلمات لا تعرف الطريق إلى الخلاص، والسبيل إلى الحقّ والعدل، إذا اقتصرنا فقط علىٰ جانب تحسيسها بواقعها الفاسد، ودفعها للثورة والتمرّد عليه وعلىٰ القائمين به، كما أن الأمة سوف لا تلتفت إلى أية عملية عطاء فكري وتوعية علىٰ الرسالة الفكرية والأطروحة البديلة التي تعرض عليهما مهما برع المبلّغون بها، وتفنّن الحاملون للوائها، سوف لا تلتفت الشعوب إليهم لأنها لا تمتلك الأرضية المهيأة لتقبّل الأطروحة البديلة، ولا تمتلك الاستعداد لتلقي العطاء الجديد المعروض عليها.

الذي يجب أن يحصل هو كلا العمليتين معاً، بشكل متعانق ومتفاعل ومتعاقب، ففي الوقت الذي يقوم الدعاة بتحسيس الأمة علىٰ واقعها الفاسد، ويكشفون لها أسرار المآسي والمظالم التي تملأ حياتهم، في هذا الوقت يبدأ

دور العطاء الفكري والأطروحة البديلة التي تتوجّه إليها الأنظار بالأمل وتعقد عليها الآمال في الخلاص والنجاة مما يملأ الواقع بالظلم والجور والفساد، فكلا الجانبين متواليان في التأثير والتغيير، جانب فكّ ارتباط الأمة بالواقع الفاسد وما يمثله من أفكار وأنظمة وحكومات للتمرد والثورة عليه، وجانب عرض الأطروحة الحقيقية وترسيخ قواعد الإيمان بها والتبنّي لعطائها الفكري وأنظمتها المتكاملة في كافة مجالات الحياة، والمطالبة بإرساء قواعد الحكم القائم علىٰ أساسها.

فبتلاقح هذين العاملين - السلبي والإيجابي - وتعانقهما يُفرزُ الوعي لدىٰ الأمة، ويرسمان لها مسارها النهضوي الصحيح، الذي تكافح من أجله، وتضحّي لتحقيق أهدافه وصولاً للسعادة الدائمة في هذه الدنيا وفي الآخرة، وتلك هي حقيقة السنّة الإلهية في قوله تعالىٰ: **﴿إن اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّىٰ يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[١].

* * *

---

(١) الرعد: ١١.

لا معقل أمنع من الإسلام

لعلّ من نافلة القول دعوىٰ أن هناك مبادئ أساسية، ومقولات تشريعية كبرىٰ أخذت وصفاً عقائدياً ثابتاً في واقع المسلمين، ورسوخاً واعياً في ضميرهم، لم يطلها الخلاف، ولم ينل من ثباتها ورسوخها الاختلاف بين مذاهبهم وفرقهم، وهي بحد ذاتها تشكل إحدىٰ أبرز المرتكزات الإسلامية بعد الأصول العقائدية المشتركة، لتحقيق وحدة المنطلق والحركة والهدف بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة في بناء عزّها، وتقوية شوكتها، وإعلاء كلمتها في الأرض.

ولا يخفىٰ علىٰ علماء الأمة الواعين وروّادها المجاهدين أن لهذه المبادئ والمقولات تطبيقات تفصيلية كثيرة، لا تقتصر علىٰ البعد الأخلاقي للسلوك الفردي للمسلمين، بل تتسع لتشمل العديد من مفردات التشريع الإسلامي علىٰ مختلف أصعدته وجوانبه: عبادات ومعاملات، في إقامة الشعائر الإسلامية، وبناء المجتمع الإسلامي الرائد، وتشكيل دولته النموذجية، ورسم حركتها السياسية العامة، وفي تطبيقاتها القضائية وسَوق حركتها الاقتصادية نحو الاستقلال والتكامل، وفي كل شؤون تعبئتها السياسية والعسكرية والثقافية في حالات السلم والبناء والحرب والدفاع.

ولئن كان سواد الأمة في عهود الاستعمار المظلمة يجهل هذه المبادئ والمقولات بعنوانها التشريعي الكلّي أو العقائدي، فإن الدور الرائد للعلماء

المجاهدين في إذكاء حركة الصحوة الإسلامية، والألطاف الإلهية التي أغدقت علىٰ الأمة الإسلامية ببركة الثورة الإسلامية الكبرىٰ التي قادها الإمام الراحل الخميني الكبيرﷺ، قد أجلت للعيان حقيقة هذه المبادئ والمقولات، وعمّقت وجودها في واقع الأمة الإسلامية، والتي شكلت أرضيتها الخصبة، وأساسها المتين المفردات التطبيقية للشريعة الإسلامية في واقع التعامل التفصيلي، بين المسلمين في سلوكهم الفردي والاجتماعي والحركي؛ حتىٰ تبلورت في مرحلتنا الراهنة الىٰ مواقف سياسية ورسالية عندما تدخل حيّز الصراع مع مخططات الكفر العالمي، وسياساته الشيطانية في مختلف انحاء العالم.

ومن تلك المبادئ والمقولات هو مبدأ ومقولة نفي سلطة وولاية الكافرين علىٰ المسلمين؛ لعلوّ المسلمين وعزتهم بالإسلام. وهذه القاعدة الشرعية تُعرف في الفقه الاسلامي بقاعدة «نفي السبيل» المدلولة للآية الكريمة: **﴿ولن يجعل اللّٰه للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلا﴾**[1] والتي تعني حرمة كل عمل فردي أو اجتماعي، سياسي أو اقتصادي من المعاملات والعلاقات بين المسلمين والكفار؛ يوجب تسلط الكفار علىٰ المسلمين لحرمة المسلمين أفراداً ومجتمعات، وحرمة مقدساتهم وثرواتهم، ولاستلزام ذلك وهن المسلمين وذلتهم، ومنافاته لعزتهم وعلوّهم لقوله تعالىٰ: **﴿وللّٰه العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[2] حصراً واختصاصاً بهم دون غيرهم.

ونجد أن هذه القاعدة في بعدها التفصيلي مبثوثة في مفردات عديدة من الأحكام الشرعية، كحرمة إجارة المسلم نفسه للكافر، وحرمة بيع العبد المسلم للكافر؛ لاستلزامه تسلط الأخير عليه، وحرمة بيع القرآن الكريم كلّاً أو جزءاً

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) المنافقون: ٨.

للكافر؛ لأنه يستلزم تسليطه علىٰ أبرز مقدسات المسلمين، وتعريضه للإهانة والاستخفاف، فتبعاً لذلك يحكم الإسلام ببطلان الآثار الوضعية لمثل هذه المعاملات والعلاقات وفسادها. بل لقد أشار أئمة أهل البيت عليهم السلام إلىٰ شدّة هذه الحرمة بلحاظ مساوقتها لإذلال المسلمين والمؤمنين بتسليط الكافرين عليهم، وعلىٰ مقدساتهم في قول الإمام الصادق عليه السلام: **«قال اللّٰه عزّوجل: ليأذن بحرب مني من أذلّ عبدي المؤمن»**(١).

فإذا كان الملاك في مثل هذه الأحكام التفصيلية والجزئية هو عزّة المسلمين وعلوّهم، ونفي الذلّة والمهانة عنهم، فالأولىٰ قطعاً جريان ذلك فيما يتعلق بعنوان الأمة الإسلامية ومجتمعاتها من نفي تسلّط الكافرين بأي عنوان كان، وبأية وسيلة كانت علىٰ مقدراتها السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية، وكلّ تسلط يستلزم علو الكافرين وهيمنتهم علىٰ المسلمين المساوق لإذلالهم وامتهانهم، والتصرف بمقدراتهم ومقدساتهم.

ومن هنا نفهم مغزىٰ فتاوىٰ الجهاد والكفاح التي أطلقها علماء الإسلام المجاهدون ومراجع الأمة الأبرار؛ ضد كل صور التسلط والهيمنة الاستكبارية علىٰ الأمة الإسلامية، التي خطط لها الكفر العالمي علىٰ امتداد تاريخ المواجهة المباشرة، وغير المباشرة مع الاستعمار الكافر في كل مراتبه وصيغه القديمة والحديثة.

فعندما حاولت بريطانيا الكافرة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومن خلال عقد معاهدة مع النظام الملكي الحاكم في إيران آنذاك حصر تسويق التبغ بها، والإمساك بعصب حيوي من أعصاب اقتصاد المسلمين في هذه البلاد، تصدىٰ لذلك الميرزا الشيرازي الكبير، أحد كبار مراجع الأمة،

---

(١) رواية معلىٰ بن خنيس / الوسائل ٨: ٥٩١ باب ١٤٧ من أبواب أحكام العشرة ح١.

فأصدر حكمه الجهادي الشهير بحرمة تناول التبغ المسوّق من قبل الشركة البريطانية المعنية الذي عُرف بثورة التبغ، وأسقط بذلك هذه المعاهدة ونفىٰ السبيل للكافرين علىٰ مقدرات الأمة الإسلامية في إيران وتسلطهم عليها. والمغزىٰ نفسه نجده في فتاوىٰ وأحكام فقهاء ومراجع الإسلام التي أجّجت أُوار ثورة الدستور الشهيرة في إيران عام ١٩٠٦م، وفي مقدمتهم المرجع الإسلامي الكبير آنذاك السيد محمد كاظم الطباطبائي، الذي افتىٰ بوجوب الجهاد لإخراج جيوش الكفر الروسية والإنجليزية من إيران والإيطالية من طرابلس الغرب. وبالملاك نفسه أعلن علماء الإسلام ومراجع الأمة في النجف الأشرف الجهاد علىٰ قوات الاحتلال الإنجليزي عام ١٩١٧م، وإعلان الثورة المسلّحة عليها بعد الاحتلال، التي عرفت بثورة العشرين في العراق. وكان هذا الأساس هو منطلق ومنطق معارضة الإمام الخميني﴿قده﴾، ووقوفه الثوري الحازم ضد مصادقة النظام الشاهنشاهي العميل في إيران علىٰ اللائحة القانونية لحصانة الأميركان عام ١٩٦٤م، واصفاً إياها بأنها إقرار علىٰ إذلال الشعب المسلم في إيران، وهي تأكيد علىٰ استمرار الاستعمار للبلاد، ومعلّقاً عليها بالقول: «... لو تعرض خادم من الأميركان أو طباخ من طباخي الأميركان لأحد مراجعكم ورجال دينكم في الشارع، وفعل به ما فعل فإنه ليس من شأن الشرطة الإيرانية نهره ومعاقبته، ومحاكم إيران ليس لها الحق بالتعرض له أو نهيه عن مقصده، يجب عندها رفع الدعوة لأميركا، لمحاكم أميركا وعندها فالأسياد هم الذين ينظرون بها فقط!»[1].

ولأن السنّة التي تتحكم في الصراع والمواجهة القائمة بين قوىٰ الإسلام والإيمان، وقوىٰ الكفر والضلال هي ما أرشد اليها القرآن الكريم في قوله

---

(١) رجبي، محمد حسن ـ الحياة السياسية للإمام الخميني﴿قده﴾: ٢٢١.

تعالىٰ: **﴿ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتىٰ تتَّبع ملّتهم قل إن هدىٰ اللّٰه هو الهدىٰ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من اللّٰه من ولي ولا نصير﴾**[١]، فالصراع والمواجهة مستمرة بلا هوادة، ولا مناص من الثبات والصمود علىٰ مبدأ علوّ الإسلام وسيادته وعزّ المسلمين وسلطانهم، والكفاح الدائم لإقرار ذلك في كل الأحوال والأمصار، لأن اللّٰه تعالىٰ قد جعل ولايته ونصره رهناً باتّباع هداه، ولئن استسلمنا واتبعنا الكفر وأهواءه بعد الذي جاءنا من العلم ما لنا من اللّٰه من ولي ولا نصير. ويتأكد هذا عندما نكتشف أن من وراء ستارٍ خُطط كيدٍ، وألواناً من المكر، تحوكها يد الاستكبار وأذنابه، لتركيع هذه الأمة العزيزة بإسلامها عن طريق سلبها عوامل عزّها وعلوّها وأسباب صحوتها وقيامها.

ولا يخفىٰ أن تحولات كبرىٰ حصلت بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران،كان لها الأثر الحاسم علىٰ نمو وتصعيد الصحوة الإسلامية، واتساع دائرة انتشارها في أمصار الحاضرة الإسلامية، وصدع شعوبها بنداء الحاكمية الإلهية فيها، هذه التحولات الكبرىٰ أثارت كوامن الحقد الجاهلي وسعّرت غضب قوىٰ الكفر العالمي فأعادوا حساباتهم من جديد، وعدّلوا من استراتيجياتهم وخططهم لاحتواء موجة الوعي الإسلامي، والحركة الثورية الهادفة لإقامة حكومة العدل الإسلامي، ودعوة البشرية المعذّبة إلىٰ الخلاص من معاناتها والانعتاق من عبوديات الأرض والطاغوت، واستنشاق عبير الحرية الإنسانية بالإسلام المحمدي الأصيل النقي من كل أشكال البدع، وصور الزيف، التي دسّتها الأيادي الخفية لأجهزة الكفر العالمي، تارة باسم التحديث واخرىٰ باسم الدين، من خلال صنائعها في بلاد المسلمين من حكام

---

(١) البقرة: ١٢٠.

تابعين وأنظمة عميلة، وشخصيات ضعيفة وفرق ضالة طيلة سني الاستعمار ومراحله المتوالية.

وكان من أبرز ما تناولته حساباتهم وخططهم في إطار ما أسموه بالنظام العالمي الجديد الهادف لتكريس سلطة الاستكبار الكافر علىٰ العالم، هو خلق ودعم أنظمة ورموز وجماعات، تتقاسم أدواراً مرسومة لإجهاض موجة قضايا أساسية ومصيرية في واقع المسلمين وحركتهم الجهادية الرافضة لهيمنة هذا النظام الاستكباري الجديد.

ويمكننا أن نشير إلىٰ نماذج من أهم تلك القضايا المصيرية وطبيعة الاستهداف الاستكباري لها بالآتي:

أولاً: تقديم أطروحة شاملة لمشروع ما يسمىٰ بالسلام مع الكيان الصهيوني الغاصب؛ يستوعب جميع الفعّاليات السياسية والاقتصادية للبلاد العربية، انظمة ومنظمات عربية وفلسطينية، تكريساً للوجود الإسرائيلي وتمكيناً له من الهيمنة علىٰ الشعوب الإسلامية لدول منطقة الشرق الأوسط بما تمتلك من قدرات هائلة وثروات فريدة، ولاحتواء واجهاض محاولات الأسلمة للقضيّة الفلسطينية، والقضاء علىٰ حركة الجهاد الإسلامي لتحرير فلسطين كأصل من أصول التشريع الإسلامي في التعامل مع الكافر الحربي الغاصب لأرض المسلمين ورقابهم، والذي تتبناه المنظمات الإسلامية الفلسطينية المجاهدة، وتدعمها في ذلك الحركات والأنظمة الإسلامية وفي مقدمتها الجمهورية الإسلامية في إيران.

وما افتعال الأزمات والصراعات الإقليمية في هذه المنطقة، وما لازمها من عسكرة ميدانية، ومناورات متوالية لأساطيل وفرق القوات الاميركية وحلفائها، وإصدار وعّاظ السلاطين لفتاوىٰ جواز الصلح مع إسرائيل إلّا جزء

من سياسة التسلط والهيمنة الأميركية ـ الصهيونية علىٰ شعوب ودول ومقدرات هذه المنطقة الإسلامية تحت غطاء مشروع السلام.

ثانياً: تعبئة دول الغرب وخصوصاً صاحبة المصلحة المباشرة في بلاد المسلمين لعقد اتفاقيات عسكرية وأمنية فيما بينها من جهة، ومع العديد من دول المنطقة الإسلامية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وبعض دول شبه القارة الهندية وآسيا الوسطىٰ من جهة أُخرىٰ، لمواجهة ما يسمونه بالأصولية الإسلامية وتطلعاتها لإقامة الحكومة الإسلامية علىٰ هدي ونهج الثورة الإسلامية في إيران. وقد قادت أميركا حملة التعبئة هذه بشكل محموم وواسع بعد الانتصارات التي حققها الإسلاميون في الانتخابات الجزائرية، وخوضهم جهاداً مريراً ومتواصلاً ضد الحكومة العلمانية في الجزائر لإقرار حقهم في إقامة الحكومة الإسلامية، ونجاح المسلمين الأفغان في طرد الروس من بلادهم وإسقاط النظام الماركسي في افغانستان، ومحاولة السودانيين في إقامة حكومة إسلامية في بلادهم، وتصعيد حركة المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية واقامة الحكومة الإسلامية في كل من مصر والعراق والأردن، ودول الحجاز، وبعض دول شبه القارة الهندية، وآسيا الوسطىٰ وجنوب شرق آسيا. وكذلك النمو الميداني والسياسي المنظّم والواسع لحركة حزب اللّٰه الشعبية كالتي في لبنان وفلسطين وتهديدهم للمصالح الاستكبارية والصهيونية في المنطقة الإسلامية.

ثالثاً: محاصرة المد الإسلامي العالمي وتحجيم فاعليته الثقافية والحركية كأطروحة ورسالة للحياة، بدأ العالم ينفتح عليها بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران ويحاول التعرف علىٰ معالمها الفكرية والثقافية، خصوصاً بعد بروز حركة واعية وهادفة في أوساط المسلمين الأوربيين والمهاجرين في الغرب،

وتنامي الحس الإسلامي وتوق شعوب آسيا الوسطىٰ لإبراز هويتها الإسلامية الأصيلة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط الشيوعية فيها.

وقد كانت أهم مفردات هذا المخطّط الاستكباري الخبيث هي:

أ ـ شنّ حملة ثقافية وإعلامية مبرمجة لإسقاط هيبة الإسلام والاستخفاف بمقدساته وشعاراته المتميزة، بهدف عزل المسلمين اجتماعياً وسياسياً، ومحاصرتهم بألوان التهم والافتراءات، وممارسة مختلف الضغوط النفسية والسلوكية لدفعهم للتخلي عن هويتهم وانتمائهم الإسلامي، إمعاناً في إذلالهم وكسر شوكتهم، كالحملة الثقافية الإعلامية المسعورة التي شنتها مجموعة من دول أوربا الغربية ضد الحجاب الإسلامي للمسلمات في بلدانهم، والتبني المفضوح لكتّاب الكلمة الرخيصة من أهل التجديف والاستخفاف بالمقدسات، كالمرتد سلمان رشدي في إنجلترا وعزيز نيسين في تركيا وتسنيمة نسرين في بنغلادش وأمثالهم، وغير ذلك من الممارسات المدروسة والمبرمجة.

ب ـ إيجاد جو من الإرهاب الأمني، وخلق حالة سلبية حذرة لدىٰ المجتمعات الغربية من المسلمين، ومراكزهم الدينية ونشاطاتهم الاسلامية، بهدف الحد من حيويتها وخنق حركتها، خصوصاً في بلدان أوربا وأميركا التي تتميز بإقبال نحو اعتناق الإسلام وتواجدٍ لأعداد كبيرة من المسلمين المهاجرين فيها. ومن أبرز أساليبهم في هذا السبيل تسخير وسائل الإعلام المختلفة لاتهام المسلمين وبدون أي دليل مسبق بعمليات تفجير مروّعة وقتل جماعي وأعمال إرهاب عدائية، كالتي وقعت في أميركا وفرنسا والأرجنتين وغيرها. ومن أساليبهم أيضاً إطلاق عنان الجماعات العنصرية المتطرفة لقتل المسلمين، وحرق دورهم ومساجدهم ومراكزهم؛ بتهمة أنهم أجانب غرباء كما في ألمانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا والدول الاسكندنافية وغيرها.

ج ـ انتهاج أميركا وأوربا لسياسة الاحتواء والخداع والتضليل تجاه المسلمين في البلقان، بعد حرب الإبادة العنصرية وتكريس مخطط تصفيتهم العرقية، وزرع اليأس في نفوسهم من نيل الحرية والاستقلال، وكبح جماح المنادين منهم بإقامة حكومة مستقلة للمسلمين في أوربا، ولم تنفع في تغيير هذا النهج الإجرامي كل صرخات الاستنكار والاحتجاج المدوّية للرأي العام العالمي والإسلامي تجاه الجرائم المروّعة التي ارتكبها الصرب العنصريون ضد المسلمين البوسنيين، من هتك للأعراض وإبادات جماعية طالت حتىٰ النساء والأطفال، وهدم ومحو للمساجد والمكتبات التاريخية، ولكل المعالم الحضارية للمسلمين في البلقان تحت مرأى ومسمع قوات الأمم المتحدة وحلف الناتو، بل ومساهمتهما بشكل أو آخر في تحقيق أهداف هذا المخطّط الخبيث.

د ـ العمل علىٰ احتواء شعوب ودول آسيا الوسطىٰ التي استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، بهدف عزلها عن باقي الشعوب الإسلامية، والحد من درجة تأثرها بالصحوة الإسلامية وحركتها الثورية الهادفة لنشر ثقافة الإسلام، والدعوة لإرساء دعائم حكومته العادلة في بلدانهم. وقد انتهجت دوائر الاستكبار لذلك سبيل الدعم والتشجيع للحركات القومية والعنصرية، واختلاق صور من الصراع العرقي والطائفي بين بعض دولها والبعض الآخر، ودفع ودعم الأحزاب والجماعات العلمانية للإمساك بزمام السلطة، وإدارة دفّة الحكم في بلدانهم، بمعزل عن أيّ نفوذ سياسي أو دور حركي للقوىٰ والجماعات الإسلامية النامية فيها. ومؤشرات هذا المخطط جلية وواضحة للعيان، فمن أبرزها ما يجري داخل التركيبة السياسية في آذربيجان من استبعاد للإسلاميين، وتسعير للنزعات القومية وتغذية صراعها الإقليمي مع أرمينيا،

واختلاق للأزمات السياسية مع الجمهورية الإسلامية في إيران، وعين النهج نجده أيضاً في طاجيسكتان، بل إن محاولات إجهاض الانتصار الإسلامي في أفغانستان، وهي جزء من آسيا الوسطىٰ، وتحويلها إلىٰ ساحة صراع دموي بين الفصائل الإسلامية، تحرّكه ولاءات إقليمية وإيادي استكبارية هي، الاخرىٰ تصب في مخطّط الاحتواء، لزرع روح اليأس والشك في قيمة التجربة الإسلامية علىٰ أرض الواقع حتى انتهت إلى عودة أفغانستان الى عهد الاستعمار المباشر، ولكن كان أميركياً بعد أن كان روسياً، ومن قبله إنجليزياً. أما حرب القوقاز فهي مَثل صارخ علىٰ المساومة والتنسيق في إطار المصالح المشتركة بين أميركا وروسيا، لضرب المسلمين وقبر نزعات الاستقلال الإسلامي في بلدانهم.

رابعاً: إعلان أميركا وبعض دول أوربا الغربية لما يسمىٰ بالحرب الباردة ضد الجمهورية الإسلامية في إيران، باعتبارها بؤرة الثورة الإسلامية ومصدر إشعاعها العالمي وأمّ القرىٰ المعاصرة، بما في ذلك فرض الحصار الاقتصادي والعسكري الشامل لتحجيمها داخل حدودها الجغرافية، ودفع بعض دول المنطقة الإسلامية لاختلاق أزمات حدودية وسياسية معها، توجد حالة من التوتر، وجدار من الحذر؛ يقف حائلاً أمام حركة الثورة الإسلامية واستهدافها تصعيد مستوىٰ الوعي الرسالي للشعوب الاسلامية، وتغذية حسّها الثوري الرافض لسلطان الكفر والرادع لجعل السبيل له علىٰ المسلمين، وتوعيتها بما يجري حولها من خطط ومؤامرات تستهدف فرض هيمنة قواه العالمية وإحكام قبضتها الاستكبارية علىٰ مقدرات المسلمين.

وبعد فأمام حسابات قوىٰ الكفر هذه، ومخططاتهم الشيطانية المتوالية، وضرورة امساك المسلمين بطرف الولاية والنصرة الإلهية في سنّة الصراع مع

قوىٰ الكفر والضلال، ورفض التبعيّة والذلّة لهم، والخضوع لسياساتهم الاستكبارية، لابد لأهل الحلّ والعقد من علماء مجاهدين وقادة حركيين من تجنيد كلّ ما بحوزتهم وتسخيره من وسائل اعلام وتثقيف للتركيز في حركتهم التعبوية للأمة الإسلامية علىٰ وعي مبدأ نفي السبيل للكافرين علىٰ المسلمين وأمثاله من مبادئ الولاية والحاكمية الإلهية، وإثارة مشاعرها وحساسيتها الإسلامية تجاه كل سبل الاستعلاء وصور الهيمنة للكافرين علىٰ المسلمين، بالمستوىٰ الذي يخلق منها قوة هادرة وقاعدة صلبة وارادة راسخة، تقوّم كلّ حركة ثورية، وتقف ظهيراً لأية مبادرة مسؤولة يقوم بها علماء الإسلام وقادته المجاهدون في ساحة الصراع والمواجهة الملتهبة مع الكفّار والسائرين في ركابهم من حكّام ومنظمات وفرق ضالّة. فكما أن الأمة بدون قيادة ورسالة تتخبط في ظلمات السبل، فكذلك أمر القيادة والحركة الرسالية تبقىٰ شلّاء لا قضاء لها ولا مضاء بدون أمة واعية راشدة ثائرة، تحكي قوله تعالىٰ: ﴿**كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[١]، ويتنجّز بحقها الأمر الإلهي: ﴿**وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة**﴾[٢]، وعندها ﴿**يكون الدين كله لله**﴾[٣]، وتجد مقولة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهيرة «**الإسلام يعلو ولا يعلىٰ عليه**»[٤] سبيلها إلىٰ الواقع الإنساني، ويصدق القول الخالد لأمير المؤمنين علي عليه السلام أن «**لا معقلَ أمنعُ من الإسلام**»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الأنفال: ٣٩.

(٣) م.ن.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٤، باب ميراث أهل الملل.

(٥) غرر الحكم.

الفصل الثاني

قضايا

في أفق الصحوة الإسلامية المعاصرة

الثورة الإسلامية
معالم أصيلة وحركة تكامل في المطلق

مع تواصل مسيرة الثورة الإسلامية الكبرىٰ في إيران، التي قادها الإمام الخميني الكبيرﷺ، تتأصل حقائق، هي معالم كبرىٰ لهذه الثورة العملاقة، وتتخلّق يوماً بعد آخر بحيوية الرسالة الإلهية الخالدة، كما تتكامل حركتها المبدئية في المطلق، مستوعبة الزمان والمكان في مدىٰ إشراقاتها وإشعاعاتها.

ونقف بتأمل واعي لنحسب ونقوّم، بحساب ومقومات الرسالة، مدىٰ الشوط الذي قطعته الثورة في تأصيل تلك المعالم، وتكامل حركتها نحو الحق المطلق.

أما كيف نقوّم وبأيّ ميزان يتم الحساب؟ فهذا ما سنتناوله بإشارات نترك للمتتبع مهمة تقصّي أرقامها الكثيرة، ومصاديقها الوافرة من واقع الثورة ومسيرتها الجهادية المتواصلة.

إن قيمة وحيوية حركة الأمم والشعوب عبر التاريخ تقوّم بجانبين أساسيين:

الأول: نظري، يتمثل بقيمة الرسالة التي تحملها تلك الأمم، والتي تحدد لحركتها الإنسانية الهدف الأعلىٰ، وترسم لها خط السير نحوه.

الثاني: عملي، يتمثل بامتلاكها لقيادات رسالية متفانية في رسالتها وهدفها الأعلىٰ، وبمستوىٰ انضوائها ومطاوعتها لتلك القيادات، ومقدار ثباتها علىٰ

خطها الرسالي التي آمنت به.

وعليه فكلّما كانت الرسالات تنشد هدفاً مطلقاً، وتعبر علىٰ صراط مستقيم نحوه، كانت الأمم المؤمنة بها أعظم قيمة وأكبر مدىٰ، وكلّما كانت الرسالات ذات أهداف محدودة وسبل شتىٰ كانت أممها ضئيلة القيمة محدودة المدىٰ.

إن الجانب العملي من مقوّمات حركة الأمم، لا ينفصل عن الجانب النظري لها، رغم أنهما طوليان، إذ حتىٰ لو كانت الأمم والشعوب قد أعلنت إيمانها بأعظم الرسالات هدفاً ومنهجاً، ستبقىٰ شلّاء متهاوية بافتقادها لقيادة تمثل حقيقة تلك الرسالة محتوى ومنطلقاً.

من هنا نكتشف أحد جوانب الحكمة في اقتران الرسالات الإلهية بالرسل في قوله تعالىٰ: ﴿**وما نرسل المرسلين إلّا مبشرين ومنذرين**﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿**لقد منَّ اللّٰه علىٰ المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿**إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم**﴾[3]، وكذلك نكتشف الحكمة في ضرورة طاعة الرسل وأوصيائهم من بعدهم في قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّٰه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّٰه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّٰه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلاً**﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وإذ أخذ اللّٰه ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتومنّن به ولتنصرنه قال أأقررتم**

---

(١) الأنعام: ٤٨.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) المزمل: ١٥.

(٤) النساء: ٥٩.

وأخذتم علىٰ ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن اللّٰه ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا اللّٰه واستغفر لهم الرسول لوجدوا اللّٰه تواباً رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾**[٢].

بل إن كمال الرسالة وكمال حركتها في الأمم والشعوب لا يتم إلّا باستمرار القيادة الرسالية لتلك الأمم والشعوب، وهو مفاد قوله تعالىٰ في أمره لرسوله في حجة الوداع بإعلان الولاية لعليعليه السلام وأهل بيته من بعده في الآية الكريمة: **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّٰه يعصمك من الناس إن اللّٰه لا يهدي القوم الكافرين﴾**[٣]، وبعد امتثال رسول اللّٰهصلى الله عليه وآله لأمر اللّٰه بإعلان الولاية واخذ البيعة لعليعليه السلام بإمرة المؤمنين، نزلت الآية الكريمة: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[٤].

أما سرّ اختلاف الأمة الإسلامية في حركتها الرسالية بعد رسول اللّٰهصلى الله عليه وآله فيكمن في اختلافها حول المقوّم العملي، المتمثل بالقيادة الرسالية، الذي كانت نتيجته وخيمة مصداقاً لقوله تعالىٰ: **﴿وأطيعوا اللّٰه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**[٥]، وقوله تعالىٰ: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا**

---

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) النساء: ٦٤ و ٦٥.

(٣) المائدة: ٦٧.

(٤) المائدة: ٣.

(٥) الأنفال: ٤٦.

تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾**[٢].

ولولا الأدوار الرسالية لأهل البيت عليهم السلام لما بقي للإسلام اسم ولا رسم، ولأصبح أمر الأمة الإسلامية في تاريخ البشرية قصة من قصص الغابرين، وذكرىٰ من ذكريات الماضين.

ونحن هنا لا نريد أن نسبر غور وتفاصيل الأدوار الرسالية لأهل البيت عليهم السلام فهو بحرٌ خاض غماره العلماء والمحققون في آلاف الكتب والمصنفات، إلّا أننا نريد هنا أن نقوّم ثمرة من ثمار أدوارهم تلك، وهي الثورة الإسلامية الكبرىٰ في إيران، وقيادتها الرائدة المتمثلة بالإمام الخميني الكبير قدس سره، ونضع اليد علىٰ السرّ في نجاحها واستمرارها.

وهنا لا نأتي بجديد لو قلنا إن السرّ يكمن في أن هذه الثورة العملاقة وقائدها الكبير الإمام الخميني قدس سره، قد نبعا وانبعثا من عمق الرسالة الإسلامية، ومن قلب حركة أهل البيت عليهم السلام محتوىً ومنطلقاً ومسيرة وهدفاً ، إلّا أن هذا يحتاج إلى استدلال تفصيلي من واقع الثورة والامام، ولو تلمّسنا خط الثورة الذي هو خط الإمام؛ لوجدناه يحمل ذات الملامح والمعالم، التي تحكي خط أهل البيت عليهم السلام ومدرستهم الكبرىٰ.

إن معرفة معالم الثورة الإسلامية وخط الإمام قدس سره، تتم من خلال النظر إلى الأطروحات الرسالية سيرةً وموقفاً وخطابات، فإنّ تقصّي ذلك سيعطينا صورة جليّة لملامح ومعالم تلك الأطروحات الرسالية، التي من أبرزها:

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) المؤمنون: ٥٢ و ٥٣.

المعلَم الأول: عالمية النظرة والخطاب:

إن خطاب الثورة على لسان قائدها ﷺ تتساوى عنده الشعوب المستضعفة، ويكون الإنسان في وجدانه هو الإنسان أينما كان، ومظلوميته واستضعافه هما مظلومية الحقيقة التي كرّمها اللّه وأحسن خلقتها، وفي نظرته هذه، التي جاءت تخاطب الإنسان بمطلقه دون استثناء، تأصّل واندكاك بطبيعة الرسالة التي أخذ الإنسان في خطابها مركزاً أساسياً وحيوياً، ويُعدّ هذا المعلَم من أبرز معالم الثورات والقيادات الرسالية الرائدة ، فهي تدل على عظمة الرسالة، وعظمة النفوس التي حملت في دواخلها مآسي البشرية واستغاثات المظلومين، لا فرق بين أسودهم وأبيضهم، عربيهم وأعجميهم، كما تدلّ على وحدة العوامل التي استضعفت البشرية، وعلى وحدة الرؤى والنظرية التي تنقذها من هذا الاستضعاف.

المعلَم الثاني: المرونة في احتواء الزمان والمكان، ووصل الماضي بالحاضر والمستقبل:

إن الثورات وقياداتها يمكن أن يكون بعضها منحصراً بحدود الزمان والمكان الذي تعيش فيه، وربما تكون ناجحة بلحاظ هذه الحدود، بيد أن الثورات وقياداتها الأكثر عمقاً ومساحة هي تلك التي تتجاوز المكان والزمان في رؤاها وحركتها وتأثيرها، والأكفأ من النموذجين السالفين الثورات والقيادات التي تمثل في محتواها وحركتها حالة المرونة في احتواء الزمان والمكان، والامتداد الواصل بين الماضي التليد والحاضر الشاخص والمستقبل المشرق، وهي بطبيعة مهمتها ورسالتها العالمية مستوعبة لجميع المساحات ولكافة بني الإنسان، والثورة الإسلامية وقائدها الإمام الخميني ﷺ يُعدّان نموذجين فريدين للثورة والقيادة الرسالية في عصرنا الراهن؛ حيث استطاعا

بنجاح منقطع النظير أن يسبرا غور التاريخ دون أن يتجمدا فيه، أو يتكلّسا في موروثاته، بقدر ما استلهماه من أصالة معانيه وإشراقاته وتجاربه، واستثمرا ذلك كله في عملية توفيق، متحرك نحو الأهداف الكبيرة، لم يغفلا فيها الحاضر بخصوصياته، ولم يتوقفا عنده أو ينصهرا فيه، ومن هنا نجد الثورة وقيادتها الفريدة ينطلقان إلى المستقبل، وهما حاضران في كل آن ومكان.

وتبرز عظمة هذا المعلَم في سمات الثورة وقيادتها في وقت انقطع الإنسان في دوامة جهل، وعزلة عن تعاليم السماء ، وقد جدّ الكفر العالمي وأذنابه في تكريس كل ذلك في الإنسانية، فظنّ من ظنّ أن لا إبداع في تلك الرسالة، ولا أثر لها، فجاءت الثورة الإسلامية وقيادتها الربانية لتؤكدا صلتهما بالسماء، علىٰ هدي وغايات وأهداف القرآن الكريم وأهل بيت النبوة والعصمة﵈ وأن الحيوية الرسالية هذه تعبّر عن وعي تشكّل واختمر في كل هذه العوالم والمساحات، فانطلقت الثورة وقيادتها عملاقاً آتياً من كبد السماء، ومن رحم التاريخ، وسكون الحاضر، وآفاق المستقبل، ومن هنا كانت الثورة الإسلامية فتحاً مبيناً، وكانت قيادتها فذّةً، فملكتا قلوب الملايين من المسلمين والمحرومين حباً وولاءً، وأشرقت بهما نفوسهم أملاً ومثلاً أعلىٰ.

المعلَم الثالث: رفض الظلم والثورة علىٰ الاستكبار:

في ضوء المعلَمين الأول والثاني رأينا خطاب الثورة والإمام﵀ يصنّف الناس إلى فئتين:

فئة مستكبرة، وفئة أخرىٰ مظلومة مستضعفة، وبينهما أفكار ومناهج وأنظمة؛ هي سبب المآسي والمحن والبلاء التي تعيشها البشرية اليوم، ومن هذا المنطلق تحدد الثورة، ويدون الإمام نظريته علىٰ أساس تشخيص الأسباب والعوامل التي تنقذ الإنسان من عبوديته ورقّه لغير اللّه، فيقول الإمام﵀ في

وصيته: « والقرآن والسنة مشحونة بالنصوص المعنيّة بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية... لقد أسس نبي الإسلام ﷺ حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتاز عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وبسطها »[١]، ولهذا لابد من تحديد الوسيلة بخطاب شامل لإقامة العدالة الاجتماعية وبسطها، وهنا ينفذ الخطاب الواعي إلى أعماق الحقيقة الإنسانية المقهورة، ليأخذ دوره في التحريك والتحريض المقدّس للرفض والثورة، فيقول ﵀: « فانتفضوا يا مستضعفي العالم، وأيتها البلدان الإسلامية، ويا أيها المسلمون، وانتزعوا الحق بقوة »[٢].

المعلَم الرابع: الانبثاق الحيوي للرسالة الإسلامية وغاياتها:

إن ديمومة نهج الثورة الإسلامية وقدرتها علىٰ الاستمرار والمواكبة، قائمتان علىٰ تمثلهما الفكري والسياسي، وانبثاقهما الحي عن الرسالة الإسلامية وغاياتها، فما دام ذلك الانبثاق الحي للرسالة وغاياتها قائماً في نهجها، وما دامت مقولاتها وبرامجها منتزعة من حقيقة الرسالة الإسلامية وشموليتها، وما دامت تتعاطىٰ مع ثوابت الواقع المستهدف بالرسالة، فإنها دون شك تحمل معها ديناميات الحياة والتكامل، وسيحكم عليها بالاستمرار والبقاء، تلاحق الزمن وتلبّي حاجات الإنسان في مستوىٰ أهدافه الكبيرة وحاجاته المتجددة، تماماً كحركة مدرسة الرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﵈، ولهذا فإن استمرارية نهج الثورة الإسلامية ليس شيئاً نحاول أن نفرضه، أو نتلمّس الاستدلال عليه، وإنما هو تعبير عن العلاقة الجدلية التي أشرنا اليها، فهذه

---

(١) الوصية الإلهية السياسية للإمام الخميني (قدسره).

(٢) م. ن.

السمة حقيقة ملازمة لطبيعة فكر الثورة ومحتواها، فمنهجها مستمد من الطبيعة الرسالية للإسلام في محورية ثقليه الالهيين: (القرآن الكريم والعترة الطاهرة)، حيث كتب لهما البقاء والديمومة والرسوخ، وهذا ما أثبته الواقع إلى يومنا الحاضر.

المعلَم الخامس: الأمة ثقل أساسي في حركة الثورة:

إن الثورات والانقلابات السياسية في عالمنا المعاصر، غالباً ما تقوم وتستند علىٰ واحد أو أكثر من مفردات العمل السياسي المألوفة في أوساطها، كالنخبة أو الطبقة أو الحزب أو العسكر وأمثالها، حتى ارتكز لدىٰ الشعوب والأمم أن أية ثورة أو انقلاب سياسي ـ وإن تذرّع القيّمون عليه بالشعارات الجماهيرية والإنسانية ـ ليسا أكثر من حركة سياسية، تبلورت في أجواء معينة محدودة، وتحركت في مجال محسور عن القاعدة العريضة للجماهير، ثم تكون حكراً علىٰ الفئة صانعة الحدث الثوري أو الانقلابي، وتكون الأمة والجماهير في معزل عن الأحداث، وقد تذوق الأمرّين من نظامها السياسي الجديد الذي قاده وتربّع علىٰ سدّة حكمه الثوار والانقلابيون الجدد، فالأمة مجرد وسيلة وواسطة ينتهي دورها بعد حين، لتدفع فيما بعد قوائم الحساب التي تلزمها في عهد حكوماتها أو أنظمتها الجديدة.

أما في نهج الثورة الإسلامية وقيادتها الربانية، فالأمر يختلف تماماً، إذ يكون للأمة الثقل الأساسي والدور الأول والأخير في صناعة الثورة وتقرير مستقبل النظام السياسي الذي اختارته، ثم مراقبة سياساتها، وتقويم المعوّج منها ضمن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسم جميع الأمور لصالح قضاياها الأساسية وأهدافها الرسالية، بشكل مباشر أحياناً أو غير مباشر أحياناً أخرىٰ، حسبما يقتضيه الموقف، ويحدّده الدستور المدوّن

أساسياً لضمان مصالح الأمة وتحقيق أهدافها الرسالية.

فمن ثوابت الثورة الاسلامية أن الأمة هي القوة الحقيقية التي لا يمكن إغفالها وتجاوزها، أو التنكر لقضاياها ومصالحها العامة، وهي في مبانيها حقيقة، تتكامل مع حقيقة الدافع الإلهي والإمداد الغيبي؛ لأجل صنع الثورة وإقامة حكومتها وديمومتها، وإن أحد هذين العاملين بمفرده لا يحقق النتيجة المرجوّة، ويصدّق ذلك قائد الثورة الإمام الخميني ﴿ في قوله: « يقين أن سر ديمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر انتصارها، والأمة تعلم ماهية هذا السر وأين يكمن، والأجيال الآتية ستقرأ في التاريخ أن دعامتي هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي والغاية السامية للحكومة الإسلامية، والتفاف الشعب في أرجاء البلد بكلمة واحدة حول هذا الدافع وتلك الغاية»[(١)].

هذه هي خلاصة لأبرز معالم الأصالة والتكامل في الثورة الإسلامية الكبرىٰ، التي بها يتنقّح ملاك الجعل الإلهي للأمة الوسط، ويتمُّ لها ولقيادتها الربانية مقام الشهادة الرسالية علىٰ الناس كافة، ويصدق قوله تعالىٰ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[(٢)].

* * *

---

(١) م. ن.

(٢) البقرة: ١٤٣.

الثورة الإسلامية ونظام القوىٰ العالمي

إن نظام القوىٰ الذي يحكم العالم أغلب سني القرن العشرين، يُدّعىٰ أنه مقوّمٌ بمجموعة عوامل أساسيّة، تصوغ المعادلة السياسية العالمية وفق مبدأ يصطلح عليه ـ في عالم السياسة ـ بمبدأ التوازن الدولي، ويعرّفون هذا المبدأ بأنه نظام لاتحاد القوىٰ، وفق نظرية سياسية تقوم علىٰ أساس مبدأ الحفاظ علىٰ ميزان القوة بين دول العالم، بالشكل الذي يحقق السلام والاستقلال لجميع هذه الدول ، ويمنع من استئثار دولة معيّنة، أو محور دولي متحالف بالنفوذ، وبسط السيطرة علىٰ الدول الأخرىٰ من خلال القوة العسكرية المتفوقة.

لقد تطورت هذه النظرية، وتبلور مبدأها المسمىٰ بتوازن القوىٰ الدولي، ضمن الظاهرة التأريخية للسياسة الغربية المليئة بالحروب والمآسي. وكانت أولى بوادرها هي معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨م؛ حيث برز مبدأ المفاوضات السياسية إلى جانب أسلوب الحرب في حسم الخلافات بين الدول الغربية، ثم أعقبتها صيغة أخرى أكثر تطوراً في حرب القرم عام ١٨٥١م، عندما تحالفت فرنسا وانجلترا وسردينيا، لمساعدة الدولة العثمانية ضد التوسع الروسي باتجاه المضايق، وكذلك ما حدث عام ١٨٧٠م بعد هزيمة فرنسا، ونشوء الامبراطورية الألمانية من مجموعة الممالك والإمارات الجرمانية، وتحالفها مع النمسا وإيطاليا، الأمر الذي أدّى بدوره الى تكوين تحالف في مقابل ذلك،

جمع كلاً من روسيا وفرنسا وبريطانيا. وقد حصل هذا إبّان الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ولعل الدعوىٰ التي دفعت المجتمع الدولي لالتزام نظام توازن القوى، والتمسك به كمبدأ في ضبط العلاقات الدولية، هي السيطرة على حالة الصراع المستمرة بين الدول، بسبب عوامل الاختلاف بينهما، المتمثلة فيما يسمى بالمصالح القومية من جهة، واندفاع كل دولة لامتلاك تفوق متميز في القوة؛ للحفاظ على مصالحها القومية تلك من جهة اخرى. ومن هنا تضطر الدول المحدودة القوى إزاء خطر تحدّي القوة الكبرى، إلى الدخول في ائتلافات وتحالفات مع قوى أخرى، تشكل بمجموعها قوة موازنة أو شبه موازنة لتحدي تلك القوة الكبرى. وهكذا يفترض بهذا المبدأ تحقيق أثرين هامّين على الصعيد الدولي العام:

الأثر الأول: حفظ السلام الدولي.

الأثر الثاني: حماية استقلال الدول الأعضاء في تلك المحاور والتكتلات.

ومن هذا يتضح أن الصورة التقليدية لمبدأ توازن القوىٰ يستند علىٰ ركيزتين أساسيتين:

١ ـ إن الدول الأطراف في تجمعات ومحاور القوىٰ المضادة يجمعها هدف واحد، هو الإبقاء علىٰ الاستقرار السائد في علاقات القوىٰ، وردع العدوان.

٢ - إنه في أي موقف دولي يُحقّق هذا التوازن عن طريق قدرة هذا النظام ـ أي نظام القوىٰ ـ علىٰ توليد ضغوط متعادلة ومتعاكسة، وبذلك يمكن تفادي حدوث أي اختلال غير مرغوب فيه في علاقات القوىٰ هذه.

ويُدّعىٰ أيضاً أن لتوازنات القوىٰ ـ بالمفهوم التقليدي المذكور ـ سواء في

الإطار الإقليمي أو الإطار العالمي نوعين:

١ ـ **التوازنات البسيطة للقوىٰ**: وهي حالة التكافؤ النسبي القائمة بين دولتين أو بين مجموعتين من الدول متعادلتي القوىٰ.

٢ ـ **توازنات القوىٰ المعقّدة أو المتعددة الأطراف**: وهي التوازنات القائمة بين مجموعات قوىٰ كثيرة، وتعمل هذه التجمعات علىٰ موازنة بعضها البعض، ولا توجد حدود قصوىٰ؛ يقف عندها عدد هذه المحاور والتجمعات في ظل النظام المتعدد لتوازن القوىٰ.

حقيقة توازن القوىٰ الدولي

رغم ما سيق من جوانب إيجابية لسياسة توازن القوىٰ في العلاقات الدولية، تكشف لنا الحقيقة علىٰ أرض الواقع، أن فكرة التوازن هذه تحولت عن صورتها التي نظّرت بها، ولم تصبح إلّا لعبة لمراكز القوىٰ المتفوقة في المجتمع الدولي، وبذلك فقدت هذه السياسة منطقها الذي أسست عليه، رغم ما ورد عليه من مؤاخذات، وهو الاعتقاد بوجود علاقة ارتباط إيجابي بين سياسات توازن القوىٰ من جهة، وتحقيق الاستقلال والسلم الدولي من جهة أُخرىٰ.

ثم إن أبرز الأسباب وراء ذلك ـ سواء كانت كامنة في طبيعة هذا المبدأ أو مقترنة بالواقع الحقيقي له ـ هي:

١ ـ أن الطريقة التي يُفترض سلوكها لتحقيق توازن القوىٰ؛ قائمة علىٰ أساس حساب القوة في كل دولة، وفي كل تحالف، وهذا الحساب ليس كمّياً وحسب، بل هو مركب من العوامل الكمية والكيفية في وقت واحد، وعلىٰ ضوء ذلك يتم إعادة التوازن بين القوىٰ كلما حدثت حالة اختلال فيها، وعليه لابد أن تكون مقاييس الحساب ومعايير التقدير واحدة لدىٰ كل هذه الدول

والتحالفات، سواء في النواحي السكانية أو الجغرافية أو التسليحية أو غيرها. الأمر الذي يحتاج إلى الدقة واليقين ، وهذا ما لا يمكن توفره في حالات الصراع البسيطة، فكيف يتم في حالات الصراع المعقّدة والمتطورة؟ خصوصاً إذا اخذنا بنظر الاعتبار عامل القدرات والتسليحات السريّة.

وعلىٰ هذا ستبنىٰ التقييمات علىٰ التخمين لا علىٰ الحقيقة والواقع، فلا يتحقق التكافؤ الفعلي أو الحقيقي في توزيعات القوىٰ، وستكون النتيجة عبارة عن توازن وهمي، لا يلبث أن تظهر آثاره علىٰ شكل امتداد في النفوذ، وبسط السيطرة بأشكال تتناسب وطبيعة القوىٰ المتفوقة من جهة، ومع طبيعة القوىٰ المستضعفة وأهميتها الاستراتيجية من جهة أخرىٰ. إذن لا استقلال ولا سلام دولي؛ لأن التوازن المحقق لهما حسب الفرض وهمي، فنتائجه وهميّة أيضاً.

٢ ـ المفروض أن تقويم نظرية توازن القوىٰ، يتم علىٰ أساس أن الحالة القائمة بين الدول، وروابط بعضها مع البعض الآخر، متحركة ومنفعلة بعوامل القوة المباشرة فقط (جغرافية، سكانية، عسكرية)، وهذا سوف يحصرها في دائرة فرضيّة غير واقعية؛ حيث إن عوامل أساسية أخرىٰ تلعب دورها في التأثير علىٰ طبيعة العلاقات، والروابط القائمة بين تلك الدول والتحالفات، ومن أبرزها العامل الاقتصادي، الذي تطور تطوراً كبيراً ومعقّداً، بشكل جعل منه عاملاً حاسماً في أغلب الحالات، لتغيير موازين القوىٰ، والدخول في تحالفات جديدة من أجل تحقيق أعلىٰ درجات السيطرة علىٰ الاقتصاد العالمي، ومن ثم بسط النفوذ والسيطرة السياسية علىٰ بلدان العالم المستضعف.

ونحن نشاهد اليوم كيف تهيمن مراكز القوة الاقتصادية ـ كشركات النفط العالمية والمجموعات الصناعية الكبرىٰ ـ علىٰ السياسة الدولية، وتمارس دورها في تسيير دفة سياسات كثير من الدول القوية لصالح أهدافها

الاقتصادية. وهذا يعني أن مسألة الاستقلال والسلام الدولي، مسألة ثانوية أمام المصالح الاقتصادية الكبرىٰ، بل إن التوازن في القوىٰ سوف لن يتحقق؛ لأنه سيصبح تحت رحمة العامل الاقتصادي، الذي يبدو أنه لا تحدّه حدود دولية.

٣ـ أن الأساس الآيديولوجي الذي تقوم عليه الدول وتتبناه مجتمعاتها، يشكّل عقبة كبيرة في طريق تحقيق توازن حقيقي للقوىٰ، بحيث يثمر استقلالاً وسلاماً دولياً حسب الفرض، خصوصاً إذا كانت التحالفات قائمة بين دول متعارضة ومتضادة في آيديولوجياتها الفكرية. إذاً لا يخلو أن تسلك هذه الدول أحد مسلكين: إمّا قيام حكوماتها بقسر مجتمعاتها، وإجبارها بالقوة علىٰ الرضوخ لهذه التحالفات الجديدة، أو العمل وفق خطة بعيدة المدىٰ لتغيير مجتمعاتها، واستيعابها ضمن الآيديولوجية الجديدة، وتغطيتها بزخم إعلامي هائل يخلق رأياً عاماً يتسق وإياها، وليس هذا إلّا تبعيةً بأبشع صورها، ومسخاً لهوية المجتمعات ومبادئها، وتهديداً في الصميم للسلام الحقيقي. وأبرز الأمثلة علىٰ ذلك ما نراه اليوم في واقع أغلب حكومات عالمنا الإسلامي، حيث إنها في سبيل أن تدخل ضمن لعبة التوازن الاقليمي أو الدولي، تعمد إلى تهيئة أرضية الاستجابة والتفاعل مع خطواته ومشاريعه، عن طريق تقويض الأسس الفكرية والأخلاقية للشعوب الإسلامية، وربطها بالمسار الفكري والخُلقي للدول التي دخلت في تحالفات قوىٰ معها. لذا تجد أن كلّ مركز قوة كبرىٰ قد جنّد كافة إمكاناته الإعلامية والثقافية؛ للسيطرة علىٰ اكبر حجم ممكن من الرأي العام، في إطار المناطق الاقليمية الخاضعة لها مباشرةً، أو في المناطق الاقليمية التي تحاول أن تمتد إليها، ضمن عملية الصراع من أجل التفوق والامتياز الدولي.

٤ـ إن مجموعات دولية معينة حاولت أن تشكّل فيما بينها تكتلاً أو تحالفاً، يضمن لها القدرة علىٰ تكوين القوة الموازنة للقوىٰ الكبرىٰ، وبذلك تساهم في تصحيح أيّ اختلال، أو ردع أيّ عدوان يحصل عليها، خصوصاً في الأزمات الدولية الحادة، ولكنها وجدت نفسها ـ من خلال الاستهداف الآيديولوجي والاقتصادي الموجّه نحوها ـ أنها لم تعُدْ قوة موازنة فعلية، بل انحلت إلى قوى تابعة وذائبة في إطار القوىٰ الكبرىٰ المهيمنة علىٰ الساحة الدولية. ومن أمثلة ذلك حركة عدم الانحياز، ومنظمة الدول الأفريقية، وجامعة الدول العربية. بل إنّ بعضها أصبح شكلاً وأسلوباً، تمارس القوىٰ الكبرىٰ من خلاله دورها في النفوذ والسيطرة علىٰ الدول الأعضاء فيها، وبذلك فقدت هذه الدول قدرتها علىٰ تحقيق أمنها واستقلالها الذاتي، وأصبحت تحت رحمة تلك القوىٰ الكبرىٰ.

٥ ـ أثبتت التجربة علىٰ أرض الواقع، أن الدول المتصارعة التي تتبنىٰ الآيديولوجية المادية النفعية في صراعها الدولي، تنظر دائماً إلى الأزمات الدولية من منطلق ما يسمىٰ بالمصلحة القومية، أو الاقليمية الخاصة بها، وليس من منطلق حفظ المصلحة العامة للمجتمع الدولي، وهذا يعني أن التوازن العالمي للقوىٰ لا يمثّل قيمة حقيقية متّفق عليها من قبل تلك الدول، بل هو قيمة نسبية طردية في علاقته بالمصلحة القومية أو الاقليمية الخاصة. وما نشاهده اليوم من عمليات غزو واحتلال، تقوم بها دول كبرىٰ متفوقة لدول أُخرىٰ مستضعفة، لأوضح دليل علىٰ ذلك. إذاً فمسألة الاستقلال والسلام الدولي هي الأخرىٰ لا قيمة حقيقية لها، بل هي رهينة بمصالح تلك الدول الكبرىٰ المهيمنة علىٰ مقدّرات الساحة الدولية.

٦ ـ لو بحثنا في تاريخ الحروب منذ طرح مبدأ توازن القوىٰ الدولي ؛

لوجدنا أن أغلبها نشأ بسبب اعتقاد بعض الدول، الأطراف في توازن القوىٰ، بالامتياز والتفوق في بعض جوانب القوة لديها، لذا لم تتردد عن إثارة الحرب كوسيلة للوصول إلى تحقيق أهدافها، للمزيد في بسط النفوذ والسيطرة علىٰ دول العالم الأخرىٰ، وبهذا الأسلوب يبدو أن مسألة الاستقلال والسلام الدولي لا تخضع للمعادلة النسبية من قبل بعض أطراف توازن القوى المزعوم. ولمّا كانت حالات الاعتقاد بالتفوق والامتياز من المسائل المتحركة في إطار فرص التحولات السياسية، المدعومة بعوامل الإثارة الإعلامية من الخارج، والصراعات السياسية في داخل كل دولة.

إذاً فالحروب مستمرة، والاستقلال والسلام الدوليان مهددان باستمرار. والأمثلة كثيرة علىٰ ذلك، منها الحرب الفيتنامية، والحرب الكورية، والعدوان الثلاثي علىٰ مصر عام ١٩٥٦م، والغزو الإسرائيلي لأراضي ثلاثة بلدان عربية مجاورة لها: (مصر والأردن وسوريا)، واحتلال أجزاء منها، وهو ما سمي بحرب الأيام الستة في حزيران عام ١٩٦٧م، وكذلك الغزو السوفياتي الذي تلاه الغزو الأمريكي لأفغانستان، وغيرها.

الخيارات المحدّدة في لعبة التوازن الدولي

إن الواقع الدولي اليوم يُقرأ لنا هكذا:

أولاً ـ هناك قوىٰ مركزية كبرىٰ أفرزها الصراع الدولي، واعترفت بامتيازها وتفوقها كافة دول العالم، وأقرّت لها بذلك في إطار المنظمات الدولية العامة، وعلىٰ رأسها منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومنحتها حق النقد علىٰ قراراتها. وهذه الدول هي: الولايات المتحدة الأميركية، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والصين.

ثانياً ـ قوىٰ ثانوية تدور في فلك هذه القوىٰ الكبرىٰ، ضمن أحلاف

ومعاهدات عسكرية استراتيجية، كدول المنظّمة لحلف الناتو الذي تتزعمه أميركا، والدول المنتمية للتحالفات الإقليمية الخاصة.

ثالثاً ـ دول إما خاضعة من خلال تحولها إلى قواعد عسكرية للقوىٰ الكبرىٰ، وإما خاضعة لمعادلة متوازنة علىٰ طريقة تقسيم النفوذ لأسباب استراتيجية: (عسكرية أو اقتصادية أو سياسية أو مجتمعة كلاً أو بعضاً).

إذاً هناك طوق مضروب، لا تستطيع أية قوة أو دولة في العالم أن تخرج عنه، وليس لها أن تختار إلّا ضمن هذا الطوق، فأمّا أن ترتبط بالقوىٰ الكبرىٰ بشكل مباشر، أو تخضع لمعادلة توازن نسبي لنفوذ هذه القوىٰ الكبرىٰ.

أمّا إذا قرأنا نحن هذا الواقع بتجرد وموضوعية؛ فنجده يتمثل بظاهرتين رئيستين:

١ ـ ظاهرة تمركز الاستكبار الدولي، من خلال محورية القوىٰ بكل أشكالها: (سلاح، وتكنولوجيا، وإعلام متطور، واقتصاد، الخ) في إطار التحالفات الاستراتيجية للقوىٰ الكبرىٰ.

٢ ـ السيطرة علىٰ دول ما يسمىٰ بالعالم الثالث، بطريقة توزيع الأدوار للقوىٰ والتوازن، ضمن معادلة تقسيم حجم النفوذ في إطار المحاور الاستكبارية، وتكريس ذلك من خلال عوامل التجزئة السياسية إلى دول صغيرة، ومسخ الجانب الفكري والحضاري الذي تتميز به، وافتعال الصراعات فيما بينها إمعاناً في إضعافها، وتقنين أنظمتها علىٰ أسس الاستبداد والقمع لشعوبها؛ منعاً من بروز أية ظاهرة تمرد مباشر أو غير مباشر للخروج عن سيطرتها، وتحديد القدرات العلمية والاقتصادية لها، إلى المستوىٰ الذي لا تستطيع أن تفلت عن عجلة المحاور الاستكبارية في كل مقومات وجودها.

محاولات اختراق نظام توازن القوىٰ العالمي:

إن هناك ادعاءات عدم انحياز، وتحرر من أطر هيمنة المحاور الاستكبارية، لا تتجاوز مجال الشعار والنظريات السياسية في سوق الدعاية والإعلام، لامتصاص انفعالات الشارع السياسي لحركة الشعوب التواقة للحرية والاستقلال. ولكن هذا لم يعدم وجود محاولات جادة، كان لها صدىً أوسع من الدائرة القطرية التي انطلقت فيها، ومن أبرزها ما يلي:

أ ـ محاولة ماوتسي تونغ:

لقد شخّص هذا الزعيم الصيني طبيعة هذه الثنائية في المعادلة السياسية للمجتمع الدولي، واعتبرها وهماً وخداعاً، ودعا إلى رفضها مؤكداً أن كل ما تتمخض عنه حركة التحرر العالمية، من انتفاضات وثورات وحروب ومعاهدات وأزمات، ماهي إلّا نتاج صراع شامل؛ بين فكرين وحضارتين متنافرتين تنافراً حادّاً، هما: فكر وحضارة الشرق، وفكر وحضارة الغرب، وصنّف كلاً من اميركا وحلفائها والاتحاد السوفياتي وحلفائه في الخانة الغربية الاستعمارية ، وميّز الشرق بالتاريخ الحضاري المعطاء، والنزعة الإنسانية السامية. أما الغرب فعقيم جدب روحياً، وتاريخه عبارة عن تجسيد عملي لقهر الإنسان واستغلال الآخرين. إلّا أن نظرية ماوتسي تونغ هذه لم تلبث أن توارت، وطويت في خضم المؤثرات والتفاعلات الأساسية للسياسة الدولية القائمة؛ لأنها لم تخرج عن أصول الفكر المادي الذي يتقوم به أطراف المحاور الاستكبارية، ثم أنها بقيت أسيرة الطرح النظري، الذي تجاوزه الواقع بعد هزيمة المادية الماوية في الصين.

ب ـ التجربة الرائدة للإمام الخميني في الثورة الإسلامية:

لقد برز الإمام الخميني قائداً للأمة الإسلامية، ورائداً إنسانياً لكل الشعوب

التي تتطلع إلى الحرية والكرامة والاستقلال، وانطلق بثورته هذه من ثـوابت حقيقية، استطاع بكفاءته النادرة أن يركّب منها قوة جبارة، أطاحت بأكبر نظام سياسي عسكري يعتمد عليه الاستكبار في تنفيذ مخططاته، فيما يسمىٰ بمنطقة الشرق الأوسط، بل نظام يعتبر نقطة ارتكاز في السيطرة علىٰ هـذه المـنطقة، وأحد العوامل الأسـاسية فـي حـفظ التـوازن الدولي القـائم بـين المـحاور الاستكبارية. وأبرز هذه الثوابت هي:

١ ـ تعميق الآيديولوجية الإسلامية الضاربة فـي عـمق وجـدان الشـعب المسلم في إيران، ورفعها إلى سـطح العـمل السـياسي الشـامل، مـن خـلال أُطروحته للحكومة الإسلامية.

٢ ـ الاعتماد الرئيس علىٰ تعبئة القطاع الواسع للأمة في إيران، في التصدي والثورة بقيادة علماء الدين المجاهدين المنتشرين في البلاد، دون الاقتصار علىٰ القوىٰ السياسية التقليدية، التي قد تتعرض للضغوط والتحريف أو الإبادة والتصفية.

٣ ـ الرفض القاطع لنفوذ وهـيمنة أيٍّ مـن المـحاور الاسـتكبارية، عـلىٰ مقدرات وثروات الشعب المسلم في إيران، ورفض كل خضوع كرّسته هـذه المحاور من خلال لعبة التوازن الدولي، منذ دنّست أقدامهم أرض المسلمين. وقد جسّد ذلك فعلاً سياسياً بشكل حاسم وجذري، من خلال الشعار السياسي الهادر من أفواه الملايين من أبناء الشعب المسلم في إيران، ومن خلال قطع كل عوامل النفوذ: (سياسية واقتصادية وعسكرية وإعلامية وغيرها)، في واقع النظام الإسلامي الجديد. ولعل أبرز الخطوات في هذا المجال، هـي سـيطرة الشعب علىٰ السفارة الأميركية في طهران، باعتبارها وكراً للتجسس، وتصفية عملاء الاستخبارات السوفياتية والبريطانية في إيران.

وبعد الانتصار الإسلامي الرائع والفريد، الذي أثار إعجاب كافة شعوب العالم وسياسييه، وقيام الجمهورية الإسلامية في إيران، انتقلت نفس الرؤية البعيدة للإمام الخميني ، وبنفس الثوابت الحقيقية لها، إلى دائرة الأمة الإسلامية والعالم المستضعف، وبذلك برزت فكرة الصراع مع الاستكبار العالمي بكل صوره وأشكاله، كمشروع يجب أن يتم، وهو ما سمي فيما بعد: بتصدير الثورة الإسلامية، وعُنونت فكرة هذا الصراع علىٰ اساس أن طرفيه هما: عالم المستكبرين والمترفين والطواغيت، وفي قباله عالم المستضعفين والمحرومين والمقهورين. وتجسدت رؤية الإمام الخميني في هذا المشروع بضرورة تعبئة الجماهير المستضعفة، ودفعها للثورة علىٰ طواغيت الاستكبار وعملائه، وهو بذلك يدعو إلى إسقاط كل محاور الاستكبار العالمي، وتحطيم كل مرتكزاته ولعبه الدولية، وفي مقدمتها لعبة توازن القوىٰ الدولي علىٰ الطريقة الاستكبارية.

٤ـ الأسلوب الثوري الواقعي الذي يعتمد ـ بعد اليقين ـ الاندفاع بقوة إلى الأمام، وعدم التراجع خطوة واحدة إلى الخلف.

٥ ـ اعتماد طريقة تكثيف الجهود نحو أهداف مركزية مرحلية في واقع الصراع السياسي، وعدم الدخول في أية إثارات تتعدىٰ هذه الأهداف، إمعاناً في تضليل العدو، وتعجيزه عن التخطيط لاحتواء الثورة وإحباطها، وحشد أكبر حجم من الجهود والقوىٰ السياسية، ووقايتها من التشتت والاختلاف فيما لم يحن وقته. ويكفي للإيضاح الإشارة إلى سلوك الإمام الخميني قبل الانتصار؛ فقد كان يمتنع عن الخوض في دائرة أوسع من بيان ظلم الشاه، وفساد نظامه القائم على العمالة للاستكبار، وضرورة خروج الشاه من إيران.

النظرة التقويمية للمشروع:

إن النظرة التقويمية لهذا المشروع علىٰ أرض الواقع، تلاحظ من زاويتين رئيسيتين:

١ ـ إن النظام الدولي القائم «المحاور الاستكبارية» رغم احتكاره للساحة الدولية، واستئثاره بالمصالح النهائية في حركتها، وتمركز وسائل القوة: (سلاح، وتكنولوجيا، وإعلام متطور، واقتصاد، وغيرها) في قبضتِهِ، لا يعني أنه مطبق علىٰ كل جزئيات الواقع السياسي المتحرك، بدليل انتصار الثورة الإسلامية، وقيام الجمهورية الإسلامية في إيران، التي استطاعت أن تخترق هذه المعادلة، وبدليل النهضة العالمية للشعوب المستضعفة، التي نشاهدها اليوم؛ وهي تدعو للأصالة والتحرر من كل أنواع الاستعباد، ثم الصحوة الإسلامية التي تدعو للأصولية الإسلامية، الرافضة لكل أنواع التبعية والسيطرة بطريقة الاستعمار والاستعباد.

٢ ـ إدراك دوائر المحاور الاستكبارية لخطر هذه الثورة وقيادتها الرسالية، وتأكيدها علىٰ أنها قد اختُرقت بالثورة الإسلامية، وأنها مهددة بصراع حضاري وأيديولوجي، يستهدف تقويض كل ما بنته وشيّدته فكرياً وسياسياً واقتصادياً علىٰ حساب الشعوب المستضعفة. وفعلاً وقع التهديد المرتقب، وبدأ الصراع بين معسكر المستضعفين ومعسكر المستكبرين، وهو صراع جذري من أجل الوجود والبقاء، ولابد أن يندحر أحدهما ويسقط صريعاً في الميدان. إننا نرىٰ أن نهاية معسكر الاستكبار ليست كامنة في تناقض تركيبته الداخلية وحسب، بل إن تحولات جذرية حصلت في الاتجاه العام لفهم الشعوب، وإدراكها لمصلحتها وحقوقها المشروعة، وتأثرت تبعاً لذلك طريقة ارتباط هذه الشعوب بأنظمتها الحاكمة، وبالتالي في الموقف من مسار هيمنة الدول

المستكبرة عليها، وأسلوب التعامل معها.

إن أهم المؤشرات علىٰ ذلك هو بروز الإسلام من أفق الثورة الإسلامية في إيران، كحركة وثورة علىٰ المسرح السياسي، وتعامله علىٰ أنه القوة الحقيقية القائمة علىٰ أساس قدرات الأمـة الإسـلامية، وإرادة الشـعوب المسـتضعفة المتطلّعة للحرية. ولهذه القوة كلمتها وموقفها في شؤونها الخاصة، وفي كل ما يجري في الأوساط الدولية سلباً وإيجاباً، وهذا يعني أن آثاراً ستترتّب علىٰ ممارسة هذه القوة الجديدة لدورها الرسالي، من أبرزها:

١ ـ ضرب مبدأ توازن القوىٰ الدولي الاستكباري في الصميم، وهذا يعني الخروج عن نفوذ جميع القوىٰ الكبرىٰ ولعبها الدوليـة، فـتضطرب المـعادلة، وتختل الموازنة القائمة بين نفوذ ومصالح هذه القـوىٰ، وعـندها سـتضطرب العلاقات، وتزداد حدّة الحـرب البـاردة بـينها، بـل إنّ التأزم الدولي لقـوىٰ الاستكبار سيزداد، كلما ازداد إصرار وعزم الثورة الإسـلامية عـلىٰ الرفـض والتحدي له، ومدّ مواقع المستضعفين في العالم بكل عوامل الثورة والصمود.

٢ ـ طرح نموذج ومثل أعـلىٰ تـنشدّ نـحوه كـافة الشـعوب المسـتضعفة، وتستهدي تجربته الرائدة وانتصاراته المتوالية. وقد ساعد عـلىٰ تـغذية هـذا التوجه دخول الأسلوب الثوري الإسلامي في أهم المحافل الدولية «كالأمم المتحدة، وحركة عدم الانحياز، ومنظمة الأوبك، وغيرها»، كما برز الأسلوب الثوري في اصطباغ أداء أغلب الشعائر والممارسات الإسلامية بـه، كـصلاة الجمعة (العبادية السياسية) ومسيرة البراءة من المشركين فـي الحـج، ويـوم القدس العـالمي ونـحوها، وهكـذا الحـال فـي وسـائل الإعـلام المـتنوعة والمؤتمرات العلمية والثقافية. وهذا يعني أن تياراً جديداً سيطغىٰ علىٰ الواقع السياسي، ومنطقاً جديداً سيظهر في التعامل. ذلك هو منطق الثورة الإسلامية

وحركة الشعوب الثائرة الذي نجد نماذجه البارزة في التيار الجهادي الإسلامي الذي يقوده حزب الله في لبنان والحركات الإسلامية في فلسطين.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[١].

* * *

---

(١) البقرة: ١٤٣.

الثقلان المباركان
محورا الحركة التغييرية للإمام الخميني قدس سره

إذا كان التعرف علىٰ الإمام الخميني الكبير قدس سره يتم من خلال النظر إلى تاريخه الجهادي سيرةً ومواقف وخطابات؛ فإن اقتفاء أثره وتلمّس أبعاد شخصيته ومنهجه التغييري من خلال وصيته الإلهية السياسية أمر غير عسير، سيّما إذا لاحظنا طبيعة الوصية التي اتصفت بالسعة والشمول، والتي تعدّ في محتواها خلاصة لخطه الإسلامي الرائد، وصورة مجسّدة لمنهجه التغييري الأصيل، حيث حرص الإمام الخميني قدس سره علىٰ أن يخلّف في الأمة وثيقة تصلح أن تكون برنامجاً فكرياً وسياسياً وأخلاقياً. ليس للجيل الذي عاش في كنفه ونهل من معينه وحسب، بل وللأجيال القادمة التي سوف تجد قائدها وسرّ نهضتها واستمرار حركتها في نفحات هذه الوصية الإلهية السياسية، ولسوف تعي ربانية القائد الذي لم تدركه في حياته، ولكنه استطاع أن يرتبط معها ويحمل همومها وآمالها بكل جدارة. كما تجده في كل كلمة أو نداء موجّهاً لها. فقد أكّد الإمام الراحل في وصيته علىٰ «الأجيال القادمة» بشكل يدلّ علىٰ بعدٍ عميق من أبعاد شخصيته، ونظرته الصائبة وسعة اُفقه واهتماماته الكبيرة، فالقيادات بلحاظ الامتدادات يمكن أن يكون بعضها منحصراً بحدود الزمان والمكان الذي تعيش فيه، وربما تكون ناجحة بلحاظ هذه الحدود؛ بيد أن القيادات الأكثر عمقاً ومساحة هي تلك التي تتجاوز المكان والزمان في

وجدانها وتأثيراتها، والأكفأ من النموذجين السالفين القيادة التي تمثل في حركيّتها ومحتواها حالة الامتداد والوصل بين الأزمنة الثلاثة (في ماضيها وحاضرها ومستقبلها)، وهي بطبيعة مهمتها ورسالتها العالمية مستوعبة لجميع المساحات ولبني البشر كافة.

والإمام الخمينيﷺ، بالإضافة إلى كونه في رتبة النيابة العامة عن المعصومعليه السلام، يعدّ نموذجاً فريداً في عصرنا الراهن للقيادة الناجحة التي استطاعت أن تسبر غور التأريخ دون أن تتجمد فيه، أو تتكلس في موروثاته بقدر ما استلهمته في معانيه وإشراقاته وتجاربه، واستثمرت ذلك كله في عملية توفيق متحرك نحو الأهداف الكبيرة، لم يغفل فيها الحاضر وخصوصياته، ولم يتوقف عنده أو ينصهر به، ومن هنا استطاع الإمام أن ينطلق إلى المستقبل ببصيرة رسالية تخاطب الحياة والأجيال والمستقبل، وهي حاضرة في كل زمان ومكان.

وميزة أُخرىٰ ارتسمت في وصية الإمام وفي جميع آثاره. تلك هي عالمية النظرة لديه والخطاب؛ حيث تتساوىٰ عنده الشعوب المستضعفة، ويكون الإنسان في وجدانه هو الإنسان أينما كان، ومظلوميته واستضعافه هما مظلومية الحقيقة التي كرّمها اللّٰه وأحسن خلقتها، وفي نظرته هذه التي جاءت تخاطب الإنسان مطلقاً دون استثناء، تأصلٌ واندكاكٌ بطبيعة الرسالة التي أخذ الإنسان في خطابها مركزاً حيوياً وأساسياً، وتعد هذه الميزة من أبرز خصائص القيادات الرسالية الناجحة، والتي تدلّ علىٰ عظمة النفوس التي حملت في دواخلها مآسي البشرية واستغاثات المظلومين، لا فرق بين أسودهم وأبيضهم، عربيّهم وأعجميّهم، كما تدلّ علىٰ وحدة العوامل التي استضعفت البشرية وعلىٰ وحدة الرؤىٰ والنظرية التي تنقذها من هذا الاستضعاف.

وفي ضوء ذلك يرىٰ الإمام الناس من خلال كونهم فئتين: فئة مستكبرة وأخرىٰ مظلومة مستضعفة، وبينهما أفكار ومناهج وأنظمة هي سبب البلاء، فحينما يدّون نظريته إنما يدوّن الأسباب التي تنقذ الإنسان من عبوديته ورقّه لغير اللّٰه «والقرآن والسنّة مشحونان بالنصوص المعيّنة المرتبطة بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية، منها قوله: «ولقد أسس نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتاز عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وبسطها»[١]، ويحتاج الأمر معه إلى ذكر الوسيلة وشمول الخطاب، وبطبيعة الحال ينفذ وعي الإمام الراحل قدس سره إلى أعماق الحقيقة الإنسانية المقهورة، ليأخذ دوره في التحريك والتحريض المقدّس: «فانتفضوا يا مستضعفي العالم وأيتها البلدان الإسلامية ويا أيها المسلمون وانتزعوا الحق بقوة»[٢].

وعن حركية منهج الإمام وقدرته علىٰ الاستمرار والمواكبة نعتقد بأنه مادام يمثل في خطاباته (الفكرية والسياسية) وفي غاياته، ذلك الانبثاق الحي للرسالة وأهدافها. ومادام ينتزع مقولاته من حقيقة الشرع الإسلامي والشمولية المتصف بها، ومادام يتعاطىٰ مع ثوابت الواقع، فإنه ودون شك يحمل معه مقومات الحياة والاستمرار، وسيحكم عليه بالبقاء ليلاحق الزمن، ويلبّي حاجات الإنسان في مستوىٰ أهدافه الكبيرة وحاجاته الملحّة تماماً كما اتصفت به سيرة الأئمة الأطهار لأن سيرته من سيرتهم عليهم السلام، ولهذا فإن استمرارية خط الإمام ومنهجه ليس شيئاً نحاول أن نفرضه أو نتلمس الاستدلال عليه، وإنما هو حقيقة ملازمة لطبيعة فكره ومحتواه، فمنهجه مستمد من الطبيعة الرسالية للثقلين: (القرآن والعترة الطاهرة)؛ حيث كتب لهما البقاء

---

(١) الوصية الإلهية السياسية لإمام الأمة الراحل قدس سره.

(٢) م. ن.

والديمومة والرسوخ، ونموذج ذلك وصيته الإلهية السياسية التي لخّصت منهجه في كافة المجالات وبالخصوص السياسية منها.

والثقلان اللذان أوصىٰ بهما رسول اللّٰه ﷺ في الحديث المشهور عند المسلمين سنّة وشيعة، هما كتاب اللّٰه وعترته أهل بيت النبوة والعصمة وهم الأئمة الإثنا عشر عليهم السلام. وقد قرن الرسول ﷺ في هذا الحديث التمسك بهما بعدم الضلال، بل بعكسه يكون الضلال.

والسر يرجع في ذلك إلى أن إرادة اللّٰه تعالىٰ وحكمته ومعرفته بمصالح عباده قد تجلّت بهذين المظهرين الكتاب والعترة، ولهذا السبب أمسىٰ وجودهم مرادفاً لوجود الرسالة والأصالة، ومن هنا لا نفهم من موقف رسول اللّٰه ﷺ بعد آخر حجّة، حينما أحسّ بقرب الرحيل بتأكيده علىٰ الثقلين في خطابه أمام جماهير المسلمين العائدين توّاً من أداء فريضة الحج، إلّا كونهما أساس الإسلام وسرّ بقائه وبدونهما تنحرف الأمّة وينتشر الضلال، وهذا ما حدث بعد رسول اللّٰه ﷺ، عندما أُقصيت العترة الطاهرة عن دورها الرسالي في قيادة المسيرة، وتبعاً لذلك أُقصي الإسلام عن دوره الحضاري الرائد، حتىٰ صارت الأمة الإسلامية غثاءً كغثاء السيل تنهال عليها الأمم لتنال من كرامتها.

ولا نشك في أن الإمام رحمه الله في ذكره حديث الثقلين في مقدمة وصيته، ومن ثم تأكيده علىٰ المظلومية التي لحقت بهما من حكام الجور آنذاك وحثّه الشعوب الإسلامية علىٰ التمسك بهما بعد شرحه وتبيانه لآثارهما علىٰ مسيرة الثورة والإسلام، يقع تحت نفس الغاية والاهتمام اللذين دفعا برسول اللّٰه ﷺ علىٰ التأكيد عليهما قبل رحيله في حجة الوداع، بفارق أن الإمام حينما صدع بذكر أهمية حديث الثقلين أراد أن يؤكد ـ بالإضافة إلى ما أراده الرسول ﷺ ـ

بأن التشيّع لأهل البيت عليهم السلام والثورة الإسلامية والتأريخ الجهادي لأبناء الإسلام كلها من ثمرات هذه الحقيقة التي تدعو دوماً للاعتزاز، وتهدي إلى الرشد والكمال، حيث يقول الإمام في وصيته الإلهية السياسية:

«نحن نفخر بأننا أتباع مذهب؛ وضعت أسسه بأمر من اللّٰه ورسوله الأكرم، فيما كلف أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب، هذا العبد المُحرر من جميع الأغلال، بتحرير البشرية من كافة القيود والعبوديات ... نحن نفخر بأنّ أئمتنا هم الأئمة المعصومون بدءاً من علي بن أبي طالب وختماً بمنقذ البشرية الإمام المهدي صاحب الزمان ـ عليه وعلىٰ آبائه آلاف التحية والسلام ـ وهو بمشيئة اللّٰه القدير حيّ يراقب الأمور... نحن نفخر بأن مذهبنا هو المذهب الجعفري، ففقهنا هذا البحر الزاخر الذي لا ينضب هو من آثار جعفر الصادق عليه السلام. نحن نفخر بأن أئمتنا المعصومين ـ صلوات اللّٰه وسلامه عليهم ـ قضوا حياتهم سجناً ونفياً وتشريداً في سبيل رفعة الإسلام وتحقيق أهداف القرآن الكريم»[١].

وأراد الإمام بهذا التأكيد أن يثبت أهداف الأئمة التي هي أهداف القرآن الكريم، وبالتالي أهداف شيعتهم بعدهم، ومن هنا نجد الإمام يحثّ الشعوب الإسلامية علىٰ التمسك بحبل العترة وسيرة أهل البيت عليهم السلام بغرض إيقافها علىٰ فواعل الانعتاق والثورة والرقي، حيث يقول قدس سره:

«والتمسك ـ بكامل التأكيد ـ من الشعوب الإسلامية أن تسير علىٰ نهج الأئمة الأطهار، فلا تألوا جهداً في التضحية بالغالي والنفيس والأعزّة، واتّباع هؤلاء، هداة البشرية العظام، في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وكمصداق علىٰ ذلك أن لا يتخلوا ولا ينحرفوا ولو قيد أنملة عن الفقه العريق، وهو مرآة تبيان مدرسة النبوة والرسالة والإمامة

---

(١) م. ن.

وهو ضمانة رقي وعظمة الشعوب بأحكامه الأولية والثانوية»[١].

وهكذا يبيّن الإمام للشعوب المسلمة أسباب وموجبات الرقي والعظمة، ويحثّهم علىٰ التمسك بفقه مدرسة أهل البيت العريقة، هذه المدرسة التي نهل من علومها إمامنا الراحل وتشكّلت شخصيته ضمن أبعادها ومعطياتها، فأمسىٰ في كل سماته صدوراً واعياً وتجسيداً حيّاً لملامحها في شتىٰ الجوانب الأخلاقية والسلوكية والمنهجية والفكرية، وهكذا «لم يكن الإمام الخميني في طرحه لشعار الجمهورية الإسلامية إلّا استمراراً لدعوة الأنبياء وامتداداً لدور محمد وعلي عليهما السلام في إقامة حكم اللّه في الأرض»[٢].

وفي هذا المعنىٰ وفي إطار التأثيرات التي تركت بصماتها علىٰ نهج الإمام ونظريته التغييرية نلقي الضوء علىٰ مفردة، كان لها الوجود المميز في نظرية الإمام التغييرية، وهي تعود في أصولها إلى تراث العترة الطاهرة التي جسّدت المعاني الحقيقية للإسلام؛ تلك هي: رفض الظلم والظالمين ونصرة الحق والمظلومين والإصرار علىٰ ذلك، والذي يُعدُّ مَعْلماً بارزاً وسمة تميّز بها الإمام رحمه الله، وشكّلت بعداً واضحاً من أبعاد نهجه ونظريته السياسية قبل نجاح الثورة الإسلامية وبعدها، لا فرق عنده بين أن يعلنها بوجه الشاه المقبور، أو بوجه عملاء أميركا أو القوىٰ الكبرىٰ في العالم، كما أنه لا فرق عنده بين أن يساند الشعوب المستضعفة والمحرومة كلها، ودونما تمييز بين شعب وآخر.

فالاستضعاف عنده حالة عالمية تماماً كالاستكبار، ومهما تنوعت وتشعبت مصاديق كلا الحالتين في الواقع الإنساني فأنه يظلّ حيالهما ذا موقف يتميز بالثبات والمبدئية.

---

(١) م. ن.

(٢) الشهيد الصدر، في بيان بعثه للأمة الإيرانية بعد انتصار الثورة الإسلامية.

هذه الخاصيّة إنّما هي في حقيقتها مستلهمة من واقع الأئمة الأطهار فيما سجّلوه عبر عصورهم الزاهية من مواقف بطولية مشرّفة بوجه الظلم والظالمين والمستكبرين، بحيث شكّلت هذه السمة أساساً ارتكزت عليه سيرتهم وجهادهم، حتىٰ كلّفهم ذلك حياتهم، فقضوا شهداء، إمّا مقتولين بحدّ السيف أو مسمومين، فضلاً عمّا أصابهم من أذىٰ ومطاردة وسجن.

وكان ذلك رائداً فكرياً وسلوكياً للإمام، دعا إليه غير مرّة للافتخار والاعتزاز: «نحن نفخر بأن أئمتنا المعصومين (صلوات اللّٰه وسلامه عليهم) قضوا أعمارهم سجناً ونفياً وتشريداً في سبيل رفعة الإسلام وتحقيق أهداف القرآن الكريم، وأحدها تأسيس الحكومة العادلة واستشهدوا في جهادهم لإسقاط حكومات الجور والطغيان في عهودهم»[1].

ولا يخفىٰ ما لواقعة الطف وثورة الإمام الحسين عليه السلام من أثر بارز على نهج الإمام قدس سره وكأنّه تلك الصرخة التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام في الثورة بوجه الظالمين والمستكبرين، ومن هنا يؤكد الإمام قدس سره غير مرّة علىٰ إحياء شعائر العزاء والولاء للإمام الحسين عليه السلام، ويؤكد أيضاً علىٰ ممارسة وإعلان البراءة من آل أمية وظالمي آل محمد واللعن عليهم، وفي مثل هذه الممارسة استحضارٌ دائم للثورة وللأهداف، وتقويم دائم للواقع علىٰ أساس معادلة الحق والباطل ومصاديقهما في كل عصر.

ومن هنا يشير الإمام ويوصي الشعوب الإسلامية بأن: «لا يغفلوا حتىٰ للحظة عن إقامة شعائر مراسم العزاء للأئمة الأطهار؛ لا سيما سيد المظلومين ورائد الشهداء أبي عبداللّٰه (صلوات اللّٰه الوافرة وصلوات أنبيائه وملائكته الصالحين من عباده علىٰ روحه الملحمية العظيمة)، وليعلموا أن تأكيدات

---

(١) الوصية الإلهية السياسية لإمام الأمة الراحل قدس سره.

الأئمة عليهم السلام علىٰ إحياء هذه الملحمة التأريخية الإسلامية وأوامرهم بإدامة اللعن علىٰ ظالمي آل البيت نابعة من كونها تمثل كل الصرخات الأبية الشجاعة للشعوب بوجه الظالمين علىٰ مدىٰ التأريخ منذ الأزل إلى الأبد، واعلموا بأن اللعن الدائم علىٰ بني أمية (لعنة اللّٰه عليهم) يمثل - ورغم انقراضهم وورودهم جهنم وبئس الورد المورود - صرخة اللعن والرفض لظالمي العالم، ففي إحياء هذه الصرخة إبادة للظلم»[١].

وهكذا يصبح الامتداد حيّاً، آخذاً صوراً بطولية وملحمية شاخصة في الصراع والتحدي المريرين بين الأمم والشعوب المستضعفة المظلومة وقضاياها الحقة، وبين القوىٰ الطاغوتية الكبرىٰ والمحلية، كظالمين مستكبرين. والمحصلة النهائية تكون في انتزاع الحقوق المهضومة ويؤكد الإمام قدس سره على ذلك في قوله: «وضروري أن نبين جرائم الظالمين في كلّ عصر ومصر وبصورة معبرة قاصمة ضمن مراسم العزاء ومراثي أئمة الحق عليهم السلام، وفي أشعار مناقبهم أيضاً، ويتأكد الأمر في هذا الزمان وهو زمان تعرّض العالم الإسلامي فيه لشتىٰ أشكال الظلم علىٰ أيدي أميركا وروسيا وسائر عملائهم عليهم لعنة اللّٰه وملائكته ورسله»[٢]. ذلك بالإضافة إلى أن المراثي الحسينية ومراثي أئمة أهل البيت عليهم السلام التي يقيمها الموالون تتحول تلقائياً بحكم وضعيتها والدوافع التي تأسست من أجلها إلى منابر إعلامية؛ تصنع الرأي العام، وتحفّز الهمم والأفكار ضمن مفهومين أساسيين، هما سرّ الثورات والوعي السياسي، والإباء الذي يتميز به أتباع أهل البيت عليهم السلام عمّا سواهم:

---

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

الأول ـ الظالمون وجرائمهم.

الثاني ـ المظلومون ومآسيهم.

ويظلّ البحث عن مصاديق هذين المفهومين في كل عصر ومصر ليس عسيراً، فنجد أن الموقف اللازم اتخاذه إزاء الظلم كامن في طبيعة هذه المراسيم والشعائر ولن يكون غير الثورة والتحدي والجهاد المرير.

ولا يشك أحد في أن العترة الطاهرة ظُلمت أيّما ظلم، واضطهدت وعوملت بتعسّف يندىٰ له الجبين، وتعتصر له القلوب ألماً ومرارة، ولم يكن لهم من ذنب سوىٰ أنهم كانوا الامتداد الإلهي لخط الرسالة وكانوا أمناءَها والرقباء عليها. وكانوا بحق، وبما يمتلكون من صلة قربةٍ ونسبٍ مع الرسول صلى الله عليه وآله، الثقل الذي لا يوازيه غير ثقل القرآن الكريم، وكلاهما يمثلان الرسالة والدين، وهذا ما أراده اللّه تبارك وتعالىٰ، ومن هنا فإنّ أيّ تجاوز لأحدهما ينسحب علىٰ الآخر، وفى بيان هذه الحقيقة يقول الإمام قدس سره: «إن كلّ ما ألمّ بأيٍّ من الثقلين بعد الوجود المقدس لرسول اللّه صلى الله عليه وآله قد أصاب الثقل الآخر، وأن هجر أيٍّ منهما هجرٌ للآخر»(١).

وفي النتيجة تنعكس الآثار السلبية علىٰ الرسالة والأمة، بل وعلىٰ مستقبل البشرية جمعاء، فيقول الإمام قدس سره: «وينبغي القول بأن ما أصاب وديعتي الرسول صلى الله عليه وآله من ظلم الطواغيت ظلم للأمة الإسلامية، بل للبشرية جمعاء ويعجز القلم عن تبيانه»(٢).

وفي السياق التأريخي للظلم الذي لحق بالثقلين كانت البداية مع العترة؛ حيث أقصيت من منازلها التي أنزلها اللّه إيّاها، وأبعدت عن دورها في سياسة

---

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

العباد وإدارة الحكم، ومن ثم محاولة إبعادهم عن مواقعهم في الحياة، وطمس معالمهم وتشويههم. وانتهىٰ الأمر بكل واحد منهم إلى المحاصرة في البيت أو في طوامير السجون حتىٰ الشهادة، وكان طبيعياً أن يسري الانحراف في الأمة. وتشوّه معالم الدين ويتربّع علىٰ مناصب الحكم وإدارة المسلمين أُناس جاهلون ومنحرفون، امتدت أيديهم القذرة إلى الثقل الآخر، بعد أن فرغت من العترة ظلماً وتزويراً وإجحافا، وفي ذلك يقول الإمام‍ؒ: «ولنر ما جرىٰ علىٰ القرآن، هذه الوديعة الإلهية، وما تركه موت رسول اللّٰهﷺ من نوائب مفجعة حريٌّ أن نبكي عليها دماً، بدأت بعد استشهاد الإمام عليؑ.

فقد استغلّ عبّادُ الأنا والطواغيت القرآن الكريم واتخذوه وسيلة لتأسيس حكومات معادية للقرآن، وأبعدوا مفسري القرآن الحقيقيين والعارفين بالحقائق الثابتة ممن تعلّموا القرآن كلّه من الرسول الأكرمﷺ، أبعدوهم بذرائع شتىٰ ومؤامرات معدّة في وقت لم يزل فيه نداء «**إني تارك فيكم الثقلين**» مدوّياً، في أسماعهم، وعطّلوا القرآن الذي كان وما يزال الدستور الأعظم لحياة البشر وشؤونهم المادية والمعنوية حتىٰ يردوا الحوض، وأبطلوا حكومة العدل الإلهي، وهي أحد أهداف هذا الكتاب المقدس، وأسسوا أساس الانحراف عن دين اللّٰه وكتابه والسنّة الإلهية، فبلغ الأمر حداً يخجل القلم عن تبيانه»[١].

هذا الظلم الذي لحق بالثقلين والعواقب الناجمة عنه، خلّف بصمات مؤثّرة علىٰ مستقبل الأمة وأهدافها ضمن اتجاهين:

الأول ـ إيجابي، تميّز به أتباع أهل البيت طيلة تاريخهم، وتبلور في قياداتهم ، سيّما في القيادة الحكيمة لإمام الأمة الراحلؒ، وهو الوعي

---

(١) م. ن.

التأريخي الصحيح، حيث يختزن أتباع أهل البيت عليهم السلام في وعيهم جميع التداخلات والملابسات التأريخية التي انتهت بإقصاء الثقلين عن دورهما في الحياة، بالإضافة إلى وعيهم لحجم الانحراف وامتداداته في واقع الأمة ومستقبلها، ومن هنا يمتزج الألم والوعي في نفوسهم علىٰ طول الخط، وتكون المحصلة النهائية دائماً هي الثورة والجهاد.

الثاني ـ سلبي، حيث تمادىٰ الانحراف وبلغ أمداً طال حتىٰ الأجيال المعاصرة، ولن يكتب له التوقّف قبل أن تعي الأمة دورها وتفهم أصالتها وطبيعة المؤامرة المحاكة ضد مقدساتها وجذورها الضاربة في أعماق التأريخ الإسلامي.

ومن هنا يقول الإمام في وصيته: «وبلغ الانحراف درجة أن الحكومات الجائرة، والخبثاء من فقهاء البلاط ـ وهم أسوأ من الطغاة ـ اتخذوا من القرآن وسيلة للظلم وترويج الفساد وتسويغ أعمال الظلمة والمعاندين لإرادة الحق تعالىٰ، ووا أسفاه! أن القرآن – وهو كتاب الهداية – لم يعد له من دور سوىٰ المقابر والمآتم بسبب الأعداء والمتآمرين والجهلة من الأصدقاء، كان الحال كذلك وما زال، فأصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين والعالمين ودستوراً لحياتهم، أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف أو عُطّل دوره كلياً، وقد رأينا كيف يعتبر مرتكباً الكبائر من ينادي بالحكومة الإسلامية ويتحدث باسم السياسة، في حين أن سيرة الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن والسنّة مشحونة بالنصوص المعنيّة بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية، وأصبح وصف عالم الدين السياسي مرادفاً لوصفه بالفاسق، وما زال هذا الوصف موجوداً، وأخيراً آل الأمر إلى أن تعمد القوىٰ الشيطانية الكبرىٰ من أجل محو القرآن وحفظ مطامعها الشيطانية إلى طبع القرآن بخط جميل، وتمّ توزيعه علىٰ

نطاق واسع، وتنفّذ ذلك بأيدي الحكومات المنحرفة التي تتظاهر بالإسلام زيفاً، وهي بعيدة عن تعاليمه، وبهذا المكر الشيطاني تعطّل القرآن»(١).

وهكذا فالفهم الصحيح، والوعي التأريخي لمظلومية ودور الثقلين يشكّل مقدمة أساسية للشعوب المسلمة لكي تعي استمراريّة وحجم المؤامرة المحاكة ضدها، ولن يكون ذلك كافياً بمفرده للانعتاق والتقدم قبل أن تلتزم الأمة الإسلامية بالنهج الأصيل للإسلام، وذلك باتباعها ما أوصىٰ به رسول اللّٰه ونبيّها محمد ﷺ وما أكّده إمامها الخميني العظيم ﵀ في قوله: «وألتمس بكامل التأكيد من الشعوب الإسلامية أن تسير علىٰ نهج الأئمة الأطهار،فلا تألوا جهداً في التضحية بالغالي والنفيس والأعزّة، واتباع هؤلاء، هداة البشرية العظام في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية كافة، وكمصداق علىٰ ذلك أن لا يتخلفوا ولا ينحرفوا ولو قيد أنملة عن الفقه العريق، وهو مرآة تبيان مدرسة النبوة والرسالة والإمامة، وهو ضمانة رقي وعظمة الشعوب بأحكامه الأولية والثانوية وجميعها من مدرسة الفقه الإسلامي»(٢).

وهكذا يبقىٰ نهج الإمام الخميني الكبير ﵀ هو نهج الثقلين المباركين، وستستمر ثورته التغييرية علىٰ هذا النهج الإلهي وستبقىٰ الأمة في نهضتها عزيزة كريمة مجاهدة مادام محورها ثقلا الرسالة المجيدان «القرآن الكريم والعترة الطاهرة» حتىٰ يحقق اللّٰه وعده الحق: ﴿**ونريد أن نمنّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾(٣)

❊ ❊ ❊

---

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

(٣) القصص: ٥.

الائتلاف مع الأُمة في معادلة التغيير الإسلامي

من سنن اللّٰه تعالىٰ في الحياة أن كل مسيرة هادفة سواء كانت علىٰ صعيد الأمم أو علىٰ صعيد الأفراد، لازمها الكدح(*) في كل مراتبها وادوارها: ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾(١).

وليس ذلك أمراً يطلق هكذا علىٰ عواهنه، فمادام هذا الكدح سنّة ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح**﴾، ومادام الكدح هدفاً إلى غاية بقرينة ﴿**إلى ربك**﴾، ومن لابدية الوصول إلى النهاية علىٰ أية حال لقوله تعالىٰ: ﴿**فملاقيه**﴾، نـدرك أن هناك مسؤولية يجب أن يتحملها الفرد بما هو فرد، وتتحملها الأمم في أدوار سيرها عبر التاريخ؛ لأنها لا يمكن أن توجد في الحياة الدنيا إلّا وتكون هذه السنّة قانوناً حتمياً يلازم وجودها، وندرك أيضاً أنّ تقويم المسـيرة ومـعرفة مقومات سيرها نحو الهدف وتشخيص وتـحديد مـا يـعترضها مـن مـوانـع وعقبات، ووعي السبل الكفيلة لتذليلها واجتيازها، كل هذه الحسـابات هـي فرع ضروري لحمل المسؤولية الكاملة، وحماية النفس والأمة من الانكـفاء عن أهدافها والانحدار في سبل الانحراف عنه.

أما ماهية النهاية التي يصل إليها كل الكادحين في هذه الحياة فهي نهايات

(*) قال الراغب: «الكدح: السعي والعناء»، وقيل الكدح هو «جهد النفس في العمل حتى يؤثّر فيها».

(١) الانشقاق: ٦.

السبل كلٌّ بحسبه، إمّا صراط الذين أنعم اللّٰه عليهم، أو سبيل المغضوب عليهم والضالين.

وهنا لابد لنا أن نعي حقيقة ضرورية هي أن الإنسان خُلق مهيّأً لحمل مثل هذه المسؤولية: ﴿**إنا عرضنا الأمانة علىٰ السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**﴾(١).

وقد أعدّ اللّٰه سبحانه وتعالىٰ هذا الإنسان لمسيرة الكمال، وخلق كل شيء من أجل إيصاله إلى هذه الغاية.

كما أنه سبحانه لم يكتف بإرشاد الإنسان إلى سبيل الرشاد عن طريق بعث الأنبياء، وإرسال الرسل بالشرائع والقوانين لتنظيم مسيرتهم نحوه سبحانه، وإنما جعل في كل ما خلق عوناً وواعظاً ومرشداً إليه سبحانه وإلى سبيله القويم: ﴿**إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفَعُ الناس وما أنزل اللّٰه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلون**﴾(٢).

ألا ترىٰ كيف يتكامل الزرع حتى يثمر؟ ولابد له من أرض صالحة ومن بذرة صالحة ومن مناخ صالح، ولابد له من سقي ورعاية ووقاية وعلاج، ولابد له من دوام علىٰ ذلك حتىٰ يثمر ثمراً يانعاً.

ولا تنبت الأرض السبخة إلّا شوكاً، وتبقىٰ الأرض الصالحة بوراً مادامت تفتقد البذرة الصالحة، وتبقىٰ البذرة الصالحة في باطن الأرض سجينة مادام الماء لم يمزّق عنها ثياب السجن، ويحرر سويداءها لتخرج إلى عالم الحياة

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) البقرة: ١٦٤.

النامية، وتبقىٰ شتلة الزرع مهددة بالفناء حتىٰ مراحلها الأخيرة مادامت يد الرعاية والوقاية والعلاج من الآفات بعيدة عنها.

لقد جعل اللّٰه في الآفاق وفي نفس الإنسان مالو انتبه إليه ووعىٰ حقيقته؛ لاكتشف سنناً وقوانين، تحكي لنا مناهج في الكدح والسير المتواصل نحو كمالها الذي خلقت له.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

﴿كذلك يبين اللّٰه لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[2].

إن الكادحين نحو الكمال يجب أن يستنفروا قوتين رئيستين في وجودهم،ويتعهدوهما بالإعداد والتربية: القوة الأولىٰ هي: قوة الإدراك «العقل» الذي به تدرك كل حقائق مسيرة الكمال اللاحبة، والقوة الثانية هي: قوة الإرادة التي تشكّل زخم الحركة وحيويتها وانضباطها علىٰ الصراط المستقيم.

متىٰ يكون التقدم ومتى يفترض الصبر؟ أين يتحتم التربص وأين يجب الكر؟ متىٰ تكون التقيّة ديناً ومتىٰ يجب بذل الدم والنفس؟.

وهنا يجب علينا أن نلتفت إلى أمور أساسية؛ تعتبر من ضرورات ترشيد الحركة الإنسانية الهادفة، في مجال تشخيص وتحديد عقبات المسيرة وحمايتها من الانحراف والسقوط؛ لتضاف إلى شروط ومواصفات الاستقامة بهذه المسيرة الواعية باتجاه الكمال.

فمن الطبيعي أن الكادح إلى كماله المنشود لابد له أن يميز بين سلوك طبيعي الطريق وما يتطلبه من بذل ومعانات، وبين عقبات وموانع تظهر

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) البقرة: ٢٤٢.

وتعترض عند المسيرة وأثناءها لأسباب مختلفة، وهي تستدعي بطبيعتها جهداً ومعاناة إضافيين في سبيل تذليلها وتجاوزها، ثم إنّ هذه العقبات والموانع التي تظهر في طريق الكادحين نحو الكمال تختلف باختلاف أسبابها، فالإحاطة بها أمرٌ ضروري لتحديد الموقف العملي، وعلاج كل منها بحسبه بإزالة أسبابه واحتواء أعراضه.

من هذه العقبات ما يحصل بسبب كيد العدو وتخطيطه المضاد، ومنها ما يحصل بسبب أخطاء تقع بها الحركة المتجهة نحو الهدف، ثم إنّ الخطأ الذي يحصل في الحركة الهادفة تختلف أسبابه، فمنها ما يحصل بسبب أخطاء يقع بها الأفراد كأفراد كادحين في إطار الحركة الهادفة، ومنها ما يحصل بسبب أخطاء أو انحراف تقع به الأمة؛ فتُحدث بذلك فعلاً أو تياراً معاكساً لوجهة الحركة التي تنمو وتعمل في أوساطها. وما تقع به الأمة من انكفاء وانحراف في مسيرتها نحو الكمال قد يكون سببه غلبة تيار الجهل في قواعد الأمة وسوادها العام، أو قد يكون سببه خطأ أو انحراف في القيادة الزمنية الحاكمة لها في واحدة أو أكثر من مراحل مسيرتها الهادفة، وقد تكون العلّة في كليهما معاً.

هناك فرق بين من يحمل بضاعته علىٰ ظهره يريد الوصول بها إلى مأمنه، فهو يقتصر علىٰ بذل الجهد والمعاناة في الحمل والمسيرة، وبين ذلك الذي يحمل بضاعته ويسير بها فتعترضه عواصف وسيول وأمثالها من طوارئ الطبيعة وعقباتها، فهو يحتاج إلى جهد ومعاناة إضافيين من نوع معين لتذليلها، كما أن الذي يعترضه لصوص يحتاج إلى جهد ومعاناة إضافيين من نوع آخر لتذليل عقبة قطّاع الطرق والخلاص منهم، وذلك الذي يسير مع القافلة فينفرد منها ويشذّ عنها يتحمل عبئاً جديداً لتصحيح خطئه.

وفرق واضح بين أن يعاند أفراد القافلة في وجهة الطريق، أو في موقف

تقتضيه سلامة القافلة، وبين ما يراه ويريده دليل القافلة، وكذا عندما نعكس الأمر؛ فستتحمل القافلة وزراً اضافياً لو ضلّ دليلها، وسار بها في أرض وعرة أو جهة خطرة.

فالذي لا يعي هذه الحقائق الأساسية ولا يضع في حساب مسيرته كلّ ذلك سيفاجأ بما ينوء به، ويتركه عاجزاً حائراً أمامها، ثم لا يلبث أن يذوي ويسقط في مهاوي الجهل والضياع.

وفي هذا البحث نتناول واحدة من هذه الحقائق، بتسليط الضوء عليها وهي أحد أهم العقبات التي تعترض مسيرة الأمم الكادحة في سلّم الارتقاء نحو الكمال، تلك هي عقبة التقاطع الذي يحصل بين العصبة المبدئية والطليعة الواعية من حملة الرسالة، وبين المجتمع العام الذي كثيراً ما يدور بحركته علىٰ هامش الرسالة ومظاهرها التقليدية، والذي غالباً ما يقع فريسةً سهلةً لاحتواء الأعداء ومكرهم الهادف لحرف هذه الأمة، وسرقة جهودها وتحويلها إلى خدمة أهدافه الخبيثة.

ولإتقان عملية الشدّ والتحريك للأمة باتجاه التكامل بعيداً عن حالة التقاطع مع الصفوة المغيّرة، يجب عليها ما يلي:

أولاً: أن تعيش هذه الصفوة في عمق الأمة من جانب، وأن تمثّل نموذجاً أعلىٰ في حكاية المبدأ والرسالة من جانب آخر، فهي من الأمة ولكن برسالتها، وهي في الأمة ولكن بدعوتها.

ثانياً: أن تعمل علىٰ تشخيص مكامن الخطأ والانحراف في مسيرة الأمة من جهة، ومواطن الضعف والتخلف في البناء الرسالي لها من جهة اخرىٰ.

وعملية التغيير هنا تحتاج إلى تفاعل عاملين رئيسين يعانق أحدهما الآخر ويزدوج معه، لتكون النتيجة براءةً من كل صور الانحراف والجاهلية، وولاءً

لرسالة الحق والهدىٰ، وهذان العاملان أولهما سلبي؛ ويتمثل بإشعار الأمة وتوعيتها علىٰ حقيقة ما يكتنفها من مفاسد، وما يكمن في زوايا وجودها من زيف وبطلان لترفضه وتنقضّ عليه بكل وعي وإرادة، والثاني عامل إيجابي يتمثل بطرح الموقف المبدئي والمنهج الصحيح الذي يجب أن تسلكه الأمة وتجاهد علىٰ أساسه مستقيمة نحو كمالها وغايتها العليا.

لندقق في كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يبيّن فيه أن معرفة الرشد إنما تكون بمعرفة ضده، وهو كناية عن عاملي السلب والإيجاب في عملية التغيير، يقول عليه السلام: «**اعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسّكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه**»[١].

وتاريخنا الإسلامي يحكي لنا هذه الحقيقة عند انتصار الرسول صلى الله عليه وآله وإقامة حكومة الإسلام آنذاك، وكذا في عهد حكومة الإمام علي عليه السلام. انظر كيف يتفاعل هذان العاملان (السلبي والايجابي) في ممارسات الرسول صلى الله عليه وآله وتوجيهاته لإدارة شؤون الأمة، والسير بها نحو التكامل الإسلامي في كافة جوانب وجودها وحياتها؟ ففي وصيته صلى الله عليه وآله لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن يقول: «**يا معاذ، علّمهم كتاب اللّٰه وأحسن أدبهم علىٰ الأخلاق الصالحة وأنزل الناس منازلهم خيرهم وشرهم وأنفذ فيهم أمر اللّٰه، ولا تحاش في أمره[٢] ولا ماله أحداً؛ فإنها ليست بولايتك ولا مالك، وأدّ إليهم الأمانة في كل قليل وكثير، وعليك بالرفق والعفو في غير ترك للحق، يقول الجاهل قد تركت من حق اللّٰه، واعتذر إلى أهل عملك من كل أمر خشيت أن يقع إليك منه عيب حتىٰ يعذروك، وأمت أمر**

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٤٧.
(٢) أي لا تكترث بما تفعله من هذا الأمر ولا تخاف من أحد، ولا تستوحش منهم.

الجاهلية إلّا ماسنّه الإسلام، وأظهر أمر الإسلام كله، صغيره وكبيره، وليكن أكثر همّك الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين، وذكّر الناس باللّه واليوم الآخر، واتبع الموعظة، فإنه أقوىٰ لهم علىٰ العمل بما يحب اللّه، ثم بث فيهم المعلمين، واعبد اللّه الذي إليه ترجع، ولا تخف في اللّه لومة لائم...»(١).

وانظر إلى عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر وأعمالها، نشير إلى مقاطع منه، تؤكد علىٰ أساليب تغيير الأمة وترشيدها نحو الإسلام، وعدم السماح لحالة التقاطع أن تحصل بينه وعمّاله وبينها: «**بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد اللّه علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولّاه مصر: جباية خراجها ومجاهدة عدوِّها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها**»(٢).

ففي منهج التعامل مع الأمة وكيفية تشخيص مواطن ضعفها وإرشادها إلى حكم اللّه وشدّها نحوه برفق وحكمة يقول عليه السلام: «**إعلم يا مالك، أنّي وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدلّ علىٰ الصالحين بما يجري اللّه لهم علىٰ ألسن عباده؛ فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح بالقصد فيما تجمع وما ترعىٰ به رعيتك. فاملك هواك وشحّ بنفسك عمّا لا يحل لك، فإن الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بالإحسان إليهم. ولا تكوننّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، تفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتىٰ علىٰ أيديهم في**

---

(١) تحف العقول لابن شعبة: ٢٥، باب وصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لمعاذ بن جبل.

(٢) ن. م: ١٢٦، باب عهد الإمام علي عليه السلام إلى الأشتر حين ولّاه مصر وأعمالها.

العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك اللّٰه من عفوه فإنك فوقهم ووال الأمر عليك فوقك واللّٰه فوق من ولّاك بما عرّفك من كتابه وبصّرك من سنن نبيه ﷺ... أنصف اللّٰه وأنصف الناس من نفسك ومن خاصّتك ومن أهلك ومن لك فيه هوىً من رعيتك؛ فإنك إن لا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد اللّٰه كان اللّٰه خصمه دون عباده ومن خاصمه اللّٰه أدحض حجته، وكان للّٰه حرباً حتى ينزع ويتوب... وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها للرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة... وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعُدّة للأعداء أهل العامة من الأمة، فليكن لهم صغوك[1]، واعمد لأعم الأمور منفعة وخيرها عاقبة ولا قوة إلّا باللّٰه...».

ثم يصنّف الإمام علي عليه السلام الرعية، ويضع أصول المنهج الإسلامي في التعامل مع كلّ صنف بما يناسبه فيقول: **«... ثم اعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلّا ببعض، ولا غنىٰ ببعضها عن بعض، فمنها جنود اللّٰه، ومنها كُتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها طبقة السفلىٰ من ذوي الحاجة والمسكنة، وكلاً قد سمّىٰ اللّٰه سهمه ووضع علىٰ حدّ فريضته في كتابه أو سنّة نبيّه ﷺ وعهداً عندنا محفوظاً».**

ويستمر في بيان منهج التعامل الإسلامي مع كل طبقة من طبقات الرعية[2].

ثم يؤكد عليه السلام علىٰ ضرورة العيش في عمق الأمة وفي وجدانها، ويحسّ بأحاسيسها ويناغم مشاعرها ويشاركها في محنها وآلامها فيقول **«... وبعد هذا**

---

(١) الصغو: الميل.

(٢) راجع نص العهد في تحف العقول لابن شعبة.

فلا تُطوِّلن احتجابك عن رعيّتك؛ فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور، والاحتجاب يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظّم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل».

كما أن في تاريخنا المعاصر حكاية أقرب إلى الحسّ والدراية منها إلى النقل والرواية، فذاك الإمام الخميني ﷺ كيف قاد الشعب المسلم في إيران نحو الإسلام؟ وأبرز إليه محنه ومآسيه، وعرّفه بمن وراء كل ذلك، ثم حثّه علىٰ البراءة منهم والرفض لهم، وأرشده إلى سبيل الخلاص وأهل الولاء، حتىٰ أثمرت حركته الجهادية بنصر مؤزّر وقامت علىٰ يديه دولة الفقيه العادل؛ لتبدأ مرحلة جديدة في ترشيد الأمة وحمايتها من الانحراف والسقوط في شباك الأعداء وكيدهم، فكان أول ما ركّز عليه الإمام الراحل ﷺ وتوجه نحوه قطاعان رئيسان:

الأول: الإمساك علىٰ مفاصل الأمة وشدّها وتحريكها باتجاه الإسلام والجهاد في سبيل حماية ثورتها ومكتسباتها، وامتلاكه ساحة الواقع من خلال زرع وكلائه وممثليه في المساجد وصلوات الجمعة والجماعة الجماهيرية، وبثّ الطليعة الرسالية علىٰ شكل تجمعات وتنظيمات شعبية في أوساط الأمة الواسعة، مكوّناً بذلك قاعدة قوية هيمنت علىٰ الشارع السياسي، وامتلكت فيه القول الفصل علىٰ ضوء الإسلام وقيادة الإمام وتوجيهاته.

خذ أبرز مثال علىٰ ذلك، وهو صلاة الجمعة، ذلك التجمع المليوني الذي يحصل أسبوعياً في كافة أنحاء البلاد، والتي أخذت الأمة تعيش رشدها الثوري باتجاه الإسلام من خلاله، باستعراض مكامن الضعف فيها ومواطن الخطر من أعدائها وسبل بنائها الرسالي ووسائل امتلاكها لقوة المواجهة والكفاح ضد أعدائها، وأعداء إسلامها العزيز، فهي تدور مع خطب الجُمع في

جميع دوائر واقعها الداخلي والخارجي، علىٰ صعيد بناء نفسها، وعلىٰ صعيد مراقبة سير الحكومة في دولتها، وبذلك نجد أن دائـرة التـقاطع، الذي رسـم أبعادها الاستكبار الخبيث، بين العلماء المجاهدين والطليعة الرسـالية وبـين الأمة قد تقلّصت إلى حدٍ كبير جداً.

الثاني: تعيين وتشكيل السلطتين التشـريعية المـتمثلة بـمجلس صـيانة الدستور ومجلس الشورىٰ الإسلامي، والقضائية المـتمثلة بـمجلس القـضاء الأعلىٰ والمحكمة العليا، اللتين أخذتا علىٰ عاتقهما تثبيت الدستور الإسلامي والعمل وفقه، وملء الجانب الموضوعي في ما يسـمىٰ بـمنطقة المـتغير فـي الشريعة الإسلامية، مما سدّ الطريق أمام أيّة محاولة لدس الأفكار الجاهلية في ثنايا قوانين وأنظمة الدولة، وحصّن عملية بناء النظام والأمة من الانـحراف، ومكّن القيادة الإسلامية من خلق حالة الانسجام الواقعية بين الهدف الإسلامي الذي يراد تحقيقه علىٰ أرض الواقع، وبين الأمة المستهدفة بالسير بها نحوه، فلا تناقض إذاً ولا تقاطع بين الشعارات المعلنة والمنهج الدستوري للـدولة، وبين الأمة التوّاقة إلى تطبيقه والكادحة للوصول إليه.

لم يبق أمام هذه القيادة الحكيمة إلّا السلطة التنفيذية التي حصرها بين أمة ثورية تعايشها في حركتها اليومية، وبين سلطتين تشريعية وقضائية تخضعها لدستور الإسلام وقوانينه، ولقد كانت غالبية أجهزة هذه السلطة التنفيذية قبل انتصار الثورة الإسلامية تتشكل من عناصر صيغت عبر عشرات السنين بشكل مباشر وغير مباشر علىٰ منهج الحكم الجاهلي السابق، والإبـقاء عـلىٰ هـذه الأجهزة، بذلك الشكل كان من شأنه تكريس حالة التقاطع وتوسيع دائرتها بين الأمة وهذه الأجهزة، ومن جهة أخرىٰ ستتخلف عملية تطبيق الإسلام وتنزيله إلى واقع الحياة، إن لم نـقل إنـها سـتهدد هـذه التـجربة الإسـلامية بـالفشل

والانتكاس، لأن همزة الوصل بين النظرية والتطبيق يجب أن تكون قريبة من أصول النظرية ـ علىٰ الأقل ـ لتمتلك القدرة علىٰ ترجمتها في الواقع، إذ كيف يستطيع من تشبّع بروح النظام الجاهلي أن يتمكن من التلبس بروح النـظام الإسلامي الجديد بعيداً عن الأساليب الفاسدة للنظام السابق، دون أن يمر زمن طويل لإعدادهم إسلامياً لذلك؟ الأمـر الذي سـيفوّت عـلىٰ الثـورة والأمـة مكاسبهما ومصالحهما الإسلامية، وسيمكّن الأعداء من النفوذ، وضرب الثورة من خلال التقاطع الذي تفرزه هذه الحالة بين الأمة وأجهزة السلطة التنفيذية.

وهنا تجلّىٰ جانب آخر من حكمة الإمام ووعـيه الفـريد لعـملية التـغيير الجذرية، عندما أقدم علىٰ زرع البديل الإسلامي النموذجي إلى جانب القديم الموروث؛ فأمر بتأسيس قوات حرس الثورة الإسـلامية إلى جـانب قـوات الجيش النظامية، ومـنظمة الإعـلام الإسـلامي إلى جـانب وزارة الإرشـاد، ومؤسسة جهاد البناء إلى جانب وزارة الإعمار والإسكان، ومجلس الثـورة الثقافية إلى جانب وزارة التعليم العالي، وهكذا كان في أغلب جوانب وأجهزة السلطة التنفيذية مقومّاً لها بكل ما يحقق القدرة علىٰ طرح النموذج التطبيقي للنظرية الإسلامية في بناء الدولة والمجتمع الإسلامي المـتكامل. ولم يـهمل أجهزة الدولة القديمة، بل سعىٰ بكل قوة وفاعلية لإعادة بنائها بما يؤهلها لأداء دورها الإسلامي المطلوب، ابتداءً من تطهيرها من العناصر الفاسدة فـيها إلى تطعيمها بالعناصر المجاهدة والكفوءة في موقع الإدارة والقـرار، إضـافة إلى تعيين ممثلين عنه في كل دائرة منها ليكون مرشداً ومربّياً لكوادرها، ورقـيباً هادياً لعملية التطبيق الإسلامي في مجال اختصاصها. ومع كل هذه الخطوات الأساسية تراه رحمه الله لم يكتف بها، بل راح يوجه الخطاب تلو الآخر، ويعهد ويتعهد علىٰ سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي عليه السلام في تحقيق الانسجام

الكامل بين الأطروحة الإسلامية والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وبين الأمة الإسلامية. ففي خطاب تاريخي له بمناسبة إعلان النظام الجمهوري الإسلامي في إيران بتاريخ ٣ جمادىٰ الأولىٰ عام ١٣٩٩ هجرية قال: «أنا أعلن الجمهورية الإسلامية، وأعتبر هذا اليوم عيداً وأهنئ شعبنا العزيز وجميع الطبقات بمناسبة هذا اليوم... ولكننا جميعاً مكلفون بمراعاة أحكام الإسلام. يجب أن تكون أسواقنا إسلامية ويجب أن تطهّر أسواقنا من الإجحاف، وعلىٰ الحكومة وجميع الحكومات التي تأتي بعدها أن تسير وفقاً للموازين الإسلامية. الوزارات يجب أن تكون وفقاً للموازين الإسلامية. الدوائر الحكومية يجب أن تكون وفقاً للمعايير الإسلامية. يجب علىٰ هذا البلد الذي اتّخذ صبغة طاغوتية أن يتبدّل إلى بلد ذي صبغة إلهية، يجب أن تتحول الدولة الطاغوتية إلى دولة إلهية... الدولة في ظل الحكومة الإسلامية خادمة للشعب، ويجب عليها أن تكون في خدمة الشعب، وإذا رأىٰ الشعب ظلماً حتىٰ من رئيس الوزراء؛ فعليه أن يشكوه إلى المحاكم، وعلىٰ المحاكم أن تطلبه وأن ترىٰ نتيجة عمله إذا ثبتت عليه جريمة... لا يوجد اليوم فرق بين رئيس الوزراء وغيره. ففي صدر الإسلام حضر خليفة المسلمين مع رجل من أهل الذمة كان بينهما خلاف، حضرا في مجلس القاضي وحكم القاضي عليه فأطاعه خليفة المسلمين. هذا هو الإسلام... وعلىٰ أيّ حال فإني أطلب من كافة الشعب أن يغيّروا ما بأنفسهم... يغيّروا نفسيّاتهم التي كانت لهم في زمن الطاغوت إلى نفسيات إسلامية»[1].

إن التجربة الإسلامية في إيران اليوم التي قادها الإمام الخميني ﰕ أعطت

---

(١) نص الترجمة في كتاب توجيهات الإمام الخميني إلى المسلمين، إصدار وزارة الإرشاد الإسلامي في إيران: ١٣ ـ ٢١.

نموذجاً مصدّقاً لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام، في التكامل والتفاعل بين رسالة الإسلام، وقيادته العادلة الحكيمة وأمته الراشدة، وقد قدّمت للبشرية المعاصرة صورة ملموسة أثارت فيها فضول المعرفة وحب الاطلاع والانفتاح عليها.

وهكذا تبقىٰ مهمة الائتلاف مع الأمة في معادلة التغيير الإسلامي قائمة باطّراد، يتحمل مسؤوليتها كل من تصدىٰ لحمل الرسالة الإسلامية إلىٰ الأمم والشعوب، وقد أصاب الإمام علي عليه السلام لُبَّ الحقيقة عندما قال: **«طوبىٰ لمن يألف الناس ويألفونه علىٰ طاعة اللّٰه»**[1].

❊ ❊ ❊

(١) تحف العقول لابن شعبة: ١٥٥.

التطرف
الأسباب والعلاج

التطرف كما يجري في عالم الفكر يجري أيضاً في الحياة العملية، وخصوصاً في الواقع السياسي منها، وفي عالم السياسة: هو اصطلاح يحمل في روحه المعنىٰ اللغوي الذي اشتق منه ، وهو ـ أي المعنىٰ اللغوي ـ «من تطرّف: صار طرفاً، أي جاوز حدّ الاعتدال، ومنه تطرّف في آرائه فهو متطرف أي جاوز حد الاعتدال فيها»[١].

ويقال أيضاً: «رجل طِرف ومتطرف ومستطرف، وهو الذي لا يثبت علىٰ أمرٍ، ورجل طَرِف وامرأة طَرِفة إذا كانا لا يثبتان علىٰ عهد»[٢] ، وهذا يعني أن المتطرّف المتجاوز للحد قد بلغ ـ رأياً أو عملاً ـ أحد الأطراف وهو جانب الإفراط، وبذلك وصل حدّ النهاية، وأوشك علىٰ السقوط والخروج من ذلك الجانب، فهو غير ثابت ولا مستقر؛ إذ كل من يقف علىٰ طرف يوشك أن يسقط؛ بخلاف الأمة الوسط؛ فهي تكون ثابتة ومتوازنة، تلك هي أمة الإسلام: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[٣].

---

(١) المنجد، حرف الطاء، كلمة طرف.

(٢) لسان العرب، حرف الفاء كلمة طرف.

(٣) البقرة: ١٤٣.

ويتساءل الكثير من العاملين في الحياة الثقافية والسياسية عن أسباب حصول ظاهرة التطرف والتطرف المضاد في العمل السياسي والثقافي، وذلك بالانشداد مرةً إلى أقصىٰ اليمين، ثم التحول بردٍّ فعل معاكس إلى أقصىٰ الشمال مرةً أخرىٰ، ولا يحصل هذا في الدوائر العامة للعمل الثقافي فحَسب، بل قد تجده حتىٰ في إطار الدوائر الخاصة لحركة أو جماعة معيّنة، مهما كانت صغيرة ومحدودة، وتتعاظم خطورة هذه الظاهرة في حالتين رئيستين:

الحالة الأولىٰ: عندما يكون المصاب بهذا المرض العضال من المتصدّين الذين تبوّأوا منصباً أو موقعاً مؤثّراً في الحياة الثقافية والسياسية للأمة، الأمر الذي سيؤدي إلى تحرك الواقع المؤثر فيه باتجاه حركته المتطرفة، مرةً لهذا الجانب وأخرىٰ للجانب المعاكس؛ لتبرز تبعاً لذلك حالات من التصادم والخلاف الحاد، فتصبح الجماعة الواحدة جماعات، والوجود الواحد وجودات متعارضة متخالفة.

الحالة الثانية: عندما يكون هذه المرض علىٰ شكل حالة اجتماعية نتجت بسبب حدث استثنائي حاد، كثورة عارمة عصفت بواقع وسلبت وجوده من الحياة الثقافية والسياسية؛ لتبدأ حياة وجود جديد لمّا تظهر معالمه الثقافية والسياسية في الواقع بعد، وهنا تبرز حالات كثيرة من التطرف في التعامل والمواقف علىٰ الصعيد العام، فمرة تظهر علىٰ شكل آراء وشعارات حادّة، أو فهم متطرف لها باتجاه معيّن ثم لا تلبث بعد فترة أن تتحول إلى اتجاه مضاد، وهذا قد يحصل أيضاً في الوحدات الحركية التي تتأثر كثيراً بالأحداث الثقافية والسياسية الكبرىٰ لمجتمعاتها، وغالباً ما تحدث هذه الظاهرة المرضيّة عند فقدان القيادة المبدئية الحكيمة التي تمسك بزمام الأمور ، وتسير بالأمة باتجاه

الرشد والتكامل الحركي في بناء حياتها الثقافية والسياسية الجديدة، فـفرق كبير بين الثورة الإسلامية في إيران، والثورة في الجـزائـر ضـد الاسـتكبار الفرنسي، التي فقدت قيادتها الإسلامية الأولىٰ، وتحولت فيما بعد إلى واقع لا إسلامي، وأظهر منها الثورة الفلسطينية ـ قبل ظهور الحركات الإسلامية بـعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، كحركة حماس والجهاد وما يماثلهما ـ تلك الثورة التي بدأت إسلامية، ثم تحولت عن إسلاميتها وعاشت فصائلها أنـواع التطرف والتطرف المضاد، عندما تجزّأت عـلىٰ أسـاس ذلك وغـابت عـنها قيادتها الاسلامية الأولىٰ، فارتمىٰ جزء منها في أحضان الشرق والآخر فـي أحضان الغرب؛ أما الثورة الإسلامية في إيران فـقد سـارت بـرشد قـيادتها الإسلامية الفذّة، وتكاملت بفضل إمامها الحكيم الخميني الكبيرﷺ. وواضح إنّ هذه الحالة تختلف عن سابقتها بسعة شمولها للواقع الثقافي والسياسي، وفـي بطء ظهور حالات التطرف المضاد فيها.

الأسباب

ولو أمعنا النظر في هذه الظاهرة وبحثنا عن جذورها وأسبابها، فإننا نجدها لا تعدو الأسباب التالية متفرقةً أحياناً ومجتمعةً أحياناً أخرىٰ:

الأول: الجهل: ولا نقصد به هنا الجهل البسيط فإن أمره هيّن يسير ؛ إذ يكفي فيه التنبيه علىٰ موارد الجهل والتصدّي لبيانها وتعليم الجاهل بها، وهذا شأن أغلب سواد الأمة ومن هو علىٰ سبيل النجاة، وإنما نقصد بالجهل هنا الجـهل المركّب الذي تصوّر صاحبه أنه يعلم، وهو يجهل أنه يجهل، وهذا السبب هو أقوىٰ الأسباب وأخطرها؛ إذ منه يحصل الانحراف المبدئي، وفي باحته تحطّ رحال البدع والضلالات، ومنه تتشكل قوة المعارضة الجاهلية لخط الإسلام

الأصيل، حين تبرز ظواهر التطرف شيئاً فشيئاً، حتىٰ تسفر عن وجهها الكالح في صور من العداء الذي قد يأخذ صوراً من المواجهة العملية تخرجهم عن أصل الدين، كما هو شأن كثير من الفرق الإسلامية المنحرفة، كالخوارج ومن علىٰ شاكلتهم.

وفي مرحلتنا المعاصرة نجد أن الجهل هو الذي مكّن الدعوات الاستعمارية بعد الاحتلال العسكري المباشر، وتقسيم بلاد المسلمين بين دول الاستكبار، من تغذية حالة التطرف السلبية تجاه بعض مظاهر الدين في الأمة، كالحجاب مثلاً، وأن يزرع الوجودات الثقافية والسياسية التي تتطرف نحو العرقية والقومية، مقوّماً انتماءها الديني علىٰ أساسها، فأصبحت الأمة الإسلامية قوميات متطرفة، منها للعروبة، وأخرىٰ للفارسية، وثالثة للتركية وهكذا.

وحتىٰ بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران، وبروز ظاهرة الصحوة الإسلامية بين المسلمين، نجد أن البعض من الفئات والخطوط السياسية الإسلامية كابرت واتخذت موقفاً سلبياً من الثورة الإسلامية، وذلك لأن أجواء التطرف القائم علىٰ الجهل المركب جعلها في شباك المخططات الاستكبارية بشكل مباشر أو غير مباشر ، راكبةً مركب العداء السافر والمبطن من خلال ذلك. وصدق أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال: «... **فمن جهل شيئاً عاداه، فأنزل الله: ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾** »[1].

الثاني: الشبهات والرواسب الفكرية المنحرفة: وهذا السبب وإن كان يلتقي بسابقه من حيث أنه نوع من أنواع الجهل المركّب، ولكن صورته تختلف من جهة؛ أن لتاريخ هذا الشخص المتطرف أو الجماعة المتطرفة مضامين

---

(١) البحار ١٠٤: ٣٧٠.

وركائز فكرية، أثّرت علىٰ مسار تفكير كل منهما، وشابته بشوائب، خلقت له سلوكاً ومنهجاً متطرفاً بالنسبة إلى منهج الإسلام المستقيم والتفكير السليم.

والتاريخ بكافة فتراته الغابرة والقريبة يحكي لنا صوراً كثيرةً عن هذه الحالة، فغنيٌ عن التعريف الرواسب الجاهلية التي ضلّت عالقة في أعماق الكثيرين ممن أعلن إسلامه، سواء كان قبل فتح مكة أو بعدها، والتي برزت آثارها شيئاً فشيئاً منذ حياة رسول الله ﷺ إلى المرحلة التي أعقبت وفاته، والتي تجسدت فيما بعد بشكل واضح وجلي في جاهلية وانحراف دولة بني أمية، ومن لحقها من دول البدع والضلال، وفي تاريخنا القريب شيء كثير من ذلك، تجده في واقع الأمة والعديد من رجالاتها، ولعل أبرز تلك الرواسب هي رواسب العصبيّة الإقليمية والعرقية التي زرعها وغذّاها الاستكبار خلال عشرات السنين من احتلاله للبلاد الإسلامية، تلك الرواسب التي وقفت عقبة كؤوداً دون تفاعل قطّاعات من الأمة وذوبانها الفعلي في الإسلام، وهكذا بالنسبة لسائر موروثات الفترة الاستكبارية التي حجبت النور والصحوة عن الأمة طيلة سنين مضت، تركت آثارها علىٰ طريقة تفكيرها، وخصوصاً علىٰ طبقاتها المثقفة، التي أُسرت بالمنهج الغربي علىٰ كافة الأصعدة، حتىٰ أنهم راحوا يقيسون مدىٰ نجاح مجتمعهم الإسلامي علىٰ ضوء ما يحاكيه من صور التقدم المدني والتقنين الاجتماعي والثقافي والسياسي للغرب، واكتفوا من إسلامهم باسمه ومن قرآنهم برسمه، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله عزّ من قائل: **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾**[(١)]، كما وصف حالهم قائلاً: **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به**

---

(١) المائدة: ٧٧.

يستهزئون﴾[1].

ومثالٌ علىٰ ذلك من تاريخنا المعاصر ما أعلنه الكثير من العلماء في العراق، وخصوصاً في النجف الأشرف في الفترة ما بعد إعلان ما سميت في حينه بالحكومة الوطنية ـ أي حكومة الانتداب الإنجليزي ـ عن تعهدهم بعدم التدخل في الشؤون السياسية للبلاد، ولعل الهدف الرئيسي من ذلك كان لأجل حماية الحوزة العلمية الإسلامية في النجف الأشرف وكربلاء، لئلا يُمعَن في تصفية وجودها، وهي الحصن العلمي الحصين للإسلام والمسلمين، خصوصاً بعد الموقف الثوري من دخول الإنجليز العراق عام ١٩١٧م ، وإعلان الثورة في عام ١٩٢٠م من قبل علماء الإسلام في النجف الأشرف وكربلاء. هذا التعهد أوحىٰ بموقف سلبي من التدخل في الشؤون السياسية، وأنها ليست من الدين الإسلامي، الأمر الذي خلق حالة متطرفة تجاه أيّ تحرك سياسي إسلامي ظهر فيما بعد، وقد عاشت المرجعية الإسلامية الرشيدة وحركتها المجاهدة – خصوصاً عند بروز المفكر العملاق الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره – حالة من العداء والتشويه من قبل المتطرفين ضد العمل السياسي، ولعبت الرواسب والشبهات الفكرية لتلك الفترة دورها في الموقف العدائي من السيد الصدر، ومقاومة دوره الرسالي في التوعية السياسية للأمة، ووضعها في موقعها الإسلامي المطلوب ضمن عملية الصراع بين الإسلام والكفر.

الثالث: التعصب العاطفي، ونقصد به عدم قبول الحق عند ظهور الدليل والبرهان، بسبب ميل إلى جانب أو تعاطف مع جهة، ولهذا تشير الآية الكريمة: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب**

---

(١) غافر: ٨٣.

فاعمل إننا عاملون﴾[١]، وقوله عزّ من قائل: **﴿وإن تدعوهم إلى الهدىٰ لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾**[٢].

ولعل هذا الداء من أكبر الأدواء وأكثرها شيوعاً بين العاملين، وهو يشكّل نقطة ضعف أساسية علىٰ صعيد الفرد والجماعة، ومنها تنشأ ظواهر المحورية علىٰ مستوىٰ الجماعات، وظواهر الذاتية الأنانية علىٰ مستوىٰ الأفراد.

وقد لا يقف حدّ التعصب هذا عند حدود الموقف السلبي من قبول الحق، وإنّما قد يتخذ صوراً من الفعل الإيجابي المضاد، كالتخطيط لتكريس حالة ذاتية أو محورية، قائمة علىٰ أساس التعصب العاطفي، وتتجسد الخطورة لا بالتجسيد الظاهري لهذه الحالة فقط، وإنما تكمن أيضاً وبصورة خفية في زوايا الممارسات والمواقف، ومقدمات الأعمال، والإعداد لما وراء الستار. إنّ مثل هذا التعصب المخطّط هو الذي يصادر جهود المجاهدين، وثمرات العاملين الرساليين، ويهدّد مصير حركتهم بالأُفول والانحراف عن سبيل اللّٰه المستقيم. وتاريخنا الإسلامي مملوء بمصاديق، تحكي هذه الانتكاسات، سواء في حياة رسول اللّٰه ﷺ أو ما بعد وفاته، بل طيلة حياة الأئمة عليهم السلام إلى يومنا هذا، فكثير من العقبات التي ظهرت في طريق الثورة الإسلامية المعاصرة، وخصوصاً في إيران الإسلامية، كان بفعل العناصر التي تتحرك علىٰ أساس التعصب المحوري والذاتية الأنانية، وكثيراً ما انبرىٰ إمام الأمة الخميني الكبير قدس سره، ومن بعده ربيبه الإمام السيد علي الخامنئي (دام ظله)، بحكمتهما ونفاذ بصيرتهما ليُشخّصا مواطن هذا المرض الخبيث، ويعرضا لأسبابه، والموقف المناسب منه، معبرين في ذلك عن حقيقة قول الإمام علي عليه السلام: «**غير منتفع بالحكمة عقل مغلول**

---

(١) فصلت: ٥.

(٢) الأعراف: ١٩٨.

بالغضب والشهوة»[١].

الرابع: ضعف التجربة والتخلف الحركي: فقد يتصور البعض أن الإحاطة النظرية بالعلوم والمعارف كافية في تأهيل المرء لخوض معترك العمل الثقافي والسياسي، والانطلاق في حركته نحو هدفه الكبير، متغافلين عن أن الجزء الأساسي الآخر لنضج القدرة العلمية، والكفاءة الحركية للعاملين السياسيين هو رسوخ وتكامل التجربة؛ من خلال تدرج طبيعي في سلّم العمل والحركة الثقافية والسياسية الهادفة، لذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**رأي الرجل علىٰ قدر تجربته**»[٢]، وقال أيضاً: «**العقل غريزة يزيد بالعلم والتجارب**»[٣]، وهذا لا يعني أن يؤخذ الزمن مجرداً عن مستوىٰ التجربة وسعتها، بل إنّ الزمن بما هو ظرف يستوعب في أجزائه تلك التجارب المتواصلة والمتراكمة والمتكاملة، «**فالأيام تفيد التجارب**»[٤] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، ويقول أيضاً: «**لولا التجارب عميت المذاهب، وفي التجارب علم مستأنف**»[٥].

ومن موارد ضعف التجربة وضآلتها هو الانغلاق علىٰ الذات والاستغناء بتجاربها عن تجارب الآخرين، في حين أن نظرية تراكم التجارب وتكاملها تقوم علىٰ أساس اكتساب تجارب الآخرين، وإضافتها إلى التجارب الذاتية، والاستفادة منها، وإثراء الحركة الهادفة بها، ففيما أوصىٰ به أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) غرر الحكم: ٢٢٣.

(٢) م. ن.

(٣) م. ن.

(٤) م. ن.

(٥) البحار ٧٧: ٢٠١ ـ ٢٢١.

ابنه الحسن عليه السلام: «**ولتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بُغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب وعوفيت من علاج التجربة**»[١].

وضعف التجربة هذا سيفرز بطبيعته تخلفاً حركياً لا لدىٰ الأفراد العاملين بما هم أفراد وحسب، بل إن ذلك سيلازم العمل الحركي ككل، فتراه يسير وراء الأحداث وكأنه ليس في خضمّها، وتراه يتأخر عن مسيرة الأمة وكأنه ليس منها، وبمرور الزمن لن تجد رجاله إلّا ركاماً من المتقاعدين والمتقاعسين، ليس لهم إلّا أن يجلسوا علىٰ قارعة المسيرة يلسعون العاملين الدائبين في جهادهم بألسنتهم الحداد، ويخرمون الهمم بتثبيطها وتوهينها، فيحق فيهم قول صادق أهل البيت عليهم السلام: «**لا يطمعنّ... القليل التجربة المعجب برأيه في رئاسته**»[٢].

الخامس: ضعف التقوىٰ وغلبة الهوىٰ: فالمعروف أن هناك عاملين أساسيين شهيرين يحقّقان الاستقامة في المسيرة في دائرة الفرد وفي دائرة الجماعة، وهما: العلم والعدالة، وقد أشرنا في سياق ذكر أسباب التطرف إلى عامل؛ الجهل بما يؤشر إلى ضرورة العدالة في التخلص من حالات التطرف والشذوذ، فقد أكّد علماء الأخلاق أن التوازن والحكمة والعلم تفتقر في حصولها وفي ثباتها ورسوخها إلى مدىٰ نقاء النفس وطهارتها بالورع والتقوىٰ عن كل ما يخالف أحكام الله، وما يخرق نظام الإسلام المقدس. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله عزّ من قائل: ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم**﴾[٣]، وقوله: ﴿**ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة**﴾[٤]، فقدّم

(١) نهج البلاغة: كتاب ٣١.

(٢) الخصال للصدوق / باب العشرة: ٤٣٤.

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) الجمعة : ٢.

التقوىٰ والتزكية علىٰ العلم والتعليم، وفي قوله تعالى التالي أيضاً دلالة علىٰ المراد: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّٰه وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾[1]. أما كيف يكون من نتائج ضعف التقوىٰ وغلبة الهوىٰ ظهور حالات التطرف؟ فهذا ما تكفينا الإشارة فيه إلى بعض تلك الحالات، فمنها: حالة النفاق في حمل الشعارات، والمزايدة من خلالها، والغلو في تحميلها مفاهيم وتفسيرات، تبعدها عن روحها الحقيقية وحدودها الواقعية، مما يحصر الواقع في زاوية هذه التحميلات الضيّقة، لتكون وسيلة للسبق الثقافي والسياسي والامتياز الشكلي علىٰ أخوة الدين والمصير، ثم لا تلبث في ظرف معاكس أن تنقلب الآية، وبتطرف يصبح ما كان تهمةً وشيناً امتيازاً وزيناً، وما كان ضرورةً ووعياً انحرافاً وتخلفاً، فلو كانت التقوىٰ في البين، والخلق الإسلامي ضابطاً حقيقياً للعمل الثقافي والسياسي، لما لاح كل ذلك في أفق العاملين، ولوجدت العقل إماماً يُحتكم إليه، «**ومن لم يُهذّب نفسه لم ينتفع بالعقل**»[2].

وحالات أخرىٰ لا تتسع سطورنا هذه التفصيل فيها، ولكننا نشير إليها علىٰ سبيل التذكرة، منها: الدعوة إلى العناوين الثانوية بتطرف، ينسي صاحبه عنوان دعوته الأول، وهو اللّٰه وسبيله الوحيد الإسلام العظيم، حتىٰ تجده في نهاية المطاف قد استغرق في عالم الدعوة إلى الذات الفردية أو الفئوية من حيث يشعر أو لا يشعر، عندها يكون مصداقاً لقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «... **الهوىٰ شريك العمىٰ** »[3]، فيصاب بهوىٰ الذات، وتعمىٰ بصيرته عن هدفه الأساسي

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) غرر الحكم: ٣٤٧.

(٣) غرر الحكم: ٢٩٣.

وهو اللّٰه والإسلام، ومنها: غلبة الجانب الذاتي في العمل الثقافي والسياسي علىٰ الجانب الموضوعي، فهو لا يرىٰ مصلحةً للعمل إلّا من خلال نظرته الذاتية للواقع، وأفقه الخاص في العمل، ولا مصلحة عليا فوق كل ذلك، ولا وجود للآخرين إلى جنبه من أخوة الدين والطريق يشاطرونه الهم والاجتهاد في تحقيق الأهداف العليا لمسيرة العاملين كلّ العاملين، بحيث تجدهم يُنكرون ذواتهم في سبيل المصلحة العليا والهدف الكبير، فيجعلونها في خدمتها ومن أجلها، وليس العكس، وهو أن تتكبّر نفسه، وتتعاظم ذاته، فيصبح كالذين حكت عنهم الآية الكريمة: **﴿إن الذين يجادلون في آيات اللّٰه بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلّا كِبر ماهم ببالغيه فاستعذ باللّٰه إنه هو السميع البصير﴾**[1].

العــلاج

بقي الحديث فيما يحدّ هذا التطرف ويعالج أمره. وقد يقول قائل: إن الجواب واضح من خلال ما تمّ عرضه من أسباب حصوله وعوامل سريانه، لكنّنا نقول: إن الوقاية منه شيء ـ وذلك بالإقلاع عن مقدماته وأسبابه ـ وعلاجه شيء آخر، وفي الجواب علىٰ ذلك نميز بين أمرين :

الأول: الجواب علىٰ ماهو العلاج؟

والثاني الجواب علىٰ ما الذي يحدُّ سريانه؟

وهذان الأمران يترتب أحدهما علىٰ الآخر، فلو لم ينفع العلاج لأصل الداء، وجب الحدّ من السريان، مَثَله بالضبط كمثل المصاب بالتعفن في عضو من أعضائِهِ الحسّاسة، فإن لم ينفع معها العلاج المبرئ من الداء، وجب إيقاف

---

(١) غافر: ٥٦.

سريان العفونة ببتر الجزء المتعفّن؛ حفاظاً علىٰ باقي أجزاء الجسم وأعضائه، وهكذا ما نحن فيه؛ فعلاج التطرف يكمن في إرشاد العناصر المصابة بـه إلى خطر ما هم فيه، وإلى ضرورة إخضاع العقل والنفس إلى عملية تطهير وخلق جديد، وإلى مراجعة نقدية شاملة لكلّ المواقف والتصرفات، في ظرف مناخ يضفي علىٰ عملية التطهير والخلق هذه جـواً مـن الفـعل، والانـفعال والشـدّ والتحريك باتجاه التوازن والحكمة في الفكر والعمل. ومما نقل عـن الإمـام علي عليه السلام في هذا المجال قوله: «**ولا تظنوا بي استثقالاً فـي حـقٍ قـيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي؛ فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يُعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّوا عن مقالة بحق، أو مشورةٍ بعدل**»(١)، علىٰ أن يتم ذلك في أجواء اجتماعية، تعكس واقع هذا السلوك التغييري نحو الحـق والعدل، وتحكيه صورة حيّة ناصعةً، وهذا المعنىٰ نلمسه في إرشادات الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم قائلاً له: «... **يا هشام، مجالسة أهل الديـن شـرف الدنيا والآخرة، ومشاورة العاقل الناصح يُمنٌ وبركة ورشد وتوفيق من اللّٰه، فإذا أشار عليك العاقل فإيّاك والخلاف؛ فإن في ذلك العطب**»(٢).

ويجب أن يكون علاجنا هذا كعلاج الطبيب للمريض مليئاً بالعطف، صبوراً علىٰ ما يصدر منه، حسناً كان أو قبيحاً، ولا يكلّ من المضي بـالعلاج حـتى مراحله النهائية، وفي قول الإمام علي عليه السلام إشارة إلى ذلك : «**المسلم مرآة أخيه، فإذا رأيتم من أخيكم هفوة فلا تكونوا عليه إلباً، وكونوا له كـنفسه، وأرشـدوه، وأوضحوا، وترفقوا به**»(٣)، حتى إذا رأينا أن الداء قد بلغ مداه، وعوامل العلاج

---

(١) نهج البلاغة: خ ٢١٤.

(٢) نهج البلاغة: خ٢١٦.

(٣) تحف العقول ٢٩٣.

قد استنفدت أغراضها، ولا ثمرة محسوسة منه؛ فهنا لا مناص من حماية الجماعة والأمة من خطر هذا المنحرف وتخريبه، وذلك بالحجر، عليه وقطع كل سبيل له علىٰ الأمة، ومقاطعته حتىٰ يعود إلى رشده أو يكون عبرةً لمن اعتبر، ليمتاز الخبيث من الطيب، والمصلح عن المفسد. وصدق رسول اللّٰه ومرشد الإنسانية النبي محمدﷺ فيما قال: «**لا تجلسوا عند كلّ داعٍ مُدّعٍ يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة، وتقربوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع ، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة، ولا يصلح لموعظة الخالق إلّا من خاف هذه الآفات بصدقه، وأشرف علىٰ عيوب الكلام، عرف الصحيح من السقيم، وعِلل الخواطر، وفِتن النفس والهوىٰ**»(١).

أما حالات التطرف العامة التي تظهر علىٰ الأمة أو بعض فئاتها وفصائلها؛ فلا يختلف علاجها في الجوهر عن علاج الحالات الفردية، من ضرورة الترشيد الاجتماعي إلى المدىٰ الذي لابد فيه من الحجر، وقطع دابر الجزء الفاسد منه، ويبرز هنا بشكل أساسي دور القيادة الرشيدة في العلاج وحسم الموقف، وإدارة دفة الواقع باتجاه التكامل علىٰ صعيدي الوعي والرشد التطبيقي للرسالة. وتبقىٰ الحقيقة القرآنية الخالدة درساً وضابطاً لعملية الهدم والبناء في منهج التغيير للأمة: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أنّ اللّٰه شديد العقاب**﴾(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) البحار ١٠: ٩٧.

(٢) الأنفال: ٢٥.

الفصل الثالث

ثقافتنا الإسلامية

بين الأصالة والتغريب

رسالتنا والتحديات المعاصرة

إن التطور الهائل في واقع البشرية المعاصرة، في جميع نواحي الحياة في مجال التنظير الفكري، والتكتل الاجتماعي، والحركة السياسية، وفي مجال التقنية العلمية، وأساليب ووسائل الاتصال والإعلام ، أثّر تأثيراً كبيراً علىٰ العقلية الإنسانية في إطاريها الفردي والجماعي. فبرزت علىٰ السطح الخارجي ظواهر شاملة،كوّنت مجموعة من التحديات الكبرىٰ أمام واقع الإنسانية الفكري والعملي، ومن أبرز تلك الظواهر والتحديات:

أولاً: طغيان منهج التفكير المادي المسمىٰ (بالمنهج التجريبي) علىٰ طريقة التفكير الإنساني: وهو المنهج القائم علىٰ أساس سلوك العقل البشري في الاستدلال والإثبات للقضايا من الخاص إلى العام، وهذا وإن صح في مرحلته الأولىٰ في دائرة الطبيعة المادية فإنّ المشكلة تكمن في سريانه، عن عقيدة أو عن تطبع، إلى مسائل وموضوعات ما وراء الطبيعة، وهي التي تتعلق بمسائل العقيدة وما يرتبط بها من قضايا فكرية.

ثانياً: سيطرة العقل الجمعي علىٰ فكر الإنسان المعاصر في الحكم علىٰ القضايا، وفي نشوء الولاءات، وقد لعبت التقنية الإعلامية الحديثة، في الوسائل والأساليب وسعة وسرعة وسائل الاتصال والوصال دوراً حاسماً في إحكام هذه السيطرة وتنظيمها بدقة شاملة ومنهجية هادفة، جعلت من الإنسان

والمجتمع مسيّرين بها، ولا يملكان فرصة أو زاوية ينظران من خلالها بعقلية متحررة عن قيود الإيحاء النفسي، ومجردة عن مفردات التلقين الفكري، التي تضخّها وسائل الإعلام والاتصال المبثوثة، بكل صورها وأشكالها وأساليبها، في جميع زوايا ونواحي الحياة اليومية، حتىٰ أصبح الإنسان المعاصر، خصوصاً في المجتمعات الأوربية أو التي تأثرت بمنهجها المادي، عبداً أسيراً في طعامه وشرابه ومسكنه، وفي اهتماماته وآرائه الثقافية والسياسية، وفي طريقة حياته وعلاقاته، لما تبثه وسائل الإعلام والاتصال هذه.

ثالثاً: بروز واستحكام ظاهرة التكتل الدولي في محور القوىٰ الكبرىٰ، التي مرت بمرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولىٰ: هي مرحلة القطبين أو المحورين: وفيها تعسكرت الدول في معسكرين، يقود كل منهما دولة عظمىٰ، بينهما حرب باردة قائمة علىٰ أساس مصالح تلك الدول العظمىٰ، في مقابل حماية الدول المنضوية تحت معسكرها وقد انتهت هذه المرحلة بانهيار أحد المعسكرين، وهو الاتحاد السوفياتي، وتفكك منظومة معسكره.

المرحلة الثانية: هي مرحلة بروز القطب الواحد: أو ما يسمىٰ اليوم بالنظام العالمي الجديد، القائم علىٰ أساس استقطاب العالم، بكل دوله وقواه، في محور دولة واحدة كبرىٰ، بدعوىٰ حفظ مصالح جميع هذه الدول في إطار المصلحة العليا لتلك الدولة الكبرىٰ، وقد بدأت إرهاصات هذه المرحلة بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وتأثيرها الرائد في بروز صحوة إسلامية وتحررية شاملة، ألهبت إرادة الشعوب وحسّها الثوري، ودفعتهم للتحرك الميداني الواسع للتحرر من هيمنة القوىٰ الكبرىٰ، والعودة إلى الأصالة والاستقلال والحرية.

الصحوة الإسلاميّة والتحديات:

أمام هذه التحديات الكبرىٰ جاءت الثورة الإسلامية الكبرىٰ بقيادة الإمام الخميني الكبيرؒ، لتضع لنا في هذه المرحلة الحساسة من مسيرتنا الرائدة معالم الحركة الرسالية لاحتواء هذه التحديات، وطرح الإسلام العظيم بكل قوة واقتدار علىٰ أساس فكري مبين، وعزم وإرادة راسخة؛ ليكون له في كل مسألة جواب تام، ولكل شبهة ردّ حاسم، وأمام كل ظلم وباطل موقف عدل وحق، ويحق قول اللّٰه تعالىٰ في محكم قرآنه الكريم في قيمومة الإسلام:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّٰه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(١)، وهيمنته علىٰ الدين كله:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾(٢).

وأبرز هذه المعالم التي رسمتها لنا الثورة الإسلامية وقيادتها الرشيدة هي:

أولاً ـ تجسيد الرؤية العقائدية بدور الغيب المطلق، والقدرة الإلهية في رسم سنن التغيير الاجتماعي ومسار حركة الأمم والشعوب:

إن العقيدة بالغيب وبقدرة اللّٰه المطلقة في سير الحياة الإنسانية، وخصوصاً في الجانب الاجتماعي، هي جوهر الإسلام والإيمان، وهي المبدأ المطلق في استمداد النصر وإقامة حكومة العدل الإلهي في الأرض.

إن الكشف عن هذا المبدأ علىٰ المستوىٰ العالمي للأمم والشعوب، والإيمان به، والسير علىٰ نهجه، تتحقق من خلال عاملين أساسيين متعانقين:

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) المائدة: ٤٨.

أحدهما سلبي والآخر إيجابي، أما السلبي فهو مجموعة التحولات التي تفرزها عملية الصراع بين الحق والباطل والعدل والظلم في الواقع البشري، والتي من خلالها تنتبه البشرية إلى بطلان العقائد السائدة، وخطل النظريات الحاكمة، وفساد القوىٰ والممارسات التي تنبثق عنها. والآخر إيجابي يتمثل بتطلع هذه الشعوب والأمم نحو الأطروحة البديلة في بعديها العقائدي والتشريعي، والتي تأمل فيها إقامة الحق وإزهاق الباطل وتحقيق العدل ودفع الظلم.

إن عملية الكشف عن هذا المبدأ والتحول العالمي نحوه هما أول إشعاع انبثقَ من أفق الثورة الإسلامية وقيادتها الربانية، فأيقظ الأمم والشعوب من سباتها، وحوّل ظلماتها إلى صبح منير، أشرقت معه النفوس، وتطلعت بانبهار إلى حقائق كبرىٰ لم تكن قد أدركتها من قبل، أو خُيِّل إليها أنها نوع من خرافات المتخلفين وبقايا جهل الإنسان القديم.

وهذه هي أهم مفردات نهج الثورة الإسلامية وقيادتها الرسالية في مواجهة التحديات المعاصرة، وأحداث التغيير الأساسي في طريقة التفكير المادية، والمنهجية العلمانية في تناول الحقائق والقضايا.

فعن سرّ انتصار الثورة الإسلامية يقول الإمام الخميني قدس سره: «لنعلم أن ألطاف الإمداد الغيبي الإلهي هي التي أوصلت هذه الثورة للنصر»[١].

ولم تكن هذه المقولة المبدئية مجرد عقيدة، تحمّل علىٰ الأحداث والوقائع لتسمها بطابعها الخاص، بل إنها حقيقة، ثبت وجودها المطلق من خلال استقراء الواقع موضوعياً للوقوف علىٰ فواعل حركته وقوانين صيرورته، فعندما يقرر الإمام قدس سره أن الثورة الإسلامية تمتاز عن كل الثورات: «بالانطلاقة وفي أساليب

---

(١) الوصية الإلهية السياسية للإمام الخميني قدس سره.

المقارعة وفي أهداف انتفاضتها»[١]، يصيب تلك الحقيقة إصابة موضوعية، وذلك عندما ننظر إلى طبيعة الثورة في انطلاقتها، وفي سياق حركتها وأهدافها والمخاطر المحدقة بها، والقوىٰ التي تناهضها، مع إمكاناتها المتواضعة إذا ما قيست مع إمكانات أعدائها، يثبت أن النصر الذي حققته والمبارزة التي أشعلت فتيلها وأدامتها بوجه القوىٰ الكبرىٰ، لم يكونا من إبداعاتها المحضة وإمكاناتها المادية المتواضعة فحسب، وإلّا فالمعادلة وفقاً للموازين المادية لكلا الطرفين ربما تكون راجحة لصالح قوىٰ الأعداء الكبرىٰ، لذا يؤكد الإمامﷺ: «لولا يد القدرة الإلهية لم يكن ممكناً أن ينجز شيئاً شعب الستة والثلاثين مليوناً في ظل الدعاية المعادية للإسلام... وما كان هذا الشعب لولا يد القدرة الإلهية ليحقق شيئاً في ظل إقامة كل تلك المراكز المخصصة للفساد والبغاء والقمار والخمر والمخدرات»[٢]، كما أن يد القدرة الإلهية وألطاف الإمداد الغيبي هي التي كانت وراء وحدة الشعب وانتفاضاته، ولولاها لكان محالاً أن يتوحّد الشعب كافة لهدف واحد، وهذا ما يثبته الإمام الخمينيﷺ، فيما جاء في وصيته: «في ظل كل ذلك كان محالاً أن ينتفض هذا الشعب كافة في أرجاء البلد، ولهدف موحد ليدحر كل القوىٰ المضادة محلية وأجنبية، وينتزع منها مقدرات بلده»[٣].

إن العقيدة بالغيب ودورها المطلق في استقامة وانتصار حركة الأمة المتجهة صوب تحقيق الأهداف الإلهية، هي عقيدة إسلامية خالصة؛ ذلك لأن عوامل النصر في الإسلام تنطلق أولاً من ذات الإنسان ومحتواه الداخلي لتنتهي إلى

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق .

اللّه تبارك وتعالىٰ، واللّه تعالىٰ هو الذي يحقق النصر إذا ما حقق الإنسان العبودية له لقوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم**﴾(١)، بل في تحقيق وحدتها الحقيقية الشاملة لقوله تعالىٰ: ﴿**وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللّه هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين * وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللّه ألّف بينهم إنه عزيز حكيم**﴾(٢).

فمن ضروريات ومعالم الانتصار والتكامل في حركة الأمة والإنسان المسلم هو التأكيد علىٰ هذه الحقيقة، وتربية وإعداد النفوس للإذعان والإقرار بها، وتمكينها من الاستعداد الفعلي، واستيعابها شعورياً وسلوكياً، والتعامل الدائم علىٰ أساسها وحساب النتائج، علىٰ أن اللّه تبارك وتعالىٰ هو المهيمن علىٰ كل ذلك وبيده عاقبة الأمور. إنّ تخطّي هذه الحقيقة أو تجاهلها لا يثمر إلّا الفشل والخسران والتخبط في هوس الاضطراب وخطل الممارسة. هذه هي الحقيقة الأساسية الأولىٰ التي اتسمت بها الثورة الإسلامية، ورسمت معالم نهجها التغييري في العالم قيادتها الإسلامية الرشيدة؛ لإعادة البشرية إلى عمقها الفطري ووجدانها الأولي، والانعتاق من أسر المادية المقيت إلى رحاب اللّه تعالىٰ، حيث الحرية الحقيقية في الفكر والعدالة في الحكم والاستقامة في العمل والسلوك.

ثانياً ـ الأمة المؤمنة باللّه قوة حقيقية في صنع التغيير:

إن ثاني التحديات المعاصرة الذي وقفت الثورة الإسلامية بكل عظمة

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.

واقتدار لمواجهتها، هو العقل الجمعي الذي تخلقه وسائل الإعلام المضللة، وتُحكِم القوىٰ الكبرىٰ والحكومات الفاسدة سيطرتها علىٰ الأمم والشعوب من خلاله.

إن أبرز ما تفرزه هيمنة العقل الجمعي المختلق المبطّن بالإعلام المضلل، هو سلب الإنسان والمجتمع إدراكه السليم، وإرادته الحرة في الاختيار، وإملاء أفكار ومناهج وهمية عليه، ووضعه في إطار خيارات قسرية محددة لا يملك بديلاً خارج حدودها. وهذا بخلاف الدعوة الإسلامية، فإن من أبرز أهدافها هو توجيه العقل الإنساني نحو الحقائق الواقعية، لتكوين الفكرة السليمة والعقيدة الصحيحة، وتربية إرادته علىٰ الاختيار الحر النزيه القائم علىٰ الوعي والإدراك المتكامل، وهو المعْلَم الثاني الذي رسمته لنا الثورة الإسلامية وقيادتها الرسالية في نهجها التغييري، فهي أولاً تعلن أن الأمة هي القوة الحقيقية التي لا يمكن إغفالها وتجاوزها أو التنكر لقضاياها ومصالحها العامة، وهي ثانياً تعمل لتطبيق هذا الشعار من خلال تعبئة الأمة المؤمنة بالله وتوجيهها قوةً حقيقية، تتكامل مع حقيقة الواقع الإلهي، والإمداد الغيبي لأجل صنع النصر وتحقيق التغيير، وإقامة حكومتها العادلة وديمومتها، وهما عاملان لا ينفك أحدهما عن الآخر في تحقيق الهدف المنشود، ويكشف الإمام الخميني ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «يقين أن سر ديمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر انتصارها، والأمة تعلم ماهية هذا السر وأين يكمن؟ والأجيال الآتية ستقرأ في التاريخ أن دعامتي هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي، والغاية السامية للحكومة الإسلامية، والتفاف الشعب في أرجاء البلد بكلمة واحدة حول هذا الدافع وتلك الغاية»[١].

---

(١) الوصية الإلهية السياسية للإمام الخميني(قدس سره).

وعليه فإذا كانت الثورة الالهية والتغيير الإسلامي هما من صنع الأمة المؤمنة بالله والإمداد الإلهي لها، وأن بقاءها وديمومتها متوقفان علىٰ ذلك، فإن دور الحكومة بكافة مؤسساتها دور خدمي، وطبيعته حماية مصالح الأمة وأهدافها، وتحقيق غاياتها ورغباتها، بعيداً عن التحميل والتسلط الاستكباري وخلق أجواء الهيمنة الشكلية، وعلىٰ هذا الأساس يصف الإمام قدس سره وظيفة الحكومة ـ وزراء ومسؤولين ـ بأنهم مجرد «خدمة للشعب والمستضعفين خاصة»[١]، ولا مجال بعدئذ للاستعلاء علىٰ الأمة أو سحقها أو هضم حقوقها، سواء كان ذلك عن طريق الإرهاب والقوة، أو عن طريق أسرها في قيود العقل الجمعي الباطل الذي يخلقه الإعلام المضلل، كما هو حادث اليوم في سائر الأنظمة الأخرىٰ في العالم. وفي نهج الثورة الإسلامية تأخذ الأمة دورها الشامل ومسؤوليتها الكاملة، فتؤثر مباشرة في صميم الأحداث دون عازل، فالمؤامرات المضادة للثورة يضطلع الشعب بكشفها وإسقاطها. يقول الإمام قدس سره: «يلزم علىٰ شعب إيران اليقظ الواعي أن ينطلق من رؤية إسلامية لإحباط تلك المؤامرات»[٢]، بل يجعل من الشعب رقيباً وناظراً علىٰ المسيرة السياسية فيقول: «وأوصي الشعب العزيز انطلاقاً من الحرص عليه والرغبة في الخدمة، أن عليكم باليقظة والحذر ومراقبة محترفي السياسة المرتبطين بالشرق، أو بالغرب؛ كي لا يسوقوكم بوساوسهم الشيطانية إلى تبعية هؤلاء السرّاق الدوليين»[٣]، وكذا في حماية وحفظ الثقافة الإسلامية الأصيلة من التحريف، حيث يقول قدس سره: «إذا ما وجد بين الأساتذة من يسعىٰ إلى الانحراف فلينصحوه،

---

(١) الوصية الإلهية السياسية للإمام الخميني (قدس سره).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وإن لم يرعو فلينبذوه وليطردوه من قاعات التدريس»[١]. وهكذا فالسلطة تُقوَّم بالأمة المؤمنة بالله في نهج الثورة الإسلامية. وتؤكد الثورة علىٰ لسان قائدها هذا النهج قائلاً: «وليعلموا أنه لن تحدث ثغرة في قلعة الشعب الفولاذية بسبب ذهاب خادم (حاكم)، فهناك خدمة أسمىٰ وأرفع مشغولون بالخدمة، والله حافظ هذا الشعب ومظلومي العالم»[٢].

ثالثاً ـ رفض الهيمنة الاستكبارية ومبدأ اكتشاف الذات:

وهو السمة الأساسية الثالثة لنهج الثورة الإسلامية، وقيادتها الرشيدة في مواجهة التحدي المعاصر؛ فلو استقرأنا الثورات المعاصرة في عالمنا؛ لما وجدنا ثورة شعبية إلهية خالصة، غير منحازة بشكل أو آخر لأحد قطبي العالم الشرق أو الغرب، فضلاً عن أن تكون متمردة عليهما أو مناهضة لهما حقاً.

وقد تبدأ الثورات والقيادات ثورية مستقلة، ثم لا تلبث أن تقع في أحضان إحدى القوى الكبرىٰ مختارة لرفع العزلة التي تُفرض عليها، أو مكرهة بتهديد الزوال المحدق بها من قبل قوىٰ الاستكبار في العالم. ويعدّ أمراً جديداً وفريداً أن تنبثق ثورة في هذا العصر، تقوم بالأساس علىٰ رفض الهيمنة الاستكبارية، ومناهضة ومعاداة القوىٰ الكبرىٰ، وتطرح مبادئ تدعو الشعوب للتخلص من سلطة وهيمنة الأجانب، ولا سيما القوىٰ الكبرىٰ وتدفعها للثقة بالنفس، واكتشاف الذات، والعودة إلى الأصالة، وعمل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتي، وهذا ما يكشفه الإمامؒ في بيانه لنهج الثورة الإسلامية عندما يقول: «واعلموا أن العنصر الآري والعربي ليس بأقل من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

عنصر شعوب أوربا وأميركا وروسيا، وإذا اكتشف هويته ونفض اليأس عن نفسه ولم يعقد الأمل علىٰ الآخرين، فإنه قادر علىٰ المدىٰ البعيد أن يعمل كل شيء ويصنع كل شيء»(١)، ويشخّص الإمام ﷺ أن من آثار المخطط الاستعماري للقوىٰ الكبرىٰ هو زعزعة ثقة الشعوب المستضعفة بنفسها وبقدراتها، بل في ثقافتها وأخلاقها، فيقول: «إن مخطط نزع البلدان المستعمَرة عن هويتها، وتغريبها وتشريقها، هو من المخططات التي كان لها مع الأسف الشديد تأثير بالغ علىٰ البلدان، وعلىٰ بلدنا العزيز، وقد بقيت نسبة كبيرة من آثارها حتىٰ عادت هذه البلدان لا ترىٰ نفسها ولا ثقافتها وقوتها شيئاً، وترىٰ في القطبين القوتين الغرب والشرق العنصر الأفضل»(٢)، وانتهىٰ الأمر لدىٰ شعوبنا المستضعفة أن «أصبح التغريب الكامل في العلاقات الاجتماعية والمعاشرة وجميع شؤون الحياة، سبباً للتفاخر والتعالي، ودليلاً علىٰ التمدن والتقدم، والالتزام بثقافتنا وتقاليدنا هو تحجر وتخلّف»(٣)، فضلاً عن التبعية الكاملة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً لهذه القوىٰ المستكبرة.

وتبقىٰ المسألة الأهم هي خلاص الأمة من هيمنة قوىٰ الطاغوت الكبرىٰ، التي وقعت تحت تأثيراتها وفي شباكها، سواء كانت ذات قطبين كما في المرحلة الأولىٰ، أو قطب واحد، كالذي تحاول أميركا أن تكوّنه في المرحلة الثانية.

إن الطريق إلى هذا الخلاص في نهج الثورة الإسلامية ينطلق في البدء من النفوس التي إذا ما تمسكت بمبادئها بإصرار وإخلاص وثقة؛ فإن الانعتاق من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

تلك الهيمنة المقيتة واقع لا محال، ويعلن عن هذا النهج قائد الثورة ﷺ في وصيته قائلاً: «أوصي الشعوب الشريفة المظلومة والشعب الإيراني العزيز ، أن يستقيموا باستحكام وصمود والتزام ومقاومة علىٰ هذا الطريق الإلهي المستقيم، الذي منّ اللّٰه به علىٰ البشرية والمتحرر من الارتباط بالشرق الملحد والغرب الظالم الكافر»[١].

ويُقدّم الإمام ﷺ نموذجاً حياً لذلك، وهو تجربة الثورة الإسلامية في معاداتها ومناهضتها للقوىٰ الكبرىٰ، وما نتج عن ذلك من فوائد ومعطيات كانت مَعْلماً ورائداً للشعوب المظلومة في سبيل أن تحثّ الخطىٰ في قطع دابر التبعيات وبناء الذات، فيقول: «ترون كيف يواصل الانقطاع عن الشرق والغرب منح ثماره المباركة؛ إذ تفتحت العقول والطاقات المفكرة المحلية وهي تسير حثيثاً باتجاه الاكتفاء الذاتي»[٢].

ويتوّج الإمام نهجه الإسلامي في رفض ومعاداة قوىٰ الهيمنة الكبرىٰ بصلابة مدهشة، ليس معها أدنىٰ رجعة أو ميل لها فيقول: «أيها الأخوة المؤمنون، إن استئصالنا من قبل الأيدي المجرمة الأميركية والروسية، ولقاءنا اللّٰه مخضبين بدم الكرامة، هما خير من أن نعيش مترفين في ظل الجيش الشرقي الأحمر أو الغربي الأسود»[٣].

وهكذا جسدت الثورة الإسلامية العملاقة وقيادتها الربانية من خلال نهجها الإلهي؛ قدرة رسالتنا الإسلامية علىٰ مواجهة التحديات المعاصرة، وكل التحديات الأرضية مهما كانت ومن أيّ كانت، وصدق فيها قوله تعالىٰ: ﴿هو

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الذي أرسل رسوله بالهدىٰ وديـن الحـق ليـظهره عـلىٰ الديـن كـله ولو كـره المشركون﴾[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) الصف: ٩.

أصالتنا
وتحديات التبعية المنهجية للغرب

في عالمنا المعاصر الذي تميز بالتطور الهائل في وسائل الاتصال والمعلومات، واختراق تقنية الإعلام العالمي الحديث حدود الأقاليم والدول، مهما كانت صارمة وحديدية، وتعاظم الكم الكيفي في تبادل المعلومات والثقافات من أقصىٰ الدنيا إلى أقصاها. أقول: في خضم هذا التطور الهائل ظهرت آثار خطيرة في آفاق الفكر والثقافة، إلى جانب الآثار الإيجابية التي لا ينكرها منصف؛ وذلك أن خلطاً فاضحاً حصل في إطار هذا التبادل الإعلامي والثقافي في الكثير من المفاهيم والأفكار التي تمثّل لُبنات النظريات والأطروحات القائمة بذاتها، ولعل من أكثرها تعرضاً لهذا الخلط نظريات وأطروحات الإسلام في الحياة، سواءً علىٰ صعيد الفرد أو المجتمع أو الدولة، حتىٰ أخذت هذه الحالة تهدد العقلية العامة للمسلمين، خصوصاً المثقفين منهم، بأن تتفهم عقائدها ونظرياتها الإسلامية علىٰ طبيعتها الذاتية ومعالمها الأصيلة، بعيداً عن مداخلات منهجية وصيغ واصطلاحات البيان والثقافة الأجنبية عليه، التي غالباً ما تأتي مشبّعة بخلفياتها النظرية والفكرية المعبرة عنها. ونحن نعرف أن من أراد معرفة مباني وحقائق مبدأ أو نظرية فكرية معينة؛ فعليه أن يحوطها بلغة ومنهج ذلك المبدأ، أو تلك النظرية واصطلاحاتها الخاصة، ويتجنب إسقاطات وإيحاءات طريقة التفكير الأجنبية

واصطلاحاتها عليها .

ومن أبرز تلك الآثار الخطيرة والخلط الفاضح الذي طال الفكر والثقافة الإسلامية هي:

أولاً ـ شيوع استعمال اصطلاحات أجنبية زُجّت في زحمة المقولات المستحدثة، وحمّلت بها لغة الخطاب الثقافي الإسلامي، كمصطلح الديمقراطية مثلاً، الذي أخذ يقترن عادةً بمقولة حق الشعوب في تقرير مصيرها، واختيارها شكل وطريقة تنظيم حياتها في مختلف المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية. وليست المشكلة الأساسية هنا تكمن في نفس هذه الاصطلاحات والمقولات ، لو خلّيت ومفادها العلمي المحدد، وإنما المشكلة تكمن في عدم وحدة المفاد، وتعدد المراد الجدي للمتداولين والمستعملين لها في خطاباتهم الثقافية، خصوصاً إذا عرفنا أن مثل هذه المصطلحات لا تتحدد بحدود مدلول اصطلاحها الأولي الذي وُضعت له، بل اتخذت صوراً ومدلولات مختلفة، تحررت فيها من تلك الحدود الأولية ضيقاً وسعةً، كاستعمال الديمقراطية مثلاً في الخطاب الإسلامي بدعوىٰ تجريدها من علمانيتها، لتعني ما يساوق مفهوم الشورىٰ في الإسلام؛ وهنا يبرز خلط آخر؛ إذ إن الشورىٰ يدّعىٰ لها معنيان رئيسيان:

الأول: أن الشورىٰ هي الأساس الذي يثبت به جزء أو كل شؤون منصب الحكم والولاية العامة، وهو ما ذهبت إليه المذاهب الإسلامية العامة، بمعنىٰ أن الولاية هي للمسلمين علىٰ أنفسهم، وهم يمنحونها بالطريقة التي يتوافقون عليها لمن يرونه مناسباً لها، ضمن الضوابط العامة للإنسان المسلم. ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة صحة هذا المعنىٰ للشورىٰ أو عدم صحته؛ فإنّ له محله(١)،

(١) للإحاطة بمناقشة ذلك: راجع الحائري، السيد كاظم – أساس الحكومة الإسلامية.

وإنما الذي يهمنا هنا هو أن القول بالشورىٰ بهذا المعنىٰ لا يقصد منه أصحابه ـ ولو نظرياً علىٰ الأقل ـ سلب الولاية التشريعية عن اللّٰه سبحانه، والتصرف بها من قبل الحاكم أو الخليفة المنتخب بالشورىٰ، كما أن سلطته التنفيذية كحاكم يفترض تقيدها بقيود الإسلام التشريعية، ولو بالجملة، وإلّا فعلىٰ الأمة، خصوصاً علمائها، نصيحته وإتمام الحجة عليه ، فإن لم ينفع ذلك فلها عزله وانتخاب حاكم أصلح غيره من بين المسلمين. وهذا ـ كما ترىٰ ـ يختلف في أساسه عن الديمقراطية في منح السلطة والحكم تشريعياً وتنفيذياً لمجموع الناس أو لأكثريتهم، سواءً وافقت سلطتهم هذه دين اللّٰه أو خالفته.

الثاني: هو أن الشورىٰ طريقة لتجميع وتطوير التجارب والخبرات، وتوظيفها لإسناد الحاكم والحكومة الإسلامية المنصوص عليها بالنص الخاص أو العام، والمشاركة في تحمل مسؤولية أداء وظائفها الإسلامية ؛ ويكون الانتخاب والتصويت أحد أساليب تحقيق ذلك، وهذا المعنىٰ هو الذي ذهبت إليه المدرسة الإسلامية الكبرىٰ لأهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام.

وعلىٰ كل حال تبقىٰ إيحاءات وإسقاطات مصطلح الديمقراطية تلقي علىٰ كل استعمالاته بظلال المعنىٰ الأولي الذي وضع له المصطلح، وهو كونها النظرية القائمة علىٰ الأساس العلماني في منح السلطات الثلاث: التشريعية والقضائية والتنفيذية، وبناء الدولة وأجهزتها بمعزل عن الدين ومؤسساته، حيث يكون صاحب الحق فيها ومصدر التفويض هو الناس أو أكثريتهم، وهي بناءً علىٰ ذلك نظرية مضادّة للنظرية الإسلامية التي ترىٰ أن مصدر السلطات هو اللّٰه سبحانه وتعالىٰ.

ونحن هنا لسنا متنفّرين من استعمال الاصطلاحات الأجنبية أو المفردات المستحدثة، إذا كان الهدف من ذلك الاستعمال هو إيصال المعرفة وحقائقها

إلى طلابها، وتيسير الخطاب الثقافي والبيان العلمي لمن لا يفهمه إلّا بهذه الاصطلاحات والمفردات المستحدثة، ولكننا نخشىٰ سوء السريرة ومداخل الخلط والتشويه للمتربصين بالإسلام وحركته الرسالية الرائدة، فلا شك أن للإسلام لغته واصطلاحاته العقائدية والشرعية الخاصة به، كما أن للنظريات والأطروحات الوضعية لغتها واصطلاحاتها الخاصة بها، وبين لغتي الخطابين واصطلاحاتهما فوارق أساسية، فاستعمال إحداهما في بيان مطالب الأخرىٰ لا يخلو من احتمال الخلط أو القصور في مفادها.

علىٰ أن لغة المنطق والعقل هي لغة مشتركة بين العقلاء، يكفي استرشادها والتوجه إليها لتتوحد لغة الآراء علىٰ ضوئها.

ثانياً ـ طغيان منهج التفكير الغربي المسمىٰ (بالمنهج التجريبي المادي) ـ كما أسلفنا ـ علىٰ طريقة التفكير الإنساني، وهو المنهج القائم علىٰ أساس سلوك العقل البشري في الاستدلال والإثبات للقضايا من الخاص إلى العام، وهذا وإن صحّ في مرحلته الأولىٰ في دائرة الطبيعة المادية، فإن المشكلة تكمن في سريانه عن عقيدة أو عن تطبع، إلى مسائل وموضوعات ما وراء الطبيعة، وهي التي تتعلق بمسائل العقيدة والأحكام التعبدية، وما يرتبط بها من قضايا فكرية.

إنّ إرهاصات طغيان هذا المنهج في التفكير بدأ بما يسمىٰ بالثورة الصناعية في أوربا، التي قلبت موازين التفكير الأوربي، بعد أن كان متحجراً علىٰ رؤى ونظريات الكنيسة في مقولاتها الخرافية، ومدعياتها العلمية الباطلة، فمن خلال الاكتشافات العلمية الكبرىٰ، التي أثبتت حقائق، مخالفة تماماً لما كانت تحمّل الكنيسة العلم به، وتعتقد أنه حقائق مطلقة لا ينالها الشك والبطلان، انهارت قدسية الكنيسة بانهيار مقولاتها تلك، وبرزت دعوىٰ ألوهية العلم في

منهجه التجريبي المادي، علىٰ أنه المقياس المطلق في صدق وكذب أية مقولة فكرية أو دعوىٰ نظرية، ومنها الدين في عقائده وتشريعاته، حتىٰ أصبح هذا المنهج هو المنهج المقرر في التربية والتعليم، وفي الثقافة والإعلام، وفي التنظير والتقنين، وصار المختبر العلمي هو البديل في تنقيح العقائد والنظريات وقبولها أو رفضها، واستمر هذا الأثر ينمو حتىٰ غزا ـ علىٰ طريقة العقل الجمعي ـ المجتمعات الإسلامية، ولا زال سارياً إلى يومنا هذا، خصوصاً في الأوساط المثقفة بالثقافة الأكاديمية الغربية.

وقد أمعن الاستكبار، منذ شروع حركته الهادفة لغزو الشرق الإسلامي والهيمنة عليه، في تعميق هذا المنهج، حتىٰ استطاع أن يجعل منه الأساس في البناء الفكري والثقافي الجديد للشرق الإسلامي، في أغلب مؤسساته التعليمية والإعلامية والسياسية والاقتصادية، وهي التي سمّيت بالتبعية المنهجية للغرب[1].

وبهذابدأت حالة من الانفصام المنهجي في تناول القضايا بين الدين والثقافة الجديدة، ونشأت عقليات، تعرض الحقائق الدينية علىٰ ضوء منهج التفكير المادي، فغيّر العديد من مثقفي هذا المنهج طريقة عرض الحقائق الدينية، وغرقوا في لجّة من التصوير المشوِّه للدين، وادّعوا عللاً وملاكات مادية تصوروا أنهم اكتشفوها في المسائل الإسلامية التي ملاكها التسليم والتعبد، سواء كان ذلك في مسائل العقيدة بمفردات الغيب: (الملائكة، الشيطان، الجن، البرزخ، الجنّة والنار.. الخ) أو في أحكام العبادات، كأحكام الصلاة والصيام والحج والزكاة .. الخ، أو ما اشتملت علىٰ جوانب تعبدية معينة، كبعض الأحكام الاقتصادية وتنظيم السوق، أو الأحكام التي للطب والعلوم

---

(١) هذه التسمية أُطلقها السيد محمد باقر الصدرؒ في مقدمة كتابه اقتصادنا.

الطبيعية الحديثة دور في تشخيص وتنقيح موضوعاتها وأمثال ذلك من الأحكام الشرعية.

ونحن لا ننكر دور المنهج التجريبي في اكتشاف الكثير من أسرار الطبيعة المادّية، ومساهمة ذلك في تشخيص الكثير من الموضوعات الخارجية، التي يمكن أن تحقق تطبيقاً أكثر دقةً لموضوعات الأحكام الشرعية، إلّا أننا ننكر سريان هذا المنهج خارج دائرة الطبيعة المادّية؛ لقصوره وعجزه عن ذلك أولاً، ولمعارضته ثانياً للمنهج الإسلامي في المعرفة، القائم علىٰ أساس سلوك العقل الإنساني في الاستدلال والإثبات للقضايا من العام إلى الخاص، والذي يقوم عليه صرح المعرفة الإسلامية وبنائها العقائدي والتشريعي، ومحاصرته لها في حدوده المادية الضيقة.

ثالثاً ـ سيطرة العقل الجمعي ـ كما أسلفنا ـ علىٰ فكر الإنسان المعاصر في الحكم علىٰ القضايا، وفي نشوء الولاءات. وقد لعبت التقنية الإعلامية الحديثة في الوسائل والأساليب، وسعة وسرعة وسائل الاتصال والمعلومات، دوراً حاسماً في إحكام هذه السيطرة وتنظيمها بدقة شاملة، ومنهجية هادفة، جعلت من الإنسان والمجتمع مسيّرين لها، ولا يملكان فرصة أو زاوية ينظران من خلالها بعقلية متحررة عن قيود الإيحاء النفسي، ومجردة عن مفردات التلقين الفكري، التي تضخّها وسائل الإعلام والاتصال المبثوثة، بكل صورها وأشكالها وأساليبها في جميع زوايا ونواحي الحياة اليومية، حتىٰ أصبح الإنسان المعاصر، خصوصاً في المجتمعات الغربية أو التي تأثرت بمنهجها المادي، عبداً أسيراً في طعامه وشرابه ومسكنه، وفي اهتماماته وآرائه الثقافية والسياسية، وفي طريقة حياته وعلاقاته، حتىٰ في تكوين عقائده أو تغييرها، لما تبثّه وسائل الإعلام والاتصال هذه.

هذا في حين أن الإسلام يوجب عقلاً الوصول إلى العقيدة الصحيحة والنظريات الحقة بالاستدلال العقلي المجرد، في أجواء حرّة نزيهة من إلقاءات التلقين والإيحاء التي تسلبه قدرته المنطقية، وإدراكه السليم في تكوين العقيدة الصحيحة والتسليم لما تقتضيه من التزامات تترتب عليها.

إن هذه الآثار الخطيرة التي ظهرت في الأفق الفكري والثقافي لشريحة من المسلمين، اقترنت بالانفتاح الواسع لغير المسلمين علىٰ الإسلام، وتطلعهم نحو معرفة معالمه وأطروحاته في الحياة، بعد أن ثبت لديهم خطل وفشل الأطروحات الوضعية المختلفة، وعدم وضوح الأديان الأخرىٰ وعدم شمولها وواقعيتها، التي بدا لهم صحة القول بانحرافها عن أصولها التي بُعث أنبياؤها الكرام بها.

إن هذا الاقتران يفرض علىٰ علماء المسلمين ومفكريهم المخلصين، أن ينبروا لأداء دورهم الرسالي الذي فرضه اللّٰه عليهم، من بيان المعالم الأصيلة للإسلام، وبسط نظرياته وأطروحاته بمنهجها الإسلامي الخالص، ولغتها واصطلاحاتها المعبرة عن حقيقته الذاتية، بعيداً عن إلقاءات الاستعارات والاصطلاحات الأجنبية المستحدثة، وأجواء العقل الجمعي الذي تصطنعه وسائل الإعلام والارتباط العلمانية.

وفي طريق السعي لتحقيق هذا الهدف الرسالي لا بد من قيام ثورة ثقافية إسلامية شاملة لبيان معالم الإسلام العظيم بأصالة ونقاء، من خلال ثقليه المباركين: كتاب اللّٰه العزيز وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام؛ ليكون دينه الحق ظاهراً علىٰ الدين كله، ومهيمناً عليه ولو كره المشركون، كما قال تعالىٰ في محكم كتابه المجيد: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون**﴾[1].

---

(١) الصف: ٩.

مقولات
في منهجية الخطاب الثقافي الإسلامي

تواجه مجتمعاتنا الإسلامية باستمرار موجات متوالية من الغزو الثقافي الغربي التي تكشف عن تخطيط بعيد المدىٰ، ووضع برمجة مدروسة في طريقة الغزو التغريبي، والاحتواء الثقافي والحضاري. وقد استعر أُوارها بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وقيادتها لحركة الصحوة الإسلامية في العالم. والملاحظ علىٰ برامج الغزو الثقافي الغربي الموجّهة بشكل خاصّ إلى الجمهورية الإسلامية في إيران أنّها تتحرّك في إطار محاور مدروسة ومعدّة سلفاً؛ لتتناغم مع الأرضيات التي بذلت جهوداً كبيرة في الخفاء والعلن لتهيئتها من خلال شريحة المتغرّبين في الداخل؛ لتجد تلك البرامج التغريبية طريقها الفاعل في أوساط المجتمع الإسلامي في إيران؛ بهدف خلق تيّار ثقافي معارض لكلّ خطوات التطبيق الرسالي للأنظمة الإسلامية في إيران، بل والتشكيك في مبانيها التشريعية سواء كان ذلك علىٰ الصعيد الاجتماعي العام، أو علىٰ الصعيد الرسمي للمؤسّسات والأجهزة الحكومية. ومن محاور تلك البرامج هو مواجهة تطبيق أحكام الحدود الإسلامية، وفي مقدّمتها أحكام القصاص الإسلامي.

وليست هذه المواجهة العدائية بدعةً خاصّةً ابتدعها الغرب ليواجه بها الثورة الإسلامية، وليحدّ من تجربة تطبيق النظام الإسلامي في إيران؛ بل إن

الاستعمار قد استطاع في أغلب بلدان العالم الإسلامي من محوها من اللوائح القانونية، والتشريعات القضائية لتلك البلدان، بما فيها إيران في عهد الشاه المقبور. إلّا أنّهم وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران استنهضوا طابورهم المتغرّب الذي صنعوه تحت إشرافهم في داخل إيران عبر عهود الاستعمار الغابرة. وبعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران أصدرت الجبهة الوطنية الإيرانية ـ وهي تنظيم علماني قومي علىٰ الطريقة الغربية ـ في عام ١٩٨٢م المصادف ١٣٦٠ هـ. ش (حسب التقويم الإيراني) بياناً احتجّت فيه علىٰ اللائحة القانونية، التي أعلنتها السلطة القضائية في الجمهورية الإسلامية في إيران؛ بتطبيق عقوبة القصاص الإسلامي بحقّ من يرتكب جرماً، عقوبته القصاص.

ولمّا كان النظام الذي قام بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران هو النظام الذي يعتمد الإسلام مصدراً تشريعياً مطلقاً له؛ فقد صوّت الشعب الإيراني بأغلبية ساحقة علىٰ إسلامية النظام ودستوره الإسلامي المعلن، فما كان من الإمام الخمينيﷺ إلّا أن يعلن حكم الإسلام في أمثال هؤلاء المعاندين؛ باعتباره الوليّ الفقيه الحاكم، والقائد الإسلامي لهذا النظام، فأصدر في حينه فتواه التي حكم بها بارتداد الجبهة الوطنية الإيرانية عن الإسلام. إلّا أن دوائر الاستكبار الغربي وعملاءه المترصّدين داخل الجمهورية الإسلامية في إيران انتهزوا فرصة الانفتاح الثقافي والإعلامي في إيران ليعاودوا الكرّة مرةً أخرىٰ، بأُسلوب جديد لإثارة الشكوك بقيمة الأحكام الإسلامية؛ احتجاجاً علىٰ تطبيقها.

وكان من أبرز الأحكام عرضةً لذلك هي أحكام القصاص. إلّا أنّ طريقتهم هذه المرّة لم تأت صريحة في الرفض القاطع؛ وإنّما طرحت بطريقة الخطاب

الثقافي، والمطالبة بإعادة النظر في أحكام القصاص وغيرها من الحدود الإسلامية علىٰ أساس لحاظ التطور الحضاري، ومواكبة التجربة الغربية في هذا المجال. وهنا اختلف الموقف عمّا كان سابقاً، إذ أنّ الطرح هذه المرّة جاء بلغةِ إلقاء الشبهة المفهومية أحياناً، والشبهة المصداقية أحياناً أخرىٰ (حسب اصطلاح الفقهاء)؛ الأمر الذي يلزم منه الردّ العلمي، ومواجهة خطابهم الثقافي التغريبي بخطاب ثقافي إسلامي أصيل، يضع النقاط علىٰ الحروف، ويجلي البصائر عن حقائق التشريع الإسلامي، وأصالته وقدرته علىٰ اجتثاث الفساد وردع الظلم، وإقامة القسط والعدل في المجتمع الإسلامي.

ونحن هنا نريد أن نشير فقط إلى منهجية تحرير الخطاب الثقافي الإسلامي في الردّ علىٰ مقولات التشكيك وإلقاء الشبهات التي يطرحها المثقفون المتغرّبون، دون الخوض في تفصيلات الردّ العلمي التي تحتاج إلى بحث تخصّصي تفصيلي، لا يتسع له هذا الكتاب، ولا نغفل عن أنّ هذه الطريقة الجديدة التي سلكوها في المواجهة الثقافية لا تعني بالضرورة أنّهم موضوعيون، وسوف يرضخون للحقيقة العلمية والدليل القاطع؛ بل إننا بخطابنا الثقافي الإسلامي هذا نتمّ الحجّة عليهم أوّلاً، وثانياً: نرفع الوهم والتشويش عن أذهان بعض المثقّفين الإسلاميين الذين تأثّروا بهم.

وهنا نريد أن نرشد طلاّب الحقيقة إلى منهجية تناول الحقائق، وطريقة الوصول إلى الحقيقة العلمية في مسألة فلسفة العقاب في الإسلام، وقيمة أحكامه القضائية؛ فننطلق من مسلّمات أشار إليها القرآن الكريم وأقرّها العقل السليم، وهي أنّ اللّه تعالىٰ خلق الإنسان وكرّمه خِلقيّاً، وفضّله علىٰ كثير من المخلوقات: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من**

الطيّبات وفضّلناهم علىٰ كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾[١]. فأوّل كراماته وفضائله في الخلق هو العقل؛ إذ به يدرك الحقائق، ويتكامل في مدارج العلم والعرفان، وبهذا يكون العقل حجّة علىٰ الإنسان كما يكون حجّة له. وقد ورد في الإشارة إلى هذه الحقيقة روايات عديدة، منها:

ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لمّا خلق اللّٰه العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّتي وجلالي! ما خلقت خلقاً أحسن منك، إيّاك آمر وإيّاك أنهىٰ، وإيّاك أُثيب وإيّاك أُعاقب**»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «**العقول أئمّة الأفكار**»[٣].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**إنّ للّٰه علىٰ الناس حجتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة، فأمّا الحجّة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة:، وأمّا الباطنة فالعقول**»[٤].

ولازم كرامة العقل وفضيلته في الإنسان كرامة وفضيلة أخرىٰ: هي إرادة الاختيار بحدودها الإنسانية التي تمكّنه من الفعل والترك، وبه تتمّ نسبة أفعال الإنسان وتروكه إلى نفسه، وهو الأساس العقلي والشرعي الذي يقوم عليه ميزان العدل في الحساب، والجزاء علىٰ الأعمال الإنسانية، فيثاب علىٰ الأفعال الحسنة، ويعاقب علىٰ الأفعال القبيحة. كما جعل اللّٰه تعالىٰ العواطف والمشاعر (كالحبّ والكره والرضا والغضب والسرور والحزن...الخ) عوامل شدٍّ وتحريك وهمزة وصلٍ بين العقل والإرادة، فقد جاء في ذلك عن الإمام علي عليه السلام قوله: ﴿**العقول أئمّة الأفكار، والأفكار أئـمّة القلوب، والقلوب أئـمّة**

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الكافي ١: ٢٦ / ٢٦. والمحاسن ١: ٣٠٨ / ٦٠٨.

(٣) البحار ١: ٩٦ / ٤٠.

(٤) الكافي ١: ١٦.

الحواسّ، والحواسّ أئمّة الأعضاء»[١]؛ فلو أدرك الإنسان بعقله الحسن والقبح في الأفعال كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم، وأن اللّٰه تعالىٰ هو الحقّ المطلق، وهو الذي يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم في مسيرته الإنسانية نحو الكمال، ووعىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**قل هل من شركائكم مَن يهدي إلى الحقّ قُل اللّٰه يهدي للحقّ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتّبع أَمَّن لا يهدّي إلّا أن يُهدىٰ فما لكم كيف تحكمون**﴾[٢]؟، عند ذلك سيحبّ الإنسان من خلال إدراكه السليم هذا ما يحبّ اللّٰه؛ فتتحرك إرادته نحوه ويكره ما يكره اللّٰه فتمتنع إرادته عنه، ويرضىٰ برضا اللّٰه ويغضب لغضب اللّٰه... وهكذا تتفاعل كلّ عواطفه ومشاعره وأهوائه مع إرادة اللّٰه تعالىٰ، وتتحوّل إلى عوامل تحريك نحو الحسنات، وعوامل منع عن السيّئات فيستوي علىٰ صراط اللّٰه المستقيم، فيصدّق قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله**﴾[٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿**قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللّٰه علىٰ بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان اللّٰه وما أنا من المشركين**﴾[٤].

وهنا تكمن الخطورة في وجود الإنسان، لاجتياز الامتحان العسير الذي يُشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿**ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دَسّاها**﴾[٥] وقوله تعالىٰ: ﴿**هل أتىٰ علىٰ الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه**

---

(١) البحار ١: ٩٦ / ٤٠.

(٢) يونس: ٣٥ .

(٣) الأنعام: ١٥٣.

(٤) يوسف: ١٠٨.

(٥) الشمس: ٧ ـ ١٠.

سميعاً بصيراً * إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[١].

ولعلّ السرّ في تعجّب الملائكة من خلق اللّه الإنسان؛ الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك..**﴾[٢] ذلك أنّ الملائكة أدركت أنّ إطلاق العِنان لهذا المخلوق العاقل (الإنسان) من خلال تمكينه بالإرادة والاختيار من فعل ما يشاء من الأفعال الاختيارية سوف ينتهي به إلى سفك الدماء، والعبث والفساد في الأرض؛ لو غلب هواه عقله واختار طريق الكفر والعصيان وسبيل الفجور والفساد، فما هو الضمان إذن من عدم وقوع ذلك كله من قبله؟ ولو سفك بعضهم الدماء وعاث في الأرض فساداً؛ فما هو الرادع له لحماية غيره من الناس ووقاية نوعه الإنساني الذي خلقه اللّه لتحقيق كماله الإنساني من خلال تنكّب طريق الحقّ وسبيل الهدىٰ والعبودية الخالصة له سبحانه؟ وهو القائل جلّ شأنه: ﴿**وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون**﴾[٣]. فكان جواب اللّه سبحانه وتعالىٰ منه لهم: ﴿**... إنّي أعلم ما لا تعلمون**﴾[٤]، وقال لهم أيضاً: ﴿**... ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السماوات والأرض واعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون**﴾[٥] وهي إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه لم يخلق الإنسان عبثاً: ﴿**أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾[٦] وأن للّه تعالىٰ حكمة بالغةً في خلقه، وأن الأرض يرثها عباده الصالحون ﴿**ولقد كتبنا**

---

(١) الإنسان: ١ ـ ٣.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) البقرة: ٣٠.

(٥) البقرة: ٣٣.

(٦) المؤمنون: ١١٥ .

في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[١].

ولتحقيق هذه الحتمية كان مقتضىٰ اللطف الإلهي إرسال الأنبياء، وتنصيب الأوصياء لإرشاد الإنسان وهدايته إلى الصراط المستقيم، وإعداده خليفة للّٰه في الأرض؛ كما أراد سبحانه ليحكم بالحق ويزهق الباطل، ويحقّق الهدف الإلهي في اجتثاث الظلم والجور، وملء الأرض قسطاً وعدلاً **﴿ونريد أن نمنّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّةً ونجعلهم الوارثين﴾**[٢].

وهكذا واكبت بعثة الأنبياء وإرسال الرسل وتنصيب الأوصياء مسيرة الإنسان منذ أوّل خلقه؛ ولهذا كانت إرادة اللّٰه في جعل أول إنسان مخلوق علىٰ الأرض نبيّا هو آدم عليه السلام. ومنه انطلقت مسيرة الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام في كفاح مريرٍ وجهادٍ متواصل؛ لإنذار البشرية وإبلاغها رسالات ربّها، وهدايتها إلى سبيل الرشاد: **﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قومِ اعبدوا اللّٰه ما لكم من إله غيرهُ إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم * قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين * قال يا قومِ ليس بي ضلالةٌ ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمين * أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم وأعلَمُ من اللّٰه ما لا تعلمون﴾**[٣]... **﴿قال يا قومِ ليس بي سفاهة ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمين * أبلّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾**[٤].

﴿الذين يبلغون رسالات اللّٰه ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا اللّٰه وكفىٰ باللّٰه حسيباً * ما كان محمّدٌ أباً أحدٍ من رجالكم ولكن رسول اللّٰه وخاتم النبيّين وكان

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) القصص: ٥.

(٣) الأعراف: ٥٩ ـ ٦٢.

(٤) الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨.

اللّهُ بكلِّ شيءٍ عليما﴾[1]... **﴿يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً * وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً * وبشِّر المؤمنين بأنّ لهم من اللّه فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين وَدَعِ أذاهم وتوكّل علىٰ اللّه وكفىٰ باللّه وكيلا﴾**[2].

ومن حِكَم إرسال الرسل إتمام الحجّة علىٰ الناس: **﴿من اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ولا تزر وازرةٌ وِزرَ أُخرىٰ وما كنّا معذِّبين حتىٰ نبعث رسولا﴾**[3].

ولئلّا يكون للناس علىٰ اللّه حجّة: **﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيّين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيّوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكَلَّم اللّه موسىٰ تكليما * رُسُلاً مبشّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس علىٰ اللّه حجّة بعد الرسل وكان اللّه عزيزاً حكيما﴾**[4].

ولتكون للّه الحجّة البالغة: **﴿قل فللّه الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**[5].

ولإقامة حكم اللّه في الأرض وردع الظلم والجور والعدوان:

﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك اللّه ولا تكن

---

(١) الأحزاب: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٨.

(٣) الإسراء: ٢٥.

(٤) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٥) الأنعام: ١٤٩.

للخائنين خصيما﴾(١).

﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون﴾(٢).

﴿وقفّينا علىٰ آثارهم بعيسىٰ ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونورٌ ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الفاسقون﴾(٣).

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل اللّه ولا تتبع أهواءَهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك فإن تولّوا فاعلم أنما يريد اللّه أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من اللّه حكماً لقوم يؤمنون﴾(٤).

وكان الرسول محمد صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان الإسلام خاتم الأديان والشرائع الإلهية ومهيمناً وحاكماً عليها:

﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيّين وكان اللّه بكلّ شيءٍ عليماً﴾(٥).

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه

---

(١) النساء: ١٠٥.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) المائدة: ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) المائدة: ٤٩ ـ ٥٠.

(٥) الأحزاب: ٤٠.

فاحكم بينهم بما أنزل اللّه ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ...﴾[١].

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهره علىٰ الدين كلّه ولو كره المشركون﴾[٢].

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهره علىٰ الدين كلّه وكفىٰ باللّه شهيداً﴾[٣].

﴿... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...﴾[٤].

ومن قوانين وتشريعات الردع للظلم والجور والفساد التي شرّعها اللّه تعالىٰ وأمر أنبياءه بإقامتها والحكم بها؛ هي القصاص، وهو قوله تعالىٰ: **﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلىٰ الحُرُّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ فمن عُفيَ له من أخيه شيءٌ فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربّكم ورحمةٌ فمن اعتدىٰ بعد ذلك فله عذاب أليم﴾**[٥]، وقوله تعالىٰ: **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرمات قِصاصٌ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتّقوا اللّه واعلموا أنّ اللّه مع المتقين﴾**[٦]، وقوله تعالىٰ: **﴿وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأُذن بالأُذن والسنّ بالسن والجروح قصاصٌ فمن تصدّق به فهو كفّارةٌ له ومن**

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) التوبة: ٣٣.

(٣) الفتح: ٢٨.

(٤) المائدة: ٣.

(٥) البقرة: ١٧٨.

(٦) البقرة: ١٩٤.

لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ فلسفة تشريع القصاص هو حفظ الحياة الإسلامية الكريمة؛ بردع سفّاكي الدماء والمفسدين في الأرض في قوله تعالىٰ: **﴿ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب لعلكم تتقون﴾**[٢].

فقد جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**: «**لأنّ من هَمّ بالقتل فعرف أنّه يُقتصّ منه فكفّ لذلك عن القتل كان حياةً للذي هَمّ بقتله، وحياةً لهذا الجاني الذي أراد أن يقتل، وحياةً لغيرهما من الناس إذا علموا أنّ القصاص واجب فلا يجرؤون علىٰ القتل مخافة القصاص**»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أيّها الناس أحيوا القصاص وأحبوا الحقّ ولا تفرّقوا، وأسلموا وسلّموا تسلموا**»[٤].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**قُلت أربعاً أنزل الله تعالىٰ تصديقي بها في كتابه... قلت: القتل يُفِلُّ القتل فأنزل الله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾**»[٥].

وقال الإمام علي عليه السلام أيضاً: «**فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك... والقِصاص حقناً للدماء**»[٦].

ويمكننا القول أن الآية الكريمة: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾** تُشير إلى فلسفة العقاب في الإسلام، وعلّة تشريع العقوبات الإسلامية، وأن القصاص ماهو إلّا الفرد البارز من هذه العقوبات، فيمكننا إذن التعميم والقول بأن نظام

---

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع): ٥٩٥ وبحار الأنوار ١٠٤: ٣٨٨.

(٤) أمالي المفيد: ٥٣ / ١٥.

(٥) نور الثقلين ١: ١٥٨.

(٦) نهج البلاغة: الحكمة ٢٥٢.

العقوبات الإسلامية شرّع لإقامة القسط والعدل والردع عن انتشار الظلم والفساد، وتمكين الإنسان من عيش الحياة الإسلامية الكريمة، خصوصاً في المجتمع الإسلامي الذي تترابط فيه جميع مفردات تطبيق النظام الإسلامي في الحياة، فترفع عن طريقه الموانع والعقبات التي تعترض سبيل تكامله، وتسدّ الدرب عليه لسلوك سبيل اللّٰه تعالىٰ، وإقامة القسط والعدل في حياته الإنسانية في بعديها الفردي والاجتماعي.

وخلاصة القول أنّ الوعي العميق لمنهجية إدراك وفهم مفردات التشريع الإسلامي لا في مجال القضاء والعقوبات الإسلامية فحسب، بل في جميع أبوابه ومجالاته الشاملة لمرافق الحياة الفردية والاجتماعية، يلزم منه لحاظ مقولات أساسية في منهج الخطاب الثقافي الإسلامي، ومن أهمها:

أولاً: أن للأحكام الإسلامية ملاكات تشريعية، مقوّمة بالمصالح في الواجبات والمستحبات والمفاسد في المحرّمات والمكروهات، والعلم بهذه المصالح والمفاسد في إطار التشريعات الإلهية من مختصّات العلم الإلهي، ولا نعلم منها شيئاً باستثناء موردين:

المورد الأول: ما يدركه العقل ويصدّقه التشريع وهو ما يصطلح عليه في أُصول الفقه الإسلامي (بالأدلة العقلية)[1] التي ترشد الفقيه إلى اكتشاف أحكام تشريعية، لابدّ من إقرارها في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، سواءٌ كانت هذه الأدلّة مستقلةً لا تحتاج إلى إثبات قضية شرعية لاستنباط الحكم منها، وهي ما يُصطلح عليها بـ«المستقلات العقلية» كمقولة أنّ كل ما حكم العقل بحسنه أو قبحه حكم الشارع بوجوبه أو حرمته، كوجوب العدل وحرمة الظلم، أو كانت

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع دروس في علم أصول الفقه للشهيد السيد محمد باقر الصدر: الحلقة الثالثة / القسم الأول ص ٢٠٩.

هذه الأدلّة عقلية غير مستقلة، أي تحتاج إلى إثبات قضيّة شرعية مسبقاً لاستنباط الحكم منها، كالقول بأنّ وجوب شيءٍ يستلزم وجوب مقدّمته؛ وكالحكم بوجوب السفر إلى الحج الذي يتوقّف علىٰ إثبات قضيّة شرعية مسبقة وهي وجوب أداء الحج علىٰ المكلّف به.

المورد الثاني: ما نُصّ علىٰ علّة وحكمة تشريعه، وهو ما يصطلح عليه في الفقه بـ«منصوص العلّة» حيث يتعدّىٰ الفقهاء من مورده المصرّح به في النص إلى كلّ مورد توجد فيه نفس العلّة والحكمة التامّة بشروطها وحدودها؛ كالحكم بحرمة الخمرة لإسكارها، فالإسكار هنا علّة تامّة لحرمة الخمرة؛ وعليه فإذا وُجد الإسكار في شيءٍ غير الخمرة ثبتت الحرمة لذلك الشيء؛ لاشتراكه في علّة التحريم التامّة مع الخمرة[١].

كما أنّ القول بمبدأ أنّ المصالح والمفاسد التي هي ملاكات الأحكام الشرعية من مختصّات العلم الإلهي، إلّا ما علّمنا اللّه إيّاها، أو أرشدنا عقولنا إليها، ليس منحصراً بمدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية، بل إن المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ هي أيضاً تقول بنفس المبدأ، إلّا أنّها تخطىء أحياناً في منهجية إصابته من خلال تطبيق مقولات الرأي المعروفة لديهم «كالقياس والاستحسان، والمصالح المرسلة وأمثال ذلك»،[٢] التي تُدخل عنصر الرأي الإنساني في الاستنباط الفقهي، وتنسبهُ خطأً بواسطة إلى اللّه سبحانه وتعالىٰ؛ وهذا ما يسعىٰ علماء المذاهب الإسلامية وفقهاؤها لعلاجه من خلال الحوار العلمي التخصصي الهادف.

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع الأُصول العامة للفقه المقارن للسيد محمد تقي الحكيم.

(٢)لمزيد من التفصيل راجع نفس المصدرالسابق.

ثانياً: إنّ مقولة تأثير تغيّر الزمان والمكان علىٰ الأحكام الشرعية لا تعني إطلاقاً تغيّر هذه الأحكام الثابتة لموضوعاتها المعيّنة وفق ملاكاتها الواقعية عند اللّٰه سبحانه، «المصلحة في الواجب والمستحب والمفسدة في المحرّم والمكروه»؛ فإن لكل حكم شرعي موضوعاً بحدوده في إطار الزمان والمكان الخاص بذلك الموضوع المعيّن، كالحكم بحرمة تناول التتن وفق الفتوىٰ المعروفة التي أصدرها المرجع الديني الميرزا الشيرازي في أوائل القرن العشرين[1]، فإنّ موضوع الحرمة هو أن التتن في زمان الفتوىٰ تلبّس بالسلطة الاستعمارية الكافرة، والواجب هو نفي سلطة الكفّار علىٰ المسلمين؛ وعليه أصبح التتن بهذا اللحاظ موضوعاً لحرمة تناوله، ولذا عندما تغيرت الشروط الزمانية والمكانية بانتهاء حالة التلبس تلك، تغيّر تبعاً لها الموضوع فأصبح التتن مباحاً، وهذا حكم آخر غير الحكم الأول، ولا يعني أن الحكم الأول قد تغيّر إلى حكم آخر، وعليه فإن الأحكام الشرعية ثابتة لا تتغير، والذي يتغير فقط هو الموضوع بلحاظ تغير الزمان والمكان، ولكل موضوع معيّن حكم ثابت له لا يتغير، إذن فالأحكام الشرعية ثابتة لموضوعاتها المعيّنة، ولا تتغير أبداً.

ثالثاً: إنّ استنباط الأحكام الشرعية التفصيلية من مطلق مصادر التشريع الإسلامي، بما فيها ما كان مدلولاً للدليل العقلي، أو مدلولاً لمنصوص العلّة، أمرٌ علمي تخصصي، لا يملك القدرة عليه إلّا الفقهاء الجامعون لشرائط الاستنباط الفقهي والفتيا، وهذا أمرٌ عقلي وعقلائي، درجت عليه سيرة العقلاء كما هو الأمر في مرجعية الطبيب المتخصّص بالطب، وأمثال ذلك في باقي

---

(١) عندما اتفقت الشركات البريطانية مع حكومة شاه إيران آنذاك بحصر تجارة التتن بها كإحدىٰ وسائل التسلّط والهيمنة علىٰ المسلمين في إيران.

التخصّصات العلمية.

وعليه فلا يصح لكلّ أحدٍ مهما كانت ثقافته ومعارفه أن يدّعي رأياً وقولاً فقهياً خاصّاً في الأحكام الشرعيّة، مخالفاً لآراء الفقهاء المتخصّصين إلّا إذا امتلك قدرتهم التخصّصية، والشروط الجامعة للفقيه المؤهل للاستنباط الفقهي، كما هو الشأن في الطّب مثلاً، إذ لا يصح لأيّ أحدٍ أن يدّعي تشخيصاً طبيّاً للمرض وعلاجه إلّا إذا امتلك القدرة العلمية، والكفاءة التخصّصية والتطبيقية في الطبّ، وشهدت له المجامع العلمية الطبيّة بذلك.

رابعاً: إنّ وعي التشريع الإسلامي ومعرفة موقعه في سلّم الفكر الإنساني لا يتمّ بشكله الحقيقي الكامل إلّا وفق المنهج العقلي في نشوء المعرفة الإنسانية، والذي ينطلق من العقل الأوّلي للإنسان، وبعبارة أخرىٰ إنّ المنهج الإسلامي في المعرفة قائم علىٰ أساس سلوك العقل الإنساني في الاستدلال والإثبات للقضايا من العام إلى الخاصّ (حسب اصطلاح المنطقيّين)، وهذا المنهج هو الذي يقوم عليه صرح المعرفة الإسلامية وبناؤها العقائدي والتشريعي؛ فنكتشف عن طريق هذا المنهج العقلي حقائق، أوّلية، وأُخرىٰ ثانوية تبعاً لها وهكذا، ومن أهمّها:

أ ـ إنّ الإنسان ـ وكما أشرنا سلفاً ـ كائن تتفاعل فيه بشكل متوازن جوانب جوهرية ثلاثة (تمثّل فطرته الإنسانية وحيثيّته الذاتية): أولها ومحورها «العقل» وهو محور القيمة الإنسانية، وفيه تكمن قوّة الإدراك. وثانيها «العواطف والمشاعر»، كالحبّ والبغض والرضا والغضب والسرور والحزن ...الخ، وهي تحقّق للنفس صور التفاعل والانفعال. وثالثها «الإرادة» التي تعبّر عن قدرة الاختيار الفعلية بحدودها الإنسانية، والتي تكمن وراء السلوك الإنساني بمعنىٰ الفعل والترك.

ب ـ إنّ الفطرة (بقواها الكامنة تلك) هي المبدأ الذي ينطلق منه الإنسان في الإدراك، ويبدأ حركته التكاملية في الوجود. فالمبدأ الذاتي للإنسان فطري وجداني، لا يحتاج إلى أكثر من توجهه إلى نفسه لإدراكه، ومن ثمّ الانطلاق منه. وإنّ أيّ تجاوز لهذا المبدأ «الفطرة» يعني تجاوزاً للهوية الواقعية والحيثية الذاتية للإنسان. إذ بدون إدراك الفطرة الإنسانية والإذعان لها سوف لن نستطيع اكتشاف الحقائق المكوّنة للعقيدة الصحيحة، وإدراك ضرورة إصابة المصالح والمفاسد الواقعية في ملاكات التشريع، الذي يجب أن يحكم الحياة الإنسانية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة «الفطرة» بقوله تعالىٰ: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[١].

فيدرك الإنسان بفطرته أنّ مبدأ الخلق هو اللّٰه سبحانه، فيقرّر الإيمان باللّٰه تعالىٰ وبتوحيده وصفاته الكمالية، ونفي الصفات السلبية عنه سبحانه؛ وخلقه سبحانه للإنسان وسائر الموجودات، وولايته المطلقة عليه وعلىٰ كلّ الوجود؛ وإنّ الوجود عالمان: عالم مادي محسوس ومحدود «عالم الشهادة»، وعالم ما وراء المادة المحسوسة وأوسع منها «عالم الغيب» وإنّ الثاني مهيمن علىٰ الأول، وإنّ اللّٰه لم يخلقه عبثاً؛ بل خلقه ومكّنه لإعمار الحياة وخلافة الصالحين عليها، وإنّ عدله يقتضي الحساب والجزاء، فلابدّ من المعاد والحساب والثواب للمحسنين والعقاب للمسيئين، وإنّ لطف اللّٰه يقتضي بعث الأنبياء وإرسال الرسل وتنصيب الأوصياء ليبلّغوا رسالاته، ويكونوا خلفاء له علىٰ الناس في الأرض؛ وهكذا تتكون العقيدة الصحيحة للإنسان، ويدرك أنّ الولاية المطلقة للّٰه ومنه سبحانه لأوليائه الذين اصطفىٰ في عالم التكوين

---

(١) الروم: ٣٠.

والوجود وفي التشريع والحكم.

ج ـ إنّ دائرة حركة الإنسان بجوانبه وقواه الجوهرية هذه لا تقتصر علىٰ عالم المادّة المحسوس «عالم الشهادة»؛ بل تشمل عالم ما وراء المادّة المحسوسة «عالم الغيب»؛ فهو إذن محاطٌ بعالمين واقعيين: عالم الشهادة، وعالم الغيب، فلو أغمض عينيه عن أحدهما لا يتغير من الواقع شيء، ولا يؤثّر هذا في الثوابت الواقعية؛ فالحقائق التي تمثّل قوائم العقيدة، والمصالح والمفاسد التي تمثّل ملاكات التشريع في عالم الشهادة أو في عالم الغيب أو في كليهما، تبقىٰ ثابتةً في لوح الواقع سواءً حَجَبَ الإنسان نظره عنها، وإدراكه لها أم لا، وسواءً أذعن لها وأقرّها أم لا .

د ـ إنّ الإذعان والتسليم لكليّات التشريع الإسلامي وتفصيلاته في جميع نواحي الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية؛ لا يتمّ بشكله الإسلامي الكامل إلّا بالإيمان الخالص، والتسليم المطلق للّٰه ولرسوله ولأولي الأمر الواجب طاعتهم، وهو مفاد قوله تعالىٰ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّٰه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّٰه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّٰه واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً * ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يُريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويُريدُ الشيطان أن يُضلّهم ضلالاً بعيداً* وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّٰه وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون باللّٰه إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم اللّٰه ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلّا ليُطاع بإذن اللّٰه ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا اللّٰه واستغفر لهم الرسول لوجدوا اللّٰه توّاباً رحيماً * فلا وربّك**

لا يؤمنون حتّى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويُسلّموا تسليماً﴾[١].

هذه إشارات كليّة لأهمّ مقولات منهجية الخطاب الثقافي الإسلامي التي يجب أن يسير وفقها، ويؤسّس رؤاه علىٰ أساسها كُلُّ من أراد فهم النظريات الإسلامية وعرضها وتقويمها فكرياً وثقافياً، فلكلٍّ خطاب وبناء فكري وثقافي مباني لا يمكن فهمه وعرضه وتقويمه إلّا علىٰ أساسها.

❊ ❊ ❊

(١) النساء: ٥٩ ـ ٦٥.

إشكاليات
حول منهجية الخطاب الثقافي التغريبي

تناولنا في البحث السابق معالم الغزو الثقافي الغربي للمجتمعات الإسلامية والتي أخذت أبعاداً أكثر تخطيطاً وبرمجة، علىٰ ضوء المستجدات التي أفرزتها الثورة الإسلامية في إيران في العالم الإسلامي؛ بل وفي العالم الإنساني بشكل عام، وأشرنا إلى أنّ المواجهة هذه المرّة جاءت بطريقة إلقاء الشبهات أو التلفيق بين منهج إلقاء الشبهة، ومقولة القراءات المتعدّدة للنص الديني، الذي ينتهي بنا إلى مزيج من النظرية الإسلامية والنظرية الغربية؛ بطريقة يكون الأصل في القبول والرفض لمفردات النظرية الإسلامية هو مفردات النظرية الغربية، باعتبارها النظرية الحاكمة حالياً في مجال التجربة العالمية المعاصرة، الأمر الذي سيسوقنا إلىٰ القول بأن الغزو الثقافي الغربي الحديث يعمل علىٰ تحقيق ما يمكن أن نطلق عليه بـ«تغريب الإسلام». ثم انتهينا إلى بيان لأهمّ مقولات منهجية الخطاب الثقافي الإسلامي.

وفيما يلي سنشير بشكل كلّي إلى أهمّ إشكاليات منهجية الخطاب الثقافي التغريبي؛ لنتمكن بعد ذلك من عقد مقارنة بين هذه المنهجية ومنهجية الخطاب الثقافي الإسلامي، وعندها لو كانت لدينا مناقشة لكلٍّ من هذين المنهجين فستكون مناقشة للمباني والأسس النظرية لهما. ويمكن حصر أهمّ إشكاليات منهجية الخطاب الثقافي في التصور التغريبي بما يلي:

الإشكالية الأُولىٰ: إن الوجود والإنسان والحياة كلٌّ ذلك محدودٌ بالمادة الخالصة ونظامها الوجودي المحسوس، مبدأً وصيرورة، وهي منفصلة مطلقاً عن مبدأ الخالق والمخلوق خارج دائرة المادة، وما يترتب علىٰ هذا المبدأ من أهداف وغايات وحقائق لا تنحصر بالعالم المادي المحدود؛ حتىٰ لو اعتقد بعض أفراد الإنسان بوجود إله خالق وغيب مطلق، وغيرها من مقولات ماوراء الطبيعة، التي أُصطلح عليها بالميتافيزيقيا.

وعليه فإنّ القيمة والتفاضل في مطلق الوجود بما فيها الإنسان والحياة تقاس فقط بالمنفعة المتمخّضة عن المادة ونظامها الحياتي الحاكم، سواءً كان ذلك في عالم الفكر والثقافة أو المجتمع وعلاقاته أو الأنظمة والقوانين، وهذه المقولة هي في الحقيقة ترجمة للنظرية الماديّة في أصل الوجود والإنسان والحياة، وتكريس لها في الخطاب الفكري والثقافي الغربي. أمّا حساب الحقائق فسيكون بناءاً علىٰ ذلك حساباً نفعياً مادياً حسّياً، فالحرية الفكرية والحرية الشخصية والأخلاق الاجتماعية والقيم والمبادئ تدور مدار المنفعة الماديّة المحضة، واللّذة الحسيّة الخالصة وحسب، وهكذا ينتهي بنا الأمر إلى الصرح النسبي للحقائق، إذ لا حقيقة مطلقة في الوجود إلّا المادة ومنافعها المحدودة بحدود المصالح الماديّة الخاصة.

ولا نحتاج هنا إلى سياق المصاديق المعبّرة عن هذا النهج في المجتمعات الغربية المعاصرة، سواءً كانت تلك المصاديق من داخل تركيبة المجتمعات الغربية، أو من خلال تعامل الغرب مع غيره من المجتمعات الإنسانية؛ التي لا تؤمن بنظريتهم الماديّة.

وعليه فإننا لو أردنا أن نقوّم هذا الخطاب الثقافي مبدئياً يجب علينا أوّلاً أن نتناول النظرية الماديّة بالتقويم، وندحض مبانيها من الأصول؛ لينهار تبعاً لذلك

بناء هذا الخطاب، ويتداعىٰ منهجه وتتهافت مفرداته.

الإشكالية الثانية: إن العقل كقوّة إدراك أسيرٌ لعالم المادة وحبيس دائرة الإحساس المادي، الذي هو المموّن الوحيد للذهن الإنساني بالتصورات والمعاني، وليس للعقل أن يبتدع أو يبتكر ذاتياً، وبصورة مستقلّة عن دائرة الحسّ المادي أيّة معاني لا يمتد إليها ذلك الحسّ. وتبعاً لذلك فإنّ أيّة عمليّة عقليّة؛ كالتركيب والتجزئة أو التجريد والتعميم لا يمكن أن تتم بمعزل عن الإحساس المادي بها. ولهذا سوف يكون عالم العقل والإدراك العقلي هو عالم المادة المحسوس وحسب، وإنّ المعاني الفكرية ليست إلّا صوراً متكونة من هذا العالم المادي المحسوس، فالإدراك العقلي إذن إدراك ماديّ حسّي، وعالمه لا يتجاوز عالم المادة والإحساس المادي، فلا وجود له وراء ذلك، إذ لا وجود لشيء وراء المادة وقبلها؛ ليتمكن من إدراكه وتعقّله.

إنّ هذه النظرية التي نادىٰ بها فلاسفة الغرب، وعلىٰ رأسهم (جون لوك) و(باركلي) و (دافيدهيوم) جاءت لتنهي إلى حدٍ كبير نظريات الأفكار الفطرية، التي كان يتزعمها الفيلسوف (ديكارت)؛ لتصبح هي النظرية الحاكمة علىٰ الرؤية الفلسفية لفلاسفة الغرب علىٰ اختلاف جزئي في تفصيلات لا تخرم الأصل الفلسفي الواحد لها.

الإشكالية الثالثة: وهذه الإشكالية تترتب علىٰ سابقتها، ومفادها: أنّ منهج الإدراك العقلي للقضايا والحقائق قائم علىٰ أساس المذهب التجريبي في نشوء المعرفة، وهو المذهب القائل بأنّ المصدر الأوّل لجميع المعارف الإنسانيّة هو التجربة، وأنّ الإنسان بدون التجارب المستوعبة لجميع مفردات الواقع يبقىٰ جاهلاً بها، لا يعرف عنها أيّة حقيقة من الحقائق مهما كانت واضحة، لأن الإنسان يولد مجرّداً من كلّ معرفة فطرية، ويبدأ وعيه وإدراكه

من حين البدء بحياته العلمية المقوّمة بالتجربة، وكلّما اتسعت تجاربه كلّما اتسع علمه، وتكاملت معرفته، وكلّما تنوعت تجاربه؛ تنوعت معارفه تبعاً لها. وعليه فأصحاب المذهب التجريبي في الإدراك والمعرفة لا يعترفون بمعارف عقليّة ضرورية سابقة علىٰ التجربة، ويعتبرون التجربة هي الأساس الوحيد للحكم الصحيح، والمقياس العام في كل مجال من المجالات، بما في ذلك الأحكام الأولية، التي قال أصحاب المذهب العقلي إنها معارف ضرورية، إذ لابدّ من إخضاعها للتجربة ومقياسها، والاعتراف بها بمقدار ما تُثبته التجربة وتعترف به.

وبناءً علىٰ ذلك فإنّ القدرة الفكرية للإنسان سوف تُحجر في حدود التجربة، وعلىٰ عكس منهج المذهب العقلي لا مجال لبحث أيّة قضيّة من قضايا ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا)،كما أنّ سير التفكير الإنساني سينطلق بمسيرة معاكسة تماماً؛ لما ينتهجه المذهب العقلي الذي يقول: بأنّ الفكر الإنساني يسير دائماً في إدراكه من العام إلى الخاص، في حين يقول أصحاب المذهب التجريبي: بأنه يسير من الخاص إلى العام، ومن ميدان التجربة المحدود بحدود العالم المادي (الطبيعة) إلى القوانين والقواعد الكليّة، ويرتقي من الحقيقة الجزئية إلى المطلق، ومن ثمّ فإنّ كل ما يملكه الفكر الإنساني من قوانين عامّة وقواعد كليّة هو حصيلة التجارب وحسب، الأمر الذي سينتهي بنا إلى الكشف عن حقائق موضوعية عامّة.

وخلاصة القول: أن المنهج الثقافي الغربي مقوّم بمنهج المذهب التجريبي الذي يعتمد الطريقة الاستقرائية في الاستدلال والتفكير، حيث إنها ترتقي من الجزئي إلى الكلي، وتسير من الخاص إلى العام، ويرفض منهج الاستدلال والتفكير العقلي الذي ينزل من الكلّي إلى الجزئي، ويسير من العام إلى

الخاص. وعلىٰ أساس هذا المنهج التجريبي في التفكير والاستدلال نفهم السرّ وراء رفض المثقّفين الغربيين والمتغرّبين لمقولة الخطاب الثقافي الإسلامي في أنّ للأحكام في الإسلام ملاكات تشريعية مقوّمة بالمصالح في الواجبات والمفاسد في المحرّمات، وأنّ العلم بهذه المصالح والمفاسد في إطار هذه التشريعات الإلهية هو من مختصّات العلم الإلهي، وليس لنا إلّا التسليم والطاعة التعبدية لها، باستثناء ما كان مدلولاً للدليل العقلي أو من مقولة منصوص العلّة كما ذكرنا في السابق.

ولا يفوتنا القول هنا: بأننا لا نرفض مطلقاً المنهج التجريبي في دائرة قضايا الطبيعة المادية، في حدود ما يتمخض عنه الاستقراء المنطقي، إنّما نرفض سريانه إلى مسائل ماوراء الطبيعة، بما فيها مسائل العقيدة والأحكام التشريعية المنبثقة عنها، وما يرتبط بها من قضايا فكرية؛ بل ونرفض إمكانية المنهج التجريبي علىٰ الاستدلال علىٰ القوانين العامّة للطبيعة المادية، دون اللجوء إلى المنهج العقلي في الاستدلال(١).

ونحن ـ كما أسلفنا ـ لا ننكر دور المنهج التجريبي في اكتشاف الكثير من أسرار الطبيعة الماديّة، ومساهمة هذه المكتشفات في تشخيص الكثير من الموضوعات الخارجيّة للأحكام الإسلامية، التي يمكن أن تحقّق تطبيقاً أكثر دقةً لها، إلّا أننا ننكر سريان هذا المنهج خارج دائرة الطبيعة الماديّة؛ لقصوره وعجزه عن ذلك أوّلاً، ولمعارضته ثانياً للمنهج الإسلامي في المعرفة، القائم علىٰ أساس سلوك العقل البشري في الاستدلال، والإثبات للقضايا من العام إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، والذي يقوم عليه صرح المعرفة الإسلامية وبنائها العقائدي والتشريعي.

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع الصدر، محمد باقر ـ فلسفتنا.

الإشكالية الرابعة: إن الملاكات وفق المنهج التجريبي المادي؛ بمعنىٰ المصالح والمفاسد في الأحكام التي يشرّعها المشرّع هي ملاكات ماديّة بحتة، واكتشافها يتمّ بالتجربة الحسيّة، وعلىٰ الإنسانية أفراداً ومجتمعات خوض ميدان التجارب المتواصلة، للوصول إلى الأفضل من الأحكام والأنظمة، حتىٰ لو استغرقت هذه التجارب كلّ حركة الزمان والمكان، واستوعبت حياة البشرية بأجيالها المتوالدة والمتعاقبة، وذلك لإنكارهم لأيّ مصدر للمعرفة فوق المادة وحركتها التجريبية في الفكر والمعرفة، وهذا يعني أننا بالتجربة المادية سوف لن نتوصل فى نظام الحياة الاجتماعية إلىٰ ثوابت تشريعية وأحكام أساسيّة تستقر عندها البشرية وتحتكم إليها، خصوصاً إذا تدخلت فيها عوامل المصلحة والمنفعة المادية الذاتية للمقننين التجريبيين.

الإشكالية الخامسة: إنّ النظرية الحاكمة في مجال الحكم بسلطاته الثلاث: «التشريعية والقضائية والتنفيذية» هي النظرية العلمانية المؤسَّسة علىٰ مبدأ العقد الاجتماعي لجان جاك روسو القائلة: إن مصدر السلطة والحكومة في التشريع والتنفيذ هو الناس فقط، أو مجموعة منهم عن طريق الانتخاب، والذي يؤول كما هو معروف(*) إلى تسلّط الأكثرية علىٰ الأقليّة، ونحن هنا لا نكتفي بالإشارة إلى تحكّم الأكثرية في الأقليّة وتعسّفها في تأمين مصالحها ومسائلها الحيوية، بناءً علىٰ امتلاكها الحق بالانتخاب في وضع وتنفيذ الأنظمة والقوانين ، خصوصاً وأنّ القيمة والمنفعة والنزعات والأهداف والأهواء تقوم علىٰ أساس العقليّة الماديّة الخالصة؛ بل نرىٰ أنّ الأمر لا يقف عند حدّ تمركز القدرة السياسية والاقتصادية والإعلامية... الخ بيد هذه الأكثرية، بل أنّ مراكز

(*) راجع الصدر، السيد محمد باقر/ فلسفتنا والحائري، السيد كاظم / أساس الحكومة الإسلامية.

قوّة واقتدار لأفراد ومجموعات محدودة ستتكون بالتدريج داخل هذه الأكثريّة؛ فتتمركز القدرات بأيديهم بشكل مضاعف، وتتحول هذه المجموعات والأفراد إلى أقليّة مقتدرة ذات سلطة متحكمة بالأكثرية المنتخبة، مضافاً إلى الأقليّة غير المنتخبة، ولاتؤثّر فيها الدورات الانتخابية المتجددة، إذ أنها ستبقىٰ تدور في فلك أقليّات وفق حسابات التكتلات السياسية والمنظومات الاقتصادية والإعلامية المتحكّمة في المجتمع.

إنّ الواقع الغربي يكشف لنا ذلك بوضوح ومن خلال آلية الأنظمة الحاكمة بكلّ صرامة علىٰ حركة الإنسان والحياة في الغرب، أن لا خيار للإنسان والمجتمعات الغربية إلّا في إطارها. وأبرز نموذج علىٰ ذلك نظام الحكم في أميركا؛ الذي لا يخرج عن قوىٰ النخبة للحزبين، المتعاقبين علىٰ الحكم باستمرار: «الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي».

ولمّا كان الأساس في القيمة هو المنفعة واللّذة الماديّة الخالصة، ولا قيمة لأيّ مبدأ ومقياس قيمي آخر؛ فإنّ المصلحة والمنفعة الماديّة الراجحة، بل والطاغية علىٰ المصالح والمنافع الماديّة الأخرىٰ؛ هي مصلحة تلك الأقليّة والنخبة الحاكمة ومنظوماتها الاقتصادية والسياسية والإعلامية؛ وسيتقوّم تشريع الأحكام، وسنّ القوانين وتشكيل الأنظمة بالمصالح والمنافع الماديّة الخاصّة لتلك الأقليّة، والنخبة الحاكمة.

وهنا سنجد أنّ قانون التجربة الذي نادت به المدرسة الغربيّة الماديّة، لاكتشاف الأحكام والقوانين، والأنظمة الأفضل للحياة البشرية سوف ينخرم، مع العلم أننا لا نرىٰ أن هذا القانون مطّردٌ في أغلب نواحي الحياة الاجتماعية، ومستقلٌ بنفسه، بل ثبت قصوره وخطله عن ذلك؛ لانفصال التجربة عن مبدأ الخالق الحكيم والغيب المطلق، وما نشاهده من مآسي تعاني منها البشرية جيلاً

بعد جيل إلّا دليل صارخ علىٰ هذه الحقيقة.

وتأسيساً علىٰ ما سبق فإننا هنا لا نريد أن نناقش مباني هذه المقولات، فإنّ ذلك أمرٌ قد تكفّلت به المؤلّفات والمصنفات العلميّة التخصّصية لمفكرينا وعلمائنا وفلاسفتنا، إلّا أنّنا، إضافة إلى بعض المناقشات التي أشرنا إليها في طيّات بيان هذه الإشكاليات، نطرح بعض الأسئلة لإثارة الفكر المنصف، والبحث المتأمل في قيمة هذه المقولات، ومدىٰ انطباقها مع منطق العقل السليم، والوجدان النقي.

ومن أبرز هذه الأسئلة هي:

□ كيف يمكننا أن نتصور قدرة الناس ـ عند غياب الدين الإلهي الحقّ ـ علىٰ اكتشاف أو اختيار ما به تحقيق المصلحة الاجتماعية في التشريع والتنفيذ وهم يجهلون ابتداءً مقاييس الصواب والخطأ في الاكتشاف والاختيار حسب المذهب المادي؟ إضافة إلى أنهم محكومون بطبيعتهم الأوليّة للأهواء والنزعات الماديّة الخاصة خصوصاً وأنّ قانون التجربة الذي نادت به المدرسة الماديّة الغربية قاصرٌ أو عاجزٌ عن تحقيق ذلك كما ذكرنا.

□ كيف يمكننا عملياً معالجة مشكلة التصرف بآراء الأكثرية من الناس عن طريق شراء الأصوات، أو التغرير بالوعود الكاذبة والإعلام الخادع، أو ممارسة الإرهاب؛ لتحميل اختيار معيّن دون غيره، بعيداً عن لحاظ المصلحة الاجتماعية وسبيل العدالة؟ وكشاهد شاخص علىٰ ذلك ما يحصل في الدول الغربية، كما في الولايات المتحدة الأميركية، ودول أوربا ومن يحذو حذوهم من دول العالم الثالث.

□ ما هو الضمان لاستقامة المنتخَبين للحكم والسلطة وتغليبهم لمصلحة المجتمع علىٰ مصالحهم الذاتيّة وأهوائهم الخاصة عند تشريع الأنظمة

والقوانين أو تنفيذها؟ خصوصاً وأن المقياس والغاية لديهم لا يتجاوز هذه الحياة الماديّة بكلّ زينتها وشهواتها؛ بل إننا نجد هذه الفئة المنتخَبة تنتهي عادةً إلى تغليب مصالحها الفردية والفئوية الضيّقة عند التشريع وسنّ القوانين. أمّا في المجال التنفيذي فتعمد إلى التعسف الحكومي لبسط سطوتها الانتهازية علىٰ الشعوب والأمم، عن طريق تشكيل الأجهزة العلنيّة والسرّية لإحكام السيطرة وإعمال النفوذ، ولمنع إعمال أيّة إرادة خارج إرادتها وسلطتها. والنموذج البارز لذلك هو النظام الحاكم في الولايات المتحدة الأميركية، ودول الغرب عموماً، ومن سار علىٰ نهجهم من دول العالم الأخرىٰ.

❊ ❊ ❊

حقوق الإنسان في الإسلام
المبادئ والامتيازات

إنّ مسألة حقوق الإنسان لازمت التاريخ البشري منذ أن وُجد الإنسان علىٰ البسيطة، ولم تنحصر دائرتها فيما بين ذوات بني الإنسان أنفسهم، بل اتسعت لتشمل كل متعلقاتهم من مفردات الطبيعة التي يعايشونها حيازة واستثماراً، إلّا أنه منذ أن ظهر الطاغوت علىٰ الأرض كقوة حاكمة، بدأت الإنسانية تعاني ألواناً من الهدر للكرامة والسحق لإرادتها ومقدراتها، ومصادرة الحريات وغصب الحقوق والأموال، وكثيراً ما كان طغيان الطواغيت وجور السلاطين يأخذ أبعاداً مأساوية، تنتهي إلى سفك دماء الآلاف بل الملايين من البشر، وتشريد أضعافهم، وهتك أعراضهم، والإجهاز علىٰ الأخضر واليابس من مقومات حياتهم.

ولم تعش البشرية انفراجاً حقيقياً لها من معاناتها هذه واستعبادها وسحقها، إلّا في ظل دعوات الأنبياء الطاهرين وأتباعهم المخلصين، الذين حملوا لها رسالة السماء السمحة، وخاضوا كفاحاً مريراً لإنقاذ الإنسان بها من براثن الطواغيت، وكان في مقدمتهم أنبياء اللّٰه الخالدون: إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام، وخاتمهم وأكملهم نبي الرحمة الإلهية والإسلام العظيم محمد صلى الله عليه وآله، الذي وصف أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام رسالته والفترة التي بعث بها بقوله: «**أرسله علىٰ حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم،**

واعتزام من الفتن، وانتشار من الأمور، وتلظٍّ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، علىٰ حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها، قد درست أعلام الهدىٰ، وظهرت أعلام الردىٰ، فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف»[1]. وقوله عليه السلام: **«إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين، وأميناً علىٰ التنزيل، وأنتم معشر العرب، علىٰ شرّ دين، وفي شرّ دار، منيخون بين حجارةٍ خُشن، وحيّاتٍ صمّ، تشربون الكدِر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة»**[2]، وقوله عليه السلام أيضاً: **«وأهل الأرض يومئذٍ مللٌ متفرقةٌ، وأهواءٌ منتشرةٌ، وطرائق متشتتة»**[3].

ولئن عانت دعوات الأنبياء الطاهرين عليهم السلام، والرسالات التي بعثهم اللّٰه تعالىٰ بها قبل نبينا محمد صلى الله عليه وآله، من كيد الطغاة وأعوانهم في صدّهم وتحريف نص رسالاتهم، فإن دعوة رسولنا الأمين محمد صلى الله عليه وآله قد عانت أيضاً من محاولات تحريف التأويل، وصدٍّ عن إكمال البلاغ في الدين، وغصبٍ للحق الالهي في مَن ولّاه أمور المسلمين، فخاض الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام وأتباعهم المخلصون صراعاً مريراً مع طواغيت عصورهم، ودالت دول، وتوالت أجيال، وإذا بالدعوة الإسلامية تنتشل الملايين من المضطهدين والمستضعفين من طلّاب الخلاص من عبودية الطواغيت وظلماتهم، إلى حيث الحريّة الحقيقية في رحاب عبودية اللّٰه وأنواره الأزليّة، وبقي رهطٌ كثيرٌ منهم حجبته عن رؤية الحق حواجز الضلال التي ألقىٰ بها

---

(١) نهج السعادة: ٣/٩٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦/٩٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/١٦٦.

الطواغيت أمامهم، وكبّلوهم بقيود الذلّ وطوّقوا أعناقهم بعبوديتهم، فاستعر الطغيان ودال هنا وصال هناك، حتىٰ بلغ ذروته في عصر التطور التقني والمادي، الذي وفّر للطغاة وسائل الدمار والفتك الشاملة، فسال لعابهم شرهاً لمزيد من التسلط والطغيان، فبدل أن تنعم البشرية بثورتها الصناعية، ومكتشفاتها العلمية الحديثة، وتقنياتها التكنلوجية المتطورة، شهدت مأساتين من أعظم مآسيها عبر تاريخها المرير، وذلك من خلال حربين عالميتين حُصد فيها من رؤوس الأبرياء أكثر مما حُصد من الحرث والزرع.

وقد أفرزت هاتان المأساتان إرادة بشرية عارمة، طالبت بالحد من الظلم والطغيان، والدعوة إلى سنّ القوانين التي تحفظ حقوق الإنسان في الحرية والكرامة والحياة، إلّا أنهم أصابوا في بعضها وأخطأوا في البعض الآخر، وغفلوا أو تغافلوا عن كثير غيرها، ورغم ذلك فقد كانت هذه الدعوة تعبيراً صادقاً عن عمق المعاناة، ومرارة التجربة التي مرّت بها البشرية عبر قرون العذاب المتمادية، تحت نير الطواغيت واستبدادهم وتنكرهم لأبسط القيم الإنسانية، وتحديهم للّٰه ورسالاته ورسله. وقد فاتهم أن الإسلام قد أعطىٰ للإنسان قيمته الحضارية وحقوقه الكاملة، بل واستخلفه ليؤدي دوره الريادي في الحياة. والذي يراجع مصادر الإسلام الإساسية، المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة للرسول الأمين صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام؛ يكتشف معالم النظرية الإسلامية في قيمة الإنسان، وحقوقه الشاملة وموقعه الأساسي في الحياة. ومن أبرز ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في ذلك هي رسالة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر ورسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين عليه السلام، اللتان تمثلان خلاصة الرؤية الإسلامية في حقوق الإنسان، من منبعيه الخالدين: القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وقبل أن ندخل في بيان المعالم العامة لحقوق الإنسان في الإسلام، نجد من الضروري الإلمام بمدلول الحق والإنسان، والعلاقات والمفاهيم التي تمثل مصبّاته وموضوعاته التي يتعلق بها.

فما هو الحق؟ ومن أين يبدأ؟ وماهو الأساس المقوّم له؟ وماهي الحدود الشرعية التي يفترض أن يتعلق بها؟ ثم من هو الإنسان؟ وماهي حيثيته الذاتيّة؟

ولسائل أن يسأل عن الضرورة في بيان هذه المقدمة، فنقول: إن ضرورة ذلك نابعة من أمرين:

الاول: توحيد المفاهيم والموضوعات مورد البحث؛ لتتوحد لغة المقارنة والتقويم، وتتحدد معالم كلّ نظرية وقيمتها العلمية، ويصدق الحكم لها أو عليها.

الثاني: إرجاع المفاهيم والنظريات إلى مبانيها وأسسها القائمة عليها، فإذا صحّ المبنىٰ قُوِّم البناء النظري علىٰ أساسه، وإذا كان فاسداً باطلاً فسد وبطل عندها بناء النظرية المدعاة.

الحق:

أما ماهو الحق؟ ففي اللغة أن الحق أصله المطابقة والموافقة، وهو ضد الباطل، وحقائق الشيء ما حقّ وثبت[1]، وعُرّف اصطلاحاً أنه الثبوت الواقعي أو الاعتباري الناظر إلى مصلحة واقعية، الذي لا يتغير في لوح الواقع والاعتبار حين ثبوته، سواء أدركه الذهن الإنساني كذلك أم لا، وسواء أعلنته الشرائع والقوانين الاجتماعية أم لا؛ لأنه معنىً واقعي أو اعتباري ناظر إلى مصلحة واقعية قبل إدراك الذهن الإنساني، وقبل الصياغة التشريعية أو

---

(١) مجمع البحرين: ٥، باب ما أوّله الحاء (مادة حقق).

القانونية له أنه حق. فاللّٰه تعالىٰ شأنه هو حق، ولا يمكننا تصوّر التغيير في واجب الوجود، وما نخبر عنه من وقائع وأحداث ومصالح، حقّ حين الإخبار عنها بما هي مطابقة للواقع أو للاعتبار؛ والحق في هذه الرتبة الثبوتية هو مصلحة واقعية أو اعتبارية، ناظرة إلى مصلحة واقعية، أو هو تركيب تكويني لأمر واقعي، أما المرتبة الإثباتية له، وهي الإقرار العرفي أو الصياغة القانونية، فهي إبراز لذلك الحق علىٰ مستوىٰ النظم الاجتماعي، ليكون مرجعاً قانونياً محدداً لتنظيم الحياة الاجتماعية علىٰ أساسه. فللحق اذن رتبتان:

الرتبة الأولىٰ: هي رتبة الثبوت الواقعي أو الاعتباري الناظر إلى مصلحة واقعية، وهي الأصل الأولي الذي يجب أن نكشف عنه ابتداءاً.

الرتبة الثانية: هي رتبة الإثبات والإقرار العرفي أو الصياغة القانونية له أنه حق، لكي يَتقوّم به نظم الحياة الاجتماعية بكل أبعادها الواقعية وشموليتها الموضوعية.

الإنسان:

أما الإنسان فهو كائن تتفاعل فيه بشكل متوازن جوانب جوهرية ثلاثة (تمثل فطرته الإنسانية وحيثيته الذاتية): أولها ومحورها «العقل» وهو محور القيمة الإنسانية وفيه تكمن قوة الإدراك، وثانيها «العواطف والمشاعر» (كالحب والبغض والرضا والغضب والسرور والحزن... الخ)، وهي تحقق للنفس صور التفاعل والانفعال، وثالثها «الإرادة» التي تعبّر عن الاختيار بحدوده الإنسانية، والتي تكمن وراء السلوك الإنساني بمعنىٰ الفعل والترك.

أما دائرة حركة الإنسان بجوانبه وقواه الجوهرية هذه، فهي لا تقتصر علىٰ عالم المادة المحسوس (عالم الشهادة)، بل تشمل عالم ما وراء المادة المحسوسة (عالم الغيب)؛ فهو إذن كائن يحيط به عالمان واقعيان: عالم

الشهادة، وعالم الغيب، فلو أغمض عينيه عن أحدهما لا يتغير من الواقع شيء، ولا يؤثّر هذا في الثوابت الواقعية؛ فما هو حقّ في عالم الشهادة أو في عالم الغيب أو في كليهما، يبقىٰ ثابتاً في لوح الواقع والاعتبار الناظر إلى مصلحة واقعية، سواء حجب الإنسان نظره عنه أم لا، وسواء أذعن له وأقرّه أم لا.

وبتفاعل هذه القوىٰ الفطرية الثلاث بمحورية العقل، وحجيته القائمة بالبديهيات الأولية، يتميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات كرامةً وتفضيلاً: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم علىٰ كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾(١). وتلك القوىٰ الفطرية هي المبدأ الذي ينطلق منه الإنسان في حركته التكاملية، فالمبدأ الذاتي للإنسان فطري وجداني، لا يحتاج إلى أكثر من توجهه إلى نفسه لإدراكه، ومن ثم الانطلاق منه. وإنّ أيّ تجاوز لهذا المبدأ (الفطرة)، يعني تجاوزاً للهوية الواقعية والحيثية الذاتية للإنسان؛ إذ بدون إدراك الفطرة الإنسانية والإذعان لها، سوف لن نستطيع اكتشاف ومعرفة الحقوق والواجبات الواقعية أو الاعتبارية الناظرة إلى مصلحة واقعية، وبالتالي سوف نتجاوز الواقع والمصالح في كل ما نعلنه من التزامات قانونية وعرفية، وبدل أن نسير بالإنسانية نحو تكاملها الواقعي، سندخلها في متاهات وتناقضات متوالية تزيد من محنة الإنسان ومآسيه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة (الفطرة) بقوله تعالىٰ: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّٰه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿**ونفس وما سوّاها ***

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الروم: ٣٠.

فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها﴾[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً﴾**[٢].

إذن فمعادلة اكتشاف حقوق الانسان تتقوم بأمرين أساسيين هما:

أولاً: إدراك حقيقة، موضوعها متمثل بالإنسان، في كونه موجوداً ذا فطرة متميزة، بقواه الفطرية المرتكزة علىٰ العقل، وكونه أيضاً يتحرك في دائرة عالمين، أحدهما خالدٌ مهيمن كامن وراء العالم المادي، وهو عالم الغيب، والآخر مادي ظاهر محسوس ومحدودٌ فانٍ، وهو عالم الشهادة.

ثانياً: إدراك حقيقة المحمول المتمثل بالحقوق الإنسانية، في كونها ثوابت واقعية تُكتشف من خلال معرفة حقيقة الإنسان، وحيثيته الذاتية، وعالميه: (عالم الشهادة وعالم الغيب) اللذين يتحرك في دائرتها.

وعليه فإنّ أيّة دعوىٰ لاكتشاف حقوق الإنسان وتقنينها وتنظيمها لا تتقوّم بهذين المقوّمين، هي دعوىٰ لا تتوفر فيها شروط إصابة الحقيقة، وأيّة لائحة تسطّر لنا حقوقاً للإنسان لا تلحظ في الإنسان حيثيته الذاتية، في كونه كائناً قائماً علىٰ الفطرة المتميزة، أو أنها تقرأ لنا الإنسان محجوراً وأسيراً في دائرة عالم مادي محدود، هي لائحة ناقصة في إصابتها للواقع، لكونها ستسقط من الحساب حقوقاً أساسيّة لا غنىٰ للإنسان عنها، وبهذا ستفتح عليه باب الظلم والحيف، سواء أدركت ذلك وقصدته أم لا.

وبناءً علىٰ ذلك؛ نجد أن المبادئ الإسلامية التي تقوم علىٰ أساسها حقوق الإنسان، تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك المبادئ الوضعية، التي تضيّق من حقوق الإنسان؛ بل ويُناقض الكثير من تلك الحقوق المدعاة الحقيقة الذاتيّة،

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

(٢) الإنسان: ٣.

والهوية المقوّمة للإنسان، مضافاً إلى أنها ليست فقط تفتقر عادةً إلى الدوافع الذاتية والعوامل الموضوعية للالتزام بها وتصديقها عملياً علىٰ أرض الواقع فحسب، إنّما يُحاول المنادون بها أن يخفوا خلف شعاراتهم تلك حجم الظلم والفساد والعدوان؛ الذي أحاطوا به الإنسانية وملأوا آفاق الأرض منه.

وعلىٰ ضوء مبادئ ومباني الحقوق الإنسانية في الإسلام تترتب امتيازات أساسية لا نجدها في اللوائح والأنظمة الوضعية ـ كلائحة حقوق الإنسان المعلنة من قبل الأمم المتحدة ـ وتلك حقيقة أعلنها أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله: **«من تعدّىٰ الحق ضاق مذهبه، ومن اقتصر علىٰ قدره كان أبقىٰ له»**[١].

فمثلاً من مبادئ الفطرة الأولية للحقوق الإنسانية في الإسلام، هو مبدأ الخلق الذي يُقرر الإيمان باللّٰه تعالىٰ وبتوحيده وصفاته الكمالية، وخلقه للإنسان وولايته المطلقة عليه وعلىٰ كل الوجود، وتمكينه لإعمار الحياة، واستخلاف الصالحين عليها، الأمور التي يتفرع عليها حق الإنسان في الحياة والكرامة، وفي حرية التفكير والاختيار، وفي استثمار الكون وعمارة الأرض، وفي حمل التكليف وأداء الأمانة في الخلافة الصالحة للّٰه في الحياة الدنيا. في حين أننا لا نجد مثل هذا المبدأ في لوائح حقوق الإنسان الوضعية، مما يترتب عليها نقص فاضح في اكتشاف معالم الحقوق الإنسانية، القائمة علىٰ الإيمان باللّٰه تعالىٰ وتوحيده وعدله ورسله ورسالاته، وغاية خلقه ومسيرته في عوالم الحياة المتوالية، وما يؤول إليه في الآخرة.

فحق الإنسان في الحياة مثلاً أساس تتفرع عليه مجموعة حقوق إنسانية، إلّا أن مفهوم الحياة وحدوده المصداقية تختلف بين ما تفهمه اللوائح الوضعية لحقوق الانسان، وبين ما يعلنه الإسلام؛ فالإسلام يرىٰ أن الحياة تبدأ ببعديها

---

(١) تحف العقول: ٨٤.

المادي والمعنوي من حيث تكوّن الجنين في رحم الأم، وتتواصل لتبقىٰ بعد الموت قيمة معنوية، وتنشأ حقوق للانسان في كل طور ومرحلة من أطواره ومراحله هذه، بل وفي أصل الحفاظ علىٰ استمرار النسل البشري، فليس من حق أحد أن يمنع استمرار التناسل البشري، والزواج سنّة وأساس لإدامة النسل، وهو حق طبيعي، تترتب عليه مجموعة حقوق لكلٍ من المرأة والرجل، مع الاحتفاظ بالشخصية الحقيقية لكلٍّ منهما، وللجنين حق الحياة فلا يحق لأي أحد قتله بالإجهاض مثلاً بغير ضرورة، ولا أن يهدد بالفناء أو يفني أحدٌ الحياة الإنسانية لمن يستحقها، حتىٰ حياة الإنسان نفسه ، بل ولأسير الحرب في الإسلام حق في الحياة إن لم يكن مجرماً حربياً، وتتفرع عليه حقوق المعاملة الإنسانية، ولكلّ غير محاربٍ من الأطفال والنساء والشيوخ والمعوقين حق الحياة، بل وجميع حقوق التعامل الإنساني الأخرىٰ.

وللإنسان حق في أن يُحترم بعد موته في جنازته ومدفنه، ولا يحق لأحد انتهاك حرمته فيها، بالتشريح لجسده، أو النبش لقبره بدون ضرورة تقتضيه، ولا التمثيل به، حيث يعلن الإسلام حرمة التمثيل حتىٰ بالكلب العقور. كلّ هذه الحقوق الإنسانية يعلنها الإسلام، في حين لا نجد هذا الشمول والتفصيل في اللوائح الوضعية لحقوق الإنسان.

ومن الحقوق الإنسانية المترتبة علىٰ أساس كرامة الإنسان، والتي هي أيضاً تختلف مفهوماً، وبالتالي مصداقاً، بين ما وضعته الأنظمة الوضعية من حقوق الإنسان، وما يُعلنه الإسلام.

فالكرامة الإنسانية في الأنظمة الوضعية محدودة في دائرة الأصل الأوليّ للإنسان، كموجود وكائن عاقل في هذه الحياة، في حين أن الإسلام لا يقصر الكرامة الإنسانية علىٰ الأصل الأولي لها، بل يرىٰ فيها قيمة متحركة مع

الإنسان في جميع أطوار ومراحل سيره الإنساني في هذه الحياة، فيرىٰ لها رتبتين:

الأولىٰ: قيمة أولية مشتركة بين بني الإنسان: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم علىٰ كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾(١).

الثانية: قيمة مكتسبة يحصل عليها الإنسان بحركته التكاملية ضمن مساريها المعنوي الخلّاق للنفس الإنسانية، والتصديقي العملي البنّاء للحياة الاجتماعية؛ فإنّ أيّ وجدان إنساني يدرك أن هناك فرقاً كبيراً بين فردٍ عظيم بعلمه وخصاله الأخلاقية العالية، التي اكتسبها بجهده وجهاده، والتي ملّكته قدرة أداء دور إنساني بنّاء وإصلاحي كبير في بناء الحياة وإثرائها، وبين فردٍ عاديٍ لم يكتسب شيئاً من ذلك، ولم يترك أثراً بنّاءً في الحياة، بل وهناك فرق أكبر بين الأول وبين فردٍ شريرٍ عاث في الأرض فساداً: ﴿**قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾(٢). فهناك في الإسلام حقوق للكرامة المكتسبة، لا تجدها غالباً في لوائح حقوق الإنسان الوضعية، كحقوق الكرامة للعلماء : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾(٣)، وللمؤمنين: ﴿**وبشّر المؤمنين بأن لهم من اللّٰه فضلاً كبيراً**﴾(٤)، وللأتقياء: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم**﴾(٥)، وكحقوق الكرامة للعاملين والمجاهدين: ﴿**لا يستوي**

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الرعد: ١٦.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) الأحزاب: ٤٧.

(٥) الحجرات: ١٣.

القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضرر والمجاهدون في سبيل اللّٰه بأموالهم وأنفسهم فضّل اللّٰه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علىٰ القاعدين درجة وكلاًّ وعد اللّٰه الحسنىٰ وفضّل اللّٰه المجاهدين علىٰ القاعدين أجراً عظيماً﴾[1]، وأمثال هذه الحقوق.

وللإنسان حق في الحياة الاجتماعية والأخلاقية، وهنا أيضاً نجد أن المفاهيم والمصاديق تختلف في مبانيها وبنائها بين ما يقرره الإسلام، وما تقوله اللوائح الوضعية لحقوق الإنسان؛ فالإسلام يبني الحياة الاجتماعية والأخلاقية للإنسان في إطار الأمم والمجتمعات علىٰ قيمتين أساسيتين:

القيمة الأولىٰ: قيمة التماثل في الأصل الإنساني بين الشعوب والأمم: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾**[2].

القيمة الثانية: قيمة التكريم والتفاضل الإنساني بين الناس أفراداً وجماعات: **﴿إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم﴾**[3]، وهي ـ كما قلنا ـ قيمة مكتسبة بالسعي والكفاح، يَصل إليها بنو الإنسان أفراداً وشعوباً وأمماً، وتترتب لهم حقوق إضافية بها، ويتفاضلون علىٰ أساسها في الحقوق والواجبات: **﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللّٰه﴾**[4].

أما في اللوائح الوضعية لحقوق الإنسان، فإنك لا تجد مفهوم القيمة الأوّليّة (قيمة التماثل) واسعاً شاملاً لكل آثاره الاجتماعية والأخلاقية، كما أنك لا

---

(١) النساء: ٩٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) آل عمران: ١١٠.

تجد للقيمة الثانية (قيمة التكريم والتفاضل) اعتباراً وحساباً وفق المقاييس الواقعية لها في مبانيها ومقرراتها، وعلىٰ ضوء ذلك يعلن الإسلام حقوقاً اجتماعية وأخلاقية للإنسان في إطار الأمم والمجتمعات، لا تُعلنها اللوائح الوضعية، بل لا تجد لها أساساً في مبادئ ومباني تلك اللوائح.

ويتفرع علىٰ هذا الحق في الإسلام حقوق كثيرة، من أبرزها حقوق العائلة بما تشمله من حقوق الأبوين والأولاد والأقرباء، حتىٰ أننا لا نجد أيّ تشريع أو لائحة اهتمت بهذا الحق، ووسعته بكل أبعاده كما اهتم به واستوعبه التشريع الإسلامي. فقد جعل الإسلام لهذا الحق رتبتين أساسيتين ترسمان وتنظّمان طبيعة العلاقة والصلة بين الأرحام: (الوالدين والأولاد والأقرباء):

الرتبة الأولىٰ: رتبة الحق الإنساني ببعده الأخلاقي؛ الناشيء من العلاقة المعنوية بين الرابطة التكوينية الطبيعية للأرحام: (الأبوين والأولاد والأقرباء)، وما يصاحبها غريزياً واجتماعياً من تعاطف وتضحية وإيثار.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة في بيان ذلك منها:

قوله تعالىٰ: **﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أُمّهُ وهناً علىٰ وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير * وإن جاهداك علىٰ أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إليّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**[2].

---

(١) العنكبوت: ٨.

(٢) القمر: ١٤ ـ ١٥.

كما استنكر سبحانه وتعالىٰ إهدار حق صلة الأرحام وقطيعتهم، وقرنها بالفساد في الأرض في قوله تعالىٰ: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم اللّه فأَصمَّهم وأعمىٰ أَبصارهم**﴾[١].

الرتبة الثانية: رتبة الحق الرسالي، وهي أعلىٰ من الرتبة الأولىٰ، وأشمل وأعظم درجة، حيث تجعل من الأبوين أولياء رساليين علىٰ أولادهم في التربية والتعليم والإعداد، ومن الأولاد أوفياء مطيعون لهم في طول تولّيهم للّٰه ولرسله ولأوليائه المعصومين، وهكذا في دائرة الأرحام، حيث تتأكّد المسؤولية الرسالية وحقوقها في الأقرب فالأقرب.

وقد أشارت آيات من القرآن الكريم لهذه الرتبة الساميّة من الحق وفصّلته الروايات الشريفة، منها:

قوله تعالىٰ: ﴿**وقضىٰ ربك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفّ ولا تنهرهما وقُل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناحَ الذُّل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً**﴾[٢].

وعن حقّ الوالد علىٰ الولد وردت روايات عديدة، منها:

قال الإمام علي عليه السلام: «**إنّ للولد علىٰ الوالد حقّاً، وإنّ للوالد علىٰ الولد حقّاً، فحقّ الوالد علىٰ الولد أن يطيعه في كلّ شيء إلّا في معصية اللّه سبحانه**»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**يجب للوالدين علىٰ الولد ثلاثة أشياء: شكرهما علىٰ كلّ حال، وطاعتهما فيما يأمرانه وينهيانه عنه في غير معصية اللّه،**

---

(١) محمد: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٩٩.

ونصيحتهما في السرّ والعلانية»[١].

وعن حقّ الولد علىٰ الوالد جاءت أيضاً روايات عديدة، منها:

ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من حقّ الولد علىٰ والده ثلاثة: يحسّن اسمه، ويعلّمه الكتابة، ويزوّجه إذا بلغ**»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «**أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم**»[٣].

وعن الإمام علي عليه السلام: «**حق الولد علىٰ الوالد أن يحسّن اسمه، ويحسّن أدبه، ويعلّمه القرآن**»[٤].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**مروا أولادكم بطلب العلم**»[٥].

وفي الرتبة الرسالية لحق صلة الأرحام قال الله تعالىٰ: ﴿**أفمن يعلم إنّما أُنزل إليك من ربّك الحقُّ كمن هو أَعمىٰ إنّما يتذكّرُ أُولوا الألباب * الذين يوفون بعهد اللّه ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمرَ اللّه به أن يُوصل ويخشون ربَّهم ويخافون سوء الحساب**﴾[٦].

وفي تفسير هذه الآية الكريمة ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**في قوله تعالىٰ: الذين يصلون...، من ذلك صلة الرحم وغاية تأويلها صلتك إيّانا**»[٧].

وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللّه الذي تساءلون به**

---

(١) تحف العقول: ٣٢٢.

(٢) مكارم الأخلاق ١: ٤٧٤، ١٦٢٧.

(٣) كنز العمال: ٤٥٤١.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٣٩٩.

(٥) كنز العمال: ٤٥٩٥٣.

(٦) الرعد: ١٩ ـ ٢١.

(٧) البحار ٧٤: ٩٨، ٤٠.

والأرحام إنّ اللّٰه كان عليكم رقيباً﴾[١].

وقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: «في قوله تعالىٰ: ﴿**واتقوا اللّٰه الذي تساءلون به والأرحام...**﴾، **هي أرحام الناس، إن اللّٰه عزّ وجلّ أمر بصلتها وعظّمها، ألا ترىٰ أنه جعلها منه**»[٢]؟

وعن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً: لمّا سأله جهم بن حميد: يكون لي القرابة علىٰ غير أمري أَلَهم عليّ حق؟: قال: «**نعم، حقّ الرحم، لا يقطعه شيء، وإذا كانوا علىٰ أَمرك كان لهم حقّان: حقّ الرحم، وحقّ الإسلام**»[٣].

وكان ممن أمر اللّٰه سبحانه وتعالىٰ رسوله الكريمصلى الله عليه وآله بأداء حق الصلة الرسالية لهم هم: عشيرته الأقربون في قوله تعالىٰ: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[٤].

ومن الآيات الكريمة التي تصرّح بهذه الرتبة السامية من الحق هو قوله تعالىٰ: ﴿**النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأُولوا الأرحام بعضهم أَولىٰ ببعض في كتاب اللّٰه من المؤمنين والمهاجرين إلّا أن تفعلوا إلىٰ أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾[٥].

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿**إنّ اللّٰه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون**﴾[٦].

وتتوسع دائرة هذا الحق لتشمل اليتامىٰ والمساكين والجار وابن السبيل

---

(١) النساء: ١.
(٢) الكافي ٢: ١/١٥٠.
(٣) الكافي ٢: ٣٠/١٥٧.
(٤) الشعراء: ٢١٤.
(٥) الأحزاب: ٦.
(٦) النحل: ٩٠.

وأمثالهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿واعبدوا اللّٰه ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربىٰ والجار الجُنُب والصاحِبِ بالجَنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إنّ اللّٰه لا يُحبُّ من كان مختالاً فخوراً﴾[1].

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن اللّٰه به عليم﴾[2].

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنّ البرَّ من آمن باللّٰه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتىٰ المال علىٰ حُبّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[3].

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿وآت ذا القربىٰ حقّهُ والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً﴾[4].

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿فآت ذا القربىٰ حقّه والمسكين وابن السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه اللّٰه وأولئك هم المفلحون﴾[5].

وللإنسان في الإسلام أيضاً حق الحرية في التفكير والاختيار؛ لأنه مخلوق عاقل ذو إرادة؛ ويختلف الأساس الذي يتقوم به هذا الحق في الإسلام عنه في

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) البقرة: ٢١٥.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) الاسراء: ٢٦.

(٥) الروم: ٣٨.

الأطروحات الوضعية؛ حيث إن الإسلام يعتبر كل إنسان مخلوقاً حرّاً بالفطرة ومتكافئاً في حرية التفكير والإرادة مع نظيره الإنساني، وعلىٰ أساس من ذلك فالحرية هبة إلهيّة لمطلق الإنسان، وإحدىٰ معطيات الفطرة الإنسانية التي خلقها الله سبحانه وأودعها فيه. وعليه فلا يجوز في الإسلام سلب حرية التفكير والاختيار عن الإنسان، وإذا ما حُجرت هذه الحرية أو سُلبت فسوف يُسلب أساس هوية الإنسان ومقوّمه، سواء كان الحجر والسلب بسبب تسلط الظالمين والمستكبرين في الأرض أو بسبب هيمنة العادات المنحرفة والتقاليد الخرافية والأفكار الضّالة، ولهذا بعث اللّٰه الأنبياء وأرسل الرسل لتحرير الإنسان من عبودية المستكبرين، والجاهليات المهيمنة عليه، فيتحرر عند ذاك فكره وعقله وإرادته، فيسمو في رحاب الفطرة الإنسانية، ويسير نحو كماله المنشود في الفكر والسلوك والحياة.

وعلىٰ نهج أنبياء اللّٰه ورسله يتوجب علىٰ من آمن بهم وبرسالتهم أن يسعىٰ لإعلان هذا الحق الإنساني، ويعمل علىٰ إحقاقه بكل الوسائل الممكنة.

ويتفرع عن هذا الحق حقوق كثيرة، من أهمها: حق المساواة في تهيئة فرص التعلّم، وسوق الإنسان نحو المعرفة الحقّة، وفتح آفاق التفكير البنّاء، وتوفير عوامل الإبداع والتكامل في مسيرة الفكر الإنساني.

وقد أكّد القرآن الكريم علىٰ هذا الحق في آيات كثيرة عدّها بعضهم(١) سبعمائة وخمسين آية في القرآن الكريم أحاطت بكل جوانب حق التفكير والمسؤولية تجاه موانعه وآثاره، منها:

قوله تعالىٰ إشارة إلى حرية التفكير والمساواة في فرص التعلّم والمعرفة:

---

(١)هو الدكتور محمد عباس عبد السلام، راجع معنىٰ التكنولوجيا: ١٧ لأسامة أحمد سامح الخالدي ويوسف أحمد الشيراوي.

﴿وسخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿إنّما مثل الحياة الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السماءِ فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلُها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس كذلك نُفصّلُ الآيات لقوم يتفكّرون﴾(٢).

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كلّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجين اثنين يُغشي الليل النّهارَ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون * وفي الأرض قِطعٌ متجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يُسقىٰ بماءٍ واحدٍ ونُفضّلُ بعضها علىٰ بعضٍ في الأكُلِ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾(٣).

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن علىٰ جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية اللّه وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكرون﴾(٤).

وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾(٥).

ومن الآيات الكريمة ماهو خطاب وتكليف للرسول صلى الله عليه وآله في بيان طريق

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) يونس: ٢٤.

(٣) الرعد: ٣.

(٤) الحشر: ٢١.

(٥) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

التفكير السليم إلى الناس، وسوقهم نحو الحقائق المطلقة؛ لتتكامل معارفهم، ويهتدوا إلى سبيل الرشاد، كقوله تعالىٰ: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبيّنات والزُّبُر وأنزلنا إليك الذكر لتُبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون**﴾[1].

وكقوله تعالىٰ في إرشاد الرسولﷺ إلى كيفية تحرير الفكر الإنساني مما علق به من انحرافات وأوهام، أو مما حجره من ضلال وأهواء: ﴿**وكذلك نفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون * واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلدَ إلى الأرض واتّبع هواهُ فمثلُهُ كمثلِ الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون**﴾[2].

أما الأطروحات الوضعية؛ فهي لا تنطلق في مقولاتها من مبدأ الخالق والمخلوق في مطلق الوجود والإنسان والحياة، وما يترتب عليه من أهداف وغايات لا تنحصر بعالم المادة المحدود، بل تتجاوزه في بعدها الكمالي إلى عالم الغيب الواسع والحياة الحقيقية الأخرىٰ؛ فهي لذلك تحصر الحرية في التفكر والاختيار بمفردات العالم المادي ودائرته المحدودة من جهة، ومن جهة أخرىٰ لا تتجاوز في تقويمها لهذه الحرية حدود مصالح ومنافع الأكثرية؛ وهي من مقولات العقد الاجتماعي، التي يقوم عليها النظام الوضعي المعاصر في أغلب حواضر عالم اليوم. فالأساس الوضعي في حرية التفكير والاختيار هو مصلحة الأكثرية، المحدودة بالمصالح المادية وحسب. كما أن الحق والباطل لديهم نسبيان؛ تبعاً لاعتقادهم بنسبية الحقيقية ونسبية الأخلاق، ولذا سوف لا تجد لديهم ضوابط واضحة وحدودا ثابتة لحرية التفكير والاختيار،

---

(١) النحل: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) الأعراف: ١٧٤ ـ ١٧٦.

فلكل إنسان أن يعتقد ما يشاء ويختار ما يشاء، في إطار المصالح والمنافع المادية للأكثرية. فمن يتحجّر وينغلق علىٰ العقيدة الوثنية، ويعبد الحجر أو البقر أو النار وأمثال ذلك، ويختار طريق الانحراف والتعصب والجهل، فله ذلك ما دام لا يعارض المصالح والمنافع المادّية للأكثرية. ومن شذّ في شهواته واختار طريق الشذوذ الجنسي مثلاً، وَأَسّسَ النوادي التي تتداوله، وشكّل المنظمات التي تدافع عنه وتنظّم ممارساته وتعمل علىٰ انتشاره، فهو حرّ في ذلك ما دام في إطار المنافع والمصالح المادّية للأكثرية.. وهكذا الى أن ننتهي الى الفوضىٰ والانحراف بالإنسان عن إنسانيته، وهدف خلقه وأصل خلقته. فهل هذا من حقوق الإنسان أم هو هدر وتضييع لها بلا حدود؟!

هذا نزر من غزير ما في الإسلام من حقوق للإنسان أحاط بها خلقته وخُلقه، ومبدأه ومساره ومآله. علىٰ أننا لم نتناول الاّ جوانب من البُعد النظري لحقوق الانسان في الإسلام، الذي لن تتجلّىٰ عظمته إلاّ بترجمته علىٰ لوح الواقع لو دالت دولته، وقويت شوكة حكمه في أرجاء المعمورة. أما ما يُدّعىٰ من حقوق للإنسان في اللوائح الوضعيّة فهي إضافة إلى أنها تفتقد الأساس الفطري والوجداني في تشخيص حقيقة الإنسان، وحقوقه وحركته في الوجود أيضاً أثبتت تخلفها عن الواقع، وغربتها عن الحقيقة في مجال التطبيق العملي لها؛ وكيف يجتمع المتباينان ويلتقي المتنافران ؟! ولو أصابت هذه النظريات الوضعية لحقوق الإنسان شيئاً من الصواب؛ فليس هو إلاّ من باب ما يدركه العقل العملي من حسن وقبح ؛ وإلاّ فإنّ الأصل فيما يدّعي الوضعيون ليس هو إلاّ الاحتمال والظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وماهم في ذلك إلاّ يخرصون، وهو قول اللّه الحق عزّ وجلّ في كتابه الكريم: **﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون﴾**[١].

---

(١) الانعام: ١٤٨.

العولمة جولة استكبارية جديدة

الجذور والحقيقة

تتداول أجهزة الإعلام العالمية والإقليمية، ومؤسسات الدراسات الاستراتيجية، دراسة وتحليل مسألة، يبدو وكأنها جديدة في مفهومها وأبعادها، وهي ما اصطلح عليها بـ «العولمة»، وبدا علىٰ هذه الدراسات والاستعراضات والتحليلات أنها أمام حدث عالمي مرتقب، تسير مقدماته بقوة واقتدار؛ لا تلبث أن تُخضع كلَّ شيء يقع في طريق حركتها، ليتحقق ذلك الحدث واقعاً حتمياً، يحكم العالم ويصهره في بوتقته. ولم يكن لنا بدّ من وقفة تأمل فاحصة في كل هذا التنظير، وما يرافقه من ردود فعلٍ متفاوتة بين السلب والتحدي، أو الإيجاب والتسليم، وبينهما درجاتٌ؛ كلٌّ واحدةٍ منها نجدها مليئةً بالتقويم، والتقرير للمبررات والعوامل الفاعلة في دعوى كلِّ طرف من الأطراف. وفي سياق وقفة التأمل الفاحصة هذه علينا أن نعرف منشأ وجذور ما يسمىٰ بالعولمة ، وما المقصود الحقيقي منها؟

لو تتبعنا الجذور والإرهاصات في حركة التطور للمنظومات العالمية الكبرىٰ، لوجدنا أن هناك مراحل مرَّ بها العالم الحديث، لابد لنا من الإشارة إليها لتكون ضوءاً كاشفاً لنا عن حقيقة المصدر وطبيعة الجذور، ويمكن تلخيصها بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولىٰ: وتمثلها حركة الغرب لاستعمار الشرق، وحذف هويته

واستقلاله، وصهره في دائرة ما سمي بالنهضة الصناعية، والمبادئ العلمانيّة العصرية، التي تحذف دور الدين كأطروحة ونظام لبناء الحياة الاجتماعية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، علىٰ صعيد هوية واستقلال الشعوب والأمم، وعلىٰ صعيد تأسيس الدول وبناء الأنظمة والحكومات.

وعلىٰ هذا الأساس نشأت مجموعات دول الكومنولث، وتأسست دول الانتداب وأمثالها بعد الاستعمار العسكري المباشر لتلك البلدان، وبذلك خضعت أغلب دول آسيا وإفريقيا واستراليا وجنوب أميركا لهذه الأنظمة، وكادت تتحقق إحدىٰ صيغ الامبراطوريات العالمية الكبرىٰ (كالامبراطورية البريطانية والامبراطورية الروسية وأمثالهما) إلّا أنّ الحرب العالمية الأولىٰ، وبعدها الحرب العالميّة الثانية، أوقفت مسيرة هذه الحركة، رغم أن الأخيرة منهما كانت تتحرك تحت نفس الشعار، وبطريقة عنصرية صارخة هي القول بتفوق العرق الجرماني، وضرورة هيمنته علىٰ العالم وصهره في إرادته، وهكذا انتهت المرحلة الأولىٰ بالفشل، ودخل العالم في مرحلة ما سمي بالحرب الباردة بين معسكرين متقابلين، هما المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، واستمر هذان المعسكران يتحكمان سنوات طويلة بعد الحرب العالمية الثانية في سَوق دول العالم لمحوريهما، ولم ينج منهما حتىٰ ما انتظم من الدول فيما سمي بمنظمة دول عدم الانحياز، حيث مارست قوىٰ النفوذ الخفيّة لكلا المعسكرين دورها الفاعل للتأثير علىٰ دول هذه المنظمة، وتحويلها إلى الانحياز لهذا المعسكر أو ذلك.

المرحلة الثانية: وهي التي أعقبت انهيار منظومة المعسكر الاشتراكي،

وانحلال الاتحاد السوفياتي، وفيها أعلنت الولايات المتحدة الأميركية انتهاء عصر الحرب الباردة، وبداية عصر النظام العالمي الجديد، وهو تعبير خادع، أرادت منه أميركا أن تضفي علىٰ الواقع العالمي الجديد، الذي حصل بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، عنواناً سياسياً برّاقاً، تكمن فيه رغبتها في تطبيق نظام القطب العالمي الواحد، المتمثل بقوتها الماديّة الكبرىٰ في جميع جوانب التقنيّة العسكرية والسياسية والاقتصادية والإعلامية الحديثة، والهيمنة علىٰ العالم من خلال ذلك، ولهذا شرعت بعقد تحالفات مرحلية مع مجموعة من الدول الأوربية؛ لإعادة تنظيم الخريطة السياسية والاقتصادية للعالم، شملت احتواء البلدان المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفياتي المنهار، وكذلك دول حلف وارشو السابق، ووضع استراتيجية جديدة لتقوية الوجود السياسي والعسكري والاقتصادي لإسرائيل، وإزالة كافة العقبات الإقليمية والدولية التي تقف في طريق تحقيق هذا الهدف، من خلال مشروع التسوية الاستسلامي الجديد، كما حاولت اختراق صمود الجمهورية الإسلامية في إيران، التي بقيت إلى يومنا هذا مستعصية علىٰ الاحتواء الاستكباري، والتركيع للإرادة الأميركية وسياساتها الاستكبارية، ومؤامراتها المتوالية عبر حلفائها من دول أوربا أو الدول الإقليمية.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي نعيش إرهاصاتها، إذ بدأت بعض دول أوربا الغربية، بالتحالف مع روسيا، بالتحرك لمواجهة سياسة القطب العالمي الواحد، التي تنتهجها الولايات المتحدة الأميركية، واستطاعت هذه الحركة أن تدفع كبرىٰ الدول الآسيوية المسماة بالنمور الآسيوية لانتهاج سياسة أكثر استقلالاً، خصوصاً من الناحية الاقتصادية والثقافية، وقد شجعها لانتهاج هذه السياسة النجاح الكبير الذي حققته الجمهورية الإسلامية في

إيران، علىٰ صعيد بناء قدراتها الذاتية المستقلّة، والظهور بمظهر القوة الآسيوية، والشرق أوسطية في مختلف الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية.

وهنا تفتق العقل الأميركي عن مقولة العولمة، وكأنها اكتشاف جديد، وأطلقها علىٰ طريقة الفلاسفة في سَوق الحتميات كنظام حتمي، يتجه نحوه العالم، مدّعياً أن التحولات التقنيّة الهائلة هي التي تسير بهذا العالم بسرعة نحو التواصل والتقارب الشديد، حتىٰ يكاد يصبح كالمدينة الواحدة في سرعة تواصل دوله وتفاعل مجتمعاته. وبدأ المفكرون الأميركيون ومن يدور في فلكهم ينظّرون لهذه العولمة في المجال الاقتصادي، باعتباره محور القوة الأول، وأساس النظرية الغربية في بناء المجتمعات الإنسانية والأنظمة السياسية. وهكذا بدأت الجولة الجديدة للاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية للتحكم في العالم، واحتواء دوله وشعوبه تحت شعار العولمة البرّاق، وماهو في الحقيقة إلّا جولة جديدة للرأسمالية الغربية ، انتهزت فيها فرصة خلو الساحة الدولية من قوة التوازن المضادة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وعليه يصح لنا أن نطلق علىٰ هذه العولمة بطريقتها الأميركية: «العولمة الرأسمالية».

ولإنجاح هذه الجولة الجديدة للاستكبار؛ عمدت الولايات المتحدة الأميركية ومن تبقّىٰ من حلفائها، إلى اتخاذ إجراءات واسعة علىٰ كافة الأصعدة، وخصوصاً السياسية والعسكرية والاقتصادية منها؛ وذلك لتهيئة الأرضية العملية لهذه الجولة، وإحكام العوامل الضاغطة علىٰ دول العالم ومناطقه الحسّاسة؛ لمنع أيّ انفلات أو جنوح عن الدائرة الحمراء للخطة المرسومة لها. ومن أبرز هذه الإجراءات والعوامل هي:

١ ـ تجاوز السياسة الأميركية لمناطق نفوذها التقليدية؛ لتشمل كافة مناطق

العالم شرقاً وغرباً وجنوباً، حتىٰ تلك التي تخضع عادةً لنفوذ دول الحلفاء الغربيين، كفرنسا وانكلترا وأمثالهما.

٢ ـ أعادت الولايات المتحدة الأميركية تنظيم بل زيادة كم وكيف قواعدها العسكرية في أنحاء العالم، خصوصاً في منطقة الشرق الأوسط والمناطق المحيطة بها، ولا سيما دول منطقة شبه الجزيرة العربية الحساسة؛ التي تمتلك أكبر خزين للطاقة الاستراتيجية في العالم.

٣ ـ تمكين الحركة الصهيونية العالمية ربيبة الاستكبار الأميركي، من الامتداد والهيمنة علىٰ مواقع صنع القرار الكبرىٰ في أغلب الدول الأوربية، الأمر الذي سيساعد علىٰ سَوق هذه الدول للخضوع لمبدأ القطب الواحد، المتمثل بالولايات المتحدة الأميركية؛ باعتبارها المكمن المركزي للحركة الصهيونية، والانصياع لسياستها العالمية. ومن يتتبع واقع الدول الأوربية اليوم؛ يجد هذا واضحاً، لا يحتاج إلى تسطير للأرقام أو مزيد بيان.

٤ ـ إطلاق يد النظام الإسرائيلي الغاصب، ومضاعفة دعمه عسكرياً وسياسياً واقتصادياً؛ ليمارس دور العصا الغليظة التي يلوّح بها لدول الشرق الأوسط، كلّما أرادت أن تعبّر فيما بينها عن موقف إقليمي موحّد، أو تعلن عن سياسة مبدئية مشتركة؛ وبذلك تحقق أحد العوامل الأساسية لإضعاف مقومات الاستقلال في الهوية والموقف المبدئي لهذه الدول، وبالتالي صهرها في بوتقة الاستكبار العالمي، وسياسته نحو العولمة الرأسمالية.

٥ ـ العمل علىٰ ترويض الإرادة الدولية وإخضاعها للإدارة الأميركية في حركتها الاقتصادية؛ للتحكم بخط سير العولمة، وتكريسها في إطار الرأسمالية الأميركية.

وقد سلكت الولايات المتحدة الأميركية مسارين لتحقيق هذا الهدف:

المسار الأول: تشريع قوانين بقرار أميركي منفرد، وتحميله علىٰ المنظومة الاقتصادية الدولية؛ لمنعها من الخروج علىٰ الإرادة الأميركية في السيطرة علىٰ العمليات الاقتصادية الاستراتيجية، وقد تستّرت كخطوة أولىٰ بستار محاصرة الدول التي تدّعي أنها متمردة عن الإرادة الدولية، بعد أن اختلقت صورته وضخّمتها إعلامياً، ليكون مبرّراً مقبولاً علىٰ الصعيد العالمي؛ وكانت أبرز الدول التي طالتها إجراءات هذا المسار هي الجمهورية الإسلامية في إيران، من خلال ما سمي بقانون داماتو، الذي يحظر علىٰ أية دولة في العالم تجاوز سقف محدود لاستثماراتها في المشاريع النفطية الإيرانية، ومن الدول التي شملتها هذه الإجراءات أيضاً كوبا من خلال قانون بيرتون، وليبيا ومن بعدُ العراق، كلٌّ بصيغتها المفتعلة الخاصة بها.

المسار الثاني: استثمار المؤسسات والقدرات الاقتصادية الأميركية، أو التي لأميركا نفوذ مباشر فيها؛ لدعم سياستها الخاصة في العولمة الرأسمالية، فأخضعت العديد من الدول، ومنها بعض الدول الصناعية والاقتصادية الكبيرة كاليابان والصين؛ للانسجام أو الاقتراب من سياستها المرسومة في التحكم بالاقتصاد العالمي؛ وتحركت لضرب أية قوة اقتصادية نامية، تخرج عن إطار سياستها هذه، كالذي فعلته مع مجموعة دول شرق آسيا المسماة بالنمور الآسيوية، فقد استطاعت، من خلال مجموعات منظماتها المالية، أن تُحدث سقوطاً كبيراً في قيمة العملات الوطنية لهذه الدول، ومن ثم إسقاط اقتصادها ليطلب الرحمة من المؤسسات المالية الخاضعة للنفوذ الأميركي أو المرتبطة بها، كصندوق النقد الدولي وبنك التنمية الدولية وأمثالهما، التي لا تقدم العون عادةً إلّا بشروط أصحابها الأميركيين.

ولم يقف العقل الأميركي، وبالأحرىٰ السياسة الأميركية، القائلة بـالعولمة عند الحد الاقتصادي للسيطرة علىٰ الاقتصاد العالمي، ومنع أية حركة اقتصادية كبرىٰ مستقلة عنه، بل راحت تدّعي أن العولمة شاملة شمول حركة الإنسان والمجتمعات لجميع جوانب الحياة؛ فهناك عولمة أمنية، أي أن الأمن العالمي واحد، وليس في عَرضه أمنيّات ذاتية مستقلة لأيّ شعب أو أُمة أو دولة، بل لابد أن يكون أمن كل واحدة منها في طول الأمن العالمي، المحكوم للأمن القومي الأميركي، فالذي يحمي أمن الدول والشعوب ليس ذات الدول والشعوب، بل إن الولايات المتحدة الأميركية وحلفاءها هم المسؤولون عن ذلك، ولهم وحدهم الحق في قمع حرب، قد تستعر بين دولة وأخرىٰ، أو يسعّروا حرباً لقمع دولة في نزاع مع أُخرىٰ، وهذا يعني تحول دول العالم إلى قواعد عسكرية تابعة للولايات المتحدة الأميركية وحلفائها؛ وعلامات ذلك مشهودة اليوم في مسيرة السياسة الأميركية وحلفائها في حروبها وفي إنشاء القواعد العسكرية، وتوسعتها وتطويرها كماً وكيفاً في مختلف أنحاء العالم.

وهكذا قالوا عن العولمة الثقافية، فلا ثقافة إسلامية أو وطنية أو قومية، بل يجب أن يسير العالم بشعوبه وأممه ودوله بفعل أساليب ووسائل الاتصال الحديثة، نحو عولمة ثقافية واحدة، تُلغىٰ فيها جميع الهويات الثقافية الذاتية. وإذا كانت رائدة وقائدة هذه العولمة هي الولايات المتحدة الأميركية وحلفاءها؛ فالثقافة الحاكمة ستكون هي الرأسمالية، ومنهجها المادي المنزوع من كل القيم والأخلاق إلّا قيمة المنفعة الماديّة الضيقة.

وإذا كان من المتسالم عليه أن للشعوب والأمم، وخصوصاً لشعوب الأمة الإسلامية، هوية ذاتية مضادة، وإرادة ناهضة معارضة لذلك، وصحوة رائدة توّاقة نحو الاستقلال والحرية وتقرير المصير، فإن صراعاً مريراً سيقع بينها،

وبين الاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية في جولته الجديدة، وإن ظلماً وفساداً كبيراً سينالان هذه الشعوب والأمم، لو قُدّر لهذه الجولة نجاح لا سمح اللّٰه، فما هو السبيل للصمود أمامها، بل لأحباطها كما أُحبطت نظائرها في الجولات السابقة؟

إن التجارب التاريخية الرائدة للأمم الحيّة، وفي مقدمتها الأمة الإسلامية المجيدة، ومن خلال لحاظ طبيعة السنن الاجتماعية الحاكمة في حركة الإنسانية، يستلهم منها الأحرار بعقولهم السليمة جملة مبادئ ومفردات لمنهج عمل، يمكن للمجتمعات والدول التوّاقة للحرية والاستقلال، وبناء الذات أن تُحبط عن طريقها هذه الجولة الاستكبارية الجديدة وتنجو بنفسها، بل تساهم في خلق أرضيّة صالحة لعولمة سليمة تقوم علىٰ المبادئ الإنسانية الحقّة.

ولعل من أهم تلك المبادئ والمفردات هي:

١ ـ التعامل مع حركة العولمة المعلنة بخطوات حذرة ومدروسة ومن موقع الاقتدار والاستقلال، وإن أدّىٰ ذلك إلى التضحية ببعض المكتسبات الآنية.

٢ ـ العمل علىٰ توحيد العالم الإسلامي علىٰ أساس الإسلام كهوية، خصوصاً في المشتركات الأساسية، أو قل عولمة العالم الإسلامي أولاً إن صح التعبير، ليتكون الرقم الصعب في معادلات الجولة الاستكبارية الجديدة.

٣ ـ يجب ألّا نسمح أن يكون للعولمة المطروحة علينا سبيل؛ لاعتبار العامل المادي والاقتصادي هو الأساس في بناء الانسان والمجتمعات العالمية، بل لابد أن نكافح من أجل أن تكون العولمة، بما هي عولمة طبيعية، وسيلة لبناء إنسان المبادئ والمُثل العليا، وبناء مجتمعات الفضيلة والكمال.

٤ ـ العمل علىٰ توحيد القوىٰ الإقليمية في العالم الثالث؛ لتحقيق أعلىٰ صور التعاون والاكتفاء الذاتي؛ في مجالات التكنلوجيا الصناعية والتقنية

الاقتصادية الحديثة.

٥ ـ العمل علىٰ مواجهة حركة إخضاع العالم للقطب الواحد، ودعم مشروع الأقطاب المتعددة، كمرحلة أولىٰ لبناء عالم متوازن، قائم علىٰ أساس التعاون والتبادل في إطار المصالح الإنسانية المشتركة بين شعوبه وأممه.

٦ ـ امتلاك زمام المبادرة، والقدرة والقرار في حق التصرف بثروات العالم الثالث، وخصوصاً ثروات العالم الإسلامي الفريدة، التي تفتقر إليها الدول الكبرىٰ في حركتها الاقتصادية، وفي مقدمتها مصادر الطاقة الكبرىٰ كالنفط وأمثاله، وذلك من خلال إنشاء وتقوية المنظمات التي تُعنىٰ بذلك، ومنع هيمنة قوىٰ النفوذ الاستكبارية علىٰ مقررات الدول الأعضاء فيها، كمنظمة الأوبك، ومجموعة دول بحر الخزر وما يقابلها.

٧ ـ الكفاح المتواصل من أجل تثبيت مبدأ المصالح المتبادلة بين كافة الدول والشعوب، وبكامل الحرية والاستقلال في اتخاذ القرار والسياسة التي تقوّمها.

٨ ـ التأكيد علىٰ الهوية الثقافية والاجتماعية في مجالات الإعلام والثقافة والتربية والفنون، لكل المجتمعات والشعوب المستضعفة في العالم، وخصوصاً الإسلامية منها، والانفتاح علىٰ الآخرين في إطار مبدأ الحوار الحضاري، بعيداً عن روح الهيمنة والتحميل والقهر.

٩ ـ التأكيد علىٰ مبدأ الاستقلال السياسي وحق تقرير المصير للشعوب والأمم، ورفض كل صور التدخل الاستكباري في شؤون تلك الشعوب والأمم، والتزام سياسة الاحترام المتبادل في العلاقات الخارجية معها.

١٠ ـ طرح القدوة الميدانية الرائدة في الساحة الدولية، والنموذج المبدئي الفريد، المتمثل بالثورة الإسلامية ونظامها الإسلامي المقتدر في إيران، في

استقلالها الحقيقي وحريتها وعزتها وبنائها لذاتها، ورفضها لكل صور الاستكبار مهما كانت التحديات والتضحيات؛ وذلك لتخرج الشعوب والأمم والدول الأخرىٰ بشجاعة وإقدام؛ من دائرة الخوف والخنوع إلى ميدان المواجهة والتحدي؛ لإجهاض هذه الجولة الاستكبارية ودحرها عن ديارها.

هذه هي خلاصة القول في المسألة الأولى «جذور العولمة وحقيقتها».

العولمة ومقولة المصير المحتوم

وهي مقولة مفادها أن العولمة مصير محتوم لا مفر منه، لأن طبيعة التطور الهائل في الواقع المدني للعالم سيفرز هذه العولمة واقعاً حتمياً، لا يمكن التنصل عنه. ولم يكتف الإعلام الاستكباري بالترويج لهذه المقولة والتنظير لها، بل إنّ كتّاباً ومفكرين من العالم الثالث ـ وفيهم بعض الإسلاميين ـ علىٰ هامش ذلك الإعلام بدأوا أيضاً بالتناغم مع هذه المقولة من خلال وجهها الطبيعي، غافلين عن وجهها الاستكباري المستتر وراءها.

إن نظرة البعض إلى العولمة أنها تعبير طبيعي عن تطور العالم وتقدمه؛ بمعزل عن السياسات والإرادة الاستكبارية للقوىٰ العالمية الكبرىٰ، تشبه إلى حدٍّ كبير نظرة من انخدع بالظواهر المدنية الغربية التي غزت العالم في مطلع القرن العشرين، خصوصاً بلدان الشرق الإسلامي منه، حيث انقاد الكثير منهم لها؛ دون أن يدركوا أنها كانت الوجه الظاهري لحركة استكبارية، استهدفت السيطرة علىٰ العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

وعليه، ومن أجل تبسيط وتقويم مقولة حتمية العولمة، ومناقشة القائلين بها، لابد لنا من التفكيك والتفصيل، ولو نظرياً، بين أمرين في هذه العولمة المطروحة، وهما:

الأمر الأول: العولمة كحالة طبيعية يفرضها التطور التقني في وسائل

الاتصال في العالم، والتقدم الهائل في القدرة علىٰ التبادل والتفاعل بين شعوبه ومجتمعاته ودوله.

هذا الوجه من العولمة لو خلّي وسبيله، كأمر طبيعي يعبر عن محصّلة للتفاعل الاقتصادي والثقافي بين مفردات المنظومة العالمية؛ لكان مطلباً حضارياً، تنشده كل الأمم والشعوب وتسعىٰ إليه، بل تتسابق فيما بينها لتحصل علىٰ أكبر نصيب وأوفر حظٍ من التقدم والرقي الذي يَتمخض عنه. ونقصد من قولنا أن تُخلّىٰ هذه العولمة وسبيلها الطبيعي؛ أن تتم بصيغتها وأساليبها القائمة علىٰ القيمة الموضوعية لكل مفرداتها، علىٰ أساسٍ من الاحترام المتبادل للقيم والعقائد بين أطرافها، معتمدةً نهج الحوار الهادف في محتوىٰ حضاراتها دون استكبار وهيمنة من قوة، تدعي وصايتها علىٰ الآخرين، ودون سلب للحقوق والثروات، ونزع للاستقلال والحرية من أحد.

إلّا أن العولمة كنهج طبيعي محايد، وكحالة حضارية متوازنة، خيال لا واقع له في الحالة العالمية المعاصرة. فلو أردنا أن نأخذ العولمة الاقتصادية مثلاً؛ لوجدنا أنها تتكون من مجموعة عوامل ومفردات اقتصادية متحركة علىٰ شكل قوىً ومجموعات كبرىٰ، مجهّزة بأحدث التكنلوجيا المتطورة المنحصرة بها، ومن الطبيعي أنها ليست ممتلكات بلا مالك، ومستثمرات بلا مستثمر، بل هي خاضعة لإرادة مالكها وقرار مستثمرها، ومن ثم فإن النهج والطريقة التي ستتحرك وفقها هذه القوىٰ والمجموعات، ستكون طريقة ونهج المالك والمستثمر، صاحب القدرة والقرار، ولو ترجمنا ذلك علىٰ أرض واقعنا الفعلي؛ لوجدنا أن الاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية قد وضع يده علىٰ المفاصل الأساسية لذلك، فهو يَتحكم بأكبرها امتداداً، وأعظمها تجهيزاً وقدرة، ويهيمن بواسطتها علىٰ اقتصاديات العالم، ويسعىٰ بكل قواه

وإمكانياته لبسط المزيد من سيطرته علىٰ منابع الطاقة، ومراكز التقنية الكبرىٰ للتصنيع الاستراتيجي والتجارة العالمية، ودوائر حركة المال وتداوله؛ فكيف يمكننا إذن تصور حالةٍ من العولمة طبيعية ومتوازنة مع كلّ ذلك؟

الأمر الثاني: العولمة كوجه آخر للاستعمار بطريقته الحديثة، وهي بتعبير آخر جولة جديدة للاستكبار، تستهدف احتواء العالم، وإسقاط تمنّعه عن الاستكبار العالمي الذي هيّأ كلّ المقدمات، ووضع كل ما يملك من إمكانيات لتحقيق القيادة الشاملة للعالم، والهيمنة علىٰ مقدراته الاقتصادية وتوجهاته السياسية والثقافية.

ولو أردنا أن نكشف الستار عن هذا الوجه من العولمة ـ في جانبه الاقتصادي كنموذج ـ لعرفنا الحقائق التالية:

١ ـ إن دول العالم اليوم منقسمة إلى دول مستضعفة وأُخرىٰ نامية وثالثة قوية مستكبرة.

٢ ـ إن الدول المستضعفة، بل النامية أيضاً، لا تستطيع عادةً أن تدخل في جولة العولمة الاستعمارية إلّا بمدخل الضعف، ووفق شروط القوىٰ المستكبرة.

٣ ـ إن مجموعة الدول القوية المستكبرة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، تسعىٰ بكل قدراتها لتحويل العالم إلى سوق اقتصادية واحدة، محكومة بقوانينها وخططها الاستراتيجية؛ وما التنافس الحاصل بين بعضها والبعض الآخر، كالذي بين روسيا وأوربا من جهة والولايات المتحدة الأميركية من جهة أخرىٰ، إلّا من أجل الحصول علىٰ أوفر حصة من هذه السوق الاقتصادية، والسعي لاستقطاب أكبر عدد من دول العالم حولها.

٤ ـ إن من لوازم العولمة الاستعمارية هذه هو تعريض دول العالم المستضعف إلى الإنهاك السياسي، والمسخ الآيديولوجي، ومن ثم إلى فقدانها

للاستقرار والاستقلال والهوية الذاتية؛ لتتحقق بذلك أرضية العولمة الرأسمالية للاستعمار الجديد.

٥ ـ بناءً علىٰ ذلك سنجد دول العالم المستضعف والنامي أنها ستنقسم إلى قسمين رئيسيين في موقفها من العولمة الاستعمارية، وهما:

القسم الأول: دول انهزامية، لا تجد لنفسها القدرة الذاتية علىٰ الوقوف بوجه هذه العولمة الرأسمالية لدول الاستعمار الحديث، وستبرر ذلك وتنظّر له بأنها أمام أمر محتوم، وقَدَر لا يمكن الفرار منه.

القسم الثاني: دول صمود، تتحدىٰ تيار هذه الجولة الاستكبارية الجديدة، وتجد في نفسها القدرة الذاتية علىٰ الوقوف والثبات لتحقيق عوامل البناء الذاتي والاستقلال، والتطور الاقتصادي علىٰ المدىٰ البعيد، رغم التضحيات الآنيّة التي قد تقدمها جرّاء موقفها هذا. ونجد أن الجمهورية الإسلامية في إيران تمثل النموذج الفريد، والقدوة الكبرىٰ لهذا القسم من الدول.

بقي علينا أن نؤكد الحقيقة التالية، وهي: أن تصوير العولمة الاستعمارية بأنها قدر محتوم، بما تخفي وراءها من نوايا استكبارية خبيثة، هو خدعة لا تنطلي علىٰ الأمم والشعوب الواعية، وأنها ستخوض صراعاً مريراً من أجل الوقوف أمام هذه الجولة الاستكبارية الجديدة، كما وقفت من قبل أمام الجولات الاستكبارية السابقة بقوة واقتدار.

إن إباء الأمم والشعوب الرسالية الواعية، ورفضها لخطط العولمة الاستكبارية، بما تملك من ثقافة أصيلة وثروات اقتصادية كبيرة، وقدرة علىٰ اتخاذ القرار السياسي المستقل؛ لا يعني انعزالها عن العالم، فهذا أمر غير واقعي

وليس ممكناً، بل إنها عندما ترسم نهجها الاقتصادي مثلاً، يجب أن تراقب حركتها الاقتصادية في مستوىٰ وطبيعة علاقته بالاقتصاد العالمي، وأن تضع لنفسها خطوطاً حمراء لا تتجاوزها؛ فتسقط أمام القدرات الاقتصادية الاستكبارية، وكما يصدق هذا في المجال الاقتصادي يصدق أيضاً في المجالين الثقافي والسياسي.

وإذا عرفنا أن خير أمة أُخرجت للناس من بين الأمم، وأعظمها أصالة فكرية وسياسية هي الأمة الإسلامية: **﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**(١)، فسنجدها المصداق البارز، بل المنفرد للأمة المتمنعة عن الاستكبار وجولاته المتوالية، فبأفضليتها الرسالية، وأصالتها الفكرية والسياسية، وما تملكه من مواقع جغرافية وثروات اقتصادية كبرىٰ؛ ستحقق الامتناع الذاتي، والصمود أمام أية جولة استكبارية، مهما كانت مقتدرة ومتطورة، بل إن الشمولية والواقعية والتكامل الفريد الذي تمتاز به أطروحتها الإسلامية للحياة، ستُظهرها علىٰ كل الأطروحات الوضعية المتداولة في عالم اليوم، لتناغمها مع طموحات البشرية وآمالها، في إزهاق الباطل وإزالة الفساد والظلم، وإحقاق الحق وإقامة العدل في الأرض: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون﴾**(٢). **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله وكفىٰ بالله شهيداً﴾**(٣). **﴿وإذ يعدكم الله إحدىٰ الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر**

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) التوبة: ٣٣، والصف: ٩.

(٣) الفتح: ٢٨.

الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[١].

وسوف لن نجد أرضية ومناخاً صالحين للعولمة بوجهها الإنساني النزيه، وبُعدها الحضاري المتوازن، إلّا في ظل الأطروحة الإلهية المتمثلة بالإسلام خاتم الرسالات السماوية وكمالها المنشود، وهو القائم علىٰ أساس المنطق العقلي والفطرة السليمة، والنهج الواقعي المنزّه عن جميع صور الاستكبار الإنساني والظلم والفساد: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّٰه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٢].

إن هذه الأطروحة هي التي ستؤول إليها البشرية من خلال مخاضاتها المتوالية، وحركتها الواصبة نحو الحق والعدل والسعادة، وستساهم عوامل العولمة الطبيعية في تحقق ذلك، فيصدق قوله تعالىٰ: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[٣]، ويفي الوعد الإلهي بظهور المصلح المنتظر (عج)، ويتحقق الإصلاح الأكبر للبشرية علىٰ يديه، فتُملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وهو الحق في قوله تعالىٰ: **﴿ونريد أن نمنّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**[٤].

* * *

---

(١) الأنفال: ٧ ـ ٨.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) الأنبياء: ١٠٥.

(٤) القصص: ٥.

حوار الحضارات أم صراع الحضارات؟!

إن التوجه العام، الذي بدأ يلوح في الأفق الفكري والثقافي للأمم والمجتمعات في مختلف أنحاء العالم المعاصر، نحو المطارحات الفكرية والثقافية في إطار ما سمي مؤخراً بحوار الحضارات، كانت له جذورٌ وارهاصاتٌ، أفرزته كمقولة، دون أن نلحظ له حقيقة واقعية، لا في النوايا ولا في الممارسات، باستثناء طرف المنظومة الإسلامية الرسالية، وعلىٰ رأسها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث بقي الطرف الآخر المتمثل بالمنظومة الغربية الاستكبارية بزعامة أميركا والصهيونية، تُحكم من سيطرتها الثقافية والإعلامية، وتنحو بالشعوب والأمم المحكومة لها نحو التعصب السلبي والنظرة العنصرية المتشنجة، ولا تسمح بتكوّن أجواء الانفتاح السليم للتلاقح الثقافي، والحوار الصادق في أوساطها، بل تسوقها من خلال تحديث خططها وبرامجها المزدوجة بباطن الصراع، والنفي للآخر وظاهر الحوار البرّاق، نحو صورة جديدة من صور صراع الحضارات بلباس الحوار الخادع.

ولو استعرضنا سير الأحداث في الربع الأخير من القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين لاتضح لنا صحة هذه الحقيقة.

إن من أبرز تلك الأحداث المتوالية التي أفرزت أوضاعاً واتجاهات جديدة في التماسّ والتزاحم (سلباً وإيجاباً)، بين الحضارات المعاصرة، وكشفت عن النوايا والحقائق الواقعية لدىٰ حملة ألويتها هي:

أولاً: بروز مخطط استكباري منظّم وشامل لقوىٰ الصهيونية العالمية النافذة في مركز القرار الأميركي، وكثير من حكومات دول أوربا، بل وحكومات بعض الدول الإقليمية يهدف إلى تطويع وتطبيع دول منطقة الشرق الأوسط في عملية تثبيت إسرائيل المتكاملة جغرافيا وبشرياً والمقتدرة عسكريا وسياسياً واقتصادياً وتقويتها باستمرار؛ كقاعدة استراتيجية في قلب العالم الإسلامي، وذلك من خلال الشروع بما يسمىٰ باتفاقية السلام، والتي كانت أولىٰ خطواتها المعلنة هي اتفاقية كامب ديفيد بين إسرائيل ومصر في عهد أنور السادات.

ثانياً: الانتصار العظيم للثورة الإسلامية الرائدة في إيران، وإعلان أول دولة حديثة تقوم علىٰ أساس الإسلام المحمدي الأصيل.

ثالثاً: صحوة الأمة الإسلامية وحركتها نحو إبراز هويتها الإسلامية، والتحرر من الاستكبار في أشكاله الثقافية والسياسية والاقتصادية، وبروز حركات إسلامية ثورية علىٰ سطح الميدان السياسي والجهادي، كحزب اللّٰه في لبنان وحركتي حماس والجهاد في فلسطين، وحركات إسلامية في الجزائر والعراق ومصر وأمثالها.

رابعاً: انفتاح العالم اللاإسلامي علىٰ الإسلام بأُفقه الشامل والسعي للتعرف علىٰ معالم أطروحته لبناء الإنسان والمجتمع والدولة.

خامساً: التحرك الاستكباري المحموم إعلامياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً؛ لاحتواء الثورة الإسلامية وآثارها الجذرية في العالم الإسلامي وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط.

وكان أبرزها فرض الحصار السياسي والاقتصادي علىٰ الجمهورية الإسلامية في إيران، ودفع النظام العراقي لشن حرب عدوانية شاملة عليه،

دامت حوالي ثماني سنوات؛ وكذلك إسناد وتبني حركات المنافقين المسلحة داخل الجمهورية الإسلامية في إيران؛ لشن حملات التصفية الجسدية لقادة الثورة ورجالها المخلصين، والعمل علىٰ إسقاط نظامها الإسلامي. وتعبئة دول المنطقة؛ وخصوصاً دول الجوار علىٰ الحذر من إيران الإسلام، وتصويرها بأنها تنتهج سياسةَ تهديد خطرة للأمن والسلام في المنطقة والعالم الإسلامي، ودفع وسائل إعلامها لاختلاق أجواء سوء الظن، والتهمة للنظام الإسلامي في مختلف جوانب التماس والتعامل.

سادساً: انهيار المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي، وتفكك جمهورياته واستقلالها، وقيام مجموعة دول، ذات الغالبية الإسلامية في آسيا الوسطىٰ، وانتهاء حقبة الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي.

سابعاً: بسبب الآثار التي تمخضت في المنطقة والعالم المذكورة أعلاه؛ بدأ العمل علىٰ وضع وتنفيذ المخطط الاستكباري بقياده أميركا وحلفائها الأوربيين؛ لإعادة توضيب أساليب وأنظمة السيطرة وإحكامها علىٰ مناطق العالم الإسلامي، (منطقة الشرق الأوسط، منطقة آسيا الوسطىٰ، منطقة جنوب شرق آسيا، مناطق شمال وجنوب أفريقيا... الخ)، وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط الكبير في إطار الخطوات التالية:

الخطوة الأولىٰ: تهيئة الأجواء السياسية والأرضية العملية والشروع بحرب إقليمية ثانية بين العراق وبعض الدول العربية في منطقة شبه الجزيرة العربية، وذلك بعد الحرب العدوانية للعراق علىٰ إيران، وقد سميت بحرب الخليج الثانية، وكان من أبرز أهدافها:

١ ـ خلق الأرضية النفسية والإعلامية إقليمياً، وإيجاد الغطاء القانوني دولياً

لعسكرة القوات الأميركية، وقوات حلفائها في منطقة الشرق الأوسط، وخصوصاً في دول منطقة شبه الجزيرة العربية. وذلك من خلال اختلاق بؤرة خطر دائمة؛ تمثّلت بالنظام العراقي الذي احتل الكويت وضمَّها إليه بالقوة، والتلويح المستمر بضرب دول شبه الجزيرة العربية الأخرىٰ، وما أعقبها من مسرحيات تحرير الكويت؛ وإيجاد خطوط عرض محرّمة علىٰ الطيران العراقي في شماله وجنوبه؛ وإزالة الأسلحة العراقية المدمِّرة؛ والنفط مقابل الغذاء والدواء، وصلاحيات لجان التفتيش التابعة للأمم المتحدة... وغير ذلك.

ولعل من أبرز الأسباب التي ألجأت أميركا وحلفاءها لاختيار النظام العراقي الحاكم كبؤرة خطر جديدة في المنطقة هي:

أ ـ ثبات النظام الإسلامي في إيران، ونجاح سياسته الخارجية، وخصوصاً في المجال الإقليمي لتخفيف حدّة التوتر في المنطقة، ومدّ جسور التفاهم وحسن النية مع دول المنطقة؛ مما جعل المقولة الأميركية بالخطر الإسلامي الإيراني الذي يهدد دول المنطقة، يفقد مصداقيته السياسية والإعلامية.

ب ـ تراكم كمٍّ هائل من الأسلحة الاستراتيجية المدمِّرة في خزانات الأسلحة العراقية وهو خطر بحد ذاته، قد يخلّ بحسابات الاستكبار في المنطقة لو فقدت السيطرة عليها بسبب أو آخر. الأمر الذي اقتضىٰ دفع النظام العراقي لارتكاب حماقة عسكرية تكون، عاملاً مباشراً في جانب، وغير مباشر في جوانب أخرىٰ لتحقيق أهداف المخطط الأميركي في المنطقة.

ج ـ إيجاد حالة من التكافؤ والموازنة السلبية في حكاية الخطر المزعوم بين النظام العراقي والجمهورية الإسلامية في إيران؛ بهدف تضخيم دعوىٰ الخطر، ومن ثم تطبيق ما تسميه أميركا بسياسة الاحتواء المزدوج لكلا النظامين؛ للحفاظ علىٰ أمن المنطقة والتوازن الإقليمي فيها.

د - استنفاذهم الغرض المرحلي من النظام الحاكم في العراق، وضرورة إيجاد نظام بديل ملفق من نموذجي نظام الحكم في أفغانستان بعد سقوط نظام طالبان، والنظام العلماني الحاكم في تركيا، ومن ثم تشكيل تحالف إقليمي، يطوّق مركز منطقة الشرق الأوسط، ويشمل كلاً من تركيا والعراق ودول منطقة شبه الجزيرة العربية؛ لعزل الجمهورية الإسلامية في إيران عن تلك المنطقة؛ بهدف حماية دويلة إسرائيل، وليتكامل مخطط عزل إيران الإسلامية غرباً وشرقاً.

٢ ـ إحكام أميركا وحلفائها السيطرة المباشرة علىٰ منابع البترول في دول المنطقة العربية في الشرق الاوسط، باعتبارها جزءاً من الدائرة الاستراتيجية للأمن القومي الأميركي ـ حسب المبدأ المعروف بمبدأ كارتر ـ من خلال التواجد العسكري الواسع في إطار عقد معاهدات وتحالفات عسكرية مع الدول العربية في المنطقة.

٣ ـ العمل من خلال أجهزة الاستخبارات التي ترافق عادة القوات العسكرية المتواجدة في المنطقة علىٰ إحكام الوضع الأمني فيها، وامتلاك قدرة أكبر في حياكة المؤامرات، وتوفير عوامل تنفيذ المخططات الاستكبارية بدقة واقتدار.

٤ ـ إيجاد حالة من العداء السافر، والاختلاف الحادّ بين دول المنطقة؛ التي انقسمت إلى مؤيد للنظام العراقي، أو مشارك له في غزوه للكويت بشكل أو بآخر، ومعارض له أو مشارك لردعه عسكرياً؛ الأمر الذي شتت أوصال الدول العربية، وأفقدها إجماعها الإيجابي في القضايا المصيرية، وخصوصاً قضية فلسطين والقدس الشريف.

٥ ـ من خلال دخول منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مساند، ومشارك

أحياناً للعراق في عدوانه علىٰ الكويت، فقد الفلسطينيون وجودهم المعنوي والسياسي، بل وحتىٰ السكاني في الكثير من الدول العربية، وخصوصاً دول منطقة شبه الجزيرة العربية، كما أنّ هذه الدول خفضت مساعداتها المالية للفلسطينيين ومنظماتهم الرسمية؛ وبذلك تهيأت الأرضية المناسبة للدخول في مفاوضات سلام بين دويلة إسرائيل المدعومة استكبارياً، ومنظمة التحرير الفلسطينية المجردة من الإسناد والدعم وبالشروط والاقتدار الإسرائيلي.

الخطوة الثانية: إعادة بناء مشروع ما يسمىٰ بالسلام مع الكيان الصهيوني الغاصب، وتقديم أطروحة جديدة تأخذ بنظر الاعتبار المستجدات الحاصلة في الواقع الإقليمي والعالمي، وشاملة تستوعب جميع الفعاليات السياسية والاقتصادية للبلاد العربية، أنظمة ومنظمات عربية وفلسطينية، بهدف تكريس الوجود الإسرائيلي، وتمكينه من الهيمنة علىٰ دول منطقة الشرق الأوسط، والاستحواذ علىٰ مقدراتها وثرواتها الغنيّة، واحتواء وإجهاض محاولات أسلمة القضية الفلسطينية، والقضاء علىٰ محاور وقوىٰ الحركة الشعبية لتحرير فلسطين، علىٰ أساس مقولة الجهاد؛ باعتباره أصلاً من أصول التشريع الإسلامي في التعامل مع الكافر الحربي، الغاصب لأرض المسلمين ووجودهم.

الخطوة الثالثة: عقد اتفاقيات عسكرية وأمنية جديدة بين أميركا وأوربا من جهة، ومع العديد من دول المنطقة الإسلامية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وبعض دول شبه القارة الهندية، وآسيا الوسطىٰ وغيرها من جهة أخرىٰ؛ بل والتدخل العسكري المباشر وتغيير أنظمة وإبدالها بأخرى تخدم بشكل كامل الأهداف الاستراتيجية للغرب بقيادة أميركا، كالذي حصل في

أفغانستان والمترقب حصوله في العراق، وذلك بهدف مواجهة ما يسمونه بالأصولية الإسلامية وتطلعاتها، لإقامة الحكومة الإسلامية علىٰ هدي ونهج الثورة الإسلامية في إيران.

وقد ازدادت فعّالية أميركا وحركتها المحمومة في توسيع وتأكيد إبرام هذه الاتفاقيات بعد الانتصار الذي حققه الإسلاميون في الانتخابات الجزائرية، وخوضهم جهاداً متواصلاً ضد الحكومة العلمانية في الجزائر؛ لإقرار حقهم في إقامة الحكومة الإسلامية، وكذلك نجاح المسلمين الأفغان في طرد الاستعمار الروسي من بلادهم وإسقاط النظام الماركسي في أفغانستان وإعلانهم أنهم يعملون علىٰ إقامة نظام إسلامي بديل عنه ، ومن ثم محاولة السودانيين إقامة الحكومة الإسلامية في بلادهم. وكذلك اتساع وتصعيد حركة المطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية وإقامة الحكومة الاسلامية في الكثير من بلدان العالم الإسلامي كالسودان ومصر والعراق والأردن ودول شبه الجزيرة العربية وتركيا، وبعض دول شبه القارة الهندية، وآسيا الوسطىٰ وجنوب شرق آسيا.

كما إن لبروز واتساع حركات حزب اللّٰه الشعبية في العالم الإسلامي، كالتي في لبنان وفلسطين أثراً أساسياً في إحكام وسرعة عقد هذه الاتفاقيات؛ لما تشكله هذه الحركات الإسلامية الثورية من عقبة كؤودة أمام المخططات الاستكبارية والصهيونية في العالم الإسلامي، وتهديد خطير لمصالحهم الاستراتيجية في المنطقة الإسلامية.

الخطوة الرابعة: مواجهة المد الإسلامي العالمي؛ بهدف تحجيم وشلّ فاعليته الثقافية والحركية كأطروحة، ورسالة للحياة، أخذت الإنسانية في الانفتاح عليها في أنحاء العالم المختلفة ـ بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران ـ ومحاولة التعرف علىٰ معالمها الفكرية والثقافية، خصوصاً بعد بروز

حركة واعية وهادفة في أوساط المسلمين الأوربيين والمهاجرين في الغرب، وتنامي الحس الإسلامي في بلدان المسلمين، وتوق شعوب آسيا الوسطىٰ لإبراز هويتها الإسلامية الأصيلة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط الشيوعية فيه.

وقد أخذت هذه المواجهة مسارات مختلفة كان من أبرزها شن حملة ثقافية وإعلامية مبرمجة لإسقاط هيبة الإسلام، والاستخفاف بمقدساته وشعاراته المتميزة؛ لعزل المسلمين اجتماعياً وسياسياً، ومحاصرتهم بألوان التهم والافتراءات، وكذلك العمل علىٰ إيجاد جوّ من الإرهاب الأمني، وخلق حالة سلبية حذرة لدىٰ المجتمعات الغربية من المسلمين، ومراكزهم الدينية ونشاطاتهم الإسلامية للحد من حيويتها وخنق حركتها، خصوصاً بعد بروز ظاهرة الإقبال على الإسلام، واعتناقه في أوساط المجتمعات الأوربية وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م الغامضة في أمريكا لتكون أرضية نفسية وسياسيّة لتقنين هذه المواجهة، ومحاولة تدويلها أوربيا وعالمياً.

ومن مسارات المواجهة للمد الإسلامي أيضاً التحرك الميداني الواسع علىٰ كافة الأصعدة والأبعاد؛ لاحتواء شعوب ودول آسيا الوسطىٰ التي استقلت حديثاً بعد انهيار منظومة الاتحاد السوفياتي؛ وذلك لعزلها عن باقي الشعوب والدول الإسلامية، والحد من درجة تأثرها بالصحوة الإسلامية وحركتها الثورية الهادفة لنشر ثقافة الإسلام، والدعوة إلى إيجاد دعائم تطبيقها وإرسائها في بلدانهم. وفي هذا السبيل اندفعت دوائر الاستكبار لدعم وتشجيع الحركات القومية والعنصرية، واختلاق صور من الصراع العرقي والطائفي فيما بين بعض دولها والبعض الآخر، ودفع ودعم الأحزاب والجماعات العلمانية الموالية لها؛ للإمساك بزمام السلطات وإدارة دفة الحكومات في بلدانهم،

وعزل القوىٰ والجماعات الإسلامية النامية فيها، ومنعها من أداء أيّ دور حركي أو نفوذ سياسي في مواقع السلطة وأوساط القرار.

إن هذه المستجدات العالمية أفرزت واقعاً جديداً علىٰ صعيد نظام العلاقات الدولية، وعلىٰ صعيد توازن القوىٰ العالمية الكبرىٰ من جهة، وعلىٰ صعيد تطلعات الشعوب والأمم، وفاعلية الحركات الرسالية الرائدة في أوساطها من جهة أخرىٰ. وكان من لوازم هذا الواقع الجديد إبراز مقولات ودعوات من شأنها أن تعيد بل تكرس نفوذ القوىٰ الاستكبارية، وتضمن المزيد من مصالحها الاستراتيجية، كما تمكّنها من احتواء تطلعات الشعوب والأمم التي استنقذتها حركة الصحوة الإسلامية أو التحررية، وتدمير رغبتها الشديدة في الاستقلال وإبراز هويتها وبناء ذاتها. ومن أبرز تلك المقولات المطروحة الدعوة المعسولة للحوار بين الحضارات، ولكن بطريقتها الاستكبارية، أي أن يكون طرفها الأول حَمَلَة حضارة من موقع الاستكبار، وطرفها الثاني حَمَلَة حضارة من موقع الاستضعاف.

ونحن هنا في الوقت الذي نعتبر فيه الحوار بين الحضارات أصلاً أولياً ومنهجاً مبدئياً أرشد إليه القرآن الكريم، واعتمده الإسلام في الدعوة إليه؛ نرفض ـ كما يرفض العقل السليم والوجدان الصادق ـ أن يكون الحوار من موقع التحميل والاستكبار، بل لابد من توفر شروطه الموضوعية والإنسانية والسياسية بعيداً عن منطق القهر والاستضعاف؛ لذا نجد أن الواقع العالمي اليوم قد تبلورت فيه ـ في إطار مقولة الحوار بين الحضارات ـ الحقائق التالية:

أولاً: بروز إرادة حقيقية صادقة نحو الحوار السليم بين الحضارات العالمية المختلفة، تقوده المنظومة الإسلامية وفي مقدمتها تيار العلماء الواعين والمفكرين الرساليين، والتي عملت علىٰ تجنيد كل القوىٰ الواقعة تحت نفوذها

لخوض غمار حوار هادف بين الأطروحة الإسلامية بكل أبعادها الحضارية، وبين الحضارات الأخرىٰ المطروحة في عالم اليوم.

ثانياً: إن أغلب الشعوب والأمم علىٰ اختلاف انتماءاتها الثقافية والحضارية أخذت تشرئبُّ نحو مزيد من الانفتاح للتعرف علىٰ الآخر ـ فكراً ومنهجاً ونظاماً ـ يدفعها في ذلك شعورها بالإحباط واليأس مما هي عليه من ضياع وتناقض وفساد، إضافة إلى حبّها للاطلاع ومعرفة حقيقة الحضارات الأخرىٰ التي تلوّح للبشرية بالخلاص والسعادة.

ثالثاً: إن العقبة الكؤود أمام حركة الشعوب والامم، باتجاه الحوار والتفاعل الفكري والثقافي بروح البحث عن الحقيقة والوصول إلى الحق والصواب، هي قوىٰ الاستكبار المتحكّمة بمقدرات أكثر شعوب العالم واممه، وفي مقدمتها أميركا وصنيعتها إسرائيل، ومن ورائها قوىٰ الصهيونية العالمية وأدواتها النافذة، في عمق الأجهزة الحاكمة في أوربا، وبعض دول العالم الثالث. وما لم تتحرر هذه الشعوب والامم بشكل أو بآخر من ربقة هذه القوىٰ المستكبرة، وتخرج من أسر عبوديتها إلى رحاب الحرية الإنسانية؛ فإن سداً منيعاً سيبقىٰ يحول بينها وبين الوصول إلى جوهر وحقيقة الحضارات الاخرىٰ ومن ثم معرفة الحق والصواب من بين ذلك.

أما الدجل الذي تمارسه هذه القوىٰ الاستكبارية في رفع شعار الحوار الثقافي، من خلال ما يُطلقه بين الفينة والاخرىٰ قادتها السياسيون ووسائل إعلامها، ما هو إلّا غطاء وستار تستر به نواياها الخبيثة وإرادتها الإجرامية لإرضاخ ونفي الآخرين، وخصوصاً المنظومة الإسلامية الأصيلة، التي تحمل لواء تحرير الإنسانية من نير الاستكبار والظلم، والسير بها نحو الحق والعدل

حيث السعادة الحقيقية.

وإلّا، فكيف تنسجم دعوة هذه القوىٰ الاستكبارية للحوار مع ممارساتها وسعيها المتواصل لتدمير الآخرين؟

فهل يصب في الدعوة للحوار الصادق إسناد ودعم حرب مدمرة، شنها النظام العراقي علىٰ الجمهورية الاسلامية في إيران، دامت حوالي ثماني سنوات، دمّرت العشرات من المدن، وشرّدت وقتلت وجرحت الملايين من المسلمين الأبرياء؟

وهل يحقق أرضية الحوار السليم إسناد دويلة مختلقة، ودعمها عسكرياً وسياسياً وإعلامياً واقتصادياً، وفرضها بالقوة والقهر في أرض المسلمين فلسطين بعد تشريد أهلها، واستقدام مجاميع عنصرية من شذاذ الآفاق من مختلف أنحاء العالم، واختلاق أزمات سياسية واقتصادية في بلدانهم، وإلجائهم للهجرة إلى أرض فلسطين المغتصبة، وتشكيل دويلة منهم مدعومة بجيش إرهابي مسلح بأحدث أنواع الأسلحة العصرية الفتاكة، يلوّح بعصاه الغليظة لترويض المسلمين الفلسطينيين، وإرهابهم والتنكيل الوحشي بهم بحرق مدنهم وقراهم والتصفية الدمويّة العنصرية لهم، وبدول وشعوب المنطقة الإسلامية، واغتصاب أراضٍ جديدة منهم، وإرغامهم علىٰ التسليم والخضوع لسلطتهم وسياساتهم العنصرية وبرامجهم الاستكبارية في المنطقة؟

وهل من الحوار والانفتاح الثقافي العمل على مجيئ نظام عسكري دموي في الجزائر؛ بعد فوز الإسلاميين في الانتخابات البرلمانية، وإسناده سياسياً وإعلامياً واقتصادياً؛ ليقود حملات الذبح المرعبة التي طالت عشرات الآلاف من المسلمين الجزائريين أمام مرأىٰ ومسمع دول الحضارة العلمانية والمدنية الأوربية، من دعاة حقوق الإنسان دون أي رادع ومانع؟.

وهل من الحوار الحضاري رعاية حرب الإبادة العنصرية، والتصفية الدموية للمسلمين في البوسنة والهرسك علىٰ الرغم من كونهم مصنفين ضمن منظومة الشعوب الأوربية؟.

وهل من مقدمات الحوار الذي تنادي به دول الاستكبار عسكرة قواتها المدججة بالأسلحة المدمرة في الدول العربية من منطقة الشرق الأوسط، وسلب أمنها والسيطرة علىٰ ثرواتها، وحبك المؤامرات لسحق إرادة شعوبها وإرضاخهم لسطوة عملائها؟

وهل من مفردات الحوار الحضاري المناورة الازدواجية مع نظام صدام حسين بإطالة عمر طغيانه؛ لإطالة مبررات ضخ المزيد من أساطيل أميركا وحلفائها، وتقوية قواعدها العسكرية، ولو كان ذلك بتجويع شعب العراق المسلم، وفناء مئات الآلاف من الأطفال وغيرهم مرضاً وجوعاً، وتشريداً وتعذيباً، وقتل مئات الآلاف من أبناء العراق المجاهدين ثم العمل على إيجاد بديلٍ عميل جديد يخدم المرحلة الجديدة من مخططهم الاستكباري الخبيث فى المنطقة؟

وهل أن مسار الحوار الحضاري المزعوم يقتضي فرض الحصار الاقتصادي علىٰ الجمهورية الإسلامية في إيران، وتشريع القانون المسمىٰ «داماتو»؛ لإرغام بقية دول العالم وخصوصاً الدول الأوربية، وإرضاخها للمشاركة في هذا الحصار وإحكامه لتدمير بلدٍ وإرهاب شعب تدعوه للحوار؟

ونفس السؤال يتكرر حول فرض الحصار الاقتصادي والسياسي علىٰ السودان وتشجيع وتدعيم المنشقين عن نظامها، وتأليب دول الجوار عليها، لتخرج من دائرة القرار الإسلامي المستقل إلى الرضوخ للقرار الاستكباري والتبعية له.

وهل من برنامج حوارهم المنشود إعلان أن دفاع الشعوب عن حريتها واستقلالها يعدُّ إرهاباً يجب مواجهته دولياً، والقضاء عليه كدفاع حزب الله في لبنان، والحركات الإسلامية الفلسطينية عن حرية واستقلال الشعبين اللبناني والفلسطيني في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، واغتصاب أراضيهم وهدر حقوقهم ومقدساتهم بالقوة والإرهاب؟

وهل حوارهم الحضاري يعني إسناد وتدعيم حركات متطرفة، اصطنعت على أيدي مخابراتهم لإدامة إراقة الدماء في أفغانستان، ومنع استقرار نظام إسلامي فيها، بل العمل علىٰ طرح صورة مشوَّهة للإسلاميين المجاهدين؛ من خلال هذه الحركات المتخلفة ثقافياً وحضارياً ثم جعلها مبرراً لغزو بلادهم عسكرياً، وإبادة الحرث والنسل فيها لتصبح أتعس بلدٍ في العالم المعاصر، وتنصيب حكومة الدمىٰ الأميركية علىٰ شعبها المحطّم؟

وهل يعدّ حواراً حضارياً تحريك دول الاستكبار صنائعها من العسكر المتعصبين للعلمانية الأتاتوركية ومحاصرة الحالة الإسلامية ومظاهرها الدينية، والتي كان أكثرها فظاظة وفظاعة، وتناقضاً، مع ضجيج شعار الديمقراطية المرفوع هو إزاحة حزب الرفاه الإسلامي من السلطة عن طريق تهديده بانقلاب عسكري ومن ثم حلّه دستورياً رغم كون هذا الحزب قد فاز بالأغلبية في البرلمان؛ من خلال انتخاب أكثر من ستة ملايين من أبناء الشعب التركي المسلم له؟

وهل من حوارهم الحضاري اختلاق الأزمات السياسية وزرع النعرات القومية والعنصرية، وتشجيع الصراعات الإقليمية بين دول آسيا الوسطىٰ ذات الغالبية الإسلامية؟

وهل هو حوارٌ أم أرضية حوار حضاري دعم المنظمات الإرهابية في الباكستان لإشعال الفتن الطائفية في هذا البلد المسلم، وزرع وتعميق حالة

الفرقة بين المسلمين؛ من خلال حمّامات الدم التي تقوم بها عصابات منظمة من صنيعة المخابرات الأميركية وعملائها في المنطقة بأسماء إسلامية مزوّرة؟.

وهل أن الدعوة للحوار الحضاري يجب أن تتم في موقع الاستكبار والهيمنة من طرف، والاستضعاف والخضوع من الطرف الآخر والذي من مصاديقه الأخيرة العمل علىٰ ضرب القدرة المالية والاقتصادية للبلدان التي تحاول التحرر من هيمنة دول الاستكبار، والاستقلال عنها ثقافياً وسياسياً واقتصادياً، كالذي قامت به منظومات المال والاقتصاد الاحتكارية لدول الاستكبار من إسقاط قيمة عملات النقد لدول شرق آسيا، مقدمةً لتدمير اقتصادها وتحطيم تكافلها واستقلالها ومعاهداتها الإقليمية وإخضاعها للإرادة الاستكبارية، وبذلك يكون حوارهم حوار المستكبر المهيمن مع المستضعف الخاضع؟

وهناك عشرات من علامات الاستفهام والتعجب الأخرىٰ، نترك للمتتبع الواعي استقصاءها من واقع الصراع، المتواصل الذي تؤجج باستمرار صورته السلبية قوىٰ الاستكبار، ومَن يدور في فلكها.

وعلىٰ الرغم من كل ذلك تبقىٰ دعوتنا أصيلة ومبدئية لحوار حضاري هادف؛ بشروطه الموضوعية والإنسانية والسياسية المتكافئة، إلّا أننا نرفض كل حوار من موقع الاستكبار، ومنطق القوة والإرهاب مهما كانت التسميات برّاقة وجميلة؛ لأنه خلاف الرشد والتكامل في مسيرة الإنسان والبشرية.

وهذا ما أرشد إليه القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: **﴿كيف يكون للمشركين عهدٌ عند اللّه وعند رسوله إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن اللّه يحبُّ المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمَّةً يُرضُونكم بأفواههم وتأبىٰ قلوبُهم وأكثرهم فاسقون﴾**[1].

---

(١) التوبة: ٧ ـ ٨.

قراءة في مصائد الاستكبار

تمهيد:

إن التجارب التأريخية البعيدة والقريبة، والتتبع الدقيق للأحداث المعاشة يدلّان علىٰ وجود عناصر غير منظورة، لها مدخلية ومركز ثقل في صنع الخارطة السياسية، كما ولها حظ وافرٌ وأساسي في تسلسل الأولويات في جدول الأعمال والمشاريع والخطوات، وأن دورها في حركة الواقع السياسي قد يكون حاسماً في حساب النتائج، فبقدر ما نوفق للوصول إلى العناصر غير المنظورة؛ نقترب من الواقع أكثر في تحليلنا لماهية الأحداث التي تدور حولنا أو ندور فيها.

ومن هنا تبرز لنا أهمية هذا النمط من الطروحات والأبحاث، لأنها تمثل محاولة إدراك الظاهرة عبر عدسة الواقع؛ لا من خلال الظواهر التقليدية التي لم تعد مجدية في مواكبة التطورات السريعة في عصرنا الراهن، ويبدو هناك إصرار أكيد وملفت للنظر من ذوي النزعة الاستكبارية علىٰ تركيز النظرات البالية وتصوير أبطالها كرجال فوق العادة، وكعمالقة لا يشق لهم غبار، وذلك بتسخير أخطر وسائل الدعاية اليوم لتحقيق هذا الهدف، فإنّ الإعلام له أثر كبير في تشويش الحقائق، والتلاعب بها يميناً وشمالاً، أو عكسها بشكل مقلوب أحياناً، ولذا فمن الطبيعي أن يكون الأصل هو التشكيك فيما يقوله الإعلام الاستكباري الرسمي أو الخاضع لمنهجه، بل ومن مقدمات الفهم الموضوعي أن لا نثق بالظواهر كل الثقة ما لم نصل إلى الأعماق، ونسبُر الأغوار، فقد نرىٰ

للقشّة التافهة بريقاً ولمعاناً أخّاذاً، وقد تبدو اللؤلؤة باهتة لا يلتفت إليها الناظر، فإن أردنا خوض البحر لابد وأن نعرف أبعاده وحالات المدّ والجزر فيه، وإلّا فستفاجئنا أمواجه، ويصعب علينا حينئذ تشخيص نقطة كينونتنا ووجهة إنسيابنا، وسنتيه في خضم التيارات العارمة، ونفقد القدرة علىٰ التمييز بين النقاط الساخنة عن النقاط الباردة.

ولا نبالغ إذا قلنا بأن لغة السياسة في المنطق الاستكباري ـ وإن شئت قلت: المراوغة والخداع ـ باتت اليوم من أصعب اللغات، ومن غير اليسير الإحاطة بكل مفرداتها والتواءاتها، إذ قد تخفىٰ بعض الحقائق حتىٰ علىٰ المحترفين السياسيين. وحديثنا هذا ليس مع هؤلاء، وإن كان ذلك يغيظهم إلى حد ما، إنّما حديثنا مع نوع من العناصر غير المنظورة، والتي يحرص المستكبرون علىٰ إغفالها، وإسقاطها من الحساب بنحو أو بآخر، ألا وهي الشعوب المظلومة التي تجسّد المادة الأساسية للثوابت والمتغيرات، بيد أن هذا العنصر رغم خطورته وأهميّته؛ يسعىٰ المستكبرون إلى إبعاده عن الأنظار وإبرازه بصورة القابل المحض للبرامج التي تحاك في المؤسسات الشيطانية والتي تنفّذ بواسطة الرموز العاملين فيها والمتحركين وفق إيحاءاتها، وإن الشعوب لا خيار لها إلّا الاستجابة والانصياع إن صحّ أنّ لها خياراً.

ولكن هذه الصورة الوهمية التي ألفناها والتي تواجهنا في كل يوم من خلال وسائل الإعلام الاستكبارية، والسائرة في ركابها، والتي قَولَبت طرز التفكير لدىٰ العموم، حان الوقت الآن لاكتشاف خرافيتها وتحديد مواطن الجدّ من الهزل فيها، واستجلاء الحقيقة التي طالما اُلقيت عليها الأستار. فقد أثبتت التغيرات المتلاحقة في الخارطة السياسية اليوم أن الشعوب هي العنصر الفاعل في صنع التأريخ ومنعطفاته، وتوجيه مجرىٰ الأحداث؛ مما أحرج المؤسسات

الشيطانية واضطرها إلى أن تكشّر عن أنيابها، وفي وضح النهار وعلىٰ مرأىٰ ومسمع من الدنيا، تلك الأنياب التي سترتها الابتسامة الكاذبة حيناً، ودموع التماسيح حيناً آخر، ففي أكثر من نقطة من العالم نلمس التوتر الذي يعود إلى الانطلاق والفعل العنيف، وأحياناً في النقاط التي يتخيّل أنها أكثر هدوءاً من غيرها، وهذا له من الوضوح بمكان بحيث بات يقضّ مضاجع السحرة العصريين، ويؤرّق المخادعين الدوليين، فها هو صخب الأمواج التي اجتاحت دول البلقان وآسيا الوسطىٰ والشرق الأوسط رأساً وأطرافاً، ومروراً بالجراحات التي زخرت بها أميركا اللاتينية وانتهاءاً بالأنين المتعالي من القارة السوداء.

هذا فضلاً عن بؤر الغليان وفوهات البراكين في المنطقة الإسلامية المحمّلة بالأحداث، التي فجّرتها الثورة الإسلامية الرائدة في إيران، مما يجعل هذه المنطقة مرشّحة أكثر من باقي مناطق العالم لطرو الحالة الثورية وتبلورها علىٰ ضفتي الوعي والحركة، وهذا ما يقلق الدوائر المفترسة ويجعلها تضرب الأخماس بالأسداس، وتعمل ليل نهار، وتسارع لوضع الخطط ورسم البرامج الملائمة مع الطقس الجديد، والكفيلة بحفظ مصالحها في العالم، وتثبيت قواعد الاصطياد والسطو؛ دون أن تقف مكتوفة الأيدي أمام العواصف الجماهيرية الغاضبة، والتي تعتبر مخاطر جديّة يخشىٰ عواقبها، فعلىٰ أيّة نقطة وضعنا أيدينا نجد الاهتزاز يمزّق السكون المفروض، فالحجارة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية لا يمكن أن تَفتّها الرؤوس النووية، ناهيك عن قبضات حزب اللّٰه الإسلامية التي أودت بالتفوق الإسرائيلي، وجعلته في خبر كان، وتلك كشمير، فإنّ صرخاتها تتعالىٰ مطالبة بالاستقلال، وهذه افغانستان تضطرب الآن في مخاض عسير، وكذا بلاد الرافدين، متأزّمة إلىٰ حدٍّ تنذر

بخطر جديدة... وغيرها أمثالها.

فالدوائر الاستكبارية تعمل دائبة علىٰ الهيمنة علىٰ المنطقة الإسلامية (الهدف الأول)، ويبدو المستقبل مخيفاً تماماً أمام أعينهم الخائبة فيرتقبون مصيرهم الأسود يوماً بعد آخر.

وربما يتصور البعض أنه لا امتياز كبيراً للعالم الإسلامي علىٰ غيره، ولا لهذا المقطع الزمني علىٰ سواه، وقد يبدو ولأول وهلة أن هذه الدعوىٰ قريبة من الواقع بدرجة كبيرة، وكذا لو نظرنا من خلال عدستنا الميدانية ـ وبعد أخذ الماضي والمستقبل في الحساب ـ لرأينا أن العالم الإسلامي بصدد انبعاث حضاري تام المقتضي، قد أطلّ علىٰ الوجود من النافذة الشرعية.

فالاستكبار يواجه إذن في منطقتنا تهديداً جديداً متواصلاً، لا حالة جزئية ضيّقة، يمكن معالجتها بسرعة ويُسر مهما تصاعد ضجيجها وضوضاؤها، كما نراه في مناطق مختلفة من العالم، وهناك فرق بين حركة سطحية، وبين حركة لها عمق حضاري ضخم مدعوم برصيد فكري ورسالي متين، لا تصمد أمامها أعظم المدارس العقائدية الحديثة، فالمعسكر الغربي ـ والأفعىٰ الأميركي بنحو خاص ـ يعيش مشكلتين:

الأولىٰ: داخلية، متمثلة بصراع المصالح والنفوذ بين دُوَله.

والثانية: خارجية، مستعصية وغير قابلة للحل الحقيقي والجذري، وهي مشكلته في المنطقة الإسلامية؛ لذا يكرّس جهده لتخديرها بعض الوقت، أضف إلى ذلك أن الإسلام بدأ يغزوهم في عقر دارهم، وطفق يدبّ في ربوع الغرب؛ إذ أصبح الديانة الثانية بعد المسيحية.

ولهذا وذاك نرىٰ الشيطان الأكبر يوعز إلى شياطينه بأن يشرعوا في دراسة دقيقة عن المنطقة بالشكل الذي يتلاءم مع الحالة الجديدة، **﴿إنه فكّر وقدّر ﴾**

فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدّر﴾[١] فتتابعت التقارير المكثّفة عن المنطقة، وأضيفت إلى الأرقام المكفونة في أرشيف (CIA)، وطرحت علىٰ طاولات الجريمة، ونفثت فيها الأشداق الماكرة، وبعد لأيٍ حثيث وعقيب تزريق لبعض الأمصال في خنادق الرفض تولّد المشروع الاستكباري المشؤوم، وعقدت الصفقة بين اللصوص الكبار ووزعت الأدوار، والغريب بدواً أننا لم نعهد أن دوائر المكر الدولي تتفق علىٰ أمر كاتفاقهم اليوم علىٰ الخطة الأميركية في المنطقةالإسلامية، بحيث تلوثت أيدي الجميع بالإثم، واشتركوا فعلاً في التطبيق، رغم أننا قد نلمس التباين أحياناً في بعض الدوافع والظروف الضاغطة شدةً وضعفاً.

ويمكن القول بأن الخطة الاستكبارية تعتمد عدة مصائد محورية، قد تتداخل في التنفيذ في بعض النقاط وقد تنفرز في أُخرىٰ، من أهمها:

أولاً: الرضوخ للأمر الواقع

وهو يعني قتل التحرك الحر واقتلاع جذوره؛ ببث روح اليأس والإحباط، وتكرار المقولة الحمقىٰ: «أن مصارعة العمالقة عمل جنوني فلابد للتيار الثوري من اتخاذ استراتيجية حديثة، تتسم بالليونة والعقلنة، فإنه لا محيص من الرضوخ للأمر الواقع وتجميد جذوة الحماس، ولو مؤقتاً، وتشذيب الشعارات الحادة، والإغماض في الأهداف الكبيرة وتأجيلها إلى أجل غير مسمىٰ؛ للحفاظ علىٰ الحد الأدنىٰ من الوجود الخافت، وإلّا فإنّ أمامها خيارين لا ثالث معهما، فالدوران إذن هو بين المحذور والمستساغ، أي بين خوض معركة بيّنة الخسارة، وبين تعايش هادئ يغطّي عمليات الافتراس

---

(١) المدثر: ١٨ ـ ٢٠.

والسرقة».

ومما يؤكد ذلك التهويل المفتعل، والتضخيم المبالغ فيه عن قدرة الاستكبار في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية والمخابراتية والإعلامية و... بحيث أعادت إلى أذهان الرجال حكايات «الرجل الخارق» التي أثارت أعجابهم عند الصغر.

فإن فلت شعب ما من القبضة العسكرية؛ فلابد أن يتيه في الأزقة والشعاب الاقتصادية، فالأسلحة الاستراتيجية التي باتت تهدّد العالم كله بالدمار الفظيع لم تشبع نهم الاستكبار؛ فغدا يفكر فيما أسماه (بحرب النجوم والدرع الصاروخي) وأصبح الدولار سيد السوق العالمية، فهو يتحكم بالماكنة الاقتصادية، ونحن لا ننكر ذلك التفوق إلى حدٍّ ما ولكن يمكن للبلدان الأخرىٰ أن تحقق ذلك التقدم، بل أكثر وبطريق أزكىٰ وأشرف، فليس الأمر حكراً علىٰ الغرب يعطون من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون، بل في المكنونات الطبيعية والبشرية للبلدان الإسلامية ما يدعو إلى الأمل الكبير في دخول بوابة المستقبل المشرق، مما يجعل التفكير بالصراع والبحث عن الخلاص من القبضة الاستكبارية عملية معقولة ومنطقية جداً، لا مجازفةً وانتحاراً، خصوصاً إذا بدأنا نعدّ الإخفاقات التي مني بها الاستكبار، والهزائم علىٰ مستويات مختلفة، والضربات التي حطّمت من عنجهيته ـ لا في منطقتنا وحسب بل في مناطق عديدة ـ عندها تبرز لنا نقاط ضعف كثيرة، تهدد كيانه بالانهيار والسقوط.

فقد فشل في إخضاع أميركا اللاتينية، التي هي أقرب الديار إليه، والسيطرة علىٰ التناحر بين الشركات وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة، الأمر الذي أصبح لا يطمئن معه إليه كثيراً، بل قد يؤدي إلى تمزيق الاقتصاد الاستكباري

في يوم ما، وكذا منابع الثروات الطبيعية التي تُحرّك المصنع الغربي لضمان استمرار تدفقها، وأسواق العالم الثالث المستهلك؛ والتي تدر عليه أرباحاً باهضة، قد تتعرض إلى هزّات مميتة، كما أن الخزينة الحربية تجاوزت حد التصور، خصوصاً في مجال التسليح الاستراتيجي، ونفقات القواعد العسكرية والطروحات الجنونية «كحرب النجوم وميزانية مكافحة ما يسمىٰ بالإرهاب والمشاريع النووية»، فكل ذلك ليس من الهيّن تأمينها وتغطيتها.

وإضافة إلى هذا وذاك؛ فإن الغرب مبتلىٰ بأزمات حضارية أساسية لا يمكن تغافلها والتغاضي عنها، وهي غير قابلة للحل، والفراغات التي تواجه الفرد الغربي علىٰ الصعيد الاجتماعي والنفسي والعقيدي غير ميسورة الحل.

إذن فحالة الضمور الحضاري تبدو علىٰ هيكل هذا الكيان المنهك، بيد أننا نمتلك من الحيوية والمقومات الأساسية للنهضة؛ ما يجعلنا نثق بأنفسنا وبإمكاناتنا كل الثقة، دون أن تحبط عزيمتنا المواقف المنهزمة الخائرة من قبل دمىٰ العمالة الأقليمية، فطروحات التعايش السلمي مع العدو الغاصب في فلسطين، والتي يحاول تطبيعها وتدجينها؛ لا يمكن أن تغرس الخيبة في نفوس المسلمين، بعد أن عرفوا الأبعاد المقصودة لمثل هذه المخططات، ولذا نرىٰ الحجارة الفلسطينية الثائرة والعمليات الاستشهادية والتظاهرات المليونية، اخترقت السكوت الرهيب الذي خيّم علىٰ المنطقة، وحركات الجهاد الإسلامية كحزب الله لا تزال أنشودة تتغنىٰ بها أمواج المجاهدين المتوجهة صوب القدس الشريف، والشارع الإسلامي ما فتيء يقلق الحكّام المتخاذلين رغم ارتمائهم المفضوح في أحضان العدو.

وصدق الله العلي العظيم في قوله الكريم: **﴿وإذ يعدُكم الله إحدىٰ الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذاتِ الشوكة تكون لكم ويُريد الله أن يُحقّ الحقَّ بكلماته**

ويقطع دابر الكافرين * ليُحق الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[1].

ثانياً: «المحاصرة والردع الشامل»:

إن المحاصرة الاستكبارية تستهدف أولاً وبالذات الحالات التي بلغت الصحوة والنضج للحدّ من اتساعها ونموها، كي لا تنتشر فتعم سائر المنطقة، ولكي لا يتم تصدير ذبذبات الوعي إلى ما حولها، والحيلولة دون نشوء تيّار متجانس وكيان متسق، له شاخص يمثل القدوة والمحتذىٰ من جهة، ومن جهة أخرىٰ يمثل الثقل السياسي في الانطلاق، وبعبارة أخرىٰ أن لا يكون لأيّ موقع رسالي متقدم دور ريادي ولا دور قيادي، وهذان أساسان لكلّ تشكيلة حضارية.

والمحاصرة قد تتخذ أشكالاً متعددة؛ فقد تكون اقتصادية، وقد تكون عسكرية، وقد تكون إعلامية، وقد تكون سياسية ودبلوماسية، ومن الخطأ أن نتصور أن ذلك قرار اُتخذ ثم اُلغي في فترة لاحقة، بل إنه لا يزال مستمراً، وينفّذ بدقة تامة، وبأشكال مختلفة، قد تنطلي تطوراتها وتشعباتها علىٰ كثير من الواعين والمثقفين السياسيين وحتىٰ علىٰ الإسلاميين منهم، فيذهب بهم التصور بأنّ ما يحصل ماهو إلّا عملية، لا تقع ضمن التخطيط الاستكباري، أو أنها وليدة الظروف الطبيعية والخاصة بالمنطقة، وليس لها علاقة بالخطط الجديدة، التي يستخدمها الاستكبار لإسقاط ومحاصرة الإسلام في المنطقة، ولدينا مثال حيّ واضح لازلنا نعيش أصداءه، وهو حادثة الغزو العراقي العسكري الشامل للكويت، وضمّها إليه بعد ذلك، وما تبعته من تطورات في المنطقة.

---

(١) الأنفال: ٧ ـ ٨.

إن هذا الحدث لم يكن وليد ظروف آنية، كما أُعلن عن ذلك، بل إن أميركا والاستكبار قد أوصلت الأطراف المتنازعة ضمن اللعبة الدولية إلى ما آل إليه الوضع الحالي، ضمن دراسة مسبقة لما سينتهي إليه المستقبل وفق كلّ الاحتمالات التي يمكن أن تصوغ الحدث، والمهم أن تكون النتيجة لصالح أميركا والاستكبار العالمي. وفعلاً لاحظنا كيف أن أميركا استطاعت أن تسخّر الحدث لصالحها بعد أن مهّدت السبل لوقوعه، وكيف استطاعت بين عشية وضحاها إنزال قواتها وبشكل مكثّف في المنطقة وبعناوين مختلفة، ولسنا هنا بصدد طرقها الآن، ويوماً بعد يوم نرىٰ هذا التواجد الفعلي للقوة الأميركية أصبح نتيجة واقعة، أملاها الغزو العراقي للكويت، وإن كانت الذرائع والحجج مختلفة، ويمكن من خلال ملاحظة مجريات الأحداث أن يتأكد لنا بأن وراء هذا الحدث أهدافاً وغايات أخرىٰ، لم يفصح عنها لحد الآن، ولكن يمكن تشخيصها عند دراسة منطقة الشرق الأوسط، وتشريح العوامل التي لها الدور الكبير في صياغة وصنع المتغيرات في المنطقة، ويمكننا إجمال هذه العوامل بالنقاط التالية:

١ ـ نمو التيار الإسلامي وانتشاره في المنطقة، وبالتحديد منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وطرح الإسلام كعنصر حاكم علىٰ اللغة السياسية في المنطقة رغم وجود تيارات أخرىٰ علىٰ مستوىٰ الحكم أو التكتل.

٢ ـ اختلال خطط الاستكبار الاستراتيجية لحل المشكلة الفلسطينية، وانهيار كل محاولات تكريس إسرائيل كأمر واقع، وبروز التيار الشعبي الإسلامي لحمل لواء القضية الفلسطينية علىٰ مستوىٰ مناهضة أصل وجود دويلة إسرائيل، بعد أن استطاعت دوائر الاستكبار العالمي تطويع المنظمات الفلسطينية العلمانية، وتحويلها من الرفض للوجود الصهيوني في فلسطين إلى

العمل علىٰ إنشاء دولة التسالم الفلسطينية إلى جوار دولة إسرائيل الصهيونية. فكان لبروز التيار الإسلامي في عمق الشعب الفلسطيني أثر بالغ في تحجيم هذه المنظمات، ووضعها في زوايا محرجة، تدور مدار الأنظمة الإقليمية وسياساتها في المنطقة.

٣ ـ بروز البؤر الثورية الإسلامية، وبأشكال مختلفة في مواجهة الأنظمة العميلة رغم تباينها من حيث القوة في فترات زمنية متفاوتة، ولا ينكر أن هذه البؤر الثورية جاءت كأثر مباشر لنجاح الثورة الإسلامية، رغم أن بعضها لا يحكي الحس الإسلامي والثورة الإسلامية في المستوىٰ المطلوب لها.

٤ ـ سقوط الأقنعة عن الوجوه العميلة من خلال أحداث ما بعد الثورة الإسلامية في إيران، بحيث أصبحت الثورة الإسلامية ـ لما لها من باع طويل في مقارعة الاستكبار ـ مقياساً واضحاً لمصداقية ما تطرحه الأنظمة العميلة من شعارات برّاقة كاذبة، ومدىٰ ارتباطها بالعمالة والتبعية للاستكبار، ولعل الذي يحصل في المنطقة ما هو إلّا بداية سلسلة تغييرات لتحسين الوجوه العميلة فيها، والتي انكشف زيفها أمام شعوبها، وهذا لا يتم إلّا بتغيير سياسي شامل، يلعب فيه الاستكبار دوراً رئيساً وفقاً لشروط المقاومة، ووعي الجماهير الذي بدأ يبرز تدريجياً علىٰ السطح.

٥ ـ فشل جميع محاولات إسقاط أو تحجيم الدولة الإسلامية كمحور في المنطقة، بل وفي العالم الإسلامي، وبروز الجمهورية الإسلامية في إيران، كقوة جديدة علىٰ الساحة الدولية، لها أثرها البالغ رغم أساليب الاستكبار في إجهاضها والقضاء عليها، وقد برز هذا جليّاً في مواقف الجمهورية الإسلامية الحدّية والدقيقة خلال سني الحرب، وفي فترة ما بعد وقف إطلاق النار، ومن خلال القضايا الإقليمية الحسّاسة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

٦ ـ انهيار الآيديولوجية الماركسية للمعسكر الشرقي، والتقارب السياسي بين الشرق والغرب، وحدوث تغيرات أساسية علىٰ الخارطة السياسية للمعسكر الشرقي، وانعكاس ذلك علىٰ منطقة الشرق الأوسط الإسلامي، الذي أمتدّ تأثيره إلى إيجاد نوع من التطلع فيها نحو التغيير، وخصوصاً لدىٰ شعوب المنطقة.

وعليه رأىٰ الاستكبار العالمي ضرورة أن يتكامل تطبيق مبدأ المحاصرة الاستكبارية، بضم الردع المباشر والشامل إليه عن طريق المواجهة العلنية، وعدم الحياء من التعامل بالهوية الوحشية الصريحة، وسحق مشاعر الملايين، والتحدي الحاد لكل بادرة، والظهور بمظهر القاهر لا المفاوض، وهذا الأصل ليس بالجديد، وإنما الجديد فيه تحديثه وإجراؤه بعد التجميد عقيب الحرب الفيتنامية، وهناك أكثر من مؤشّر يدل علىٰ وجود مثل هذه النهج الجهنمي في المخيلة الاستكبارية، فانتهاك حرمة الحرم الشريف بمكة في حج عام ١٩٨٧م بارتكاب أعظم مجزرة وقحة في التاريخ المعاصر من الوضوح بمكان، بحيث لا تكاد تخفىٰ علىٰ ذي الذهنية الاعتيادية فضلاً عن المتتبع السياسي، وربما تحاول الأبواق الأجيرة أن تحجّم الحادثة الفظيعة بأساليب تصويرية فنيّة عديدة، فتزعم أن ما حدث في مكة إنما كان بين رجال الأمن والحجاج الإيرانيين، والخلاف عادة يتطلب بعض الشدّة التي قد تقترن بالارتجال.

يا لها من قابلية عجيبة علىٰ التزوير، وقلب الحقائق وتصوير حلبة المعركة الواقعية بأنها مباراة شكلية بين متمازحين، في حين أن طرفي الصراع الحقيقين هما الاستكبار، والإسلام الأصيل بما يمثّله من مواقف التحدي في الحج الإبراهيمي الحنيف، ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾ (١).

---

(١) التوبة: ٣٠.

ولدينا مؤشر آخر يؤكد ما أسلفناه من ماهية المخطط الاستكباري الرهيب في المنطقة الإسلامية، وهو إعداد قوات التدخل السريع التي أنفقت أميركا جهوداً مكثفة لإظهاره علىٰ الساحة، وجاءت الهزائم النكراء لتلك القوات لتدفع الاستكبار لإعادة حسابات القوة والقدرة التي يمتلكها في المنطقة، ومن تلك الهزائم النكراء نكسته في صحراء طبس في إيران، ومنها نكسته الأخرىٰ في لبنان، حيث ولت مدبرة إلى غير عودة؛ حتىٰ فاجأتنا بظهورها في مياه منطقة شبه الجزيرة العربية، ولكن هذه المرة برزت تحت غطاء واسع من القوات الدولية، وبعد اشتراك كافّة اللصوص الكبار، ومن يدور في فلكهم في هذه الخطوة، وبعد أن أخذت تصول وتجول تلك الأساطيل في المياه الدافئة في استعراض للعضلات، لكن لم تغمض للجنود الأميركيين عين، ولم يقر لهم قرار حتىٰ ضربوا ضربتهم الخسيسة عندما قامت القطعات البحرية الأميركية بجريمتها التاريخية بشأن الطائرة المدنية التي راح ضحيتها أكثر من ٤٠٠ بريء، وسقطت ورقة التوت عن البيت الأبيض وللمرة الألف، وليعلنوا عبر رسالتهم الدموية هذه إلى الجمهورية الإسلامية في إيران بالذات، وإلى دول المنطقة تلويحاً بأن منطق المحاصرة ثم الردع الشامل ينتظر كل من يتحدىٰ، أو يخرج عن إرادتهم ومخططاتهم في المنطقة.

والمواجهة الاستكبارية العلنية للإسلام لم تراوح في حدود البندقية؛ بل استعملت فيها كل الوسائل الممكنة، وما كتاب الآيات الشيطانية عنّا ببعيد، إذ أنه كان بمثابة تحدٍ صريح للتيار الإسلامي وللمسلمين في العالم، ولأول مرة في تاريخنا المعاصر نلمس الإسناد الدولي للكتاب القذر، فقد تبنته المطابع ودور النشر والترجمة بعشرات اللغات، في حين أن نسبية آنشتاين لم تحظ بمثل هذا الاعتناء، ولا بنسبة واحد بالمئة مما حظىٰ به كتاب القصصي التافه

سلمان رشدي، وهذا دليل صارخ علىٰ أن الهجمة في غاية الشراسة والصلافة إلى الحد الذي يجعل القمم العربية والقمم الإسلامية ينتظر العديد من أعضائها أوامر أميركا وحلفائها؛ ليتخذوا القرارات والمواقف التي تُملىٰ عليهم دون وازع من حياء أو خجل.

ولو عدنا بالذاكرة السياسية سنوات؛ لوجدنا كيف يصرّح بكل وقاحة أحد رجال البيت الأبيض ـ في حينه ـ أن ما يجري في الشيشان يختلف عمّا يجري في ألمانيا الشرقية، فمن حق روسيا أن تسحق الانتفاضة الإسلامية في آسيا الوسطىٰ بالحديد والنار، ومن حق الألمان أن يطالبوا بالاستقلال؛ لأنهم لو خرجوا من العلبة الروسية سوف يدخلون في العلبة الغربية، أما المسلمون في الشيشان الروسية وفي غيرها من دول القوقاز فهم يطمحون إلى الاستقلال والحرية عن الشرق والغرب. وهذه النظرة المتميزة للمنطقة هي التي تفسّر لنا السكوت العالمي المتعمد علىٰ الجرائم التي صبتها مئات الأطنان من قنابل وصواريخ الطائرات الأميركية وحلفائها على رؤوس الآلاف من أبرياء الشعب الأفغاني المنكوب بحجة مطاردة أفراد صنعت منهم إرهابيين، وكذلك الجرائم التي تمارس ضد أبناء فلسطين وجنوب لبنان من قبل لقيطة الاستكبار (إسرائيل)، والوحشية التي تقابل بها سواعد الحجارة في فلسطين المظلومة وقيام جيشها بالاجتياح الشامل بمختلف أسلحة الدمار للمدن والقرىٰ، والإبادة الجماعية الوحشية لأبناء فلسطين المقاومة، ومحاولة تكريس ما يقال من أن ذلك حدث داخلي مربوط بتل أبيب وقراراتها وحقها في الدفاع عن نفسها، لأننا لا يمكن أن نفسّر التشجيع الأميركي والحماس الاستكباري العالمي بأنه حالة اتفاقية خصوصاً في وقت العد التنازلي العربي.

ويطال منطق المحاصرة والردع الشامل عقائد المسلمين وإيمانهم برسالتهم

الإسلامية؛ فيضع الاستكبار مصائده الخبيثة لزعزعة ثقة الشعوب الإسلامية برسالتها بإشاعة عدم قدرة الإسلام علىٰ مواكبة التطور، وعجزه عن حل أزمات الإنسان المعاصر، وأن الدين الذي حلّ مشاكل مجتمع الجزيرة العربية قبل ألف عام يصطدم اليوم بإحراجات الواقع المعاش وتعقيداته؛ بحيث يصعب الاحتفاظ بمصداقية الإسلام في بناء المجتمع الفاضل، الذي طالما يحلم به المسلم، وذلك من خلال التشويه والضبابية التي تثيرها وسائل الإعلام حول تطبيقات النظام الإسلامي في الدولة الإسلامية المباركة في إيران، وعرضها بشكل إخفاقات متتالية أقوىٰ ما فيها الشعار، ولعمري أن هذا أخطر سهم تضمّه الكنانة الاستكبارية.

ولقد بدأ يلوح لنا بفعل التطورات الأخيرة علىٰ الساحة السياسية أن الاستكبار أخذ بوضع بيوضه المحسّنة، واحتضانها في أعشاش بعض دول المنطقة من خلال عسكرته المباشرة فيها، وتحويل أرضها ومياهها وسمائها إلى معكسر متحرك، ملأت أصداء معدّاته المتطورة آذان شعوب الشرق الإسلامي المنكوبة، مصحوبة بضجيج الخطابات المتبادلة والتصريحات الحادّة بين أقزام المنطقة من جهة، وبين عمالقة الورق في أميركا وأوروبا غرباً وشرقاً من جهة أخرىٰ، كما يلوح لنا أن الزمن القريب سيرينا تفقيس بيوض الاستكبار تلك، ولكنه سيرينا أيضاً انبعاث الرفض الإسلامي لكل أفراخ وإفرازات هذه اللعبة الشيطانية الخبيثة.

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين[1]﴾

* * *

---

(١) الأنفال: ٣٠.

الإرهاب بين ثقافتين

كثُر تداول مصطلح الإرهاب إعلامياً وثقافياً، حتىٰ أصبح وصفاً منظّماً يطلق بلا حدود من قبل الاستكبار ومؤسساته علىٰ المعتدين والمقاومين، وعلىٰ الظالمين والمظلومين علىٰ حدٍّ سواء؛ بل أخذ الاستبداد والتعسف في إطلاقه إلى مستوىٰ؛ بحيث اختصّ غالباً بالمدافعين عن أنفسهم، والمقاومين دون كرامتهم والمظلومين عندما ينادون بظلامتهم، ويقارعون ظالميهم لاسترداد حقوقهم المغصوبة. فما هي إذن وظيفة القلم المنصف، وكلمة الحق في خضم هذه الفوضىٰ الإعلامية والثقافية، وخلط الأوراق وتزييف الحقائق، التي تكمن وراءه امبراطورية الإعلام الاستكباري والصهيوني العالميين، بكل مؤسساتهما وإمكاناتهما التخصصية والتقنية؟

وبدواً نرىٰ ضرورة تحديد معنىٰ الإرهاب:

أولاً - الإرهاب في الثقافة الغربية:

أ: الإرهاب في الثقافة اللغوية الغربية:

إنّ كلمة (إرهاب) في اللغة الإنجليزية، التي هي أمُّ اللغات الأوربية، هي عبارة عن الإسم (Terrer) بإضافة (ism) ملحقاً به، فيكون المعنىٰ: فزعاً ورعباً وهولاً، ويستعمل فعلها (Terrerize) بمعنىٰ يُرهب ويُفزع.

أما جذور الاستعمال التاريخي لمصطلح (Terrorism) في الثقافة الغربية؛ فبعضهم يرجعه ـ مصطلحاً ومفهوماً ـ إلى الحقبة الإغريقية والرومانية. فقد كتب

المؤرخ الإغريقي زينوفون (Xenophon ٣٤٩ ـ ٤٣٠ق. م) ـ مشيراً إلى سمات الثقافة الغربية ـ عن الآثار النفسية للحروب الوحشيّة؛ والإرهاب الدموي علىٰ الأمم والشعوب آنذاك. كما أطلقت هذه التسمية علىٰ حكّام رومان من أمثال (Tiberius ١٤ ـ ٣٧م) و (Caligula ٣٧ ـ ٤١م) لممارستهم أساليب إرهابية وحشية مختلفة، كالعنف الدموي، ومصادرة الممتلكات والإعدام، كوسائل لردع وإخضاع المعارضين لحكمهما.

وأظهر صور الإطلاق الاستعمالي لمصطلح (Terrosim) في الثقافة الغربية هو: ما كان للدلالة علىٰ أسلوب الحكم الذي لجأت إليه الثورة الفرنسية، أثناء حكومة الجمهورية الجاكوبية بين عامي (١٧٩٣ ـ ١٧٩٤م)، في مواجهة تحالف الملكيين والبرجوازيين المعادين للثورة آنذاك، والذي نتج عنها اعتقال ما يزيد عن ثلاثمائة ألف من المشتبه بهم، وإعدام حوالي سبعة عشر ألفاً، مضافاً إلى موت آلاف آخرين في السجون بلا محاكمة، وقد أُطلق علىٰ هذه المرحلة المتّسمة بالإرهاب الدموي (Of Terrer Reign)[١].

ويتحصّل لدينا مما تقدم أن الاستعمال اللغوي المعاصر والتاريخي لكلمة أو مصطلح (Terrosim) منحصرٌ في الإطلاق علىٰ حالات الفزع والرعب والهول، الملازم عادةً للقتل وسفك الدماء والتعذيب ومصادرة الأموال وأمثال ذلك.

ب: النظريات المؤسسة للثقافة الغربية:

أما النظريات المؤسسة للثقافة الغربية، فنجد أن أغلب مقولاتها تشدُّ إلى

(١) راجع: الموسوعة السياسية ج ٤ / بيروت والموسوعة السياسية/ الكويت، والموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica).

الصراع، وتقول بالتفاوت الفاحش في القيمة الإنسانية علىٰ أساس العرق والدم واللون والعنصر؛ بل إنها ترىٰ ضرورة إلغاء الآخر علىٰ أساس عنصري، عندما يقتضي الأمر ذلك، وهذا يعني أن الإرهاب بكل صوره البشعة هو لازم نظري وسلوكي للثقافة والمجتمع الغربي. ولنأخذ نماذج من المقولات النظرية للثقافة الغربية:

١ ـ يقول المؤرخ البريطاني الشهير (آرنولد توينبي): «إن دراسة الجنس أو العرق كعامل منتج للحضارة تفترض وجود علاقة بين الصفات النفسية، وبين طائفة من المظاهر الطبيعية. ويُعتبر اللون هو الصفة البدنية التي يعوّل عليها الأوربيون ـ أكثر من غيره ـ في الدفاع عن نظريات العرق الأبيض المتفوق، وإن أكثر النظريات العنصرية شيوعاً؛ هي تلك التي تضع في المقام الأول السلالة ذات البشرة البيضاء، والشعر الأصفر، والعيون الشهباء، ويدعوها البعض بـ(الإنسان النوردي) أي الشمالي، ويدعوها الفيلسوف الألماني (نيتشة) بـ(الوحش الأشقر)».

٢ ـ إنّ أول من أشار إلى الإنسان (النوردي) الشمالي هو: النبيل الفرنسي (الكونت دي نموبينو)، وقد انضمّ إليه آخرون في الإعلان عن علوّ قيمة العرق (النوردي)، حيث تزامن ذلك مع شيوع نظريات (داروين) في النشوء والارتقاء، بين الأعوام (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) وما أعقبها من انتشارٍ لأبحاث علم البيولوجيا في القرن التاسع عشر.

٣ ـ وضع (أرنودي جوبينو ١٨١٦ ـ ١٨٨٢م)، وهو الرائد الأكبر للنظرية العنصرية، وأحد رجال السلك الدبلوماسي المعروفين آنذاك، مؤلفاً تحت عنوان: (بحث في عدم التساوي بين الأجناس البشرية)، وذلك في عام ١٨٥٣م، وتتلخص نظريته في أن: (الاختلاط بين الأجناس الراقية والأجناس

السفلىٰ هو السبب الرئيسي في تدهور حضارات أوربا السابقة).

وقد انتشرت هذه النظرية العنصرية في معظم الدول الأوربية، وأصبحت تمثّل المدرسة الأساسية للثقافة الغربية، وكان أهم تلاميذ (جوبينو) هو البريطاني (هيوستون شامبرلين)، الذي عاش معظم حياته في ألمانيا، وكانت أهم كتبه في اللغة الألمانية تحت عنوان: (أُسس القرن التاسع عشر)، وقد أعلن (هتلر) في حينه أن فكر التلميذ (هيوستون)، وأستاذه (جوبينو) هو الأرضية الأساسية المشتركة التي قامت عليها النظرية العنصرية للفكر النازي في ألمانيا.

٤ ـ أطلق المفكر الإنجليزي (جوزيف كبلنج ١٨٦٥ ـ ١٩٣٦م) مقولته الشهيرة: (إن الشرق شرق، والغرب غرب، وهما ثقافتان ومفاهيم لن يلتقيا)، وهذه المقولة تؤكد النظرية الشهيرة التي نادىٰ بها مفكرون غربيون[١] وهي: (نظرية صراع الحضارات) التي ادّعوا فيها أن هذا الصراع سيتمخض حتماً عن هيمنة الحضارة الغربية علىٰ العالم.

وبناءً علىٰ هذه الثقافة الغربية العنصرية اعتبر كبار المفكرين البريطانيين والفرنسيين في القرن التاسع عشر أن للاستعمار هدفاً سامياً، لأنه ينشر الحضارة الغربية بين الشعوب المستعمَرة.

٥ ـ إن أَعلام الفكر الغربيين كافة لم يخرجوا من قبضة آيديولوجية السيطرة والاستعلاء، فمثلاً: نجد «فولتير» و «منتسكيو» و«كوندورسيه» قد تحدثوا عن الحضارات، ولم يكن لديهم شك في سيادة الحضارة الغربية، وموقعها القيادي الطبيعي، وكان «فولتير» ينطلق من المبدأ العنصري في تكوين عقيدته القائلة: بأن الزنوج بالذات غير قابلين لأيّ تحضّر حقيقي، و «جيبون» كان يستخدم في سرده المقابلة العنصرية بين المواطن والبربري، أي بين أهل الغرب وأهل

---

(١) منهم صاموئيل هنتنجتون مؤلّف كتاب: (صِراع الحضارات).

الشرق. والنظرة العنصرية نفسها شائعة في كتابات «هوبز» و «لوك» و«روسو». وكان «دافيدهيوم» يكتب بصراحة عن أن الحضارة احتكار للبيض.

وعندما كان «جون ستيوارت ميل» يدافع عن الحرية؛ لم يكن يمتد في دفاعه إلى من يسميهم «ضعاف العقول»؛ أي الشعوب التي لم تتقدم إلى المستوىٰ الأوربي. و «سان سيمون» كان يرىٰ أن أوربا المنظّمة وفق طريقته ستمدّ نعمة التقدم إلى العالم، وتملأ الأرض بسكان من العنصر الأبيض، الذي هو أرقىٰ من الأجناس الأُخرىٰ. و «هيجل» كان يضع الشرق في أدنىٰ درجات سلّمه، أي أدنىٰ من الإغريق والرومان.

ويمثل «نيتشه» أكبر المفكرين الغربيين، الذين مجّدوا القوة، وتقوم فلسفته علىٰ «إرادة القوة»، والسعي لإنجاب الإنسان الأعلىٰ، وأَخذ هذه الفكرة «هتلر» وبنىٰ عليها نظريته في تفوق العرق الجرماني؛ التي ترتّب عنها جنون القوة، وهاجس السيطرة الشاملة، وقهر الشعوب الأخرىٰ واستعبادها، وأفرزت حروباً مدمّرة لأوربا امتدت بدمارها إلى الشرق.

٦ ـ يرىٰ «فرانسيس أنتوني بويل» أستاذ القانون الدولي وعضو برنامج الحد من الأسلحة، ونزع السلاح والأمن الدولي بجامعة «إلينوي» في أميركا في كتابه: «مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية الأميركية» أن «الهوبزية» نسبةً إلى «توماس هوبز Thomas Hobbes»، لها أثر كبير في الفكر القانوني الدولي الغربي عموماً، والأميركي خصوصاً، و «هوبز» هو مؤلف كتاب «لوياتان Leviathen» عام ١٦٥١م، وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من «الكتاب المقدّس»، ويعني وحشاً بحرياً، يرمز إلى الشر. ثم استعيرت الكلمة إلى اللغة السياسية لتعني الدولة، ذات القبضة الرهيبة القاهرة القادرة علىٰ تأكيد سلطتها في كل الأوقات والظروف. ويعدّ «هوبز» مؤسس الواقعية القانونية الحديثة،

وملهم النظرية السياسية السائدة في الغرب، وتتلخص نظريته: في أن الطبيعة البشرية في أساسها نزّاعة إلى الغلبة والتسلط والجشع، ولذا فلا معنىٰ لوجود قوانين لا تقف وراءها قوة غالبة قاهرة لتفرضها؛ لأن طاعة القانون لا يمكن أن تتحقق إلاّ قسراً. ويستطرد «بويل» في كتابه قائلاً: إنّ الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية قد تبنوا هذه النظرية، حيث إن صنّاع القرار في الحكومة الأميركية عندما يعملون وفق المبدأ «الهوبزي»، وهو أن قواعد القانون الدولي هامشية لا جدوىٰ منها؛ فإنهم بذلك يتصرفون بشكل يدلّ علىٰ أن الحكومة الأميركية لا تعير أيّ أهميّة إلى توقعات الدول والشعوب الأخرىٰ، فيما تراه أقل درجات الاحترام والتقدير، الذي تستحقه في علاقتها مع حكومة الولايات المتحدة الأميركية، وعندما يُترجم هذا الموقف «الهوبزي» إلى برنامج عمل في السياسة الخارجية الأميركية؛ فمن الطبيعي أن يتحول إلى وصفة ناجعة لخلق الخلافات والصعوبات والنزاع مع الدول والشعوب الأخرىٰ، وبهذا تضع الحكومة الأميركية نفسها في موضع؛ بحيث تصبح الأداة الوحيدة التي تستطيع أن تحقق بها أهدافها هي: الاستعمال الوحشي للقهر السياسي والاقتصادي والعسكري[١].

علىٰ أننا لو أردنا الخوض بتفصيلات النظريات والمقولات العنصرية لجميع جوانب الثقافة الغربية، التي تزرع أرضية الإرهاب الغربي بصوره البشعة؛ لاحتجنا إلى تصنيف موسوعة متخصصة بذلك.

والخلاصة التي ننتهي إليها هي: أن الثقافة الغربية وحضارتها ـ وبخلاف الشعارات البرّاقة الزائفة، التي تطلقها للاستهلاك السياسي ـ قائمة في فلسفتها ومبانيها الآيديولوجية علىٰ مبادىء التمييز العنصري المقيت، والاستعلاء

---

(١) بويل، فرانسيس أنتوني، مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية الأميركية ص ٢٠.

العرقي المفرط، والصدام بالقوة المتطرفة (الإرهاب الملازم للاضطهاد، والاستعباد والتصفية العرقية وإراقة الدماء).

ج - تطبيقات ثقافة العنصرية والاستبداد بالقوة «نماذج من الإرهاب الغربي»:

إن الممارسة علىٰ الأرض كانت ـ وإلى يومنا هذا ـ دليلاً صادحاً ودائماً علىٰ إرهابية الثقافة الغربية العنصرية، ومؤسساتها المختلفة؛ سواءً كانت دولاً أو منظمات أو أحزاباً.

ولو عدنا إلى عمق التاريخ الغابر لنستقرئه، ونسبر حركته المتواصلة إلى يومنا المعاصر؛ لاكتشفنا من صميم واقع الغرب الدليل تلو الدليل، الذي يحكي لنا بوضوح تلك الحقيقة الصارخة، التي لا يسترها بريق الشعارات الزائفة والإعلام الخادع:

١ ـ يقول تاريخ الغرب: إن الأسبان قد استخدموا الإرهاب الدموي ضد الأقليات الدينية (المسلمين)، وهي إحدىٰ أهم محطات الإرهاب المروّعة في تاريخ الثقافة الغربية؛ حيث أقاموا محاكم التفتيش الشهيرة عن العقائد، ومارسوا خلالها أبشع صور التعذيب والقتل، تفتيشا عن العقيدة الإسلامية في صدور المسلمين، أو من يشتبه بهم أنهم مسلمون، وذلك لوأدها بوأد معتنقيها، حال الظن بأنهم من معتنقيها.

٢ ـ تواصل الإرهاب الدموي الغربي خلال الحروب الصليبية، التي قادها ملوك الغرب علىٰ بلاد المسلمين، واستغرقت أكثر من مائتي عام. واشتدّ أُوار الإرهاب الدموي مع بدء حركة الاستعمار العسكري المباشر، والمنظّم لدول الغرب، في غزوها لبلاد وشعوب العالم الثالث، وعلىٰ رأسها بلاد الإسلام وشعوبها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها، وكان من أبرز دول الاستعمار

آنذاك هي بريطانيا، التي امتدّ استعمارها ليطال أغلب بلدان شرق العالم الثالث وغربه؛ لتشكّل ما سمي بالإمبراطورية البريطانية، التي قيل عنها: الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، كنايةً عن سعتها وامتداد سلطانها علىٰ جانبي الكرة الأرضية، وجاءت بعدها فرنسا وروسيا القيصرية وهولندا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال وأسبانيا وغيرها من الدول الأوربية.

٣ ـ توالىٰ مسلسل الإرهاب الدموي لمنظومة الغرب بأبشع صوره؛ عندما امتزج التعصب العرقي القائم علىٰ العقيدة، التي تدّعي تفوق الدم النقي الجرماني والإيطالي مع الحقد والطغيان، وأصبح جزءاً من المباني السياسية، والبرنامج الرسمي للدولة، والذي زاد في دمويته التطور التقني الكبير في آلة الحرب وأسلحة الدمار، كما في دولة ألمانيا النازية علىٰ عهد هتلر، ودولة إيطاليا الفاشية علىٰ عهد موسوليني.

٤ ـ عندما طغت العقيدة الإلحادية المطلقة إبّان الثورة البلشفية في روسيا بقيادة ستالين؛ راحت تنتزع بقوة السلاح وسعير النار من شعوب آسيا الوسطىٰ وأوربا الشرقية عقيدتها الدينية، وتمحو كلّ معالمها السلوكية والاجتماعية والثقافية العامة؛ لتفرض بدلاً عنها عقيدتها الماركسية الإلحادية، وقد رافق ذلك إبادة جماعية، وتشريد واعتقال الملايين من أبناء تلك الشعوب، في معسكرات الموت الرهيبة، كتلك التي كانت في سيبريا المنجمدة وأمثالها، حتىٰ انتهت إلى بسط سلطتها الشيوعية بالحديد والنار، وتطويع جميع شعوب تلك المناطق قسراً لحكومتها؛ ليتكون ما سمي آنذاك بالاتحاد السوفياتي، ودول حلف وارشو الشرقية. وامتازت هذه الحقبة الزمنية الرهيبة من تاريخ تلك الشعوب ـ والتي استغرقت حوالي سبعين عاماً ـ بالإرهاب المقنن ثقافياً وسياسياً وإعلامياً وأمنياً، في جميع أجزاء هرم الدولة وأجهزتها المختلفة،

ومنظماتها المهنية والثقافية والسياسية؛ ليشكل الإرهاب فيها آيديولوجية ثابتة في أسلوب الحكم، والتعامل داخلياً ودولياً.

٥ ـ قامت دول الغرب منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتىٰ القرن التاسع عشر بنقل ١٢ إلى ٢٠ مليون رجل وامرأة قسراً، من أفريقيا إلى الغرب وخصوصاً إلى القارة الأميركية لاسترقاقهم فيها. فقد تقاسمت أسبانيا والبرتغال منذ عام ١٤٩٤م أميركا بموجب اتفاقية «توردیسیلاس»، وكان الإمبراطور الجرماني ملك أسبانيا «شارل كينت» أول من أفضىٰ الطابع الرسمي عام ١٥١٨م علىٰ استيراد الإنسان من أفريقيا لاسترقاقه في الغرب، واستخدامه يداً عاملة مجانية لاستغلال الأراضي الجديدة الشاسعة خلف المحيط الأطلسي ـ الأميركيتين ـ اقتصادياً، وبلغت تجارة الإنسان الأفريقي لاسترقاقه في الغرب ذروتها في القرن الثامن عشر، فالسفن كانت تبحر دوماً محمّلةً بالبضائع من الغرب إلى أفريقيا، وهناك تستبدل حمولتها بـ «البشر» ليتم نقلهم خلف المحيط الأطلسي، حيث الدول الغربية وعلىٰ رأسها الأميركيتان. وكان مرفأ «بوردو» و «لاروشيل» في فرنسا أهم مركزين لتجارة البشر المسترق، وحظىٰ مرفأ «تانت» الفرنسي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بإدارة ٧٠٪ من التجارة الفرنسية للبشر المسترق. واستمرت هذه التجارة بشكلها الرسمي العلني حتىٰ عام ١٨٦٥م.

بعدها تحولت بالتدريج إلى تجارة خفيّة، وفي القرن العشرين أخذت مسارات جديدة، حيث يتم وبطرق متنوعة خداع أو بيع أو قسر أو إرغام الملايين من البشر ـ وغالبيتهم من النساء والأطفال ـ علىٰ الوقوع في حالات من الاستغلال القهري؛ ليدخلوا كسلع في تجارة عالمية للبشر، تقدّر ببلايين الدولارات، وتسيطر علىٰ هذه المهمة الإجرامية جماعات منظّمة تنظيماً عالياً،

وتقوم بعملياتها آمنة من العقاب. ووفقاً لمستندات الأمم المتحدة فإنه من الصعب الحصول علىٰ أرقام موثوق بها عن حجم هذه التجارة، إلاّ أنها تقدّر بين ٤٥ ألفاً إلى ٥٠ ألفاً من النساء والأطفال سنوياً في الولايات المتحدة الأميركية وحدها.

وهذا غير ما يعانيه ملايين المهاجرين في الغرب من تمييز عنصري مقيت، واستغلال اقتصادي واجتماعي مجحف، بل ومقرف في أغلب الحالات.

ولم يقتصر التمييز العنصري وهدر الحقوق الإنسانية علىٰ المستوردين منهم أو المهاجرين، بل طال وبشكل بشع وتصفوي سكان بعض بلدان الغرب الأصليين، حيث قام الاستعمار الغربي، بتصفية سكان البلاد الأصليّين وعزل وتهميش من بقي منهم، كالذي حصل مع سكان أميركا الشمالية الأصليين، حيث تشير الدراسات الحديثة إلى أن عددهم كان ما بين ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة قبل اكتشافها في القرن الخامس عشر الميلادي، لكن هذا العدد انخفض وبسبب التصفية العنصرية بحلول عام ١٨٩٠م إلى حوالي ٣٠٠ ألف نسمة فقط، ثمّ تهميشهم وعزلهم في زوايا المجتمع الأميركي.

٦ ـ رغم انتهاء حقبة الاستعمار العسكرى المباشر، الذي انتهجه الغرب خلال ثلاثة قرون متوالية تجاه بلدان العالم الأخرىٰ، وذلك بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وتوقيع دوله علىٰ الاتفاقيات الدولية المقررة في ميثاق الأمم المتحدة، إلاّ أنه استمر في خرق هذه الاتفاقيات بشكل سافر وعلني؛ مترجماً مرةً أخرىٰ مبدأ وسياسة الاستعلاء علىٰ الآخرين من خلال خوض الغزوات والحروب المدمّرة، حيث قامت الولايات المتحدة الأميركية لوحدها حتىٰ عام ٢٠٠٢م بأكثر من أربعين غزواً أو إنزالاً عسكرياً مباشراً في مختلف أنحاء العالم. وذلك لفرض إرادتها وهيمنتها الاستكبارية، ومن الدول التي طالها

الغزو أو الإنزال العسكري الأميركي هي: نيكاراكوا، بيرو، المكسيك، الاوركواي، بنما، كولومبيا، هايتي، تشيلي، كوبا، هندوراس، الدومينكان، السلفادور، كواتيمالا، فيتنام، كوريا، كريناداد، مصر، لبنان، ليبيا، الجمهورية الإسلامية في إيران، السودان، الصومال، العراق، أفغانستان، الفلبين.. وغيرها.

كما أن العديد من دول الغرب وعلىٰ رأسها الولايات المتحدة الأميركية ألزمت عشرات الدول في مختلف أنحاء العالم، ومن خلال التهديد أو الاستضعاف أو العمالة علىٰ القبول بإنشاء قواعد عسكرية علىٰ أراضيها؛ حتىٰ أصبحت بعض هذه الدول لِا هوية لها إلّا بالقواعد العسكرية الأميركية القائمة علىٰ أراضيها.

ولم تكتف بذلك، بل أضافت إليه أسلوباً جديداً في غاية التعسف والإجرام؛ حيث عمدت إلى تأسيس مدرسة رسمية لتدريب وإعداد مجاميع منظّمة، وظيفتها القيام بعمليات الإرهاب والتعذيب والاغتيال في الدول الأخرىٰ. ففي مقال بصحيفة «الجارديان» البريطانية كشف الكاتب البريطاني «جورج مونبيوت» عن معسكر في ولاية جورجيا، تشرف عليه الحكومة منذ خمسة وخمسين عاماً؛ لتدريب رجال شرطة، اتّهموا بالتعذيب وممارسة الإرهاب ضد المواطنين في دول أميركا اللاتينية. وقال «مونبيوت» في مقاله بتاريخ ٣٠/١٠/٢٠٠١م: إنه يوجد في مدينة «فورت بينينج» بولاية «جورجيا» معهد لتدريب الإرهابيين، يطلق عليه «ويسترن هميسفير للتعاون الأمني WHISK»، وإن ضحايا هذا المعهد يفوق قتلىٰ انفجارات ١١ سبتمبر وتفجير السفارتين الأميركيتين في أفريقيا عام ٢٠٠١م. وقال إن هذا المعهد الذي كان يطلق عليه «مدرسة الأميركيين SOA» قام حتىٰ عام ٢٠٠٠م بتدريب أكثر من ستين ألف جندي وشرطي من أميركا الجنوبية، متهمين بالقيام بأعمال تعذيب

وإرهاب، وذلك منذ عام ١٩٤٦م. وقد درّب هذا المعهد أخطر الضباط، الذين ارتكبوا جرائم وحشية ما بين قتل وخطف ومذابح جماعية في دول أميركا اللاتيية، علىٰ رأسها تشيلي وكولومبيا وهندوراس وبيرو.

٧ـ منذ نهايات القرن التاسع عشر برز تيار إصلاحي في الغرب؛ لنزع حالة التطرف العنصري في المجتمع والمؤسسات الغربية، وبسبب ضغوطه المستمرة اضطرت الدول الغربية إلى إعادة النظر في استرقاق الإنسان والمتاجرة به؛ فحظرت انجلترا في عام ١٨٠٧م هذه التجارة، وحظرت الاسترقاق عام ١٨٣٣م، كما منعت فرنسا هذه التجارة البشعة عام ١٨١٥م، إلاّ أنها ترددت في إلغاء الاسترقاق البشري حتىٰ عام ١٨٤٨م؛ حيث قرّرت إلغاءه رسمياً بمبادرة من السياسي الفرنسي «فيكتور شولشر»، كما قام الرئيس الأميركي «إبراهام لينكولن» بتحرير العبيد في أميركا، الذين بلغ تعدادهم أربعة ملايين نسمة في عام ١٨٦٥م، ووعدهم بمائتي دونم من الأرض وبغّلة، إلاّ أن الكونجرس الأميركي الذي تحكمه غالبية عنصرية متطرفة لم يفِ بذلك الوعد.

إلاّ أن عمق النزعة العنصرية المتطرفة في الغرب لم يكن من السهل اجتثاثها، ولا حتىٰ تحجيمها، فقد استعرت من جديد لتكوّن جماعات منظمة وميلشيات مسلّحة، مدعومة من اللوبي العنصري المتطرف، والنافذ في داخل الأجهزة الحاكمة، وراحت تقلب الموازين لصالحها من جديد.

ففي أميركا مثلاً كان التشكيل الأول من الناحية التاريخية لهذه الجماعات العنصرية وميليشياتها المسلحة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، إلاّ أنها أخذت تنتشر وتتطور تنظيمياً وتسليحياً بعد التعديل الثاني للدستور الأميركي الذي سهّل لها ذلك، من خلال نصه علىٰ: «أن وجود ميليشيات منظّمة أمر ضروري لتأمين حرية كل ولاية». وهكذا استمرت في النمو الكمي والنوعي

إلى حدٍّ بدأت تتحكم ـ ومن خلال نفوذها في الأجهزة الرسمية الحاكمة ـ في كثير من الاتجاهات الاجتماعية والثقافية والإعلامية والسياسية، فعمدت إلى القيام بموجة من أعمال العنف والإرهاب والاغتيال، خصوصاً للرموز المطالبة بالحقوق المدنية وإلغاء التطرف العنصري، فقامت باغتيال الرئيس الأميركي «إبراهام لينكولن» عام ١٨٦٥م وهو العام الذي أعلن فيه عن تحرير العبيد في أميركا، كما اغتالت الرئيس «جون كندي» في عام ١٩٦٣م وهو الذي عُرف برغبته في الحد من الاتجاهات العنصرية المتطرفة، وفي عام ١٩٦٥م اغتالت زعيم «أمة الإسلام» الأميركي «مالكوم إكس»، كما اغتالت في عام ١٩٦٨م داعية الحقوق المدنية والأسود اللون «مارتن لوثر كينج».

وقد دفع مدىٰ استفحال هذه المجموعات العنصرية المتطرفة وميليشياتها المسلحة مركز «ساوثرن بوفرتي لوسانتر» الأميركي المستقل إلى إصدار تقرير في عام ١٩٩٨م، يؤكد فيه: «أن المجموعات التي تحرّض علىٰ الحقد ـ النازيّة الجديدة، فروة الرأس، المدافعون عن تفوق العرق الأبيض، الهوية المسيحية... الخ ـ أرتفع ما بين عامي ١٩٩٦م و ١٩٩٧م بنسبة ٢٠٪ ليصل إلى ٥٠٠ مجموعة، تضاف إلى ٨٥٠ مجموعة أخرىٰ منها ٤٠٠ ميليشيا مسلحة منتشرة في أرجاء البلاد. ويؤكد «مارك بوتوك» مسؤول المركز المذكور أن: «معدل المؤامرات الإرهابية الجديّة يبلغ واحدة كل شهر».

وتتعلق هذه المؤامرات ـ وفق التقرير ذاته ـ بعمليات تخريب أو اغتيال أو اقتحام وسرقات، وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية الأميركية أنه سقط بسبب أحداث العنف والإرهاب ٣٤ ألف قتيل بواسطة السلاح.

الخلاصة: نستخلص مما سبق أن الثقافة والحضارة الغربية تتميز بما يلي:

١ ـ إن استعمالها لمصطلح «الإرهاب Terrosim» لغوياً وتاريخياً منحصرٌ

بحالات الفزع والرعب والهول؛ الملازمة عادةً للقتل والتعذيب ومصادرة الأموال وأمثال ذلك.

٢ ـ إن فلسفتها ومبانيها الآيديولوجية قائمة علىٰ مباديء التمييز العنصري المتطرف، والاستعلاء العرقي المفرط، والصِدام بالقوة مع الآخر، وبعبارة أخرىٰ أنها قائمة علىٰ مبدأ الإرهاب الملازم للاضطهاد والاستعباد للآخر، أو إلغائه بالتصفية العرقية.

٣ ـ إن التطبيقات المستمرة في الغرب لفلسفة ومباديء العنصرية المتطرفة، والاستعلاء العرقي والصِدام بالقوة مع الآخر؛ دليل صارخ علىٰ الإرهابية البشعة للثقافة الغربية العنصرية ومؤسساتها المختلفة، ولا يسترها بريق شعاراتها الزائفة وإعلامها الخادع.

ثانياً ـ الإرهاب في الثقافة الإسلامية:

أ- الإرهاب في اللغة: إن كلمة (الإرهاب) مشتقة في اللغة العربية من مادة (رَهِبَ) بالكسرة، فيقال: يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْباً بالضم ورَهَباً بالتحريك أي خاف، ورَهِبَ الشيءَ رَهْباً ورَهَباً ورَهْبَةً: خافه.

ويتعدد المعنىٰ في حالات منها: ما لو كان بصيغة الفعل المزيد (أرْهَبْ) أو الفعل المضعّف (رَهَّبَ) فهي بمعنىٰ خوّف، فيقال: أرهبَ فلاناً أو رهّب فلاناً: أي خوّفه. و عندما يأتي بصيغة الفعل المجرّد من نفس مادة (رَهِبَ): يَرْهَبُ رَهْبَةً ورَهْباً ورَهَباً فيعني خاف، فيقال: رَهِبَ الشيء رَهباً ورهبةً أي خافه، أما لو جاء بصيغة الفعل المزيد بالتاء وهو: (تَرَهَّبُ) فيعني انقطع للعبادة في صومعته، ويشتق منه الراهب والرهبنة والرهبانية.. وأمثالها. وإذا ما استعمل

الفعل (تَرَهَّبَ) متعدياً؛ فسيكون توعّد، فيقال: تَرَهَّبَ فلاناً أي توعده[١].

أما في القرآن الكريم: (باعتباره المصدر المطلق للغة العربية والثقافة الإسلامية)؛ فقد استعمل مصطلح (الإرهاب) في صيغ مختلفة الاشتقاق من نفس المادة اللغوية (رَهِبَ). ففي معنىٰ الخوف والفزع: وردت مشتقات مادة (رَهِبَ) عشر مرّات في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وبمعاني متعددة كالتالي:

أولاً ـ استعملت بمعنىٰ أخلاقي كمالي في العلاقة بين العبد واللّٰه سبحانه، كالخشية والخوف من اللّٰه تعالىٰ والفزع إليه، والآيات التي ورد فيها هذا الاستعمال هي:

أ ـ (يَرهبون): ﴿ولما سكت عن موسىٰ الغضب أَخذ الألواح وفي نُسختها هدىٰ ورحمةً للذين هم لربهم يرهبون﴾[٢].

ب ـ (فارهبون): ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أُوف بعهدكم وإيّاي فارهبون﴾[٣]، **﴿وقال اللّٰه لا تتخذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحدٌ فإياي فارهبون﴾**[٤].

ثانياً ـ استعملت بمعنىٰ إدخال الخوف في قلب العدو أو إخفائه عنه، وهو ما يسمىٰ في الاصطلاح الحديث بالحرب النفسية (الإعلامية)، وهي ليست مقترنة بالضرورة بالقتال أو إراقة الدماء وما شاكل ذلك، كما لو كان لإعداد القوة الدفاعية التي تُدخل الرهبة في العدو؛ حتىٰ لا يتجاوز ويعتدي. والآيات

---

(١) راجع مادة (رهب) في كلٍ من: المنجد في اللغة، لسان العرب لابن منظور، المعجم الوسيط.

(٢) الأعراف: ١٥٤.

(٣) البقرة: ٤٠.

(٤) النحل: ٥١.

التي ورد فيها هذا الاستعمال هي:

أ ـ (تُرهِبون): ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو اللّٰه وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللّٰه يعلمهم...﴾[١].

ب ـ (رَهبةً): ﴿لأنتم أشدُّ رهبةً في صدورهم من اللّٰه ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾[٢].

ج ـ (استرهبوهم): ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾[٣].

د ـ (الرَّهب): ﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرَّهبِ[٤] **فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾**[٥].

ثالثاً ـ استعملت بمعنىٰ الرهبانية، وهي الانقطاع للعبادة في الصومعة، والآيات التي ورد فيها هذا الاستعمال هي:

أ ـ (رهبانهم): ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّٰه والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون﴾[٦].

ب ـ (الرهبان): ﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأَحبار والرهبان ليأكلون

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) الحشر: ١٣.

(٣) الأعراف: ١١٦.

(٤) واضمم إليك جناحك من الرَّهب: أي أخفِ الخوف عن العدو / راجع: تفاسير القرآن الكريم الآية الشريفة، منها: شبر، السيد عبد اللّٰه ـ تفسير القرآن الكريم: ٣٧٣.

(٥) القصص: ٣٢.

(٦) التوبة: ٣١.

أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل اللّٰه..﴾[١].

ج ـ(رهباناً): **﴿لتجدن أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأَنهم لا يستكبرون﴾**[٢].

د ـ(رهبانية): **﴿.. ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان اللّٰه فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون﴾**[٣].

مع العلم أن ما ذكرناه من الاستعمالات القرآنية لمشتقات (رَهِبَ) ينطبق أيضاً علىٰ الاستعمالات في نصوص الحديث الشريف.

ونستخلص مما سبق أن استعمال مصطلح (الإرهاب) وما اشتُقّ من مادة (رَهِبَ) في اللغة العربية، والثقافة الإسلامية لا ينحصر في الدلالة علىٰ الخوف والفزع والرعب كما هو في اللغة والثقافة الغربية، ولو استعمل في هذه المعاني؛ فليس بالضرورة أن يكون مقترناً بالقتل وإراقة الدماء والتعذيب ومصادرة الأموال وأمثالها، كما هو الأصل في الإطلاق الاستعمالي في اللغة والثقافة الغربية.

ب ـ الإسلام والإرهاب: وبعبارة أُخرىٰ، هل تشتمل أصول الإسلام وأحكامه ومبانيه على ما يلزم منه عدوانٌ أو إرهاب؟

للإجابة علىٰ هذا السؤال، نستعرض باختصار أهم الأصول والمباني العقائدية والتشريعية للإسلام، ذات العلاقة بموضوعنا؛ لنعرف هل أنها تشتمل علىٰ هامش من العدوان أو الإرهاب أو أنهما لازم لها أم لا؟:

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) المائدة: ٨٢.

(٣) الحديد: ٢٧.

١ ـ إن من الأصول الأولية التي يقوم عليها الإسلام، والدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة للتوحيد الإلهي؛ هي أنها عالمية وخالدة وشاملة للإنسان في كل زمان ومكان، وبعبارة أُخرىٰ إن من مباني الإسلام الأساسيّة هي أن يكون خطابه شاملاً للبشرية جمعاء، وممتداً في عمود الزمان إلى قيام الساعة، وإن دعوته إلى إقامة العدل الإلهي وتحقيق السعادة الحقيقية للإنسان قائمة علىٰ الدليل والحجة النامة؛ التي يجب أن يصل بيانها إلى كل إنسان في كل زمان ومكان، وقد صرّح القرآن الكريم بهذا في:

قوله تعالىٰ: ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين**﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وما أرسلناك إلاّكافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿**ولقد بعثنا في كلّ أُمةٍ رسولاً أن اعبدوا اللّٰه واجتنبوا الطاغوت...**﴾[3].

وأن الوعد الإلهي حتمي بظهور هذه الدعوة واستطالتها علىٰ غيرها من الدعوات، لكونها دعوة الفطرة الإنسانية السليمة لهدىٰ التوحيد ودين الحق وفرقان العقل بين الحق والباطل، ولا يكون كذلك بغير الدليل والبرهان والحجة البالغة، وهذا ما تؤكده عشرات الآيات في القرآن الكريم، كقوله تعالىٰ:

﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره**

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) النحل: ٣٦.

المشركون﴾ (١).

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله وكفىٰ بالله شهيداً﴾ (٢).

﴿تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (٣).

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (٤).

﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم...﴾ (٥).

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط...﴾ (٦).

﴿إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ (٧).

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً * وقرآناً فَرَقْناه لتقرأه علىٰ الناس علىٰ مكث ونزّلناه تنزيلا﴾ (٨).

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا﴾ (٩).

٢ ـ إن عالمية الإسلام القائمة علىٰ مبدأ التوحيد العالمي، وشمولية خطابه لكافة البشرية في كل زمان ومكان؛ يلزمها عقلاً حق البيان وحق المطالبة بإزالة الموانع والعقبات، التي توضع في طريق وصولها إلى كل إنسان، وبعبارة

---

(١) التوبة: ٣٣ والصف: ٩.

(٢) الفتح: ٢٨.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) النساء: ١٦٥.

(٥) إبراهيم: ٤.

(٦) الحديد: ٢٥.

(٧) المزمل: ١٥.

(٨) الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٩) الأحزاب: ٤٥.

أُخرىٰ أنها تملك الحق في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار بالدليل والحجة البالغة، لقوله تعالىٰ: ﴿**أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾[١]. ولو حيل بينها وبين أن يصل خطابها وبيانها إلى الأمم والشعوب، فلتلك الشعوب والأمم الحق في إزالة تلك الموانع والعقبات، والانتفاض في وجه الطغاة، الذين يحولون بينهم وبين وصول الحق إليهم ومعرفتهم به؛ بل ولهم الحق بالاستنصار وطلب العون من حملة رسالة هذه الدعوة؛ من أجل تحقيق هدفهم الذي يصبون إليه. وأكثر الآيات دلالة علىٰ هذا الحق هي الآيات التي تحكي لنا قصة موسىٰ عليه السلام في قوله تعالىٰ:

﴿**وهل أتاك حديث موسىٰ... إذهب إلى فرعون إنه طغىٰ * قال ربي اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدةً من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أُشدد به أزري * وأشركه في أمري... قال قد أُوتيت سؤلك يا موسىٰ... إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري * إذهبا إلى فرعون إنه طغىٰ * فقولا له قولاً ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشىٰ**﴾[٢].

﴿**فما آمن لموسىٰ إلاّ ذريّةٌ من قومه علىٰ خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإنّ فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسىٰ يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا علىٰ اللّه توكّلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين**﴾[٣].

﴿**إنّ فرعون علا في الأرضِ وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح**

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) طه: (٩، ٢٤ ـ ٣٢، ٣٦، ٤٢ ـ ٤٤).

(٣) يونس: ٨٣ ـ ٨٦.

أبناءهم ويستحيي نساءَهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمنّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[1].

٣ ـ ومن الحقوق الأولية التي تترتب أيضاً علىٰ عالمية الإسلام، والدعوة الإسلامية؛ هو حق إقامة حكومته ودولته، لمن أعلن القبول به بإعلان إسلامه، وعلىٰ من كان داخل بلدانهم (دار الإسلام) من أهل الكتاب، وليس لأحدٍ سلبهم هذا الحق؛ وإلاّ كان معتدياً جائراً وطاغوتاً ظالماً، وللمسلمين كل الحق في دفع هذا العدوان والجور والظلم الذي حاق بهم، ويريد سلبهم حقوقهم الأولية فيما يعتقدون. ويفصح القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن هذا الحق الأولي، منها قوله تعالىٰ:

﴿وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحب المعتدين﴾[2].

﴿... وأَخرجوهم من حيث أَخرجوكم والفتنة أشدُّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتىٰ يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن اللّه غفور رحيم﴾[3].

﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدين للّه فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ علىٰ الظالمين﴾[4].

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قِصاص فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا

---

(١) القصص: ٤ ـ ٦.

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) البقرة: ١٩١ ـ ١٩٢.

(٤) البقرة: ١٩٣.

عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[١].

﴿أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وأن الله علىٰ نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز﴾[٢].

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون * قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنّت الأولين * وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير﴾[٣].

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا علىٰ إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[٤].

٤ ـ من أصول الإسلام وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام: أن الولاية والحاكمية المطلقة علىٰ الناس هي لله وحده لا شريك له، وهي ولاية ذاتية له سبحانه، إلاّ أنه تعالىٰ يمنح الولاية والحاكمية الشرعية بالنص الخاص لمن اصطفىٰ من

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) الأنفال: ٣٦ ـ ٣٩.

(٤) الممتحنة: ٨ ـ ٩.

خلقه ممن ارتقىٰ إلى أعلىٰ مراتب الكمال الإنساني؛ فينصّبه بالجعل والاعتبار ولياً وحاكماً علىٰ الناس، خليفة له سبحانه، وبهذا تكتسب ولاية الولي وحكومة الحاكم المعيّن شرعيته من خلال ذلك النص الإلهي الخاص، وهذا ما تحقق لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وللأئمة الإثني عشر من أهل بيته عليهم السلام.

وتسري شرعية الولاية والحاكمية بالنص العام للفقهاء، الجامعين للشرائط الشرعية في حال عدم حضور الولي المعصوم، المنصوص عليه بالنص الخاص، إلاّ أن هذا الولي والحاكم رغم شرعيته المنصوصة من اللّه سبحانه مباشرة بالنص الخاص، أو بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام بالنص العام؛ سوف لا تنبسط يده في الأمة إلّا بالتزامها وتعهدها بالولاء والطاعة له، وتعتبر الأمة عاصية لأمر اللّه ورسوله إن لم تلتزم بذلك، وحينئذٍ يتوجب علىٰ من له منصب وصلاحية الولاية والحاكمية الشرعية أن يعمل علىٰ توعية الأمة، وإرشادها إلى ضرورة الالتزام بالولاية الشرعية والبيعة والطاعة لها، خصوصا عندما لا تتوفر لديه عوامل القوة لردع من يتآمر ويقف حائلاً بين الأُمة، وبين إعلان ولائها له. وهذا ما حصل للإمام علي عليه السلام الذي نصّ القرآن الكريم والرسول الأمين صلى الله عليه وآله له بالولاية الشرعية بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فمُنعت الأمة عن مبايعته، ولم يجد من يقوم بهم لردع من يمنع عن إقامتها؛ فارتكن جانباً خمساً وعشرين سنة، يعمل علىٰ إرشاد الأُمة وتوعيتها علىٰ حقيقة الولاية الشرعية، والفاروق الحق بينها وبين من تقمّصها بغير حق شرعي، وعندما آل أمر الأمة إليه وانثالت عليه تبايعه؛ نهض بها، وأقام أركان حكومته الشرعية، وحينها كانت لديه القدرة بالأمة الغالبة علىٰ ردع من تآمر لنكث بيعتها في حرب الجمل، والقاسطين عن الحق والأمة لإسقاط حكومته الشرعية في حرب صفين، والمارقين عن الدين والأمة والولاية الشرعية في حرب النهروان.

وعندما اعترت الأمة الشبهات وضعفت إرادتها، فانتكست بعد حكومة الإمام علي عليه السلام؛ اضطر الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية الخارج عن الولاية الشرعية، لعدم توفر شروط القوة لدىٰ الحكومة والولاية الشرعية المقوّمة بطاعة الأمة وانقيادها إليها، وحقناً لدماء الصفوة من أتباع أهل البيت عليهم السلام(١).

كما اضطر الأئمة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في كربلاء علىٰ يد الخلافة الأموية اللاشرعية(٢) للعودة إلى منهج التوعية والتربية، والإعداد للأمة؛ للارتباط بولايتها الشرعية، والعمل علىٰ تهيئة عوامل الظفر بشروط إقامة حكومتهم الإلهية العادلة.

وخلاصة القول هنا هي: أن للولاية والحكومة وصفين:

أولهما: الشرعية التي تُجعل وتُمنح من اللّٰه سبحانه وتعالىٰ لرسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بالنص الخاص، ومنهم عليهم السلام للفقهاء العدول الجامعين للشرائط الشرعية بالنص العام.

وثانيهما: فعليّة امتلاك القدرة علىٰ بسط يدها وحكومتها من خلال تولي الأُمة، وطاعتها للولي والحاكم الشرعي؛ إذ لا تتحقق للحكومة الشرعية قدرة النفوذ بالقهر والإكراه؛ بل بالانقياد والطاعة القائمين علىٰ الإيمان والولاء. وهذان الوصفان: (الشرعية وقدرة النفوذ بانقياد وطاعة الأمة القائمان علىٰ الإيمان والولاء) لا يتحققان في الحكومات الوضعية، إذ لا أساس شرعياً ولا عقلياً، ولا قدرة نفوذ حقيقية لها؛ بل إنها تصل إلى سدة

---

(١) يراجع: آل ياسين: صلح الإمام الحسن (ع) وغيرها من المصادر ذات الاختصاص.

(٢) يراجع: شمس الدين: ثورة الإمام الحسين (ع) وغيرها من المصادر ذات الاختصاص.

الحكم، وتستمر فيه بالخداع والتزوير والتضليل والتحميل والقهر والقوة[١].

٥ ـ إن الإسلام وفق مباني مدرسة أهل البيت عليهم السلام يشترط في الحاكم الشرعي المنصوص بالنص الإلهي الخاص العصمة من السيئات كالنبي محمد صلى الله عليه وآله والأئمة الإثني عشر من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وتشترط العدالة بأعلىٰ درجاتها في الولي الفقيه المنصوب حاكماً بالنص العام عند عدم حضور المعصوم عليه السلام. ومن العلل الضرورية لهذا الشرط هو ضمان عدم وقوعه في الظلم، وعدم سوء استخدامه لموقع الحكومة والحاكمية المقدّس، والخطير الذي وضعه الإسلام فيه، وعدم سوء استخدامه للقدرة والسلطة التي تمنحهما الأمة الإسلامية له؛ من خلال التزامها بالواجب الشرعي بالانقياد والطاعة له، ووضع القدرات المادية والاجتماعية الهائلة بين يديه. ولهذا نجد أن الإسلام يسلب شرعية أيّ حاكم لا يتمتع بالعصمة في حالة حضور المعصوم، أو لا يتمتع بالعدالة المانعة عن الوقوع في الظلم والجور في حالة عدم حضور المعصوم، وبهذا يضمن الإسلام عدالة حكومته وقسطها، ويمنع عنها الوقوع في الظلم والجور.

ومن أبرز الآيات القرآنية التي تصرّح بهذا الشرط الضروري هي:

قوله تعالىٰ: **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾**[٢].

وقوله تعالىٰ في تنزيه الرسول وأهل بيته عليهم السلام وعصمتهم: **﴿إنما يريد اللّـه**

---

(١) بُحث ذلك مفصلاً في مضانّه، وعلىٰ سبيل المثال راجع: الحائري، السيد كاظم ـ أساس الحكومة الإسلامية والمقدادي، فؤاد كاظم ـ أهل البيت عليهم السلام ومصلحة الإسلام العليا.

(٢) البقرة: ١٢٤.

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[١].

وقوله تعالىٰ في بيان وظيفة حكومة العدل الإلهي: ﴿**الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾[٢].

٦ ـ إن انعتاق فطرة الإنسان، وانطلاق عقله بإدراك سليم في مدارج الفكر والمعرفة؛ لا يتحقق بأفضل صوره إلاّ في رحاب حكومة العدل الإلهي، وظلّ سلطة الإسلام وعلوّه، حيث يصبح الإنسان طليقاً أمام الحقائق؛ يتعايش مع الدليل والبرهان بلا إرهاب ولا موانع ولا أوهام ولا تزوير ولا خداع، إذ: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾[٣]، فينفتح عقله، وتشرق نفسه بنور الله وهديه؛ فيتحقق له قوله تعالىٰ في قرآنه الكريم: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون**﴾[٥].

أمّا في ظلّ سلطان الكفر وحكومة الطاغوت، وبسبب نزعة الطغاة والحكام فيها نحو الاستكبار والطغيان؛ فستتحول حرية الفكر والبيان بالدليل والبرهان إلى تزوير وتضليل، وكذب وخداع، وتتحول حرية الإرادة والاختيار إلى إكراه وقهر وإرهاب، وهو مصداق قوله تعالىٰ فيما كان عليه فرعون مع قومه:

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) الروم: ٣٠.

(٥) البقرة: ١٣٨.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾(١).

وقوله تعالىٰ عند تحذيره رسوله صلى الله عليه وآله من إرهاب المشركين وتضليلهم له: ﴿فاصبر إنّ وعد اللّٰه حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون﴾(٢).

وقوله تعالىٰ في وصف المستكبرين والجبابرة: ﴿الذين يجادلون في آيات اللّٰه بغير سلطان أتاهم كَبُرَ مقتاً عند اللّٰه وعند الذين آمنوا كذلك يطبع اللّٰه علىٰ كل قلب متكبر جبار﴾(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه اللّٰه علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من بعد اللّٰه أفلا تذكّرون﴾(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿فمن يرد اللّٰه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقا حَرَجاً كأنّما يصعّد في السماء كذلك يجعل اللّٰه الرجس علىٰ الذين لا يؤمنون﴾(٥).

وقال تعالى في صفة الجائرين المعتدين: ﴿الذين يكذّبون بيوم الدين * وما يُكذّب به إلاّ كلُّ معتد أثيم * إذا تُتلىٰ عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين * كلاّ بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾(٦).

وبهذا سيحوّل هؤلاء الطواغيت الأمم والشعوب عن مسار فطرتهم السليمة، ويخرجونهم من نور الحق والهدىٰ إلى طاغوت الباطل والضلال، وقد أشار القرآن الكريم صريحاً إلى هذه الحقيقة في قوله تعالىٰ:

---

(١) الزخرف: ٥٤.

(٢) الروم: ٦٠.

(٣) غافر: ٣٥.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

(٦) المطففين: ١١ ـ ١٤.

﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾[١].

ولا نحتاج إلى سرد الشواهد الكثيرة التي ملأت آفاق دول ومجتمعات الجاهلية المعاصرة؛ سواءً منها الغربية أو الشرقية الخاضعة لها. فالشعوب والأمم تكتوي بنار ظلمها حائرة بضلالها متخبطة بظلماتها.

٧ ـ ومن الحقائق الساطعة في الإسلام هو أن مشهور فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يقولون بالجهاد الابتدائي في عصر عدم حضور المعصوم[٢] وأن أحكام الجهاد الدفاعي تُلزم المسلمين بعدم البدء بالقتال، وعدم البدار بالعدوان؛ يقاتلون من بدأهم بالقتال ويردّون العدوان علىٰ من بدر به، وقبل كلّ ذلك يجب أن لا ينسوا دعوتهم الإلهية وهدفهم التوحيدي؛ فيدعوهم إلى الإسلام وأن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يقبلوا بكلمةٍ سواء، تجمعهم وإياهم وهي كلمة التوحيد الخالدة «لا إله إلاّ اللّٰه»، حكاية عن قول اللّٰه تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ اللّٰه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّٰه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾[٣]، ولقول رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله الشهير: «**يا أيها الناس: قولوا لا إله إلاّ اللّٰه تُفلحوا**»[٤].

فإن لم يستجيبوا إلى ذلك وبدأوا بالقتال والعدوان، ثم تمكّن المسلمون منهم واستطالوا عليهم؛ فلا يجهزوا علىٰ جريح ولا يقتلوا أسيراً ولا طفلاً ولا

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) باستثناء بعض الأعلام المتأخرين. يراجع مثلاً: النجفي، الشيخ محمد حسن - جواهر الكلام في شرح شرائع الأسلام، باب الجهاد، والحائري، السيد كاظم - الكفاح المسلح في الأسلام.

(٣) آل عمران: ٦٤.

(٤) بحار الأنوار ج ١٨ باب ١ رواية ٣٢.

أمرأة ولا شيخاً إلاّ إذا كان محارباً، ولا يعقروا حيواناً نافعاً ولا يتلفوا زرعاً ولا يقطعوا شجرة مثمرة.. الخ إنّما تكليفهم منحصرٌ بقتال المحارب، وردّ عدوان المعتدي، فإن انتهوا عن قتالهم وعدوانهم؛ فلا قتال ولا عدوان عليهم. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ:

﴿وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحب المعتدين﴾[1].

﴿... ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّىٰ يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن اللّه غفورٌ رحيم﴾[2].

﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدين للّه فإن انتهوا فلا عدوان إلّا علىٰ الظالمين﴾[3].

﴿فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا اللّه واعلموا أن اللّه مع المتقين﴾[4].

وورد عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله في أحكام الجهاد والقتال قوله: «**كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم اللّه وباللّه وفي سبيل اللّه وعلىٰ ملّة رسول اللّه، لا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلّا أن تضطروا إليها، وأيّما رجل من أدنىٰ المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحدٍ من المشركين فهو جار حتّىٰ يسمع كلام اللّه، فإن تبعهم فأخوكم في الدين، وإن**

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) البقرة: ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) البقرة: ١٩٣.

(٤) البقرة: ١٩٤.

أبىٰ فأبلغوه مأمنه، واستعينوا بالله»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**إن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا بعث أميراً له علىٰ سرية أمره بتقوىٰ الله عزّوجل في خاصة نفسه، ثم في أصحابه عامّة ثم يقول:... لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا متبتّلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً؛ لأنكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه، ولا تعقروا من البهائم مما يؤكل لحمه إلّا ما لابدّ لكم من أكله...**»[٢].

ومن وصايا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لجيش المسلمين قال: «**لا تقاتلوهم حتىٰ يبدأوكم، فإنكم بحمد الله علىٰ حجّة، وترككم إيّاهم حتىٰ يبدأوكم حجّة أُخرىٰ لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا مُعْوِراً**[٣]**، ولا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ، وإن شتمن أعراضكم، وسببن أُمراءَكم، فإنهن ضعيفات...**»[٤].

٨ ـ إن الإسلام يكرّم الإنسان، ويضمن حقوقه كاملة بما لم تضمنه أية لائحة، تدعي حقوق الإنسان، فالكرامة الإنسانية نجدها في آخر لائحة وضعية لحقوق الإنسان، محدودة في دائرة الأصل الأولي للإنسان، كموجود وكائن عاقل في هذه الحياة، في حين أن الإسلام لا يقصر الكرامة الإنسانية علىٰ الأصل الأولي للإنسان؛ بل يرىٰ فيها قيمة متحركة مع الإنسان في جميع أطوار ومراحل سيره الإنساني في هذه الحياة، فيرىٰ لها رتبتين:

---

(١) الوسائل: باب ١٥ من أبواب جهاد العدو ـ ح ٢.

(٢) الوسائل: باب ١٥ من أبواب جهاد العدو ـ ح ٣.

(٣) المُعْوِر: الذي أمكن من نفسه، وعجز عن حمايتها: وأصله أَعْوَرَ أي أبدىٰ عورته.

(٤) نهج البلاغة: الوصية ١٤ من كتب ووصايا أمير المؤمنين (ع).

الأولىٰ: قيمة أولية مشتركة بين بني الإنسان: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علىٰ كثير ممّن خلقنا تفضيلا**﴾(١).

الثانية: قيمة مكتسبة، يحصل عليها الإنسان بحركته التكاملية، ضمن مساريها المعنوي الخلاّق للنفس الإنسانية، والتصديقي العملي البنّاء للحياة الاجتماعية؛ فإنّ أيّ وجدان إنساني يدرك أن هناك فرقاً كبيراً بين فردٍ، عظيم بعلمه وخصاله الأخلاقية العالية، التي اكتسبها بجهده وجهاده، والتي ملّكته قدرة أداء دور إنساني بنّاء، وإصلاحي كبير في بناء الحياة وإثرائها، وبين فردٍ عادي لم يكتسب شيئاً من ذلك، ولم يترك أثراً بنّاءً في الحياة، بل وفرق أكبر بين الأول وبين فردٍ شرير طاغية، يعيث في الأرض فساداً: ﴿**قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾(٢).

فهناك في الإسلام ميزة وحقوق للكرامة الإنسانية المكتسبة، لا تجدها في لوائح حقوق الإنسان الوضعية كما هي في الإسلام، كميزة وحقوق الكرامة للعلماء: ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾(٣)، وللمؤمنين: ﴿**وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً**﴾(٤)، وللأتقياء: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم**﴾(٥)، وللعاملين والمجاهدين: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير**

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الرعد: ١٦.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) الأحزاب: ٤٧.

(٥) الحجرات: ١٣.

أُولي الضرر والمجاهدون في سبيل اللّٰه بأموالهم وأنفسهم فضّل اللّٰه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علىٰ القاعدين درجة وكّلاً وعد الحسنىٰ وفضّل اللّٰه المجاهدين علىٰ القاعدين أجراً عظيماً﴾(١)، وأمثال ذلك من الامتيازات والحقوق.

فالإسلام يبني الحياة الاجتماعية والأخلاقية للإنسان في إطار الأمم والمجتمعات علىٰ قيمتين أساسيتين:

القيمة الأولىٰ: قيمة التناظر والتماثل في الأصل الإنساني الأولي بين الشعوب والأمم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾(٢)، **﴿ولقد كرّمنا بني آدم... وفضّلناهم علىٰ كثير ممّن خلقنا تفضيلا﴾**(٣).

القيمة الثانية: قيمة التكريم والتفاضل الإنساني المكتسب بين الناس أفراداً وجماعات: ﴿... إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم﴾(٤)، وهي قيمة مكتسبة بالسعي والكفاح، يصل إليها بنو الإنسان أفراداً وشعوباً وأمماً، ويمتازون بها فيما بينهم، وتترتب لهم بها حقوق إضافية؛ بل ويتفاضلون علىٰ أساسها في الحقوق والواجبات، وبهذا امتازت وفُضّلت أُمة الإسلام المحمدي الأصيل(٥): **﴿كنتم خير أُمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللّٰه﴾**(٦).

---

(١) النساء: ٩٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣)الإسراء: ٧٠.

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) لمزيد من التفصيل راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب في حقوق الإنسان في الإسلام.

(٦) آل عمران: ١١٠.

ولهذا نجد في ظلّ حكومة الإسلام ودولته العادلة؛ تتعايش مع نظرائهم المسلمين جميع الأقليات الدينية من أهل الكتاب: (نصارىٰ، ويهود، وصابئة... وغيرهم من أهل الكتاب) بأمان، وحرية فكرية ودينية واجتماعية، وينطلق المسلمون في ذلك من التزامهم بالواجب الشرعي والإنساني، الذي شدّهم إليه وألزمهم به الإسلام. ومما ورد في ذلك ما جاء في الحديث عن أيام حكومة أمير المؤمنين عليه السلام: وهو أنه: «مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **ما هذا؟** قالوا: يا أمير المؤمنين هذا نصراني، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **استعملتموه حتىٰ إذا كبُر وعجز منعتموه، أنفقوا عليه من بيت المال**»(١).

ولم يقتصر الإسلام علىٰ إعلان مبدأ التعايش السلمي فكرياً ودينياً واجتماعياً مع الأديان السماوية الأُخرىٰ، خصوصاً في ظلّ الحكومة الإسلامية؛ بل أمر بالدفاع عن مؤسساتهم الدينية المشرّعة في دياناتهم، كالصوامع والبِيَع والصلوات وما في حكمها، ويرىٰ ضرورة الاحتفاظ بها إلى جنب الدفاع والمحافظة علىٰ مساجد ومشاهد المسلمين المقدّسة، وقد صرّح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللّه كثيراً ولينصرنّ اللّه من ينصره إن اللّه لقوي عزيز**﴾(٢).

ولا يقتصر التعايش السلمي، والتعاون في المجالات الإنسانية المختلفة بين المسلمين والأقليات الدينية الأخرىٰ من أهل الكتاب، خصوصاً داخل المجتمع والدولة الإسلامية؛ بل يتعداه إلى العلاقات الخارجية وعموم

---

(١) الوسائل باب ١٩ من أبواب جهاد العدو ـ ح ١.
(٢) الحج: ٤٠.

المجتمعات العالمية بمختلف دياناتهم وقومياتهم، علىٰ أساس من الاحترام المتقابل، والمنافع المتبادلة والحقوق الإنسانية الأولية المشتركة، وهو مفاد قوله تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿**لا ينهاكم اللّٰه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن اللّٰه يحب المقسطين...**﴾[1].

الخلاصة:

إن استعمال مصطلح (الإرهاب) وما أُشتقّ من مادة (رَهِبَ) في اللغة العربية، والثقافة الإسلامية لا ينحصر في الدلالة علىٰ الخوف والفزع والرعب كما هو في اللغة والثقافة الغربية، ولو استعمل في هذه المعاني فليس بالضرورة أن يكون مقترنا بالقتل وإراقة الدماء، والتعذيب ومصادرة الأموال وأمثالها، كما هو الأصل في الإطلاق الاستعمالي في اللغة والثقافة الغربية.

٢ ـ إن الإسلام ينطلق في أصوله ومبانيه وأحكامه من فطرة الإنسان الأولية التي فُطر عليها، ليعلن مبدأ التوحيد العالمي؛ فيصدع بدعوته العالمية وسلاحه الأولي هو: الدليل والبرهان والحجة البالغة، ومن حقّه الدفاع عن مبدئه الفطري (التوحيد) إزاء أيّ عدوان أو إرهاب، يهدف إلى انتزاعه منه، وله الحق في إزالة أيّ مانع أو عقبة يضعها الطغاة والمستكبرون في طريق إعلان مبدئه هذا، وبيانه لكل الناس بأممها وشعوبها وقبائلها، لأن دعوته للتوحيد هي خطاب الفطرة الإنسانية التي فُطر عليها كل إنسان، ومن حقه أن يقيم دولة التوحيد في المجتمعات البشريّة ويقرّوا حاكميّة الله سبحانه في الأرض.

ويشترط في دولة العدل الإلهي العصمة أو العدالة بأعلىٰ مراتبها في الحاكم

---

(١) الممتحنة: ٨.

الإسلامي؛ ضماناً لعدم الانحراف والظلم والعدوان، ويجب علىٰ المسلمين إعلان التولي والتسليم والطاعة له لتحقيق شرط الاقتدار وانبساط اليد، وإن لم يفعلوا ذلك فقد عصوا، إذ لا تتحقق للحكومة الشرعية قدرة النفوذ في الأُمة بالقهر والإكراه؛ بل بالانقياد والطاعة القائمين علىٰ الإيمان والولاء. وتتحقق في ظلّ حكومة الإسلام كل أجواء الانطلاق الإنساني السليم للمجتمع في مجالات الفكر الخلاّق، والحرية البنّاءة والتجربة العملية الرائدة، ويُلزم المسلمون بعدم الظلم والعدوان والإثم؛ بل بالردِّ إذا تعرّضوا للظلم والعدوان والإثم، وأن يتعايشوا في ظلّ دولة الإسلام مع الأقليات الدينية الأُخرىٰ من أهل الكتاب، ويحفظوا حقوقهم بالأمن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وحرية الفكر والعبادة؛ بل ويدافعوا عن صوامعهم وبِيَعهم وصلواتهم، كما يدافعون عن مساجدهم. ويرسم الإسلام للمسلمين ودولتهم نهج العلاقات العامة مع باقي المجتمعات، والدول المختلفة علىٰ أساس من الاحترام المتقابل، والمنافع المتبادلة، وحماية الحقوق الإنسانية المشتركة.

وزبدة القول: أن لا موقع للعدوان ولا الإرهاب العدواني في أصول ومباني وأحكام الإسلام العظيم.

وبقي لنا أن نستعرض ونقوّم التجربة التاريخية الإسلامية، وهل اشتملت علىٰ عدوان وإرهاب عدواني أم لا؟ ونميط اللثام عن المقاطع التاريخية من التجربة التي تنتسب بحق إلى الإسلام، والمقاطع التاريخية من التجربة التي لا تنتسب بحق إلى الإسلام.

التجربة التاريخية الإسلامية ومنطق القوة
«عرض وتقويم»

في هذا الموضوع سنستعرض ونقوّم التجربة التاريخية الإسلامية، لنرىٰ هل أنها اشتملت على عدوان وإرهاب عدواني أم لا؟ ونميط اللثام عن المقاطع التاريخية من التجربة التي تنتسب بحق إلى الإسلام، والمقاطع التاريخية من التجربة التي لا تنتسب بحق إلى الإسلام، لنصل من خلال هذا التمييز والفرز إلى الحقيقة التي تكون حجّة لازمة، ودليلاً تاماً في مقابل الخصم بدعم مقولات الإسلام العظيم في عدم وجود أيّ شكل من أشكال العدوان والإرهاب العدواني في أصوله ومبانيه وأحكامه.

وقبل الخوض في استعراض وتقويم التجربة التاريخية الإسلامية لابد من الإشارة إلى أحكام أساسيّة في باب الجهاد الإسلامي وهي:

١ - ضماناً لإقامة الحق، وتحقيق القسط والعدل الإلهي، وعدم الوقوع في الباطل والظلم والجور؛ جَعَلَ الإسلام وفق مباني مدرسة أهل البيت عليهم السلام أمْرَ إعلان الجهاد والقتال وإيقافه حصراً بالحاكم الشرعي المعصوم المنصوب بالنصّ الإلهي الخاص في زمن حضور المعصوم، وبالحاكم الشرعي العادل الجامع للشرائط المنصوب بالنص العام في زمن عدم حضور المعصوم، وللحاكم الشرعي هذا لو لم يباشر قيادة القتال والجهاد بنفسه الإذن به أو إمضاءه تحت نظره.

٢ - إنّ الجهاد والقتال في الإسلام وفق مباني مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو من الشؤون الخاصة المنحصرة بالحكومة الإسلامية الشرعيّة عند قيامها. وقد قلنا إنّ شرعيّة هذه الحكومة مستمدة من أنّ رأسها ومن بيده أمرها هو المعصوم، المنصوب بالنص الالهي الخاص، كالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة الإثني عشر من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام في زمن حضورهم عليهم السلام، والفقيه العادل الجامع لشرائط الولاية والحكومة الشرعية المنصوب بالنص العام في زمن عدم حضور المعصوم، وعليه فلا شرعية لأيّة حكومة لا يكون حاكمها متّصفاً بالشروط المذكورة أعلاه، وليس لها الأمر بالقتال والجهاد إلّا بإذن الحاكم الشرعي أو بإمضائه، وفق الشروط الشرعية التي يقررها الإسلام، ويشخّصها الولي والحاكم الشرعي المعصوم في زمن الحضور، أو الفقيه العادل الجامع للشرائط في زمن عدم الحضور. وبخلافه لا شرعيّة للقتال والجهاد الذي تخوضه الحكومات غير الشرعية؛ لكونها حكومات باطلة، ويقع منها الظلم والجور ولا يقوم علىٰ يديها الحق، ولا يتحقق القسط والعدل الإلهي، أمثال: حكومات بني أميّة وبني العبّاس والعثمانيين ونظرائهم من الحكومات المعاصرة.

التجربة التاريخية الإسلامية ومنطق القوّة: إن المقاطع التاريخية للتجربة الإسلامية التي سنستعرضها للتقويم حسب تسلسل أدوارها الزمنيّة هي كالآتي:

أولاً - **عهد النبي محمد صلى الله عليه وآله**: هذا العهد يعتبر في نظر المسلمين أول وأعظم ترجمة صادقة وحاكية عن الأصول والمباني الأساسية للإسلام، ومنها القتال والجهاد. ومن أجل كشف الصورة الواقعية للعهد النبوي في هذا الجانب سنعرض لما وثّقته المصادر التاريخية من موارد القتال والجهاد التي وقعت في

عهد الرسول ﷺ؛ لنرىٰ هل أنها اشتملت علىٰ استخدام القوة والقتال عدواناً، أو اشتملت علىٰ أعمال إرهابيّة عدوانيّة لتحميل الإسلام أو الاستبداد به اجتماعياً وعقائدياً.

ويمكننا تقسيم موارد القتال واستخدام القوّة المتمثلة بغزوات وسرايا النبي ﷺ إلى ثلاث مراحل كالآتي:

أ - غزوات وسرايا[١] المرحلة الأولى:

وهي التي تمّت بعد هجرة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه إلى المدينة المنوّرة، وتشكيل أول دولة إسلامية فتية فيها والتي انتهت بنهاية معركة بدر الكبرىٰ، وخلاصتها كالآتي:

١ - عقد رسول الله ﷺ لحمزة بن عبد المطلب على ثلاثين من المسلمين بعد سبعة أشهر من مقدمه ﷺ المدينة ليلقوا أبا جهل فلقوه، وهو في ثلاثمائة من المشركين، لكن مجدي بن عمرو الجهني الذي كان موادعاً للفريقين، حجز بينهما، وانصرفوا من غير قتال[٢].

٢ - وعلى رأس ثمانية أشهر من مهاجره الشريف، عقد الرسول ﷺ لعبيدة ابن الحارث بن المطلب على ستين رجلاً؛ ليلقوا أبا سفيان في بطن رابغ، وكان في مائتين. وفي هذه السرية فرّ المقداد وعتبة بن غزوان إلىٰ المسلمين[٣].

٣ - بعدها كانت سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار على فريق من

---

(١) تسالم المؤرخون على إطلاق «الغزوة» علىٰ الجيش الذي يخرج فيه الرسول ﷺ بنفسه معها وإطلاق «السرية» علىٰ البعث الذي لا يكون رسول الله ﷺ فيه.

(٢) تاريخ الخميس، ج١، والسيرة الحلبية ج٣، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢.

(٣) السيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية ج١، وتاريخ الخميس ج١.

المهاجرين؛ ليعترضوا عيراً لقريش، فسبقتهم[١] ولم يقع قتال.

٤ - غزوة الأبواء وكانت بعد مقدم الرسولصلى الله عليه وآله إلى المدينة بسنة أو أكثر أو أقل، حيث خرج فيها النبيصلى الله عليه وآله بنفسه يريد قريشاً وبني مرّة بن بكر. فتلقاه سيد بني مرّة بالأبواء، فصالحه، ثم رجعصلى الله عليه وآله إلى المدينة[٢].

٥ - غزوة بواط، جبل لجهينة، قرب المدينة حيث خرج الرسولصلى الله عليه وآله في مائتين من المهاجرين يعترض عير بني ضمرة؛ فبلغ بواطاً ورجع، ولم يلق كيداً[٣].

٦ - غزوة العشيرة التي جاءت بعد غزوة بواط بأيام قلائل، ووادع فيها النبيصلى الله عليه وآله بني مدلج، وحلفاءهم من بني حمزة، ثم رجعصلى الله عليه وآله إلى المدينة، ولم يلق كيداً[٤].

٧- سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة في رجب أو في جمادىٰ الثانية من السنة الثانية للهجرة، في ثمانية أو إثني عشر رجلاً من المهاجرين. وقد كتب له النبيصلى الله عليه وآله كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، وفيه بعد البسملة: «أما بعد، فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتىٰ تنزل بطن نخلة، فترصد بها عير قريش ـ وفي رواية: قريشاً - حتى تأتينا منها بخبر». فأقام هناك، فمرّت بهم عير لقريش، فتجرأ المسلمون عليهم، فقتلوا منهم رجلاً

---

(١) تاريخ الخميس ج١.

(٢) تاريخ الخميس ج١، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢، والسيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية ج١.

(٣) تاريخ الخميس ج١، والسيرة النبوية لدحلان بهامش السيرةالحلبية ج١، والسيرة الحلبية ج٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢.

(٤) تاريخ الخميس ج١، والسيرة النبوة لدحلان بهامش السيرة الحلبية ج١، والسيرة الحلبية، ج٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢.

وأسروا اثنين، واخذوا ما معهم(١).

٨ - غزوة بدر الأولىٰ أو غزوة سفوان، وكانت بعد غزوة العشيرة بأيّام؛ حيث أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فخرج النبيﷺ في طلبه حتى بلغ سفوان من جهة بدر، وفاته كرز، فرجعﷺ إلى المدينة (٢).

٩ - غزوة بدر الكبرى، وقعت في السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة بين المسلمين بقيادة الرسولﷺ ومشركي مكّة. وكانت إرهاصات ومقدّمات هذه الغزوة أنّ «كرز بن جابر» أغار على آبال أهل المدينة وأغنامهم ونهبها؛ فخرج رسول اللهﷺ مع جماعة إلى حوالي بدر كي يظفروا به فلم يمكنهم ذلك. ثم خرج رسول اللهﷺ مع المسلمين مرّة أخرى يترقب العير التي طلبوها في غزوة العشيرة فأفلتت منهم إلى الشام، وعندما علم بعودتها قال الرسولﷺ: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يغنمكموها، وكانت هذه القافلة بقيادة أبي سفيان مع ثلاثين أو أقل أو أربعين أو سبعين راكباً، على اختلاف الروايات. وخرج المسلمون يريدون العير، وعلم أبو سفيان بالأمر، فأرسل إلى قريش يستنفرهم لنجاة العير.

فشاور رسول اللهﷺ المسلمين في الحرب أو الرجوع إلى المدينة، فكانت المشورة هي التصميم على الحرب، وحينما اطلّع المسلمون على فرار القافلة ونجاتها اغتمّ بعضهم لفوات الغنيمة التي كانت مع القافلة التجارية من أيديهم، ونزلت الآية الكريمة: **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر**

---

(١) تاريخ الخميس ج ١، والسيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية ج ١، والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢.

الكافرين﴾(١). وحينما خالف أبو سفيان في الطريق ونجا بالعير أرسل يطلب من قريش الرجوع فأبىٰ أبو جهل إلّا أن يرد بدراً، ويقيم ثلاثة أيام ويأكل ويشرب الخمور حتى تسمع العرب بمسيرهم وجمعهم فيهابوهم أبداً. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد خرج في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، عدد أصحاب طالوت، ومعهم من الإبل سبعون بعيراً وفَرَسان، ومن السلاح ستة دروع وثمانية سيوف، أما المشركون فعددهم تسعمائة إلى ألف رجل، ومعهم سبعمائة بعير، ومن الخيل أربعمائة وفيهم ستمائة دارع. وبعد أن عبّأ النبي صلى الله عليه وآله أصحابه، قال لهم: «**غضّوا أبصاركم، ولا تبدأوهم بالقتال، ولا يتكلمنّ أحد**»، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المشركين يقول لهم: «**معاشر قريش، إني أكره أن أبدأكم بقتال، فخلوني والعرب وارجعوا؛ فإن أكُ صادقاً فأنتم أعلىٰ بي عيناً، وإن أكُ كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري**». إلاّ أنّ طغيان قريش وجبروتها يأبيان عليها النزول لمنطق العقل والرأي السديد؛ فأصّروا علىٰ القتال. وابتدأت الحرب بمجيء الأسود المخزومي إلىٰ حوض ماء المسلمين ليهدمه أو يشرب منه، فوقع القتال بينه وبين حمزة بن عبدالمطلب (رض) وقتله حمزة، ثم ابتدأت قريش بطلب المبارزة، وبعد مقتل مبارزي قريش الثلاثة هجم مشركو قريش علىٰ المسلمين فهزم الله تعالىٰ مشركي قريش علىٰ يد المسلمين شرّ هزيمة(٢).

تقويم المرحلة الأولى: من سياق استعراضنا لهذه الغزوات التي قادها رسول الله صلى الله عليه وآله، والسرايا التي بعث بها في المرحلة الأولىٰ من حكومته في المدينة

---

(١) الأنفال: ٧.

(٢) مغازي الواقدي ج١، والبحار ج١٩، والسيرة الحلبية ج٢، وتاريخ الخميس ج١، ومناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب ج١، ومجمع البيان ج٢، والسيرة النبوية لابن كثير ج٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢، وصحيح مسلم ج٥.

المنوّرة؛ ينكشف لنا أن الهدف الأساسي منها كان الدفاع عن النفس من كيد وعدوان مشركي قريش وحلفائهم، وتثبيت موقع الاقتدار والقوة للدولة الإسلامية الفتيّة في المدينة المنوّرة، وهو حقّ طبيعي ودفاع وردع للعدوان القائم والمرتقب. وكان مصبّ هذا الهدف في ثلاث دوائر أساسيّة:

الأولى: دائرة المسلمين، حيث أدّت إلى تملّكهم جرأة الإقدام الجهادي، وشجاعة المواجهة القتالية وشعورهم بالقوّة والاقتدار على مواجهة العدو المتربص بهم؛ بل والتعبؤ لتحرير مدينتهم وديارهم المكيّة التي أُخرجوا منها ظلماً وعدوانا بعد أن تعّرضوا من قبل مشركي قريش إلىٰ شتىٰ أنواع التعذيب والاضطهاد والحرمان والحصار، ورفع موانع الطاغوت عن طريق إعلان عقيدتهم الإلهية، وتبليغ دين الله والدعوة إليه بين الناس بالدليل والحجة البالغة التي منعوا منها، وحرموا من أبسط أنواع حرية الفكر والبيان.

الثانية: دائرة القبائل المحيطة بالمدينة المنوّرة؛ حيث بدأت هذه القبائل تشعر بقوة المسلمين وشوكتهم واقتدارهم علىٰ مواجهة عدوان مشركي قريش،الذين مثّلوا القوة والقدرة المستكبرة التي لا منازع لها في قبائل الحجاز، مما دفع الكثير من هذه القبائل إلى دخول بعضها في مهادنات مع المسلمين والبعض الآخر في تحالفات على النصر ضد العدو المتغطرس، وكان لهذه التحالفات والمهادنات أثر كبير على باقي القبائل التي آثر العديد منها الابتعاد عن أجواء المواجهة بين المسلمين ومشركي قريش؛ حفاظاً على مصالحها ومستقبل موقعها فيما لو تغيّرت موازين القوىٰ لصالح المسلمين. وهذا الأمر كان بحدّ ذاته نصراً وقوةً إضافية إلى المسلمين لاسترداد حقوقهم، ودفع الظلم والعدوان عن أنفسهم من جهة، وضعفاً وتوهيناً بمشركي قريش المستكبرين، الذين يترقبون من هذه القبائل حماية قوافلهم القادمة إلى مكّة،

وتمكين سلطتهم علىٰ الحجاز من جهة أخرى.

الثالثة: دائرة مشركي قريش المستكبرين وحلفائهم، حيث إنّ هذه الغزوات والسرايا كسرت هيبتهم، وأضعفت قدرتهم المستطيلة على قبائل الجزيرة العربية، وأربكت مواقعهم الاقتصادية، وأصبحت مصدر تهديد متواصل لقوافلهم التجارية؛ مما أضعف الثقة بهم وبقدرتهم على امتلاك زمام المصالح الاقتصادية التي تعوّل عليها القبائل المشاركة فيها، مما دفع بهذه القبائل فيما بعد للضغط على مشركي قريش لإيقاف عدوانهم والرضوخ إلى المنطق والعقل، بل والدخول في مفاوضات مع المسلمين للوصول إلى ما فيه حفظ المصالح وحقن الدماء.

ب - غزوات وسرايا المرحلة الثانية:

وبدأت بعد انتهاء معركة بدر الكبرىٰ، وانتهت بفتح مكة المكرمة، وخلاصتها كالآتي:

١ ـ غزوة قرقرة الكدر، وسببها أنه قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن جمعاً من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر ينوون غزو المدينة فسار إليهم الرسول صلى الله عليه وآله في مائتين من أصحابه، وقال المؤرخون: إن هذه الغزوة هي نفس غزوة بني سليم التي كانت بعد بدر الكبرىٰ بسبع ليالٍ، فلمّا بلغ الرسول صلى الله عليه وآله بأصحابه ماءً من مياههم يقال له: الكدر؛ أقام صلى الله عليه وآله هناك ثلاث ليالٍ، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً[1].

٢ - غزوة السويق، وكانت بعد رجوع الرسول صلى الله عليه وآله من غزوة قرقرة الكدر في ذي الحجة من السنة الثانية أو الثالثة للهجرة، وهي بعد أن أصيبت قريش

---

(١) السيرة الحلبية، ج ٢، وتاريخ الخميس ج ١.

في بدر حَلَفَ أبو سفيان أن لا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتىٰ يغزو محمداًﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرّ بيمينه، وليثبت الناس أن قريشاً لا تزال قادرة على التحرك، وأيضاً ليشدّ قلوب المهزومين في بدر فاتصل ببعض بني النضير من اليهود، ثم أرسل بعض أصحابه إلى بعض نواحي المدينة، فحرقوا بعض النخل، ووجدوا رجلين فقتلوهما، وهما معبد بن عمرو وحليف له، ثم انصرفوا راجعين، فنذر الناس بهم؛ فخرج الرسولﷺ في طلبهم لخمس خلون من ذي الحجة، وجعل أبو سفيان وأصحابه يُلقون بجرَب السويق[1] تخففاً للهروب، فجعل المسلمون يأخذونه، ولم يدركهم المسلمون، فعادوا إلى المدينة بعد خمسة أيام[2]، وانقلب فرار أبي سفيان عليه خزياً وعاراً.

٣ – غزوة ذي أمر، وقيل ربما تكون هي غزوة غطفان، وكانت لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول لسنة ثلاث للهجرة. وفيها جَمَعَ دعثور بن محارب في ذي أمر جمعاً من بني ثعلبة بن محارب لحرب الرسولﷺ، أو ليصيبوا من أطراف المدينة، فخرج الرسولﷺ إليهم، وأصاب أصحابهﷺ رجلاً يقال له جبار (أو حباب) فأسلم، ودلّهم على الطريق إليهم، فسمعوا بمسير الرسولﷺ فهربوا في رؤوس الجبال[3].

٤ – سريّة القردة، وهي في جمادىٰ الأولىٰ من السنة الثالثة للهجرة، وكان أميرها زيد بن حارثة. وذلك أن قريشاً قالت: «قد عوّر علينا محمد متجرنا، وهو على طريقنا»، فاتفقوا بعد بدر على العدول عن طريقهم المعتاد إلى الشام، وسلوك طريق العراق، فخرج جماعة، فيها صفوان وأبو سفيان في تجارة فبعث

---

(١) السويق: قمح أو شعير يُغلىٰ ثم يُطحن ليسفّ إمّا بماء أو عسل أو لبن.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج٢، وتاريخ الخميس ج١، والسيرة الحلبية ج٢.

(٣) السيرة الحلبية ج٢، والمغازي للواقدي ج١، والمواهب اللدنية ج١، وتاريخ الخميس ج١.

الرسول صلى الله عليه وآله إليهم زيداً فلقيهم على ماء يقال له «القردة» فأصاب العير وما فيها وأعجزه الرجال ورجع إلى الرسول صلى الله عليه وآله(١).

٥ – غزوة بني قينقاع، وبنو قينقاع قوم من يهود المدينة، وهم من أكثرهم أموالاً وأشدّهم بغياً، وكانوا في عهدٍ مع رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يحاربوه ولا يعينوا أحداً على حربه، فنقضوا العهد ونبذوا المعاهدة. يقول المؤرخون: «إن بني قينقاع لما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه، نبذوه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا أول من غدر من اليهود»(٢).

فجمعهم النبي صلى الله عليه وآله في سوقهم، وقال لهم: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم». قالوا: «يا محمد، إنك ترىٰ أنّا قومك؟! ولا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا عِلْمَ لهم بالحرب، فأصبت لهم فرصة. إنّا والله لو حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس».

فتحصّن بنو قينقاع في حصونهم، فاستخلف الرسول صلى الله عليه وآله على المدينة أبا لبابة وسار إليهم، وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع؛ فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يخلي سبيلهم ويجليهم عن المدينة، وأنّ لهم نساءهم والذريّة، وله الأموال والسلاح. فقبل صلى الله عليه وآله منهم، وفعل بهم ذلك، وأخذ أموالهم وأسلحتهم، وأجلاهم عن المدينة

---

(١) تاريخ الخميس ج١، والبداية والنهاية ج٤، والمغازي للواقدي ج١، والكامل في التاريخ ج٢.

(٢) تاريخ الخميس ج١، والسيرة الحلبية ج٢، والسيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية ج٢، والمغازي للواقدي ج١.

إلى أذرعات (بلد بالشام)[١].

٦ - غزوة أُحد، وكانت في شوال لسنة ثلاث للهجرة، وأُحد جبل يبعد عن المدينة حوالي فرسخ، وجاءت هذه المعركة إثر نتائج حرب بدر القاسية على مشركي مكّة. فمضىٰ مشركو قريش يستعدون لقتال النبي ﷺ، ويعبّئوا النفوس، ويجهّزوا آلات الحرب لأخذ الثأر، ومحو العار الجاهلي الذي لحق بهم. فبعثوا الرسل إلى القبائل يستنصرونهم. وحرّكوا من أطاعهم من قبائل كنانة وأهل تهامة. وخرجت قريش بحدّها وجدّها وأحابيشها ومن تابعها. وأخرجوا معهم بالظعن خمس عشرة إمرأة، لئلّا يفرّوا، وليذكّرنّهم قتلىٰ بدر، يغنين ويضربن بالدفوف، ليكون أجدّ لهم في القتال. وخرج معهم الفتيان بالمعازف والغلمان بالخمور، وكان جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل خمسة آلاف، وفيهم سبعمائة دارع ومئتا فارس علىٰ المشهور ومائة رامٍ، ومعهم ألف - وقيل ثلاثة آلاف - بعير، كلّهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر.

وبعد أن استشار رسول الله ﷺ أصحابه، في الأمر خرج عليهم لابساً لامة حربه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. ثم توجه ﷺ إلى أُحد ومعه ألف رجل، فيهم مائة دارع ليس معهم فرس. ورجع ابن أُبي مما بين المدينة وأُحد بمن معه من المنافقين وأهل الريب، وكانوا ثلاثمائة رجل، فبقي النبي ﷺ في سبعمائة من أصحابه. وكان لانخذال ابن أُبي ورجوعه بمن معه من المنافقين أثرٌ سيء على نفوس المسلمين ومعنوياتهم. عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة القتال عبّأ أصحابه، وأمرهم أن لا يقاتلوا أحداً حتى يأمرهم. وكان على يسار المسلمين جبل اسمه جبل عينين وكان فيه ثغرة، فأقام عليها خمسين رجلاً من

---

(١) نفس المصادر السابقة، والدر المنثور ج٢.

الرماة وقال لهم: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا. وكان أول من رمىٰ بسهم في وجوه المسلمين أبو عامر الفاسق في خمسين ممن معه. ونشب القتال وحميت الحرب. وحارب المسلمون دفاعاً عن دينهم وعن ديارهم فئة المشركين الحاقدة التي جاءت تريد الثأر عدواناً لهزيمتها في بدر.

وانتكست راية المشركين بقتل أصحاب اللواء، وانهزموا وأتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم. ولمّا رأى أصحاب الثغرة المشركين قد انهزموا وأن المسلمين يغنمون، اختلفوا، فبعضهم ترك الثغرة للغنيمة. فلما رأى خالد بن الوليد قلّة من على الثغرة صاح في خيله، فحملوا على من بقي في الثغرة فقتلوهم جميعاً، ثم حملوا على المسلمين من خلفهم. ورأت قريش المنهزمة عودة رجالها للحرب فعادوا للحرب من جديد. وكان المسلمون قد تفرّقوا وانتقضت صفوفهم، وصاروا يفيئون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله زرافات ووحداناً، وجعل صلى الله عليه وآله يحذّرهم ويحضّهم على القتال؛ فقاتلوا على قلّتهم خير قتال، وحرص النبي صلى الله عليه وآله على أن يرجع بهم إلى مراكزهم الأولىٰ؛ لأن ذلك سوف يجعل الجبل من خلفهم، فيخلصوا الحرب إلى جهة واحدة، تماماً كما هي الخطّة الأولىٰ. وهكذا كان؛ فقد بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وتلك الثلّة من المسلمين المجاهدين سفح جبل أُحد، واستقرّوا فيه ولم يجاوزوه. فأرعب ذلك المشركين لما رأوه من عودة المسلمون إلى مراكزهم الأولىٰ، وتجميع صفوفهم وارتفاع معنوياتهم من جديد، فخاف المشركون أن يدال المسلمون منهم من جديد، ويفعلوا بهم كما فعلوا في ابتداء الحرب ففضّلوا إنهاء الحرب والانسحاب بسلام، وحينما أعلن أبو سفيان انتهاء الحرب متوعداً المسلمين

ببدرٍ في العام القادم، وانصرف ومن معه من المشركين[١].

٧ - غزوة حمراء الأسد، ففي اليوم الثاني من أُحد خرج رسول الله ﷺ بأمر من الوحي - كما في الرواية - في أثر قريش إلى حمراء الأسد، وهي موضع على ثمانية أو عشرة أميال من المدينة، حيث ندب أصحابه قائلاً: «**ألا عصابة تشدّ لأمر الله تطلب عدوّها؟ فإنها أنكأ للعدو وأبعد للسمع**»[٢]. فخرج ﷺ في ستين راكباً أو سبعين[٣]، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وكانت قريش في الروحاء على بعد خمسة وثلاثين أو إثنين أو ثلاثة وأربعين ميلاً من المدينة؛ حيث تلاوموا هناك فيما بينهم، وقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم. قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلّا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم قبل أن يجدوا شوكةً. فبلغ ذلك النبي ﷺ فأراد أن يريهم من نفسه وأصحابه قوة، وأن يرعبهم. ومضىٰ ﷺ حتى نزل حمراء الأسد فأقام هناك ثلاثة أيام. وأوقد المسلمون ناراً عظيمة - خمسمائة نار - فذهب حيث عسكرهم ونارهم إلىٰ كلّ جانب، فكبت عدوّهم بذلك، وبلغ أبا سفيان وأصحابه أنّ محمداً يطلبهم في جمعٍ لم ير مثله، وأن نواصي الخيل قد تدركهم قبل أن يرتحلوا. فدبّ الرعب في قلوب المشركين وأسرعوا بالرحيل. وبعد إقامة النبي ثلاثة أيام عاد إلى المدينة[٤].

٨ - غزوة بني النضير، وقعت في ربيع الأول على رأس السنة الرابعة من مهاجرة النبي ﷺ. وبنو النضير فخذ من جذام إلّا أنهم تهوّدوا، نزلوا بجبل يقال

---

(١) نفس المصادر السابقة، وتفسير القمي ج١، والبحار ج٢.

(٢) مجمع البيان، ج٢، والبحار ج٢٠.

(٣) مجمع البيان ج٢، والبدء والتاريخ ج٤.

(٤) نفس المصادر السابقة.

له النضير، فسمّوا به. وكان سبب هذه الغزوة هو تآمرهم لقتل رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك بعد أن سار صلى الله عليه وآله إلى بني النضير يستعين في ديّة رجلين قتيلين من قوم عامر بن الطفيل، وكانت بنو النضير حلفاء لبني عامر، وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله مستنداً إلى بيت من بيوتهم فتواطأوا على طرح حجارة من فوق البيت الذي هو تحته ليقتلوه، فأَعْلَمَ الله نبيه صلى الله عليه وآله بالمؤامرة فعاد صلى الله عليه وآله بأصحابه الى المدينة، فأرسل الرسول صلى الله عليه وآله محمد بن مَسلمَة إليهم وأن يقول لهم: إنكم قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي فأخرجوا من بلدي. فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إنّا لا نبرح، فاصنع ما أنت صانع. فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله في أصحابه وقاتلهم بعد أن حاصرهم خمسة عشر يوماً، فنزلت اليهود للصلح؛ على أن لهم ما حملت الإبل، فعفا عنهم الرسول صلى الله عليه وآله وأجلاهم من المدينة إلى بلاد الشام(١).

٩ - غزوة الخندق، أو غزوة الأحزاب، وقعت لثمان مضت من ذي القعدة في السنة الخامسة للهجرة. وهي لمّا أجلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بني النضير الذين تآمروا على قتله، سار بنو النضير إلى خيبر وكان بها يهود، وخرجوا في بضعة عشر رجلاً إلى مكّة يحزّبون الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله، ويدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب النبي صلى الله عليه وآله، فاستجابت لهم قريش فتحالفوا وتعاقدوا على ذلك، وخرج من قريش وسليم وغطفان عشرة آلاف، حتى وافوا الخندق. وعندما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ندب المسلمين وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في أمرهم فأشار سلمان الفارسي على الرسول صلى الله عليه وآله بأن يحصّن المدينة بخندق يحفرونه فاستحسن الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمون ذلك وحفروا الخندق. وحاصر المشركون المسلمين خمسة عشر يوماً تخللها مبارزات كان

---

(١) نفس المصادر السابقة، وبحار الأنوار ج٢.

أهمها مبارزة الإمام علي عليه السلام لعمرو بن ودّ العامري، وقتله إياه، وانتهت المعارك بهزيمة الأحزاب وعودة قريش إلى مكة خاسرة منكسرة(١).

١٠ - غزوة بني قريظة، وقعت في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة عندما سار إليهم النبي صلى الله عليه وآله وحاصرهم خمسة عشر يوماً بسبب نقضهم عهدهم مع النبي صلى الله عليه وآله على أن لا يضرّوا به ولا يمالئوا عليه عدواً ثم مالأوا عليه الأحزاب يوم الخندق وأعانو عليه بالسلاح، وعاهدوا مرةً بعد أخرىٰ ونقضوا(٢).

وبعد أن تمكّن منهم رسول الله صلى الله عليه وآله نزلوا على حكمه، وتراضىٰ مع حلفائهم الأوس أن يكون الحكم فيهم إلى رجل من الأوس وهو سعد بن معاذ فحكم الأخير بقتل مُقاتليهم وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم إلّا من أسلم منهم(٣).

١١ - بعد غزوة بني قريظة وقبل غزوة خيبر غزا رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث غزوات وبعث بعشرين سرية وهي: سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد ابن نبيح الذي جمع لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه ومن غيرهم، وسرية محمد ابن مسلمة إلى قرطاء لمشركي بني بكر بن كلاب، وغزوة بني لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت وأصحابه يوم بئر معونة، وعاد الرسول صلى الله عليه وآله إلى المدينة ولم يلق أحداً، وغزوة ذي قرد وهي غزوة الغابة ردّاً على غارة عيينة بن حصن في خيل من غطفان، وسرية عكاشة بن محصن إلى الغمر لملاحقة مشركين محاربين، وسرية محمد بن مسلمة إلى مشركي بني ثعلبة، وسرية أبي عبيدة إلى ذي القصّة لردّ جمع بني محارب وثعلبة وأنمار؛ لعزمهم الإغارة على سرح

---

(١) السيرة الحلبية، ج١، والمغازي للواقدي ج١، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣.

(٢) مجمع البيان ج١، والمغازي للواقدي ج٢، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ج٢.

(٣) مجمع البيان ج٢١، والبحار ج٢، وتفسير القمي.

المدينة، وسرية زيد بن حارثة بالحموم على محال بن سليم المشركين، وسرية زيد بن حارثة إلى العيص، لاعتراض قافلة لمشركي قريش، وسرية زيد بن حارثة إلى مشركي بني ثعلبة في الطرف، وسرية زيد بن حارثة إلى حسمي أو جذام ردّاً على غارتهم وسلبهم دحية الكلبي، رسول النبي صلى الله عليه وآله إلى قيصر صاحب الروم، وسرية زيد بن حارثة إلى مشركي وادي القرى، وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل وفيها أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وسرية أبي عبيدة الجراح إلىٰ دومة الجندل، وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بني سعد بفدك ليردّهم عن مدد يهود خيبر، وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى لعدوان بني فزارة على تجارة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسرية أبي بكر إلى مشركي فزارة، وسرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر لترصّد اليهود فيها، وسرية عبد الله بن رواحة إلى أَسير ابن زارم وهو في جمع من غطفان يريد غزو الرسول صلى الله عليه وآله في المدينة، وسرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يساراً، وسرية زيد بن حارثة إلى مشركي مدين، وغزوة الحديبية التي انتهت بالصلح[1].

١٢ – غزوة خيبر في صفر من سنة سبع للهجرة. وخيبر ولاية سكانها من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وآله، وتشتمل على حصون، وتعني الحصن بلغة اليهود، وخرج النبي صلى الله عليه وآله إليهم في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس، فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله خيبر أرسل سعد بن عبادة ليكلّم رئيسهم عيينة بن حصن وقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أرسلني إليك يقول: إن الله وعدني خيبر فارجعوا وكفّوا، فإن ظهرنا عليكم فلكم تمر خيبر سنة فأبى عيينة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) راجع المغازي للواقدي ج٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ج٢، والسيرة الحلبية ج٣، وتاريخ الطبري ج٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢.

بالقتال وهجم علىٰ الحصون حصناً حصناً وكان قد أعطى الراية علياًﷺ؛ ففتح الله على يديه خيبر وفدك[١].

١٣ – وبعد غزوة خيبر الشهيرة إلى حين معركة مؤتة؛ غزا رسول اللهﷺ غزوتين، وبعث بست عشرة سرية وهي: غزوة وادي القرى ليهودها المحاربين، وسرية عمر بن الخطاب إلى تربة وفيها مشركو هوازن فهربوا، وعادت السرية إلى المدينة، وسرية أبي بكر إلى نجد إلى مشركي هوازن، وسرية بشير بن سعد إلى مشركي بني مرّة في فدك، وسرية غالب بن عبد الله إلى بني مرّة بفدك ردّاً على قتل أصحاب بشير، وسرية غالب بن عبد الله إلى مشركي بني عبد ثعلبة في الميفعة، وسرية بشير بن سعد إلى يمن وجناب لردّ جمعٍ من غطفان؛ يريدون الزحف إلى محمدﷺ، وغزوة القضيّة أو عمرة القضاء لقضاء رسول اللهﷺ وأصحابه عمرتهم التي صُدّوا عنها في العام الماضي وهو عام صلح الحديبية، وفيها خرجت قريش من مكّة إلى رؤوس الجبال وخلّوا مكة، وسرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى مشركي بني سليم، وسرية غالب بن عبد الله إلى مشركي بني الملوح بالكيد، وسرية قطبة بن عامر ابن حديدة إلى مشركي حيٍ بن خثعم في تبالة، وسرية فيها ابن عمر إلى مشركين في نجد، وسرية كعب بن عمير الغفاري إلى مشركي بني قضاعة في ذات اطلاح، وسرية أسامة بن زيد نحو وادي القرىٰ يوم قتل مسعود بن عروة، وسرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى مشركي بني بكر بالكديد، وسرية شجاع بن وهب إلى جمعٍ من مشركي هوازن بالسي من أرض بني عامر من ناحية ركبة، وسرية سعد بن عمير، وسرية غالب بن عبد الله الملوحي إلى صروحان من

---

(١) نفس المصادر السابقة.

أرض خيبر[١].

١٤ – سرية جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن الحارثة إلى مؤتة في جمادىٰ الأولىٰ لسنة ثمان للهجرة، وهي عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرىٰ بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأمر به فأوثق رباطاً ثم قدّمه فضرب عنقه صبراً، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وآله رسولٌ غيره. فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر فاشتدّ عليه، فبعث صلى الله عليه وآله بعثه إلى مؤتة، وكانوا ثلاثة آلاف، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل، وكانوا مائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب وذلك عند قرية مؤتة وفاجأوا المسلمين وهم قلّة في قتال شديد لمدة سبعة أيام، وفيها قُتل جعفر وزيد وعبد الله بن رواحة وآخرون وعاد الباقون إلى المدينة[٢].

١٥ – وبعد معركة مؤتة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بسبع سرايا قبل فتح مكة وهي: سرية عمرو بن العاص وتسمىٰ ذات السلاسل؛ وذلك لمواجهة جمع من بلي وقضاعة تجمّعوا، يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله صلى الله عليه وآله، وسرية أبي عبيدة إلى سيف البحر وتسمىٰ سرية الخبط وذلك بعد نكث قريش العهد، وسرية خضرة بقيادة أبي قتادة إلى مشركي غطفان، وسرية أبي قتادة أو ابن أبي حدرد إلى رفاعة بن قيس لردعه عن تجميع قومه لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله، وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ذات السلاسل في أربعة آلاف فارس للقضاء على جمعٍ من اثني عشر ألف فارس من أهل وادي يابس، تعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على أن يقتلوا محمداً صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام وتمكّن عليه السلام منهم، وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بني سليم، الذين اجتمعوا بوادي الرمل،

---

(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) نفس المصادر السابقة.

يريدون الهجوم على المدينة، وتمكّن عليه السلام منهم وفيها بشّر النبي صلى الله عليه وآله بـالفتح، وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام الى بني خثعم لردّ كتائبهم التي تهيأت وتعبأت لقتل رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه في المدينة فمكّنه الله منهم وفتح علىٰ يديه[1].

١٦ - غزوة فتح مكة المكرمة، وبدأت أرهاصاتها بعد صلح الحديبية عندما دخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله بهجومها مع حليفتها كنانة على خزاعة حليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، فجهّز الرسول صلى الله عليه وآله جيشاً من عشرة آلاف مقاتل، وسار بهم سرّاً ليبغت قريشاً ويسلبها قدرة المواجهة؛ فيدخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة بدون قتال، وهكذا كان حيث تمّ فتح مكّة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان في السنة الثامنة للهجرة، وكان قد عهد الرسول صلى الله عليه وآله إلى أُمراء جيشه أن لا يقاتلوا أحداً إلاّ من قاتلهم، وعندما وقف أمام الكعبة خاطب قريشاً قائلاً لهم: يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لهم كلمته الشهيرة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2].

تقويم المرحلة الثانية:

تميّزت غزوات وسرايا هذه المرحلة ببروز عنصر الهجوم الدفاعي فيها إلى جانب ردّ العدوان والدفاع، وذلك لردع أيّ تجمع وتعبؤ واستعداد من قبل المشركين بهدف العدوان على المسلمين في المدينة، أو الردّ على غارةٍ وعدوان وإفساد كان قد حصل منهم على المسلمين، وكانت أهم أهداف هذه المرحلة هي:

١ - القضاء على كلّ من تسوّل لهم أنفسهم التآمر والعدوان على المسلمين،

---

(١) نفس المصادر السابقة، وتفسير القمي ج٢، ومجمع البيان ج٣، والبحار ج٢١.

(٢) نفس المصادر السابقة.

وردّه إلى نحورهم خصوصاً اليهود منهم، الذين عرفوا بالنفاق ونقض العهود والمواثيق والكيد والتأليب على رسول الله صلى الله عليه وآله والتآمر مراراً علىٰ قتله.

٢ ـ تصفية جيوب العدوّ الداخلي خصوصاً اليهود المتواجدين في داخل المدينة وفي نواحيها، وبذلك تمّ تحصين الجبهة الداخليّة لمجتمع المدينة وتصفيته من جواسيس وعيون المشركين، والجماعات المتآمرة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىٰ المسلمين.

٣ – كسر هيبة المشركين، وهزيمتهم نفسياً خصوصاً عند غزوهم في عقر دارهم وانكسارهم عسكرياً بعد أن تهيئهم وتعبئهم لقتال المسلمين على قاعدة: «ما غزي قومٌ في عقر دارهم إلّا ذلّوا».

٤ – عزل مشركي قريش، رأس التكبر والطغيان والعدوان، وهزيمتهم النفسيّة عندما يرون أنّ كلّ من حولهم من مشركي القبائل وحلفائهم قد انكسر وانهزم على يد المسلمين.

٥ – تدعيم شوكة المسلمين، وتكريس قوتهم واقتدارهم بما لا مجال معه للتردد والخوف من إرهاب المشركين وعدوانهم الذي توّج بدحر مشركي قريش وفتح مكّة حيث ديار المسلمين المهاجرين التي أُخرجوا منها ظلماً وعدواناً، وإعلاء كلمة لا إله إلاّ الله في ربوع الجزيرة العربية، والقضاء على الظلم والجور، وبسط حكومة العدل الإلهي في أرجائها.

ج – غزوات وسرايا المرحلة الثالثة:

وبدأت بعد فتح مكّة وانتهت بإعداد جيش أسامة بن زيد ووفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وخلاصتها كالآتي:

١ – في أثناء فتح مكّة وبعدها بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بسبع سرايا؛ أغلبها كان لكسر أصنام الجاهلية المتفرقة، وهدم ما عليها من بناء وهي: سرّية خالد بن

الوليد إلى العزّىٰ وهي بناء فيه صنم للمشركين فهدموه وكسروا الصنم، وسرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل وهي بناء أيضاً فيه صنم للمشركين، فهدموه وكسروا الصنم. وسرية عمرو بن العاص الى صنم هذيل، ويسمىٰ سواعا فكسروه وهدموا بناءه. وسرية هشام بن العاص إلى مشركي يلملم. وسرية خالد بن سعيد بن العاص إلى مشركي عرنة. وسرية أبي قتادة إلى بطن إضم وذلك بعد عزمه ﷺ على غزو قريش، وفتح مكّة تمويهاً على قريش ليظنّوا أن رسول الله ﷺ توجه إلىٰ تلك الناحيّة، وسرية خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة وهو يوم الغميضاء، وفيها خالف خالد عهد رسول الله ﷺ لقتله أسراه من بني جذيمة، وهم مسلمون عملاً بسنّة الجاهلية في ثأرٍ كان له معهم، فغضب رسول الله ﷺ وأعرض عن خالد، ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة شاهراً يديه يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات، ودعا رسول الله ﷺ علياً عليه السلام فأعطاه مالاً، فقال: انطلق إلى بني جذيمة واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فَدِ[١] لهم ما أصاب خالد بن الوليد، ففعل علي عليه السلام[٢].

٢ - غزوة حنين، وبدأت في عشر ليالٍ خلون من شوال من السنة الثامنة للهجرة، وانتهت في ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة، وكان الدافع هو أنه بعد أن انتشر خبر فتح رسول الله ﷺ لمكّة عبأت هوازن جيشاً من المشركين لحرب المسلمين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً من المسلمين، وكانت المعركة في حنين حيث انتصر المسلمون وانهزم المشركون، فبعث رسول الله ﷺ بسرية أبي عامر الأشعري في أثرهم إلى أوطاس، ثم بعث الرسول ﷺ سرية الطفيل بن عمر الدوسي إلى ذي

---

(١) هكذا في الأصل ولعلّ الصحيح: فافدِ.

(٢) المصادر السابقة.

الكفين، وهو صنم عمرو بن حممة الدوسي فكسره وهدم ما عليه من بناء، واستمر الرسول صلى الله عليه وآله بمطاردة المشركين فلجأوا إلى الطائف، وفيها قبيلة ثقيف التي كانت قد أحكمت تحصينها، فحاصرها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن استسلموا، ثم أعلنوا دخولهم في الإسلام فحُقنت دماؤهم، وردّ الرسول صلى الله عليه وآله إليهم أموالهم وأسراهم، وفي أثناء الحصار بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى خثعم، فكسّر أصنامهم[١].

٣ – وبعد غزوة حنين وإسلام هوازن وأهل الطائف توالت سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله لمن تبقىٰ من المشركين وكانت إحدىٰ عشرة سرية، كالآتي: سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم لمنعهم مسلمين من بني كعب من دفع الزكاة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فتمكّن منهم. وسرية عبدالله بن عوسجة إلىٰ بني عمرو بن حارثة لاستخفافهم ومحوهم ورميهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم. وسرية قطبة بن عامر إلى مشركي خثعم، وسرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى مشركي بني كلاب في القرطاء لاستخفافهم ومحوهم ورميهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم. وسريّة أسرت ثمامة بن أثال الحنفي الذي أسلم بعدها. وسرية علقمة بن مجرز المدلجي أو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إلىٰ مشركي جزيرةٍ في البحر جهت الحبشة، فهربوا أمام المسلمين. وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الفلس، وهو صنم لطي، فخرّبه وهدم ما عليه من بناء، وبعدها أسلم عدي ابن حاتم، وسرية للقضاء على المشرك المحارب ابن أبي جدعة. وسرية عبد الله بن أبي حدرد للقضاء على المشرك المحارب رفاعة بن قيس الجشمي. وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام للقضاء على المشرك المحارب معاوية بن المغيرة. وسرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى المشركين في الجناب، وهي

---

(١) المصادر السابقة.

أرض عذرة وبلي.

٤ - غزوة تبوك، التي قدمَها رسول الله ﷺ في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة بعد أن بلغه أن الروم أعدوا جيشاً في الشام؛ يريدون غزو المناطق الشمالية من الجزيرة العربية التي امتدّ إليها سلطان الدولة الإسلامية، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيء لغزو الروم وصدّهم، فأعدّ جيشاً من ثلاثين ألفاً، وسار بهم إلى تبوك على حدود بلاد الروم، فخاف الروم منهم، وهربوا إلى داخل بلادهم قبل وصول جيش المسلمين بأيام، فأقام رسول الله ﷺ في تبوك عشرين ليلة، عاد بعدها بجيشه إلى المدينة دون التوغل في بلاد الروم.

٥ - وفي تبوك بعث رسول الله ﷺ بثلاث سرايا هي: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى جمع من مشركي جذام. وسرية سعد بن عبادة إلى مشركين من بني سليم، وجموع من بلي فهرب المشركون. وسرية خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك، ومشركي دومة الجندل وكان ملكاً عليهم، فأُسر ومعه أخوه، وصالحهما رسول الله ﷺ على الجزية؛ لأنهما كانا على النصرانية فحقن دماءهما وخلّىٰ سبيلهما.

وبعد غزوة تبوك بعث رسول الله ﷺ بثماني سرايا وهي: سرية أبي سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنم اللات بالطائف فهدموها. وسرية خالد بن الوليد إلى مشركي بني الحارث بن كعب فأسلموا. وسرية خالد بن الوليد إلى مشركي ابن عبد المدان بنجران فأسلموا. وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى مشركي اليمن، وكان يحمل إليهم كتاباً من رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، ثم تتابع أهل اليمن علىٰ الإسلام. وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى مشركي مذحج من أرض اليمن فتمكّن منهم. وسرية صرد بن عبد الله الأزدي إلى مشركي قبائل اليمن في جرش فتمكّن منهم، وأسلم أهلها فيما بعد. وسرية

جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخلصة وفيها صنم لقوم جرير فهدمه. وسرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى المرتد عمرو بن معدي كرب عندما أغار على بني الحارث بن كعب بعد ارتداده عن الإسلام[١].

٦- سرية أسامة بن زيد إلى مؤتة لغزو الروم؛ وذلك في صفر سنة إحدىٰ عشرة للهجرة ردّاً على قتلهم زيد بن حارثة والد أسامة، وجعفر بن أبي طالب وأصحابهم في مؤتة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أسامة فعسكر بجيشه بالجرف وفيها مرض الرسول صلى الله عليه وآله وكان يقول: انفذوا بعث أسامة، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله، وعاد جيش أسامة ولم ينجز مهمته[٢].

تقويم المرحلة الثالثة:

مما استعرضنا من غزوات وسرايا هذه المرحلة من العهد النبوي الشريف يظهر لنا بوضوح أن الرسول صلى الله عليه وآله قد استهدف منها الأهداف التالية:

١ ـ أسلمة جميع أنحاء الجزيرة العربية بما فيها اليمن من خلال ما يلي:

أ - العفو عن المشركين غير المعاندين إلّا المحاربين منهم من مجرمي الحرب، والترحيب بدخولهم في دين الله خصوصاً قريشاً وأهل مكّة بعد فتحها.

ب - إزالة كافة مظاهر الجاهلية، كالشرك والدجل التي كانت منتشرة في قبائل الجزيرة العربية؛ وذلك بتحطيم الأصنام وهدم مبانيها والقضاء علىٰ سدنتها من الدجّالين، ومحو آثارها الجاهلية، وتوجيه الناس نحو التفكر والعقل السليم؛ ليهتدوا ويؤمنوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله من الدين الحق.

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة.

ج - بعث سرايا للدعوة إلى الإسلام والتبليغ والتوعية في أوساط القبائل ومدن الجزيرة العربية بما فيها اليمن، وبيان معالم الإسلام للإيمان به والتسليم برسالة الله ورسولهﷺ.

٢ - القضاء على شوكة ما تبقىٰ من المشركين المعاندين والمحاربين ليصفو لقبائل الجزيرة العربية ومجتمعها جو التدبر والتفكر السليم لمعرفة الحق في الإسلام، والتسليم له ومعرفة أن الباطل في الجاهلية والاجتناب عنه.

٣ - بسط سلطة حكومة العدل الإلهي على جميع مجتمع الجزيرة العربية، وغرس شعور العزّة بالانتماء إلى الإسلام، وطوي عهد الجاهلية الباطل وتوجيههم وتعبئتهم معنوياً وعسكرياً لحماية ثغورهم، وردّ العدوان الخارجي المتربص بهم، والذي يهدّد دولتهم وبلادهم الإسلامية من الفرس والروم والقبط.

تقويم عام لتجربة رسول الله ﷺ :

من كل ما سبق يثبت لدينا بشكل قاطع أن تجربة رسول اللهﷺ الرائدة كانت تمثّل بصدق أصول ومباني وأحكام الإسلام العظيم التي جاء بها القرآن الكريم، وفصّلته سنّة النبي الكريمﷺ، والتي سبق لنا ذكرها، حيث لا موقع للعدوان ولا الإرهاب العدواني فيها.

ثانياً - عهد الخلفاء الخمسة بعد وفاة رسول اللهﷺ:

وهم الذين جاءوا لخلافة المسلمين بعد وفاة رسول اللهﷺ، وقبل أن يتملّكها بنو أمية ويتوارثوها، وتسلسلهم الزمني كالآتي: أبو بكر بن أبي قحافة، عمر بن الخطّاب، عثمان بن عفّان، الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، الإمام الحسن بن عليعليه السلام. وقبل أن نستعرض حروب هذا العهد نذكّر بالمبدأ

الإسلامي الذي سبق بيانه من أن الإسلام وفق مباني مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ضماناً لعدم الانحراف والظلم والعدوان، يشترط فيمن يتولىٰ منصب الحاكم في دولة العدل الإلهي العصمة في حالة حضور المعصوم، وهذا ما كان عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، إلّا أنّه وبعد وفاته صلى الله عليه وآله لم يتحقق هذا الشرط في الخليفة والحاكم الذي جاء بعده إلّا في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. والإمام الحسن ابن علي عليه السلام اللذين نص عليهما رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن نص عليهم بالعصمة والخلافة من بعده في مواضع ومناسبات كثيرة؛ كان أهمها يوم غدير خم في حجّة الوداع، وهي آخر حجة قبل وفاته صلى الله عليه وآله[1]. وعليه فلا يمكننا اعتبار الحروب الداخليّة والخارجيّة التي تمّت في عهد الخلفاء الثلاثة الأُول حروباً شرعية؛ يمكن أن ننسبها إلى الإسلام إلّا إذا أذن بها الإمام المعصوم الحاضر، أو أمضاها وإن لم يكن المعصوم الحاضر خليفةً وحاكما فعليّا حينها.

وفيما يلي عرض وتقويم لحروب هذا العهد، ويمكننا تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الحروب الداخليّة، ويمكننا تقويم شرعيتها من خلال التفصيل التالي:

أ- ما يسمّى بحروب الردّة عن الإسلام، والتي اختلط بعضها بحروب وغارات جائرة، أهرقت فيها دماء مسلمين، وهُتكت أعراضهم بسبب مواقفهم ممن استولىٰ علىٰ الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ورفضهم دفع الزكاة إلّا إلى الحاكم الشرعي المعصوم، المنصوب لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله بالنص الإلهي، وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. كالذي كان من غارة خالد بن الوليد على

---

(١) راجع مثلاً: الأميني، الشيخ عبد الحسين في الغدير. والعسكري، السيد مرتضىٰ في معالم المدرستين. ومسند أحمد. ومجمع الزوائد. وتاريخ ابن كثير. وشواهد التنزيل للحسكاني. وتاريخ اليعقوبي. وصحيح مسلم وغيرها من المصادر الكثيرة.

الصحابي الجليل مالك بن نويرة وقبيلته، وقتلهم وهتك حرماتهم وأعراضهم. ومن الواضح أنّ مثل هذه الغارات الجائرة وغيرها مما هي في حكمها هي عدوان وظلم، يأباه الإسلام وأحكامه العادلة ويأبىٰ انتسابها إليه(١).

ب- حرب الجمل التي خاضها الإمام علي مع المتآمرين على الحكومة الإسلامية الشرعية عندما نكث جمعٌ بيعتهم، وعهدهم لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة بعد عثمان بن عفان، وذلك لتضررهم من إعادة الإمام علي عليه السلام الأموال التي استولوا عليها بالباطل إلى بيت مال المسلمين. وحرب صفين مع القاسطين عن الحق، المتمردين بقيادة معاوية بن أبي سفيان على حكومة الإمام علي عليه السلام الشرعية. وحرب النهروان مع المارقين عن الدين وحكومة المعصوم الشرعية. وحرب الإمام الحسن بن علي عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان، الذي ظلّ متمرداً وخارجاً على الحكومة الشرعية بعد شهادة الإمام علي عليه السلام(٢).

وكل هذه الحروب شرعيّة إسلامية، جاءت لدفع الفساد في بلاد المسلمين، ودفاعاً عن الحكومة الشرعية العادلة، باستثناء ما أشرنا إليها في الفقرة (أ)، وهي كذلك لأنها تمّت بأمر وقيادة الإمام المعصوم المنصوب من الله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله.

القسم الثاني: الحروب الخارجية مع بلاد الروم والفرس وأفريقيا الذين كانوا يهددون ثغور البلاد الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان قد قتل الروم

---

(١)تاريخ اليعقوبي ج٢.

(٢) راجع: تاريخ اليعقوبي، وكنز العمال، والفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي، وتذكرة الخواص لسبط بن الجوزي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والكامل لابن الأثير، وتاريخ الطبري.

في مؤتة صفوة من أصحابه، على رأسهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وازداد خطر تهديدهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد وقعت هذه الحروب خلال فترة الخلفاء الثلاثة الأُول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأهم نتائجها كان فتح بلاد فارس وبلاد الشام وبيت المقدس وبلدان في شمال أفريقيا بما فيها بلاد مصر. وهي وإن لم تتم من قبل الحاكم الشرعي المعصوم، المنصوب بالنص الإلهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله لتولي الخلافة من بعده وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، إلّا أننا لا ننفي إمكان مشروعية بعضها وانتسابها إلى الإسلام إجمالاً لاشتماله على ما يمكن أن يكون إمضاءاً من الولي المعصوم له وإن لم يكن خليفةً وحاكماً فعليّاً حينها، ويتمثل هذا الإمضاء من خلال أمرين:

الأمر الأول: هو عدم وصول –ولو في خبر ضعيف –أقلّ نصّ عن المعصوم عليه السلام إلينا يدل على عدم مشروعية هذه الحروب الخارجية في عهد الخلفاء الثلاثة الأُول[١].

الأمر الثاني: ما نقله المؤرخون –لو ثبت صحته – مما يمكن أن يكون بعضه مؤيداً، وبعضه الآخر دليلاً على إمضاء المعصوم عليه السلام لهذه الحروب، وخلاصته ما يلي:

أ– عندما فكّر الخليفة الأول أبو بكر بغزو الروم فاستشار جماعة من الصحابة، فقدّموا وأخّروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار علياً عليه السلام في الأمر، فقال: إن فعلت ظفرت. فقال أبو بكر: بُشرّت بخير. وأمر أبو بكر الناس بالخروج بعد أن أمّر عليهم خالد بن سعيد[٢].

ب– حين أراد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن يغزو الروم؛ راجع الإمام

---

(١) راجع الحائري، السيد كاظم في كتابه: الكفاح المسلح في الإسلام ص٢٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ١١١.

عليّاً عليه السلام في الأمر، فنصحه الإمام بألّا يقود الجيش بنفسه مبيّناً علّة ذلك قائلاً: «فابعث إليهم رجلاً مجرّباً وأحضر معه أهل البلاد والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تّحب، وإن لم تكن الأخرىٰ كنت ردءاً للناس ومثابةً للمسلمين»(١).

ج- وبعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فامتثله، فكتب ابن الجراح إلى عمر بالأمر. فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر. فقال علي عليه السلام: **«مُر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالىٰ، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله»**.
قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه وآله، وصدقت أنت يا أبا الحسن، ثم كتب إلى أبي عبيدة بالذي أشار به علي عليه السلام(٢).

د- ذكر الواقدي في كتابه في فتوح الأمصار: أنّ عمر قام في المسجد، ودعا المسلمين إلىٰ الجهاد، وقال: «... فسيروا إلىٰ أرض فارس، وأمّر علىٰ الناس أبا عبيدة الثقفي، وسار أبو عبيد حتىٰ عبر الفرات... وقطع أبو عبيد الجسر والتحم الناس واشتد القتال.. ولمّا قُتل أبو عبيد الثقفي بالجسر شقّ ذلك علىٰ عمر.. فخطب الناس وحثّهم علىٰ الجهاد.. ودعا الناس، فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثم قال لعلي عليه السلام: ما ترىٰ يا أبا الحسن، أسير أم أبعث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له...»(٣).

هـ- جاء في العبر لابن خلدون أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام انضمّ إلى جنود

---

(١) راجع نهج البلاغة.
(٢) العسكري، نجم الدين / علي والخلفاء: ١٣٣.
(٣) المسعودي في مروج الذهب ٢: (٣٠٧ - ٣٠٩).

المسلمين الذين اتّجهوا إلى أفريقيا بقيادة عبد الله بن نافع وأخيه عقبة في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد، وتطلّع المسلمون إلى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم، وكانت الغزوة ناجحة وموفقة كما يصفها المؤرخون[(١)].

و ـ كما جاء في تاريخ الأمم والملوك في حوادث سنة ثلاثين للهجرة أن سعيد بن العاص غزا خراسان، ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله والحسن والحسين وعبد الله بن عباس، ومضىٰ سعيد ومعه الحسن والحسين، إلى جرجان، فصالحوه على مائتي ألف، ثم هاجم طمية وهي تابعة لطبرستان ومتاخمة لجرجان، على حد تعبير الطبري، على ساحل البحر، وانتصر المسلمون في تلك المناطق كما نصّ على ذلك ابن خلدون وغيره من المؤرخين[(٢)].

ز – وفي عهد الخليفة الثاني، جهّز إلى طبرستان جيشاً بقيادة سعيد بن العاص، كان فيه الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن عباس وغيرهم من أعيان المهاجرين والأنصار، وتمّ لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها[(٣)].

وقد شكك البعض، بل قطع بعدم صحة ما ينسب إلىٰ الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام من الاشتراك في غزوات الخلفاء الثلاثة الأُول. أما عن

---

(١) راجع: الحسني / سيرة الأئمة الإثني عشر ١: (٤٨٢ – ٤٨٣)، وتاريخ الأمم والملوك ٥: ٥٧، والفتوحات الإسلامية ١: ١٧٥، والكامل لابن الأثير ٣: ١٠٩.

(٢) راجع: الحسني / سيرة الأئمة الإثني عشر: ٤٨٢ – ٤٨٣، وتاريخ الأمم والملوك ٥: ٥٧، والفتوحات الإسلامية ١: ١٧٥، والكامل لابن الأثير ٣: ١٠٩.

(٣) راجع: الحسني / سيرة الأئمة الإثني عشر: (٤٨٢ – ٤٨٣)، وتاريخ الأمم والملوك ٥: ٥٧، والفتوحات الإسلامية ١: ١٧٥، والكامل لابن الأثير ٣: ١٠٩.

مشورة أمير المؤمنين علىٰ عمر في مايرتبط بحربه الفرس، فإنّما كان يهدف منها إلىٰ الحفاظ عن بيضة الإسلام[١]

ثالثاً - عهد الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية:

من الثابت في مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ بل وعمدة المذاهب الإسلامية الأخرى، علىاختلاف مبانيها في الحكومة الشرعية، أن حكومات الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية جائرة وظالمة وغاصبة لمنصب الولاية الشرعية، وعليه فهي حكومات باطلة لا تتمتع بصلاحّية الجهاد فضلاً عن الحكم، لكونه مشروطاً بقيادة عادلة، أو إذن الإمام العادل ضماناً لتحقيق صورته الشرعيّة وهدفه الرسالي المنشود. والأدلة على هذا الشرط الأساسي روايات عديدة من أئمة أهل البيت عليهم السلام منها:

عن الإمام الرضا عليه السلام في كتابه إلى المأمون: «**والجهاد واجب مع الإمام العادل**»[٢].

وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمَن على الحكم، ولا يُنفذ في الفيء أمرَ الله عزّوجل، فإنه إن مات في ذلك المكان كان معيناً لعدوّنا في حبس حقّنا، والإشاطة بدمائنا وميتته ميتة جاهلية**»[٣]، وغيرها من الروايات.

كما وحرّم أئمة أهل البيت عليهم السلام خوض الحروب في عهد حكّام الخلافتين الأموية والعباسية سواءً الداخلية منها، لأنها عدوان وظلم وقمع للمسلمين

---

(١) راجع: العاملي، جعفر مرتضىٰ في كتابه الحياة السياسيّة للإمام الحسن عليه السلام: (١٣٤ - ١٤٠).

(٢) الوسائل ١١:١١، الباب ١ ج ٢٤ والباب ١٢ ج٨.

(٣) الوسائل ١١:١١، الباب ١٢ ح٨.

بالباطل، أو الخارجية، كالغزوات لبلاد الكفر والشرك تحت لوائهم، لأنّ الأصل في حروبهم وغزواتهم هذه هو توسيع رقعة خلافتهم المنحرفة، وبسط سلطانهم الباطل، وعليه لا يمكن تحميل هذه الحروب والغزوات على الإسلام ولا نسبتها اليه. وماورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من ترخيص في هذا السبيل منحصر أمره بحفظ ثغور المسلمين، والدفاع المحض عن بلاد الإسلام وبيضته من كيد الكفار والمشركين المتربصين بالإسلام والمسلمين.

وفي روايات كثيرة تصريح بذلك، منها ما في خبر يونس بسند صحيح قال: «سأل أبا الحسن عليه السلام رجل وأنا حاضر، فقال له: جعلت فداك، إنّ رجلاً من مواليك بلغه أنّ رجلاً يعطي سيفاً وقوساً في سبيل الله، فأتاه فأخذهما منه وهو جاهل بوجه السبيل، ثم لقيه أصحابه فأخبروه أنّ السبيل مع هؤلاء لا يجوز (يعني خلفاء بني العباس)، وأمره بردّهما. قال: **فليفعل**.. قال: قد طلب الرجل فلم يجده وقيل له قد مضىٰ الرجل. قال: **فليرابط ولا يقاتل**. قال: مثل قزوين وعسقلان والديلم وما أشبه هذه الثغور؟ فقال: **نعم**. قال: فإن جاء العدو إلى الموضع الذي هو فيه مرابط كيف يصنع؟ قال: **يقاتل عن بيضة الإسلام**. قال: يجاهد؟ قال: **لا إلّا أن يخاف على دار المسلمين. أرأيتك لو أن الروم دخلوا على المسلمين لم ينبغ لهم أن يمنعوهم؟** قال: **يرابط ولا يقاتل، وإن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل فيكون قتاله لنفسه ليس للسلطان، لأن في دروس الإسلام دروس ذكر محمد صلى الله عليه وآله**»(١).

رابعاً: عهد الاستعمار الكافر والحكومات الموالية له:

في هذا العهد انطلق الغرب لاستعمار الشرق بما فيه البلاد الإسلامية، وذلك بعد

---

(١) الوسائل ١١: ١٩، الباب ٦ ح ٢.

النهضة الصناعية الكبرى التي حصلت فيه، وطغيان الاتجاه العلماني اللاديني على أنظمة حكومات دوله، فدخلت جيوشه الكافرة محتلّةً أغلب بلدان العالم الإسلامي، مستغلّة ضعف المسلمين وضعف الخلافة العثمانية وفسادها، خصوصا أثناء الحرب العالمية الأولىٰ، والتي انتهت بإسقاط الخلافة العثمانية وتمزيقها إلى بلدان إقليمية وقومية، وتنصيب حكومات علمانية موالية للغرب فيها، باستثناء مجموعة من البلدان الإسلامية التي ظلّت السيطرة المباشرة عليها للمستعمر الكافر، كبلدان آسيا الوسطىٰ الإسلامية التي خضعت للاستعمار الروسي، وكفلسطين التي أقيمت على أرضها دولة إسرائيل الصهيونية بعد اغتصابها من المسلمين الفلسطينيين وإخراج أغلبهم من ديارهم.

وهنا ينقسم الموقف الجهادي للمسلمين في هذا العهد إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: وهو الموقف الجهادي من الاحتلال العسكري المباشر للبلاد الإسلامية من قبل الاستعمار الغربي الكافر. ولا شك أن إجماع المذاهب الإسلامية منعقد علىٰ مشروعية؛ بل ضرورة الدفاع عن بيضة الإسلام المتمثل بالدفاع عن النفس مع الإمكان بالقتال وبغيره، وهو أمرٌ ضروري بحكم العقل، وحكم الشرع الذي دلّت عليه روايات أهل البيتﷺ، منها:

خبر يونس بسند صحيح عن أبي الحسنﷺ الذي سبق ذكره.

وعليه فإن جميع حروب الجهاد التي قام ويقوم بها المسلمون لدفع العدو الاستعماري الكافر عن بلادهم الإسلامية[1] على النحو الذي ذكرناه هي

---

(١) منها: حرب المسلمين الجهادية التي وقعت في بداية القرن العشرين لدفع الإنجليز الغزاة للعراق، ومثلها لدفع الإنجليز والروس الغزاة لإيران، وكذلك حروب المسلمين الجهادية =

حروب مشروعة بحكم العقل وحكم الشرع. وما هو قائم منها، كجهاد الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني وغيرهما من الشعوب الإسلامية ضد العدو الصهيوني المحتل، ودولته الغاصبة إسرائيل مشروع بنفس الملاك.

القسم الثاني: وهو الموقف الجهادي من الحكومات الموالية للغرب الكافر،سواءً العلمانية اللادينية منها أو المتسترة بالإسلام. ويمكن تفصيل هذا القسم في حالتين:

الحالة الأولى: ما لو كان على رأس الحكومة الموالية للغرب الكافر مسلمين منحرفين؛ إلّا أنهم يشكّلون بحكومتهم هذه خطراً حقيقياً على بيضة الإسلام، كأن يستهدفوا استئصال أصل الدين من الواقع، ويعلنوا الحرب الشاملة على الإسلام والمؤمنين به، فيمكن تنزيل هذه الحالة منزلة القسم الأول تحت عنوان رفع الخطر والدفاع عن بيضة الإسلام، ولا إشكال في مشروعيّه جهاد مثل هذه الحكومة بتشخيص وقيادة فقيه عادل جامع لشرائط الولاية أو إذنه وإمضائه(١).

الحالة الثانية: فيما لو كانت الحكومة الموالية للغرب الكافر، والتي علىٰ رأسها مسلمون منحرفون تتستّر بستار الإسلام، فالموقف الجهادي منها له صورتان:

الصورة الأولى: الموقف الجهادي السلبي من هذه الحكومات المنحرفة بمقاطعتها وعدم إعانتها على الظلم والباطل بأيّ شكل من الأشكال ولو بشكل غير مباشر. ومن الروايات التي يستدل بها على ذلك:

= في الجزائر ومراكش وتونس ومصر وغيرها لدفع الغزاة الفرنسيين وليبيا لدفع الغزاة الإيطاليين وأمثالها في أغلب البلاد الإسلامية التي تعرضت لغزو الاستعمار الكافر.

(١) وذلك احتياطاً لازماً من الوقوع في شبهة الخطأ في تشخيص المصداق والوقوع فيما يخالف مصلحة الإسلام والمسلمين العليا.

ما رواه الكليني في الكافي بسند صحيح عن أبي بصير قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم (يقصد حكّام الجور) فقال لي: «**يا أبا محمد، لا ولا مدّة قلم، إن أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله، أو حتى يصيبوا من دينه مثله**»[1].

ومنها ما رواه الكشي في كتاب الرجال عن صفوان بن مهران الجمّال قال: «دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام فقال لي: **يا صفوان، كلّ شيء فيك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً** قلت: جُعلت فداك، أيّ شيء هو؟ قال: **إكراؤك جمالك من هذا الرجل**، يعني هارون، قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق يعني طريق مكّة، ولا أتولاّه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني، فقال لي: **يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟** قلت: نعم جعلت فداك، قال: فقال لي: **أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟** قلت: نعم، قال: **من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار**، قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان، بلغني أنك بعت جمالك، قلت: نعم، قال ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير، وإن الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات، هيهات، إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك موسى بن جعفر، قلت: مالي وموسىٰ بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك»[2].

ويستثنىٰ من ذلك ما أذن به الإمام المعصوم، أو الفقيه العادل الجامع لشرائط الولاية بشكل خاص لبعض من يوثق بأمرهم وولائهم؛ لتحقيق أهداف ومصالح إسلامية راجحة، وقد دلّت على ذلك روايات، منها:

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ١٢٩، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ١٣١، ح١٧.

ما رواه الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» بسند صحيح عن علي بن يقطين قال: «قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: **إن للّٰه تبارك وتعالىٰ مع السلطان أولياء يدفع بهم عن أوليائه**»(١).

ومنها ما رواه الكليني في الكافي بإسناده عن زيادة بن أبي سلمة قال: «دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام فقال لي: **يا زياد، إنك لتعمل عمل السلطان؟** قال: قلت: أجل، قال لي: ولمَ؟ قلت: أنا رجل لي مروّة، وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء، فقال لي: **يا زياد، لئن أسقط من حالق فأتقطّع قطعة قطعة أحبّ إليّ من أن أتولّى لأحدٍ منهم عملاً، أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟** قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: **إلّا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فكّ أسره، أو قضاء دَينه، يا زياد، إنّ أهون ما يصنع الله جلّ وعزّ بمن تولّىٰ لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق، يا زياد، فإن ولّيت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة**»(٢).

ومنها ما رواه الكليني فى سند معتبر عن الحسن بن الحسين الأنباري(٣) عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «كتبت إليه أربع عشرة سنة أستأذنه في عمل السلطان، فلمّا كان في آخر كتاب كتبه إليه أذكر أني أخاف علىٰ خيط عنقي، وأن السلطان يقول لي: إنك رافضي، ولسنا نشكّ في أنك تركت العمل للسلطان للرفض، فكتب إليّ أبو الحسن عليه السلام: **فهمت كتابك وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم أنّك إذا وليت عملك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله ثم تصيّر أعوانك وكتّابك أهل ملّتك، وإذا صار إليك شيء واسيت به فقراء المؤمنين حتّى**

(١) وسائل الشيعة ١٢: ١٣٩، ح١.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ١٤٠، ح٩.

(٣) يحتمل قوياً أن يكون هو الحسن بن الحسين الكندي، كما جزم به الأردبيلي.

تكون واحداً منهم، كان ذا بذا، وإلّا فلا»[1].

الصورة الثانية: الموقف الجهادي الإيجابي، وهو العمل على إسقاط مثل هذه الحكومات المنحرفة، وإقامة حكومة إسلاميّة تحت قيادة الفقيه العادل الجامع لشرائط الولاية، على أن تتم هذه الأعمال الجهادية المشتملة على القتال والتصرف بأموال بيت المال بقيادة الفقيه العادل الجامع لشرائط الولاية أو إذنه.

ومن الأدلة على مشروعية هذه الأعمال الجهادية بالشروط المذكورة هي رواية عيص بن القاسم عن الإمام الصادقعليه السلام التامة سنداً، والمؤيّدة بروايات كثيرة رغم أنها كلّها أو أغلبها ضعيفة السند، ولا تعارض هذه الرواية الروايات الضعيفة سنداً أو دلالةً علىٰ ذمّ الأئمةعليهم السلام لزيد (مورد الرواية) على أساس عدم رضاهم عليهم السلام على خروجه أو أنّ زيداً كان يدعو لنفسه، في حين أن رواية عيص هذه فرضت صحّة عمله، وبها يتم الاستدلال، والرواية هي: أن عيص بن القاسم قال: «سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقول: **عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وانظروا لأنفسكم، فوالله إنّ الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها، والله لو كانت لإحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرب بها، ثمّ كانت الأخرىٰ باقية يعمل على ما قد استبان لها، ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة، فأنتم أحق أن تختاروا لأنفسكم، إن أتاكم آتٍ منّا فانظروا على أيّ شيء تخرجون، ولا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيداً كان عالماً وكان صدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمدصلى الله عليه وآله ولو ظهر لوفىٰ بما**

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ١٤٥، ح١.

دعاكم إليه، إنّما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه،...»[١].

ويستدل أيضاً على مشروعية هذه الأعمال الجهادية بالشروط المذكورة بواقعة الحسين بن علي صاحب الفخ (رض)، الذي خرج على حكومة بني العباس آنذاك، واستشهد وأصحابه فيها، وهي ثابتة بالتواتر[٢]، ولم نعثر على خبر واحد ولو ضعيف السند في ذمّ صاحب الفخ وذمّ خروجه، الأمر الذي قد يبعث بالاطمئنان برضا الإمام المعصوم بعمله وخروجه هذا، خصوصاً وأنّ التقيّة كانت هي الحالة السائدة آنذاك، والتي تناسب أن يصدر عن الإمام المعصوم عليه السلام ولو تقيّةً نصوص متعددة تدلّ على عدم رضاه، في حين لم يصلنا شيء من ذلك ولو بأسانيد غير تامة.

ويستدل أيضاً على مشروعية الأعمال الجهادية المذكورة بضرورة إقامة الحكومة الإسلامية عقلاً وشرعاً تحت لواء الفقيه العادل الجامع لشرائط الولاية[٣]، ولو في البلاد الإسلامية على أقل تقدير، الذي يقتضي العمل الجهادي ضد الحكومات المنحرفة الغاصبة لمنصب الولاية الشرعية وإن تسترت بالإسلام، عندما ينحصر أمر ذلك بالجهاد والقتال، على أساس أهميّة تقديم إقامة الحكومة الإسلامية، خصوصاً في بلاد المسلمين، على ما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من إراقة الدماء، عند رجحان تحقيق المكاسب على الخسائر[٤].

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٣٥ - ٣٦، ح ١.

(٢) راجع مثلاً: أصول الكافي ج ١، ومقاتل الطالبيين، وغيرهما.

(٣) راجع مثلاً: الحكومة الإسلامية للإمام الخميني قدس سره، ومجلة رسالة الثقلين / العدد ٣٨ - منهج البروجردي قدس سره في بحث ولاية الفقيه، الشيخ الآصفي، محمد مهدي.

(٤) لمزيد من التفصيل راجع مثلا: الحائري، السيد كاظم / الكفاح المسلّح في الإسلام (٨٢ - ١٠٢).

وخلاصة القول: أن الأعمال الجهادية التي يقوم بها المسلمون المجاهدون في هذا العصر، والتي يُحتمل رجحان مكاسبها على خسائرها ضد الحكومات المنحرفة الموالية للغرب الكافر وإن تسترت بالإسلام، هي أعمال مشروعة إذا كانت بقيادة فقيه عادل، جامع لشرائط الولاية أو بإذنه وإمضائه، وبهدف إقامة الحكومة الإسلامية، وذلك ضماناً لحفظ الحدود الشرعيّة، وتحقيق شرط رجحان المكاسب على الخسائر في دائرة مصلحة الإسلام والمسلمين العليا، وعدم الوقوع في العدوان والباطل. ومثالها البارز في عصرنا الحاضر الثورة الإسلامية لشعب إيران المجاهد، التي قادها الإمام الخميني ﷺ إلى النصر، وأقام الحكومة الإسلامية على ربوع هذه البلاد الإسلاميّة.

❊ ❊ ❊

سنّة الله
في قمع الفتنة وردع العدوان

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مبدأ وكيفية وقوع الفتن: «**إنّما بدء وقوع الفتن من أهواء تُتّبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم اللّه يتولّىٰ فيها رجالٌ رجالاً، ألا إنّ الحقّ لو خلص لم يكن اختلاف ولو أنّ الباطل خلُص لم يخف علىٰ ذي حِجىٰ[١] لكنّه يؤخذ من هذا ضِغث ومن هذا ضِغث[٢] فيمزجان فيجلّلان[٣] معاً فهنالك يستولي الشيطان علىٰ أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم الحسنىٰ.إني سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، يجري الناس عليها ويتّخذونها سنّة فإذا غيّر منها شيء قيل: قد غيّرت السنّة وقد أتىٰ الناس منكراً، ثم تشتدُّ البليّة وتسبىٰ الذريّة وتدّقهم الفتنة كما تدقّ النار الحطب وكما تدقّ الرحا بثقالها[٤] ويتفقّهون لغير اللّه ويتعلّمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بأعمال الآخرة؟..**»[٥].

ومن لوازم الفتنة وقوع الظلم والعدوان، فكيف السبيل لرفعها؟ وكيف يُقارع

---

(١) الحِجىٰ: العقل.

(٢) الضغث: قبضة من حشيش مخالطة الرطب باليابس.

(٣) جلّلت الشيء : إذا غطيته .

(٤) الثِقال: جلدة تبسط تحت رحا اليد ليقع عليها الدقيق، ويسمىٰ الحجر الأسفل للرحى ثُقالاً بها، والمعنىٰ أنها تدقهم دقّ الرحى للحَب إذا كانت مثقّلة ولا تثقل إلّا عند الطحن.

(٥) الكافي ٨: ٥٨ ح ٢١.

الظلم ويُردع العدوان؟ هل يكون ذلك بالقوة أم بغيرها أم بها وبغيرها؟

إن اللجوء إلى القوة حالة طبيعية، يتعامل الإنسان من خلالها مع التحديات التي تواجهه في مسيرته كفرد وكمجتمع، وبنفس الوقت تخضع هذه الحالة إلى برمجة وتقنين، من خلال نُظُم تبيح استعمالها في ظرفٍ ومنظور، وتمنع من استعمالها في ظرف ومنظور آخر. فإباحة استعمال القوة في كل ظرف وكلّ زمن يجعل الحياة تسير وفق رغبة الإنسان القوي، ووفق إرادة الأقوياء؛ مما يجعل التفاوت في مستوىٰ الحياة وفقاً للقوة، وإذا كانت القوة ممنوعة من دخول ظروف الصراع، ومحجوزة عن التحديات، فإن الإنسان يصبح عاجزاً لا يمكن أن يتحرك، ولا ينتقل من مستوىٰ حياتي إلى آخر وفق منظار التطور، بقي أن تُحدّد الظروف التي تبيح استعمال القوة، وتلك التي تحضر استعمالها. وماوضعت النُظُم والشرائع السماوية، والمادية الوضعية إلّا لتحديد مناهج ومديات تحرك الإنسان في أُطر اللجوء إلى القوة، أو عدم استعمالها في ظرفٍ معيّن. فالدفاع عن النفس أمرٌ فطري، لا يلجأ إليه الإنسان فقط، بل تلجأ إليه كل المخلوقات إذا ما تعرضت إلى تحدي معين من قبل الطبيعة، أو فرد من أفرادها ، فالدفاع عن النفس أمر فطري إذن، وبقي أن تحدد التشريعات المديات التي يتحرك فيها مفهوم الدفاع وشرعيته، والمستوىٰ الأعلىٰ الذي لا يمكن أن يتجاوزه، وإذا ما تجاوزه أصبح أمراً غير شرعي، يعاقب عليه وفق تلك القوانين، ويبدو هذا الأمر جلياً وفق نظرة فاحصة نلقيها علىٰ بعض آيات القرآن الكريم التي يتحدث بها عن الاعتداء وردّه:

أ- ردّ العدوان:

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[١].

---

(١) النحل: ١٢٦.

﴿فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم﴾[(١)].

﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾[(٢)].

﴿وقاتلوا في سبيل اللّٰه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ اللّٰه لا يحب المعتدين﴾[(٣)].

﴿أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإنّ اللّٰه علىٰ نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربّنا اللّٰه ولولا دفع اللّٰه الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللّٰه كثيراً ولينصرن اللّٰه من ينصره إن اللّٰه لقوي عزيز﴾[(٤)].

﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّٰه فإن انتهوا فإن اللّٰه بما يعملون بصير﴾[(٥)].

ب - المثلية في ردّ العدوان:

إنما هي تحديد، علىٰ أن يكون ردُّ الفعل مساوياً للفعل إذا أخذت الظروف الطبيعية المجردة في حالة الدفاع الشرعي، أما إذا كانت حالة ردُّ الفعل المساوي غير مجدية بل غير ممكنة، كأن لو استعمرت دولة مستكبرة دولة أخرىٰ، أو احتلت جزءً من أراضيها أو عرّضت مصالحها للخطر من خلال فعل عسكري أو سياسي أو اقتصادي، وكانت هذه الدولة المضطهدة لا تستطيع من خلال موازين القوىٰ وحسابات التعامل الدولي أن تردّ العدوان بالمثل، فماذا

(١) البقرة: ١٩٤.
(٢) البقرة: ١٩١.
(٣) البقرة: ١٩٠.
(٤) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.
(٥) الأنفال: ٣٩.

تفعل إذن؟

هنا تتشعب مناهج التفكير في الفقه السياسي، وفي دراسات إدارة الصراع السياسي إلى موارد ثلاثة:

أولاً: من يتبنىٰ أن في حالة كهذه، تلجأ تلك الدولة إلى مائدة الحوار (الدبلوماسي) لكي تثبّت من خلال المحاورة السلمية حقها، وتستطيع أن تردّ علىٰ الدولة المعتدية من خلال المنابر والمحافل الدولية، وتستطيع أن تفرض علىٰ تلك الدولة عقوبات سياسية؛ كقطع العلاقات الدبلوماسية أو تعليقها مثلاً، أو خفض درجة التمثيل الخارجي، أو عقوبات اقتصادية كالمقاطعة الاقتصادية أو الحصار الاقتصادي؛ بحيث تصل هذه العقوبات إلى مستوىٰ الردع، وهذا المنهج هو الذي عليه أكثر الدول إعلامياً (نظرياً) بحيث تُثبَّت كبند من بنود التعامل الخارجي مع الدول، وخاصة دول ذات الطابع المشترك (كمنظمة الدول الإسلامية)، و(الجامعة العربية)، و(الدول الاسكندنافية)، و (المجموعة الأوربية) وغيرها.

ثانياً: المنهج الذي يرىٰ أن الواقع السياسي الدولي لا يتغير وفقاً لإفرازات العدوان، أي أنه يرىٰ أن المحافل الدولية سواء اتخذت موقفاً معيناً، أم لم تتخذ لا يُؤثر علىٰ حالة الصراع؛ فيلجأ إلى استعمال القوة المتاحة لديه وبلا حدود؛ حتىٰ يضغط عملياً، ويخضع تلك المعادلة التي تتحكم في الصراع إلى إرادته.

ثالثاً: المنهج الذي يعتمد الصراع بكل إمكانياته المتاحة، سواء علىٰ صعيد القوة أو الفعل، أو الصيغ السياسية والدبلوماسية، فهو يرىٰ أن الطابع الذي يصبغ الصراع هو طابع المواجهة الحضارية، فتراه يلجأ إلى المحافل الدولية لإثبات حقه النظري إعلامياً وسياسياً، ويستخدم الوسائل المتاحة لديه لردع العدوان من جانب آخر، فهو يتحرك بين مرونة الحوار من جهة، وصلابة الموقف من

جهة أخرىٰ ويحاول دائماً أن تكون كفة الردع هي الراجحة في ميزان القوىٰ التي يتعامل معها.

وبعد النجاح الذي سجلته البؤر الثورية، أو الثورات الشعبية في تاريخنا المعاصر؛ والتي استطاعت أن تكسر هيبة الدول الاستكبارية، وتعرّض مصالحها التاريخية للخطر، بعد هذا النجاح أخذت الدول الكبرىٰ تتحرك إعلامياً وسياسياً لإضفاء طابع (السلبية) والعدوانية، أو ما يسمىٰ (بالإرهاب) علىٰ هذه الحركات الثورية، التي تتفجر هنا وهناك من مناطق العالم، فأخذ الإعلام الاستكباري يؤكد من خلال بحوث ودراسات نفسية؛ علىٰ أن الإنسان الثائر هو الإنسان الإرهابي ذو الطبيعة العدوانية، والإنسان الذي يرفض أن يعطي بلا مقابل آني ملموس إنسان (مخرّب). والحقيقة أن هذه المصطلحات: (الإرهاب) ، (التخريب)، (العدوان) مصطلحات ذات وجهين، فإذا كانت هذه المصطلحات تتحرك في إطار الإنسان المستضعف، الذي يرفض الهيمنة، ويرفض التنازل عن حقوقه المشروعة أمام عمالقة الاستكبار؛ فإنها تحمل طابع (الإيجابية)، لأن الإنسان المستضعف لا يريد أن تتجاوز هذه المفاهيم حدودها الثابتة إلى حدّ الإضرار بحقوق الآخرين، ولا أن تتعدىٰ أبعد من ذلك.

وليس غريباً أن نرىٰ القرآن الكريم يصف المؤمنين بأنهم قوم يُرهبون أعداءهم ويلقون الرعب في قلوبهم سواءً لازمه الفعل الجهادي الميداني، أم كان مجرد إعداد للقوة الرادعة التي ترهب الأعداء، وتمنعهم من العدوان، فيقول:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ اللّه

وعدوكم﴾[1]، فإرهاب العدو الظالم حالة (إيـجابية)، يـتوسل بـها الإنسـان المقهور لاسترداد حقوقه المغتصبة.

وكذلك (التخريب)، فإن القرآن يبدي لنا الوجه الإيجابي مـنه فـي عـالم المستضعفين حتىٰ يفقد طابعه السلبي فيقول سبحانه:

﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾[2].

فأيدي المؤمنين أيدي (مخرّبة) ولكن ماذا تخرّب؟ إنـها تـخرّب بـيوت المستكبرين والظالمين، ومناهج هيمنتهم، ومراكز تـحركهم، فـهم (مـخرّبون بنّاءون) و (مخرّبون إيجابيون) يتحركون مع الفطرة وحرية الإنسان وكرامته، ويخرّبون القيود التي تحاول الحد مـن حـريتهم الطـبيعية، وهـدر حـقوقهم الإنسانية.

إن ظهور دول الاسـتكبار بـمظهر الداعـم لمـؤسسات حـقوق الإنسـان، ومؤسسات الدفاع عن المظلومين إنما تحاول بذلك أمرين:

أولاً: تحاول أن تبدو بوجه ناصع أمام المحافل الدولية والمجتمع الدولي؛ لتشكل غطاءً شرعياً لتحركاتها السياسية، التي تهيمن من خلالها علىٰ شعوب العالم المستضعفة.

ثانياً: تحاول أن تمتص نقمة المستضعفين والمضطهدين من خلال جرّهم إلى هذه الواجهات، وجعلهم يتصورون أن هذه الواجهات هي التي تحقق لهم آمالهم وطموحاتهم، بعيداً عن اللجوء إلى منطق القوة أو حتىٰ التفكير بها علىٰ الأقل.

إنّ الدول الاستكبارية تـدرك تـماماً طـبيعة الصـراع بـينها وبـين العـالم

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) الحشر: ٢.

المستضعف؛ ولكنها تبقىٰ مصرّةً علىٰ أن تسيّر هذا الصراع وفق معادلاتها وفهمها، وما تمليه هي علىٰ الآخرين.

فحينما تسجّل مثلاً الدوائر الاستكبارية أن عدد الضحايا في جريمة (هيروشيما) هو مائتا ألف قتيل ومئآت الآلاف من المشوهين إلى يومنا الحاضر، تدرك تماماً أن هذا الرقم أقل إرهاباً من قتل جاسوس أو حفنة مرتزقة معتدين أو تهديدهم، إن لم يكفّوا عن عدوانهم، من قبل إنسان يدافع عن قضيته وكرامته، فلماذا إذن هذه النظرة؟

في الواقع إن هذه الرؤية نابعة من شعور الدول الاستكبارية بروح التفوّق الذاتي، وإنها الدول الأقوىٰ، والتي لها الحق في أن تملي إرادتها علىٰ الآخرين، علىٰ أن خلفية هذه النظرة الاستكبارية تكمن في السمة الأخلاقية الماديّة المدعمة بالتفوق التكنولوجي وترسانات الأسلحة، وشبكات الأقمار الصناعية العائمة في الفضاء، فتتعامل الدول الاستكبارية مع الآخرين علىٰ أنهم مناجم جاهزة للاقتصاد، وأسواق للمبيعات، وثروات بشرية يمكن التحكم بها وفق المنظار الاستغلالي البحت لتلك الدول الاستكبارية.

وإذا ما حاولت إحدىٰ المفردات السياسية علىٰ صعيد الدول أو الأفراد أن تغيّر في هذه السياسة، أو حاولت الإخلال في طرفي المعادلة، من خلال تحرك سياسي أو تصريح في محفل دولي؛ كانت تهمة «الإرهاب والإرهابيين» هي الوصفة الناجعة التي تعالج بها الدول الاستكبارية ذلك الطرف المتحرك علىٰ العكس من إرادتها. وإلّا فمتىٰ كان الدفاع عن الحقوق المشروعة إرهاباً؟ ومتىٰ كان سدّ المنافذ التي يمكن أن يتسلل منها اخطبوط الاستكبار إرهاباً؟ ولماذا لا يكون (الفيتو في مجلس الأمن الدولي) نوعاً من الإرهاب السياسي؟ فعندما تجمع أغلبية الدول علىٰ أمرٍ معين أو قرار، تستطيع

إحدىٰ الدول الكبرىٰ ذات الصلاحية، اللامحدودة كأميركا مثلاً أن تلغي إرادة هذه الشعوب، بأن يرفع مندوبها يده معارضاً في الأمم المتحدة، لماذا كان (الفيتو) أمراً طبيعياً ومقبولاً في السياسة الدولية؟ ألِأنَّ الشعوب المستضعفة ارتضته هادراً لإرادتها، وممتهناً لأبسط حقوقها في الحياة الحرّة الكريمة؟! أم أن الدول الكبرىٰ متفقة عليه؛ حفظا لمصالحها، ولكي تبقىٰ خيوط اللعب الدولية في يديها؟!

وعندما تتحرك الأساطيل الأميركية في منطقة الشرق الأوسط، وتخترق حرمة المياه الإقليمية لبلدان مستقلة كالجمهورية الإسلامية في إيران، وتهدد بفوهات مدافعها وصواريخها الشعب المسلم في هذا البلد، لكي تقلب معادلة طرفي الصراع في المنطقة لصالحها، لماذا لا يسمىٰ هذا النوع من الممارسات اللاأخلاقية إرهاباً دولياً؟

وفي المقابل، عندما تحاكم السلطة القضائية في الجمهورية الإسلامية في إيران مجموعة من مواطنيها، بتهمة التجسس لصالح إسرائيل وفق قوانينها المرعيّة؛ يتعالىٰ الضجيج من الدوائر الصهيونية والأميركية، ومن يسير في ركابهما من دول الغرب، مُديناً هذه المحاكمة، ومعتبراً إيّاها أعمالاً (إرهابية) و(غير إنسانية)، وكأن بلاد إيران وشعبها تحت الوصاية الاستكبارية لأميركا، والصهيونية العالمية.

وعندما تحتل إسرائيل جنوب لبنان، وتشرّد وتقتل وتجرح الآلاف من أبنائه طيلة عشرين سنة متوالية من الاحتلال؛ يعتبر الاستكبار وعلىٰ رأسه أميركا أن إسرائيل اضطرت لذلك دفاعاً عن نفسها، في حين عندما يستمر مجاهدو حزب اللّٰه في جهادهم لتحرير ما تبقىٰ من أرضهم أو يأسروا جنوداً إسرائيليين في المنطقة، التي لا زالت تحت الاحتلال ليجبرا العدو الإسرائيلي

علىٰ إطلاق سراح الأسرىٰ اللبنانيين، الذين اختطفتهم إسرائيل من بلدهم لبنان، واحتجزتهم طيلة سنوات في إسرائيل، تعلن أميركا النفير العام لدوائرها السياسية، وتمارس ضغطها علىٰ الأمم المتحدة وأمينها العام؛ ليتحرك مع مجموعة من كبار رجال الاستكبار تحت غطاء محاربة الإرهاب، ومحاصرته لممارسة الضغط لإيقاف جهاد حزب الله والمطالبة بإطلاق سراح الصهاينة الأسرىٰ، والأكثر غرابة أن كل هذا يتم في الوقت الذي يتساقط الآلاف من القتلىٰ والجرحىٰ من أبناء الشعب الفلسطيني المسلم برصاص الصهاينة وتدمر بيوتهم على رؤوسهم بل وكلّ شيء ينبض بالحياة فى أرضهم، ولا ترتفع عقيرة أحدٍ منهم بكلمة إدانة، وإذا ما أراد البعض إطلاق هذه الكلمة باسم الأمم المتحدة، وبأبهت صورها جاء سلطان (الفيتو) الأميركي ليكمّ أفواههم ويخرس، كلماتهم رغم كونها كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع، بل يأتي ردّ الفعل المعاكس بوقاحة أكثر وصفاقة أشدّ عندما يعلن رئيس الجمهورية، ومجلس النواب الأميركي أن علىٰ الفلسطينيين أن يكفوا عن الأساليب الإرهابية ضد إسرائيل، ويتمادىٰ النظام الصهيوني علىٰ هذه النغمة الأميركية المستكبرة؛ ليعلن أنه لن يستجيب للدعوات الدولية بوقف المذابح التي يمارسها فى المدن الفلسطينية المحتلة، حتى تحقيق أهدافه في القضاء علىٰ ما يسميه بالإرهاب الفلسطيني.

هذا هو الاستكبار وهذا هو منطقه، فالمقياس الاستكباري إذن يبقىٰ يحدد وبكل وضوح؛ أن كل الفعاليات الإعلامية والسياسية والعسكرية، التي تضرّ بمصالح الدول الكبرىٰ، أيّاً كان دافعها هي ممارسات (إرهابية) و(عدوانية)، وتبقىٰ مصالح الدول الكبرىٰ هي الدائرة الحمراء، التي لا يقترب منها إلّا الإرهابي المتطرف كما يصفون.

ولكن منطق الفطرة السليم يبقىٰ هو الفيصل في تمييز الإرهاب بمعناه (السلبي)، الذي يراه الاستكبار فعلاً طبيعياً، لا غضاضة فيه وبين الإرهاب بمعناه (الإيجابي) المشروع، وهو الموقف المعبّر عن حالة الدفاع الفطرية المشروعة لكل المستضعفين لردع كل المستكبرين، فما لم يقف الاستكبار عن إرهابه للمستضعفين؛ يبقىٰ الإرهاب المضاد مشروعاً، وما دامت بؤرة العدوان والظلم والاستكبار قائمة سيبقىٰ ردّ العدوان عملاً طبيعياً، منطلقاً من الفطرة الإنسانية، ومثاله الحي اليوم التقابل الواقع بين إسرائيل الغاصبة، وفلسطين المغصوبة، الصهاينة المعتدين والفلسطينيين المجاهدين، فما لم يقف العدوان الاستكباري عن إرهابه للمستضعفين؛ يبقىٰ الجهاد والدفاع أمراً مشروعاً، وليسموه إرهاباً، فهو إرهابٌ دفاعي مشروع.

وتلك هي سنّة اللّٰه في الوجود لقمع الفتنة وردع العدوان، رغم إرادة أعدائه **﴿فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم﴾**[1].

❊ ❊ ❊

(١) البقرة: ١٩٤.

الفصل الرابع

شبهات علمانية في الميزان

«نماذج معاصرة»

تمهيـــد:

غالباً ما يتصدى المثقفون العلمانيون لقضايا الدين والفكر الديني، ويقوّمون المجتمعات والظواهر والمعالم الدينية، التي ترسم مـلامح تـلك المـجتمعات وتصبغها بصبغة دينية، رغم امتزاجها أحياناً بآثار أجنبية عـنها، نـاتجة مـن التأثيرات القومية الإقليمية أو الخارجية اللادينية الوافدة عليها.

والإشكالية التى تبرز فى خفايا مثل هذه التقويمات العلمانية هي تحكيم المنطق العلماني، في فهم مباني الدين وأسسه الفكرية الذي غالباً مـا يـقلب الحقائق، أو يتجاوز المنطق الاستدلالي العقلي الذي يعتمدهُ الفكر الديني في تأسيس مبانيه، وعرض بنيانه الفكري علىٰ أسـاسه، فـيقع هـؤلاء المـثقفون العلمانيون في حالة مـن الانـفصام المـنهجي فـي تـناول القـضايا الفكـرية والاجتماعية، بين منهجية فهم الدين والفكر الديني، وبين منهجية فهم الثقافة والفكر العلماني[1]، وعندها ستعرض الحقائق الدينية بعقلية ومنهجية علمانية، تفقدها هويتها الذاتية، وتغرقها في لجّة من التصوير المشوّه لهـا، بـعيدا عـن حقيقتها وخصائصها الموضوعية.

وتتفاوت درجة التشويه بين سوء الفهم، أو قصور في الإدراك لِكُنْهِ وفلسفة بعض الأفكار والنظريات الدينية، وبين تنظير مشوب بشبهات، تصل أحـياناً

---

(١) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب: مقولات فى مـنهجية الخـطاب الثـقافي الإسـلامي. وراجع أيضاً: إشكاليات حول منهجية الخطابي الثقافي التغريبي.

إلى حدّ التحريف وقلب الحقائق والنتائج.

وفيما اخترناه من نماذج معاصرة لهذه التقويمات العلمانية كتابان: أحدهما لأستاذ أكاديمي في العلوم السياسية بجامعة برلين الحرّة في ألمانيا، ويمكن تصنيفه في الصنف الذي انتهىٰ في بحثه إلى التحريف وقلب الحقائق والنتائج، وقد استعرضنا أهم مواردها مع الردّ عليها. والثاني لأحد كوادر العمل السياسي العلماني المعاصر في العراق، والذي كان كتابه ثمرة وقفة صحوة شجاعة، سلّطت الكثير من الضوء على جذور ومعالم اللعبة الاستعمارية للورقة الطائفية في العراق للفترة التاريخية (١٩١٤م - ١٩٩٠م)، إلّا أنه وبسبب قصور أو عدم فهم وإدراك للعديد من مباني الدين الإسلامي، وخصائص مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ وقع في اشتباهات وشبهات تناولناها بالعرض والرد.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ الردود في مواردها الجزئية قد تكون مختصرة؛ وذلك لاعتمادنا على اهتمام القارىء الكريم، لتحصيل المزيد من التفصيل من خلال إحالاتنا إلى المصادر في الهامش، كما أننا نعتقد أنّ ردودا عديدة وردت بتفصيل، يرفع الإجمال عن تلك المختصرة، وبعبارة أخرى فإن النظرة الكلية للردود يحقق التفصيل بحدّ الكفاية في أغلب الموارد إن لم يكن في جميعها.

❊ ❊ ❊

النموذج الأول
«كتاب الطائفية والسياسة في العالم العربي»
«نموذج الشيعة في العراق»[(١)]

تقويم عام:

جاء الكتاب بموضوعه الحساس محاولة لتسليط الضوء علىٰ الوضع الآيديولوجي، والاجتماعي للمسلمين الشيعة في العراق، بقالب طائفي سياسي علىٰ الطريقة الأكاديمية المعاصرة، التي تستبعد في تناولها للمفردات والقضايا الموضوعية البعد الرسالي والعقائدي الكامن وراءها، والذي بدونه تبقىٰ أغلب هذه المفردات والقضايا عصيّة الفهم، مما يدفع الباحث فيها لاعتماد فهمه الخاص علىٰ النهج الأكاديمي التقليدي في تحليلها وتفسيرها، وبهذا يقع في شبهات متراكمة.

وقبل الدخول في بيان أبرز وأهم الشبهات التي وضعنا يدنا عليها، والرد الموضوعي والعلمي لها، نشير إلى ملاحظات كليّة أخرىٰ، نجد من الضروري التنبيه إليها؛ لنكون علىٰ بصيرة من أمر هذا الكتاب، وهي:

١ ـ كثيراً ما يقع المؤلف تحت تأثير العقلية الغربية المادية، ومنهجها العلماني ، في تناول القضايا الفكرية والثقافية، وتفسير الوقائع والأحداث

---

(١) كتاب الطائفية والسياسة في العالم العربي «نموذج الشيعة في العراق» من تأليف الدكتور فرهاد إبراهيم استاذ العلوم السياسية بجامعة برلين الحرّة في ألمانيا.

السياسية، والتصنيف الاجتماعي والديني والقومي للمجتمع العربي ومنه المجتمع العراقي.

٢ ـ اعتمد المؤلف في العديد من الموارد والموضوعات علىٰ مصادر غير محايدة، ومن أبرزها تصريحات وكتابات رئيس النظام العراقي صدام، ومن يدور في فلكه، مِنَ المعروفين بعدائهم الطائفي والعنصري للمسلمين الشيعة، خصوصاً شيعة العراق وإيران.

أهم الشبهات التي حواها هذا الكتاب وردودها:

الشبهة الأولىٰ: منذ إنشاء دولة العراق لم يكن للشيعة العراقيين هدف سوىٰ حكم العراق، وإضعاف قوة الأقليّة السنيّة.

الرد: إن تاريخ التشيع والمسلمين الشيعة يثبت خلاف ذلك، بدءاً بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده سيرة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وسعيهم لتحقيق وحدة المسلمين، وتوحيد مبانيهم الفكرية وحركتهم الاجتماعية والسياسية، ووصلاً بسيرة علماء المسلمين الشيعة الإمامية حتىٰ يومنا هذا، التي كان من أبرزها في بدايات القرن العشرين وقوفهم في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، وبقية المدن المقدسة ذات الأغلبية الشيعية، إلى جانب الخلافة العثمانية السنيّة أمام الغزو الإنجليزي لبلاد المسلمين في العراق، بل وإعلان فتوىٰ الجهاد؛ حفاظاً علىٰ بيضة الإسلام والخلافة الإسلامية أمام غزو المستعمر الإنجليزي الكافر، رغم الاضطهاد الذي تعرّضوا له إبّان الحكم العثماني، وكذلك موقف مراجع المسلمين الشيعة اليوم، الداعي إلى وحدة المسلمين، وحرمة كل عمل يؤدي إلى الفرقة والخلاف، بما في ذلك الشعائر الإسلامية الكبرىٰ، كما نلاحظ ذلك من خلال إقامة الشعائر الإسلامية الكبرىٰ، كصلاة الجمعة والجماعة، وشعائر الحج وأمثالها من الشعائر الأُخرىٰ.

هذا مع العلم أن الحكومات التي حكمت العراق أحزاباً أو أفراداً؛ لم تكن ملتزمة حتىٰ بمبادئ أهل السنة، بل إن أهل السنة الملتزمين لم يركنوا إليها؛ لأنّها كانت منحرفة وظالمة، تضطهد الملتزمين إسلامياً سنّة أو شيعة.

الشبهة الثانية: إن الشيعة لم يستطيعوا علىٰ مدىٰ سبعين عاماً ـ منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة ـ أن يحققوا هدفهم.

الرد: لقد سعىٰ المسلمون الشيعة كثيراً بقيادة علمائهم لإقامة حكومة إسلامية عادلة في العراق، وقدّموا الكثير في هذا السبيل، ولكن كانت هناك عوامل كثيرة حالت دون الوصول لهدفهم، منها عوامل الاستعمار والعمالة والانحراف، كما سعوا للتعاون مع السنّة، الذين هم أقلية بالنسبة إلى الشيعة في العراق آنذاك، في سبيل نيل العراق للاستقلال، وإقامة دولة مستقلة عن النفوذ الأجنبي، منذ ارهاصات قيام الدولة العراقية، خصوصا وأنهم لا يستهدفون الوصول إلى الحكم بالعنوان الطائفي الإثني؛ بل يؤمنون بهدف أساسي، وهو إقامة حكومة إسلامية عادلة لكل المسلمين شيعة وسنة، إلّا أن السياسة الخبيثة للاستعمار الإنجليزي هي التي كانت وراء إشعال نار الفتنة الطائفية في العراق، وإغراء البعض بالانفراد بالحكم، وإبعاد المسلمين الشيعة عن أغلب الوظائف والمجالات الحساسة في الدولة طيلة القرن العشرين إلى يومنا هذا.

وقد أقرّ المؤلف في مواطن أُخرىٰ من هذا الكتاب هذه الحقيقة، وساق لها الشواهد والأرقام العديدة.

الشبهة الثالثة: لم يكن بين المجموعات الأساسية للمجتمع العراقي من الشيعة والسنّة، من العرب والأكراد أيّة قواسم مشتركة في فترة ما قبل الاستعمار.

الرد: كيف لم تكن بينهم أيّة قواسم مشتركة؟ ألا يكفي أن يكون الإسلام

أعظم قاسم مشترك بينهم؟ إضافة إلى التاريخ المشترك في سرّائه، وضرّائه. وقد أثبتت الحوادث ذلك من خلال الدفاع عن المقدسات والبلاد أمام الأطماع الأجنبية، كوقوفهم المشترك ضد الغزو الإنجليزي المقيت للعراق، والسعي المشترك لإقامة الحق والعدل في واقعهم، واحترام كل طائفة للأخرىٰ، فإن اختلاف الرأي لا يفسد في الودّ قضية، إذا لم تكن هناك أطماع وأهواء منحرفة في نفوس البعض، وقد تصحّ دعوىٰ الكاتب هذه إذا كان مقصوده هو عدم القواسم المشتركة بين الحكام العثمانيين والصفويين الذين تستروا بستار السنة والشيعة، وخاضوا صراعاً دموياً في كثير من عقود حكمهم، واستخدموا الغطاء المذهبي الديني لبسط سلطانهم على بلاد المسلمين الشيعة والسنّة.

الشبهة الرابعة: إن سياسة القوىٰ الاستعمارية لم تراعِ قبل اتخاذ قراراتها السياسية النمو المتزايد للجماعات الطائفية، مما أدّىٰ إلى تزايد الأزمات الطائفية والعرقية علىٰ السطح في كل بلاد الشرق الأوسط، ودول شمال إفريقيا (الدول الإسلامية).

الرد: بل العكس هو الصحيح إذ أنّ من أهم عوامل الإصرار علىٰ إطلاق الوصف الطائفي علىٰ النشاطات الإسلامية للشيعة في العراق، رغم إعلانها للمبادئ الإسلامية الوحدوية والتحررية، هو الاستعمار البريطاني الذي اعتمد علىٰ سياسية (فرّقْ تسُدْ) بين الطوائف الدينية والقومية.

الشبهة الخامسة: إن الشيعة يمتازون بأمرين:

أولاً: الميل الدائم إلى المعارضة للحكومة والسلطان.

ثانياً: تذبذب السلوك السياسي للشيعة بين موقفين، يبدوان غاية في التناقض بين التقية والتعبئة.

الرد: بالنسبة إلى الأمر الأول يمكن أن يقال: إن هذا الميل له جذوره

الفكرية والسياسية؛ حيث تحمّل المسلمون الشيعة في أغلب أدوار الخلافة الإسلامية، وخصوصاً الأموية والعباسية والعثمانية، الكثير من الظلم والاضطهاد؛ بسبب عقائدهم الحقّة ورفضهم لسلاطين الظلم والجور وأئمة الضلال، لذلك اتسموا بالمعارضة للطواغيت وحكام الجور علىٰ طول التاريخ من جهة، وبالمطالبة بإقامة حكومة العدل الإلهي علىٰ نهج الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من جهة أخرىٰ. وهذا التوجه ليس له علاقة بالحالة الطائفية الوراثية، فهم لا يقيمون وزناً لمن ينتسب إلى حكّام الجور وإن كان الحاكم مسلماً شيعياً بالوراثة (من أبوين شيعيين)، إلّا أن يقيم عدلاً أو يدفع ظلماً.

أما بالنسبة إلى الأمر الثاني، فلا تناقض ولا تذبذب في السلوك السياسي لمن يعي حقيقة هذين الموقفين؛ فلكلٍّ منهما ظرفه ومجاله المناسب، فهما سلوكان قائمان علىٰ الحكمة، يقرّهما العقلاء، كما تؤكدهما الشريعة الإسلامية وفق مباني مدرسة أهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام؛ فالتقيّة تمثل موقف الحكمة الرسالية عندما تكون الخسائر أكبر من الأرباح في الحسابات الرسالية، والتعبئة للمواجهة والكفاح تمثل موقف الحكمة الرسالية أيضاً عندما تكون الأرباح أكبر من الخسائر في المواجهة الرسالية، بغض النظر عن النتائج الآنية، أو كما يعبّر عنه فقهياً بـ «تغيّر الموضوع»، فلكلّ حكم موضوعه وظروفه الموضوعية، كما في نهضة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، التي آتت ثمارها المتواصلة ـ كموقف ونهج رساليين ـ منذ زمن استشهاد الإمام عليه السلام وصحبه الأبرار رضوان الله عليهم، في إحياء دين محمد صلى الله عليه وآله وكشف انحراف الخلافة الحاكمة عن الإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وحَمَلَهُ من بعده أهلُ بيته عليهم السلام وأتباعهم إلى يومنا هذا.

إضافة إلى أن التقيّة ليست هي العزلة والغيبوبة والاستسلام التام لإرادة

حكام الجور والظلم كما يتوهم الكاتب، بل إنها نوع من الكفاح السلبي، أو الترقب الإيجابي.

الشبهة السادسة: يجب التفريق بين الإسلام كديانة، وبين الحركة السياسية الإسلامية في الوقت الحاضر.

الرد: إذا كان المقصود من التفريق هنا أن يكون بلحاظ الفارق الآيديولوجي النظري، فهذا خطأ؛ لأن آيديولوجية الحركات السياسية الإسلامية ذات الخط الإسلامي الأصيل هي نظرياً آيديولوجية الدين الإسلامي. أما إذا كان المقصود من التفريق هو قياس مدىٰ مصداقية الحركات السياسية الإسلامية بالنسبة إلى الدين الإسلامي فهذا أمر لابد أن يُلحظ من خلال التجربة والسيرة العملية لكل حركة سياسية إسلامية علىٰ حدة؛ لكي يتم التحقق من مصداقية هذه الحركات في التعبير عن حركة الدين الإسلامي الأصيل في المجتمع.

وإذا كان المقصود هو فصل الدين عن السياسة، علىٰ أساس المبادئ العلمانية ـ وهو ما تدعو له بعض الجماعات السياسية ـ فهو أمر غريب عن الإسلام وعن تاريخه ودعوته، منذ زمان الرسول صلى الله عليه وآله. ويكفي الاطلاع علىٰ التاريخ الإسلامي، وأحكام ومبادئ الإسلام في مختلف المجالات لإدراك ذلك.

الشبهة السابعة: لا يمكن أن تكون الحركة الإسلامية في المجتمعات الإسلامية ـ خصوصاً المجتمعات العربية الممزقة ـ عاملاً من عوامل الاندماج؛ فهذه الحركات ماهي إلّا نتيجة للتجزؤ القائم فعلاً.

الرد: هذا التنظير يصحّ إذا كانت الحركات الإسلامية السياسية تتأطر في

منهج عملها وحركتها بالإطار الطائفي، وهذا غير صحيح إذ كانت هذه الحركات تمتلك أطروحة إسلامية سياسية شاملة، تستوعب الحالة العامة للمجتمع بكافة طوائفه ومذاهبه ودياناته وقومياته، فهي بهذه الأطروحة ستحقق أهم عوامل الاندماج في المجتمعات الإنسانية. وفي هذا الصدد يمكن أن نتخذ من التجربة الإسلامية الرائدة في إيران نموذجاً بارزاً، لتأكيد هذه الحقيقة؛ ففي مواد دستور الجمهورية الإسلامية في إيران، وتركيبة مجلس الشورىٰ النيابي، والتشكيلات التنفيذية لأقاليم إيران، إستيعاب شامل في التمثيل السياسي والاجتماعي والثقافي لكافة الديانات السماوية، كالمسيحية واليهودية وغيرها إلى جانب الدين الإسلامي، وكذلك لجميع الطوائف المذهبية الإسلامية السنيّة إلى جانب المذهب الشيعي الإمامي، وأيضاً لجميع القوميات، الفارسية والآذرية والعربية والكردية وأمثالها.

وهذا طبعاً مشروط بتطبيق الإسلام الأصيل تطبيقاً صحيحاً، فيكون من عوامل العزّة والوحدة والتطور والتقدم، كما في حركة الرسولﷺ في صدر الإسلام، إلّا أن يكون هناك تيارات تقف عقبة في طريق ذلك، وتسعىٰ لحرف تطبيق التجربة الإسلامية.

الشبهة الثامنة: استطاع الشيعة أن يلعبوا دوراً هاماً في السياسة والحكم أثناء حكم المغول، حيث اعتبروهم حلفاء مخلصين، محررين من حكم العباسيين.

الرد: إن ادعاء أن المسلمين الشيعة كانوا حلفاء للمغول عند غزوهم بلاد المسلمين هو تحميل علىٰ وقائع التأريخ وتزوير له؛ إذ إنه بعد انتصار المغول الساحق علىٰ العباسيين، وتمكّنهم من بسط سلطانهم بالقوة والبطش علىٰ بلاد المسلمين؛ لم يجد العلماء المسلمون الشيعة سبيلاً للوقوف أمام سطوتهم، إلّا

بدعوتهم التدريجية لاعتناق الإسلام، عن طريق ترغيبهم بإنشاء مراكز علمية، تكون عاملاً لتحول منطقهم في التعامل والحكم، من استخدام القوة والبطش إلى استثمار العلم في بناء حكومتهم وبسط سلطانهم، ثم الاهتداء عن طريق هذه العلوم إلى الإسلام.

وقد نجح علماء المسلمين الشيعة في ذلك نجاحاً كبيراً، خصوصاً في حفظ العلوم الإسلامية بل ونشرها.

ونتيجة هذا الاستهداف الواعي في الدعوة أعلن السلطان المغولي تكودارخان اسلامه، وسمىٰ نفسه أحمد في عام ٦٨١ هـ، وفي عام ٦٩٤ هـ أعلن السلطان غازان بن آرغون إسلامه، وتبعه مائة ألف من جنوده، فانتشر بذلك الإسلام في صفوف التتار، ثم أسلم بعده أخوه نيقولادس الجايتو سنة ٧٠٧ هـ، وسمىٰ نفسه محمد خدابنده، وتمذهب بمذهب أهل البيت عليهم السلام، وأمر بكتابة أسماء الأئمة الإثني عشر عليهم السلام علىٰ النقود، وتمّ إنشاء أكبر مركز إسلامي علمي علىٰ يد المغول، الذي اشتهر باسم مركز مراغة الشهير[١].

الشبهة التاسعة: كان المذهب الشيعي في الدولة العثمانية لا يتدخل بالسياسة، كما هو في فارس.

الرد: لعل الكاتب كان يقصد بتعبيره هذا أن المسلمين الشيعة في العراق ـ وليس المذهب الشيعي بما هو مذهب ـ لم يكن لهم تحرك سياسي، أو مواجهات سياسية بالمستوىٰ الذي كان عليه المسلمون الشيعة في بلاد فارس، والسبب في ذلك يعود إلى الظروف التي كانت تتحكم في كلا البلدين؛ حيث إن للعلماء المسلمين الشيعة في بلاد فارس دوراً أساسياً في إضفاء الشرعية أو

---

(١) راجع: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣ : ٣٧٨.

عدمها علىٰ حكم الملوك والسلاطين، الذين كانوا بدورهم يسعون لكسب تأييدهم ورضاهم، وبالتالي كسب تأييد الأمة لاستمرار حكومتهم؛ لأن مذهب الدولة الرسمي في بلاد فارس منذ عهد الشاه الصفوي إسماعيل عام ٩٣٠هق هو المذهب الشيعي الإمامي[١]، في حين أن المذهب الرسمي للدولة العثمانية الحاكمة لبلاد العراق هو المذهب السني الحنفي غالباً.

الشبهة العاشرة: إن الشيعة كانوا يعظّمون ويقدّسون أهل البيت عليهم السلام بشكل متطرف، مما يشكّل خروجاً عن الدين بالنسبة لبعض الفرق كالوهابية.

الرد: إن من يعرف مقام أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ودرجتهم عند اللّه، وأنهم عِدلُ القرآن الكريم بنص حديث الثقلين المشهور عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**ألا أيّها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[٢]، سوف لا يرىٰ فرقاً في تعظيمهم عن تعظيم القرآن الكريم، ولا يصفه بالتطرف أو الخروج عن الدين، كما هو شأن الفرق الشاذة كالوهابية المبتدَعة في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي[٣].

الشبهة الحادية عشرة: لقد طالب المجتهدون أن يكونوا أولياء للإمام الثاني عشر الغائب، وبرّروا ذلك بسلطتهم القوية علىٰ المؤمنين. وبهذ أصبح مرجع التقليد مفروضاً علىٰ المؤمنين منذ منتصف القرن التاسع عشر.

الرد: ليست هذه المسألة مطلباً اعتباطياً أو شخصياً يدّعيه المجتهدون

---

(١) راجع: إقبال، عباس - تاريخ إيران بعد الإسلام.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٦٦٢. مسند أحمد ٣: ١٤. مصابيح السنة ١٤: ١٩٠.

(٣) راجع: التقوي، السيد أبو العُلىٰ - الفرقة الوهابية.

لأنفسهم، بل هي مسألة شرعية تتعلق بمرجعية التقليد، ونيابة الفقهاء الجامعين للشرائط عن الإمام الحجة عجل الله فرجه، في الحاكمية والولاية الإسلامية، وهي مسألة لها أدلّتها الفقهية التامة وفق مباني مذهب الشيعة الإمامية، ونشكّ أن يكون الكاتب بمستوىٰ فهم وإدراك تلك الأدلة والمباني، وإلّا لما تعرّض لهذا الموضوع بهذا الطرح البسيط. فالمجتهد الجامع للشرائط هو نائب للإمام المعصوم عليه السلام في حال غيبته، وله ما للإمام المعصوم من شؤون الحكومة الإسلامية علىٰ أساس من الأدلة العقليّة، والنص الشرعي العام الوارد في الروايات الشريفة، يضاف إلى ذلك أن التقليد ضارب في القدم منذ زمان أئمة أهل البيت عليهم السلام[١]، وقائم علىٰ أدلّته العقليّة والشرعية في مذهب أهل البيت عليهم السلام[٢]، وليس أمراً مستحدثاً في القرن التاسع عشر.

الشبهة الثانية عشرة[٣]: [وهي في معرض بيانه للفتنة التي حصلت بين الإخباريين والأصوليين الشيعة في حوزة النجف الأشرف] حيث قال الكاتب في هذه الشبهة: كان بإمكان علماء الشيعة الإخباريين التحالف مع أحد الأسياد من الملّاكين، أو أحد رؤساء العصابات الذين كانوا يفرضون الأتاوات في الأسواق؛ وذلك لدحض المنافسين من العلماء الشيعة الأُصوليين. وقد

---

(١) للمزيد راجع: الخميني، روح الله - الحكومة الإسلامية والحائري، كاظم - أساس الحكومة الإسلامية والحائري، كاظم - ولاية الأمر في عصر الغيبة.

(٢) للمزيد راجع: نفس المصادر أعلاه.

(٣) هذه الشبهة أوردها الكاتب في معرض بيانه للفتنة التي حصلت في مقطع زمني محدود بين أتباع المدرسة الإخبارية والمدرسة الأُصولية في الحوزات العلمية، خصوصا في النجف الأشرف، وهما مدرستان علميتان، تعتمد كلٌّ منهما منهجاً استدلالياً يختلف في بعض المباني عن الأخرى، ولا يعدم وجود أيادي استعمارية بريطانية وراءه؛ لإحداث فتنة لشقّ صفّ المسلمين الشيعة بما فيه صف الأوساط العلمية النافذة في الأمة.

اتصل الإخباريون مع عصابات مهمّة تمّ توظيفها لهذا السبيل.

الرد: هذا خلط بين سلوك العوام الذي قد يتخذ صوراً انفعالية شاذّة، لا تمثل الموقف الإسلامي الصحيح للعلماء الأعلام، وبين رؤية العلماء ومواقفهم الإسلامية الصحيحة؛ حيث إن الاختلاف بين الإخباريين والأُصوليين هو اختلاف بين مدرستين علميتين في النظر الفقهي، ومجال علاجه وتقويمه حلقات الدرس ومناظرات العلماء، وليس انفعالات العوام وهوس الغوغاء الذي يشير إليه الكاتب.

الشبهة الثالثة عشرة: لقد رحّب المجتهدون الشيعة بثورة تركيا الفتاة، وكانوا هم أول من أسس لها فرعاً في النجف الأشرف باسم حركة الاتحاد والترقي.

الرد: وهذا تزوير آخر للتاريخ؛ فنحن نتحدىٰ الكاتب أو من ينقل عنه أن يأتي لنا بوثيقة معتبرة، تذكر لنا أسماء المجتهدين العظام أو مراجع الدين الشيعة، الذين رحّبوا بثورة تركيا الفتاة، وأسسوا الفرع العربي لهذه الحركة باسم حركة الاتحاد والترقي التركية.

ولعل الكاتب أو من نقل عنه قد وقع في خلط، فنسب ما قام به بعض الشيعة من دعاة القومية العربية في النجف الأشرف ـ من المساهمة في تأسيس الفرع العربي لهذه الحركة ـ إلى المجتهدين المسلمين الشيعة الكبار ومراجع الدين، الذين رفضوا رفضاً مبدئياً علىٰ طول التاريخ كل صيغ التحرك القومي، بديلاً عن الإسلام رسالةً وحركة.

الشبهة الرابعة عشرة: بعد أن هاجر اليهود من العراق، وتركوا محالّهم ومشاريعهم التجارية، تولّى الفرس المشروعات اليهودية.

الرد: هذه الدعوىٰ وردت في كتاب من تأليف مدير الأمن العام في العراق فاضل البراك (وهو ما أشار إليه الكاتب في كتابه)، وهو عادةً ـ من وحي حقد وطائفيّة مؤلف هذا الكتاب ـ ينسب المسلمين الشيعة إلى الفرس، شأنه في ذلك شأن الطائفي الحاقد خير اللّٰه طلفاح التكريتي؛ وذلك لتحقيق أهداف سياسية خبيثة، من أبرزها الادعاء بأن المسلمين الشيعة ليس فيهم عربيٌ أصيل في حين أن أكبر وأشهر القبائل العربية وفي مقدمتها بنو هاشم، وفيهم نسل الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، هم من المسلمين الشيعة، وهم منتشرون في بلاد الحجاز والعراق ولبنان وشمال أفريقيا؛ بل وفي بلاد إيران وآسيا الوسطىٰ وشبه القارة الهندية التي التجأ أغلبهم إليها بسبب اضطهاد ومطاردة طغاة بني أمية، وبني العباس والعثمانيين لهم ولعوائلهم وعشائرهم.

الشبهة الخامسة عشرة: كانت هناك صلة وثيقة بين المرجعية في العراق التي كان يهيمن عليها الفرس، وبين الأحداث السياسية في بلاد فارس.

الرد: يفترض في الباحث النزيه مراعاة الدقة والأمانة، في سوق عباراته ومصطلحاته عند البحث والدراسة، وألّا ينزلق وراء العبارات والمصطلحات ذات الطابع العنصري في بيان مراده، كقوله: إن المرجعية الشيعية في العراق يهيمن عليها الفرس، فإن ذلك من شأنه أن يوحي للقارئ ما يخالف الواقع والحقيقة.

فإن حصر الكاتب القول بأن كل من لا يملك الجنسية العراقية، أو من كان يملكها من الدرجة الثانية، فهو ذو أصول فارسية، هو باطلٌ وغير صحيح؛ فإن امتلاك الجنسية الإيرانية من قبل الملايين من أبناء العشائر العربية في جنوب إيران، لا يخرجهم عن أصولهم العربية، خصوصاً إذا علمنا أن مسألة الجنسية العراقية مسألة حديثة. وقد ذكر الكاتب في مواضع من كتابه الظروف

والمبررات التي ألجأت الكثيرين ـ خصوصاً سكان المدن الدينية العراقية، وفي مقدمتهم العلماء والمراجع ـ إلى عدم السعي لتحصيل الجنسية العراقية، ومنها التخلص من مسألة التجنيد الإلزامي في الجيش العراقي، والابتلاء بتبعاته التي لا تتناسب وظروف طلب العلم، والشخصية المقدسة لعلماء الدين والمراجع.

كذلك عدم اعتقادهم أهمية امتلاك الجنسية؛ لأنها من مستحدثات عصر الاستعمار، وغير ذلك من الأسباب.

هذا مضافاً الى أن الكثير من العلماء والمراجع ـ من الذين يرجع نسبهم إلى رسول اللهﷺ، ممن اصطلح علىٰ تسميتهم بالسادة ـ ينتسبون الى أشرف بطون العرب، وهم بنو هاشم عشيرة الرسولﷺ. ثم إن الإسلام فوق القوميات في بنائه الاجتماعي والعقائدي بنص الآية الكريمة: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[1]، وقول رسول اللهﷺ: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا لأحمر علىٰ أسود، ولا لأسود علىٰ أحمر إلّا بالتقوىٰ**»[2].

ويتأكد هذا بشكله المبدئي ومثله الأعلى في علماء ومراجع الدين الأعلام؛ حيث إن اهتماماتهم بشؤون المسلمين لا تنحصر بإقليم دون آخر، ولا بقومية دون أخرى. وقد أثبتت الأحداث السياسية والسيرة الاجتماعية الطويلة لهم ذلك، كما في إعلانهم الجهاد لمواجهة الغزو الإنجليزي الكافر للعراق، وفي تأييدهم لثورة العشرين العراقية، ومواقفهم الرسالية من المسألة الفلسطينية،

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الترغيب والترهيب ٣: ٦١٢.

وعشرات القضايا والأحداث الإسلامية في مختلف البلدان، وفي مقدمتها العراق وإيران ولبنان وفلسطين.

ثم إن لمراجع المسلمين الشيعة وكلاء منتشرين في أغلب أنحاء العالم الإسلامي، مثل أفريقيا ومختلف بلدان آسيا، ومنها دول الشرق الأوسط، بما فيها بلدان كبلدان الحجاز والعراق وإيران وباكستان، ودول شبه القارة الهندية وبلدان آسيا الوسطىٰ وغيرها. ومن أبرز وظائف هؤلاء الوكلاء في تلك البلدان، رعاية شؤون المسلمين في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والمتتبّع لتاريخ أجهزة المرجعية ووكلائها في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية حتىٰ يومنا هذا؛ لابد أن يذعن ويعترف بهذه الحقيقة الساطعة.

الشبهة السادسة عشرة: يبدو من موقف مرجع التقليد السيد كاظم اليزدي، أنه كان قد أظهر الرضا عن البريطانيين.

الرد: بل إن سكوته لا يكشف عن موقف الرضا عن البريطانيين، وإنما آثر عدم التصدي لقيادة الثورة؛ لأسباب ذكرها نفس الكاتب في كتابه هذا لاحقاً والوقائع التاريخية تثبت ذلك، فقد:

«كتب الحاكم العام (أرنولد ولسون) في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٨م إلى الميجر (نوربري) الحاكم السياسي للواء النجف والشامية أن يدعو رؤوساء عشائر النجف ووجوهها ليجتمع ولسون إلى الجميع، ويذاكرهم في مستقبل الحكم في العراق.

ونفذ نوربري أمر رئيسه، فدعا إلى اجتماع النجف في أوائل كانون الأول كلاً من: الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجواهري والسيد هادي النقيب والسيد عباس سادن الحضرة العلوية والحاج محسن شلاش والشيخ محمد رضا الشبيبي.

ودعا من رؤساء العشائر كلّاً من: السيد محسن أبو طبيخ والسيد نور الياسري والسيد علوان الياسري والشيخ مجبل آل فرعون ومحمد العبطان والحاج عبد الواحد الحاج سكَر والسيد هادي زوين وشعلان الجبر وعلوان الحاج سعدون وعبادي الحسين ولفتة آل شمخي ومرزوق آل عواد وسرتيب آل مزهر وفريق المزهر.

ووصل ولسون إلى النجف، والتقىٰ بالمدعوين مجتمعين، وخطب فيهم فردّ عليه الشيخ محمد رضا الشبيبي مطالبا بحكومة دستورية يرأسها ملك عربي، مما أثار امتعاض الحاكم العام، فقاطعه ضارباً - أيّ الحاكم - بقبضة يده على المنضدة ولكن بدون جدوى.

وتكلم الحاج عبد الواحد سكَر طالبا إمهال المجتمعين ليتشاوروا مع غيرهم ممن لم يحضروا الاجتماع؛ ليتفق الجميع على رأي واحد.

فاستاء الحاكم العام إذ لم يكن متوقعاً مثل هذا الموقف، فردّ على عبد الواحد قائلاً: اجتمعوا الآن وقرّروا قرارا إجماعياً بما تتفقون عليه وسلّموه لنا.

وانفض الاجتماع دون أن ينال الحاكم العام مأرباً من المجتمعين.

وكان السيد كاظم اليزدي هو المرجع الديني في ذلك الوقت، ولكنه كان قد صار إلى شيخوخة واهنة، وقد زاره الحاكم العام، وقد تبين بعد ذلك أن الزيارة كانت أقرب أن تكون زيارة مجاملة، وأن الحاكم لم يصارحه بكلّ شيء.

فإنّ المجتمعين بعد أن خرجوا من اجتماعهم من الحاكم العام تفرقوا إلى المنازل، وسار عبد الواحد سكر والسيد علوان الياسري إلى دار السيد محمد رضا الصافي، وبعثا إلى الشيخ عبد الكريم الجزائري ليوافيهما فيها، فاتفقوا على أن يقابلوا السيد كاظم اليزدي ويطلعوه على نتيجة الاجتماع ويعلموا ما دار بينه وبين الحاكم العام ولسون، فلما قابلوه وأخبروه بما جرى بينهم وبين

ولسون، تعجب السيد اليزدي، وقال لهم: إنه لم يكلمني بهذه الصراحة، وأشار عليهم بأن يعقدوا اجتماعاً عاماً يحضره ممثلون لجميع الطبقات.

وعمل الجماعة برأي السيد اليزدي؛ فدعو إلى اجتماع أكبر، انعقد عصر اليوم التالي في منزل الشيخ جواد الجواهري، حضره أكبر عدد أمكن وصول الدعوة إليه.

فتكلم الشيخ جواد، فعرض على الحاضرين ما جرى مع الحاكم العام، وطلب إليهم إبداء رأيهم؛ لينتهي الاجتماع إلى قرارٍ باتّ.

فتناول الكلام كثيرون، وطالب بعضهم بحكم جمهوري، ورشح أحدهم ملكاً سماه.

وكان آخر المتكلمين: الحاج عبد الواحد سكَر الذي قال فيما قال: إننا غير أكفّاء للجمهورية، ولسنا انكليزاً لنختار حاكماً غير عربي، إننا عرب، والواجب القومي يقضي علينا بأن نختار ملكا عربياً، وحيث إن البيت الهاشمي في مكة أنبل بيت في العالم العربي؛ فيجب أن نختار أحد أنجال الملك حسين، ليكون ملكاً على العراق.

فوافق الجميع على هذا الرأي، وتفرقوا كلٌّ إلى بلده.

وفي الصباح ذهب وفد من المجتمعين إلى السيد كاظم اليزدي، ليعلموا رأيه فيما قرروه، فأجابهم بصراحة يُحمد عليها: أنا رجل لا أعرف السياسة، بل أعرف هذا حلال وهذا حرام.

وبعد الإلحاح عليه قال: اختاروا ما فيه صلاح المسلمين.

ولما كان السيد اليزدي قد صارح القوم بأنه ليس من السياسة في شيء ولم يمارسها طوال حياته وأنه بذلك يخشىٰ مزالقها لذلك اتجهت أنظار الجميع إلى الرجل الذي يمكن أن يكون مؤهلاً لقيادة العمل الثوري المسلّح؛ فوجدوه في

شخص المرجع الديني الشيخ محمد تقي الشيرازي، الذي كان لا يقل شهرةً وصلةً بالجمهور عن السيد اليزدي، وأعلن الشيخ الشيرازي موافقته على التصدي للقيادة، وانتقل من سامراء إلى كربلاء. وكانت أول خطوة في قيادته الثورية أن أجاب على استفتاء رجال الثورة، وعلمائها بفتواه الشهيرة: (بسم الله الرحمن الرحيم: ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين)»[١].

الشبهة السابعة عشرة: إن ثورة العشرين إنما حدثت بسبب المعارضة الاجتماعية من القبائل الشيعية لسياسة الاحتلال البريطاني الاقتصادية، ولاسيما معارضة الإبقاء علىٰ الأقطاع في تملك الأراضي الزراعية، وسياسة الضرائب.

الرد: هذه عوامل ثانوية مساعدة وليست رئيسية، ويبقى العامل الأساسي في إشعال فتيل الثورة سياسياً دينياً، وهو قطع أيادي الاستعمار الإنجليزي من التحكم في مصير العراق، واستقلاله عن طريق صنائعه وعملائه الذين زرعهم فيما يسمى بالدولة العراقية. ومما يكشف عن الأساس الديني للثوار هو اختيارهم اليوم الخامس عشر من شعبان لانطلاقة الثورة وإعلانها، وهو يوم ذكرى مولد الإمام المهدي عجل اللّٰه فرجه، وهو الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام المنتظر ظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تُملأ ظلماً وجوراً، كما في عقيدة المسلمين ومنهم الشيعة الإمامية.

ومن العلامات الكاشفة أيضاً تأييد علماء الدين ومراجع المسلمين للثورة، بل قيادة بعضهم لها، مضافاً إلى الشعارات والمطالب الدينية التي أعلنها

---

(١) راجع: الأمين، حسن - دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، المجلد الرابع: (٣٨٤ - ٣٨٦).

الثوار[١].

الشبهة الثامنة عشرة: إن تصوير المؤرخين والباحثين من الكتّاب الشيعة للهيئات القيادية، المكونة من المجتهدين، التي نظّمها الشيرازي، يصعب تصديقه.

الرد: لماذا يصعب تصديق ما أورده كتّاب المسلمين من الشيعة ومؤرخوهم في كتاباتهم، من تشكيل العلماء والمجتهدين للهيئات القيادية؟ وهو أمر طبيعي يعمل به العقلاء، وتقتضيه طبيعة وقائع الثورة، ويدل عليه انفعال الإنجليز وغضبهم الشديد الذي دفعهم لإصدار أوامرهم بعد ضرب الثورة؛ بنفي سبعة عشر من كبار المجتهدين والمراجع من العراق إلى إيران؛ بسبب قيادتهم للثورة أو اشتراكهم فيها أو تأييدهم لها.

فمن خلال الوقائع الموثّقة بريطانياً لأحداث ثورة العشرين نجد أمثلة كثيرة تكشف عن تشكيل الهيئات القيادية المكوّنة من المجتهدين التي نظّمها المرجع الأكبر الميرزا الشيرازي، منها: ما كان في إرهاصات ثورة العشرين عندما «أوصى المجتهد الأكبر [الميرزا الشيرازي] بأن يشكّل علماء النجف هيئة قيادة، وعقدت هذه الهيئة اجتماعا تمّ فيه اتخاذ قرار إعلان الثورة والخطوات الميدانية لها، وقد تسلّم الضابط السياسي البريطاني في الناصرية رسالةً من الحاكم المدني البريطاني حول ذلك الاجتماع وتشكيل حلفٍ من القبائل بزعامة وإدارة علماء»[٢]. «وكانت غاية حلف القبائل بقيادة علماء

---

(١) للمزيد راجع: المصادر الخاصة بثورة العشرين، منها: الأمين، حسن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، المجلد الرابع، الثورة العراقية: (٣٨٢ - ٣٩٠).

(٢) **C. O. 696. vol. 3. Administrative Report, Muntafiq, 1920, op. cit. 2.**

النجف هي إقامة حكومة دينية تستمدّ سلطتها من النجف. وتلقّت قبائل الشطرة وسوق الشيوخ وقلعة سكر رسائل مختومة بعثت بها هيئة علماء النجف تحثّهم فيها على التعاون مع زعمائهم. وكان مجتهد كربلاء [الميرزا الشيرازي] يعظ في الناس حاثّاً إياهم على الجهاد. كما أنه قد بعث بمئآت الرسل إلى جميع أنحاء الفرات الأوسط والأسفل ليقوموا بهذه المهمة، مهمة الحث والدعوة إلى الجهاد»(١).

يضاف لذلك مواقف المراجع والعلماء المتوالية عبر التاريخ وفي مختلف الأقطار، وبخاصة إيران والعراق، من حكام الجور، أو من الغزوات الأجنبية والتيارات المنحرفة. فكيف يصعب تصديق قيامهم بتشكيل هيئات قيادية للجهاد، ومواجهة الغزاة الإنجليز المستعمرين؟ ومن الأمثلة على ذلك: تشكيل ثلاث قيادات ميدانية من كبار المجتهدين الشيعة تحت قيادة المجتهد السيد محمد سعيد الحبوبي، ومقره في الشعيبة، لصد الغزو الإنجليزي على العراق، وهي: القيادة الأولى في القرنة برئاسة المجتهد السيد مهدي الحيدري، وعضوية المجتهد شيخ الشريعة الإصفهاني، والمجتهد الشيخ مصطفى الكاشاني، والمجتهد الشيخ علي الداماد. والقيادة الثانية في الحويزة برئاسة المجتهد الشيخ الخالصي وعضوية ابنه محمد، والمجتهد الشيخ جعفر راضي، والسيد محمد ابن المجتهد السيد كاظم اليزدي والسيد كمال الحلّي. والقيادة الثالثة وهي المركزية، ومقرها الشعيبة، برئاسة المجتهد الشيخ محمد سعيد

---

(١) الوثيقة البريطانية: (44 /2719 /7849) 5228 /371 .f. o. راجع: النفيسي، عبد الله فهد – دور الشيعة في تطوير العراق السياسي الحديث، «وهو ليس من الكتّاب المسلمين الشيعة الذين اعترض عليهم الكاتب».

الحبوبي، والمجتهد باقر حيدر والمجتهد السيد محسن الحكيم»[١].

الشبهة التاسعة عشرة: أن الشرقيين ـ إذا أخذنا بالاعتبار وضعهم الاجتماعي ـ لم تكن لهم مبادئ تنئيهم عن خدمة الطبقة الحاكمة.

الرد: هذه الدعوى أثارها المستشرقون لأهداف خبيثة؛ يُقصدُ بها تشويه صورة الشرق الإسلامي، وهي تخالف الحقيقة الثابتة تاريخياً من أنّ أكثر شعوب العالم تمرداً وثورة على حكامهم الطغاة هم شعوب الشرق الإسلامي، التي طالما حدثنا التاريخ عن حالات كثيرة من ثوراتها على الحكام الطغاة، بالرغم من قساوة الردع الذي جابهوا به هذه الشعوب.

كما أن الغالب على تلك الأحداث هو دوافعها المبدئية الدينية، ومن أبرزها ثورات المسلمين الشيعة في العراق وإيران ولبنان وبلدان الحجاز.

أما حالات الاستضعاف التي تُفرض على هذه الشعوب، فهي ترافق عادة صور الاضطهاد والظلم والقهر التي يمارسها الحكام بحقهم، و هذا لا ينفي المبدئية الراسخة في أعماقهم من رفض الظلم والطغيان بسبب تربيتهم الدينية، وأبرز دليل علىٰ ذلك هو ما حدث في لبنان ويحدث في فلسطين، والرفض الشعبي العارم في البلدان الإسلامية لنهج الحكام المنحرفين، الذين ينفذون خانعين أذلاّء أوامر أسيادهم في الغرب، في تكريس مصالحهم الاستكبارية في البلاد الإسلامية.

يضاف لذلك أن التعاليم الإسلامية الأصيلة، ومواقف المسلمين الرساليين عبر التاريخ كله، ترسّخ حالة الرفض للطغاة، ومواجهة الظلم والكفر والانحراف في واقع الشعوب الإسلامية.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع: نفس المصدر السابق.

الشبهة العشرون: عدم كفاءة رجال الدين الإسلاميين للتكيّف مع المعطيات الجديدة.

الرد: فيما أورده الكاتب حول المستجدات والمعطيات الجديدة للعصر الحديث في مختلف المجالات ـ ومنها المجال السياسي ـ يجب أن نميّز بين المضامين الآيديولوجية الوضعية الجديدة التي غزت بلاد المسلمين ـ ومنها العراق ـ جنباً الى جنب مع الغزو العسكري الغربي لها، وبين التطور والتجديد الذي حصل في الوسائل الفنية والأساليب التقنية في أغلب مجالات الحياة الإنسانية، كأساليب التنظيم الحديثة، وفنون الإعلام والعمل السياسي، وطريقة تداول المال في الاقتصاد، القائم على أساس المجمّعات الصناعية والتجارية الكبرىٰ، وسرعة الاتصالات والمواصلات، وإدخال التكنولوجيا الحديثة فيهما.

أما في المجال الأول فإن علماء الإسلام الرساليين لم يكونوا فقط غير متكيّفين مع الأطروحات الوضعية الوافدة، والمبادئ المنحرفة والأنظمة الجائرة، بل رفضوها بقوة وسعوا لمواجهتها، حيث استطاعوا مواجهة الغزو الآيديولوجي بكفاءة أثبتها الواقع؛ إذ اندحرت كل صور الآيديولوجيات الماديّة سواء الماركسية منها أو الرأسمالية، وبدأت الآيديولوجية الإسلامية تغزو الشعوب مرة أخرى، وأصبح الإسلام شعار المستضعفين في كفاحهم من أجل الاستقلال والحرية.

وأما في المجال الثاني فمن الطبيعي ألّا يتمكن المسلمون من مواكبة الغرب، في مجال التقنية الحديثة وأساليب التنظيم المتطورة؛ لعدم امتلاك العوامل الأساسية لذلك، ولأن الغرب كان صاحب مبادرة علمية وميدانية فيه،

في حين كان الشرق الإسلامي قد أصابه الانهيار السياسي والاقتصادي بسبب التمزق والخلافات الداخلية، التي مرّ بها في أواخر الخلافة العثمانية وخلفائها المنحرفين، مما أدّى الى تفكك وتجزّؤ البلاد الإسلامية على يد قوات الغزو الاستعماري الأجنبي، الى دويلات ضعيفة، سُلبت منها قدرة الاستقلال والبناء الذاتي، فكيف يمكن لعلماء الدين، وهم جزء من هذا الواقع المسلوب القدرات والمستضعف، أن يمتلكوا عوامل المواكبة في مجال التقنية الحديثة؟ ويكفيهم كفاءةً أنهم استطاعوا أن يصمدوا أمام كل هذه القوى الاستعمارية الهائلة، ويحافظوا على هوية المسلمين في بلدانهم، بل يفجّروا ثورة إسلامية فريدة في إيران، أطاحت بأكبر معقل للاستعمار الحديث في بلاد المسلمين، ويقيموا دولة إسلامية، أصبحت بحق نموذجاً يحتذي به المسلمون، بل شعوب العالم التي تبغي الاستقلال ورفض التبعية.

الشبهة الحادية والعشرون: إن رجال الدين الشيعة أظهروا منذ عشرات السنوات موقفاً متواكلاً، وفقدوا أهميتهم السياسية بصورة متزايدة.

الرد: هذا كلام جزافي لا دليل عليه ، فلو أحطنا بالظروف السياسية للمواجهة آنذاك؛ لعرفنا الحقيقة كاملة لا لبس فيها. وخلاصة القول في ذلك أن الضربات المتوالية التي وجهها الاستعمار الإنجليزي وعملاؤه ـ في أجهزة ما سمي بالدولة العراقية ـ لعلماء الدين وللشعب العراقي، ونفي سبعة عشر من كبار العلماء والمراجع الى خارج العراق، ومن ثم اتّباع سياسة العزل والتحجيم لهم بسبب وقوفهم بوجه التبعية للاستعمار الكافر بكل صوره، كان لكلّ ذلك أثر في تحجيم قدرتهم على قيادة حركة المواجهة والتحدي، وامتلاك زمام الأمر في مواكبة التحولات الاجتماعية والسياسية السريعة، بعد انهيار المملكة العراقية، خصوصاً إذا عرفنا أن الاستعمار الإنجليزي وعملاءه في الدولة

العراقية، قد اجبروا العلماء والمراجع، الذين تمّ إعادتهم من منفاهم الى العراق، علىٰ أن يقدّموا تعهداً بعدم التدخل في الشؤون السياسية.

لقد شخّص هؤلاء العلماء الأعلام أن المصلحة الإسلامية العليا تكمن في الحفاظ على الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وإعداد علماء ومراجع للمستقبل، يتكفّلون بدور قيادة الأمة نحو الإسلام، وخوض جهاد ومواجهة الاستعمار وأذنابه المحليين، ولهذا نجد أن حركةً بدأت بالظهور بعد مرحلة هؤلاء الأعلام، وخصوصاً إبّان بروز مرجعية آية اللّٰه العظمى السيد محسن الحكيم ﷺ؛ حيث بدأت مرحلة جديدة حدث فيها تطور واسع في أجهزة المرجعية كمّاً وكيفاً، وأُعلن عن تشكيل جماعة العلماء في النجف الأشرف، وبعدها جماعة علماء بغداد والكاظمية المقدسة، وأُنشئت المئات من المساجد والحسينيات والمكتبات التي عرفت بمكتبات آية اللّٰه الحكيم في جميع أنحاء العراق، وظهرت طبقة من العلماء والمجتهدين، كسرت حاجز العزلة السياسية والاجتماعية والثقافية، وتحركت بطريقة، هيمنت فيها بالتدريج على الساحة الفكرية والسياسية في العراق، بل وخارج العراق أيضاً، وقدمت في سبيل حفظ الهوية الإسلامية للأمة عشرات الشهداء من المراجع والمجتهدين وعلىٰ رأسهم الإمام السيد محمد باقر الصدر ﷺ، ومئات الشهداء من العلماء وطلبة العلوم الدينية في مختلف الحواضر الإسلامية.

الشبهة الثانية والعشرون: كان رجال الدين يرفضون الإصلاح الزراعي، لذا فالصراع ضد الشيوعيين لم يكن منه بد في النجف.

الرد: لم يرفض علماء الدين الإصلاح الزراعي على أساس النظرية الإسلامية، وإقامة الحق والعدل في الحقل الزراعي وتحقيق مصلحة الأمة، بل رفضوه بما هو شعار، تكمن خلفه أهداف سياسية خبيثة، تمثلت بسيطرة

السلطة على مقدرات الشعب ومصيره، من خلال تفكيك الروابط والبنىٰ الاجتماعية والثقافية للريف، وغزو أبنائه بالفكر المادي؛ تمهيداً لإبعادهم عن الدين وعلمائه، ثم احتوائهم في إطار التنظيمات الدخيلة الواردة على الشعب العراقي. وهذا ما حصل فعلاً من قبل الحزب الشيوعي ثم حزب البعث، في حين بقي الريف متخلفاً في الزراعة، وازداد تدهوره الاقتصادي وفقره المعاشي.

الشبهة الثالثة والعشرون: إن فتوىٰ السيد الحكيم في الشيوعيين كانت شيئاً جديداً لدىٰ الشيعة، حيث كان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء يرفض رفضاً قاطعاً الإنكار علىٰ الشيوعيين.

الرد: هذه دعوى جزافية؛ فالإمام كاشف الغطاء قدس سره كان قد شخّص أن الخطر الأكبر يكمن في الاستكبار الغربي، وعلى رأسه أميركا، وقد وصفها في بعض كتاباته بإبليس الأبالسة، كما وصفها الإمام الخميني قدس سره بالشيطان الأكبر، وهذا لا يحمل مفهوم عدم رفضه للشيوعية ، بل جعلها خطراً في رتبة تالية للخطر الأكبر المتمثل بالاستكبار الأميركي وحلفائه الغربيين خصوصاً وأنه كان يؤكد أن السبيل لدحر الشيوعية هو مواجهتها فكرياً وعقائدياً.

الشبهة الرابعة والعشرون: إن كتاب فلسفتنا كان ينقصه العمق النظري، الذي أظهره مؤلفه في كتاباته اللاحقة.

الرد: حبذا لو دلّنا الكاتب علىٰ موارد النقص في العمق النظري الذي يدّعيه في كتاب فلسفتنا. وهو بدعواه هذه يخالف المفكرين الشيوعيين أنفسهم، الذين أبدوا إعجاباً منقطع النظير بكتابي فلسفتنا واقتصادنا، حتى قال بعض كبارهم: إنني فهمت الماركسية من هذين الكتابين أكثر من فهمي لها من كتب

الماركسية.

الشبهة الخامسة والعشرون: إن السيد الحكيم والسيد الصدر كانا نقيضين، شديدي التنافر.

الرد: هذه الدعوى غير صحيحة، بل العكس هو الصحيح؛ فقد كان الشهيد الصدر يشهد بالدور القيادي لآية اللّٰه السيد محسن الحكيم﴿ﻗﺪﺱ ﺳﺮﻩ﴾، حتى أنه رأى البقاء على تقليده بعد وفاته؛ معلّلاً ذلك بضرورة بقاء خطه السياسي حيّاً في نفوس أتباعه، رغم أنه كان يرى دوراً أكبر يجب أن تضطلع به المرجعية الإسلامية الشيعية، ولا سيما في النجف الأشرف.

الشبهة السادسة والعشرون: إن العلماء والإسلاميين الشيعة كوّنوا جبهة متحدة مع القوميين العرب، ضد عبد الكريم قاسم والشيوعيين، وبذلك دفعوا حزب البعث دفعة قوية نحو تولي السلطة عام ١٩٦٣م.

الرد: هذه دعوى غير منصفة؛ فلم تكن هناك جبهة متحدة بين العلماء والإسلاميين الشيعة من جهة، والقوميين العرب من جهة أخرى، ضد عبد الكريم قاسم والشيوعيين كما يدّعي الكاتب ، والصواب أن حزب البعث استثمر مواجهة علماء الشيعة المسلمين للمدّ الشيوعي في فترة حكم عبدالكريم قاسم؛ لتقوية موقعه السياسي في المواجهة مع الحزب الشيوعي ونظام عبدالكريم قاسم، الأمر الذي مكّنه بالتحالف مع التنظيمات القومية العربية الأخرى من إسقاط حكومة عبدالكريم قاسم، وتولي السلطة عام ١٩٦٣م.

الشبهة السابعة والعشرون: إن المسلمين الفرس كانوا يدّعون تفوّقهم على المسلمين العرب، وكانوا يقللون من شأنهم.

الرد: إن اعتماد مجموعة من الكتّاب المثقفين وخصوصاً العلمانيين في البلاد العربية ـ ومنهم مؤلف هذا الكتاب ـ علىٰ تنظيرات المستشرقين الشاذّة، وتصوراتهم الخاطئة للشرق الإسلامي، أوقعهم في نفس الخطل العلمي لأولئك المستشرقين.

فالمستشرق جولد تسيهر الذي ينقل عنه المؤلف آراءه في الشعوبية، هو مَجَريُ الأصل ومعروف بعدائه للإسلام، وبخطر كتاباته عنه، ويكفي مراجعة كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي؛ لمعرفة المزيد عن كتابات هذا المستشرق المشوِّهة للحقائق عن الإسلام والمسلمين.

فالحس القومي والعنصري للمسلمين آنذاك لم يكن منطلقاً لهم في سباق التحصيل العلمي والتفوق الثقافي، حتىٰ يقال إن الفرس كانوا يدّعون تفوّقهم على العرب، وكانوا يقلّلون من شأنهم، بل كان حباً للعلم وسعياً منهم للارتقاء في مراتب الكمال، عن طريق معرفة معالم وعلوم الإسلام ونشرها بين مختلف الشعوب، وتقوية شوكة المسلمين ومكانتهم بين الأمم آداءً لوظيفتهم الرسالية، ولهذا نجد أن من كبار علماء اللغة العربية هم من بلاد فارس، كما أن الاختلاط المستمر بين المسلمين من أبناء الشعوب والقوميات المختلفة أثناء الهجرة لطلب العلم ـ خصوصاً بين أبناء بلاد فارس، وبلاد الرافدين والشام والحجاز، وبلاد شمال أفريقيا ـ علامة كاشفة عن حقيقة الدوافع المتمثلة في السعي لتحصيل العلم. وإن الآثار الكثيرة التي نجدها للعلماء من بلاد فارس في بلاد الرافدين، والشام والحجاز وشمال أفريقيا، وبلدان شرق آسيا وغيرها، وكذلك الآثار الكثيرة للعلماء وطلاب العلم من أبناء تلك البلدان في بلاد فارس، لدليل واضح لمنطلقهم الإسلامي الرسالي من خلال الاختلاط والتفاعل في

تحصيل العلم.

هذا مضافاً إلى أن المسلمين الملتزمين بتعاليم الإسلام، يرفضون النعرات القومية والعنصرية، ولا يرون معياراً للفضل بين المسلمين إلّا التقوى، ولا قيمة لديهم للانتماء القومي والعنصري في ذلك.

الشبهة الثامنة والعشرون: إن نشأة حركات الزندقة الكثيرة في الإسلام، مرجعها إلى أن الفرس لم يتخلوا عن مملكتهم بعد انهيارها على يد العرب المسلمين، ولهذا فإنهم انضموا إلى الشيعة، وإلى حركات متطرفة أخرى، مثل الغلاة، وأن تغلغل الشعوبيين (الفرس) قد أدى الى هدم الحضارة الإسلامية.

الرد: إن الذي يراجع التاريخ سيجد أن من كبار علماء المسلمين في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والعلوم الطبيعية هم من بلاد فارس، حيث كانت حركتهم جزءاً من حركة علماء المسلمين من باقي البلدان الإسلامية العربية وغير العربية، كسمرقند وبخارى وغيرها، وكلهم ساهموا في بناء صرح الحضارة الإسلامية. وإذا علمنا أن أغلب أئمة المذاهب الإسلامية السنيّة، سواء كانوا من بلاد فارس أو من البلدان الإسلامية الاخرى، إنما هم تلاميذ للإمام الصادق عليه السلام، وهو الإمام السادس من أئمة أهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام وإنهم أخذوا منه مباشرة كأبي حنيفة النعمان إمام المذهب الحنفي، أو بشكل غير مباشر كباقي أئمة المذاهب الإسلامية السنيّة، وإذا علمنا أن حلقات الدرس العلمية في المدينة المنوّرة ثم في الكوفة وبغداد وباقي الحواضر والجامعات العلمية، كانت نسبة عظيمة من طلابها وأساتذتها من بلاد فارس، وهم ينتمون غالباً الى المذاهب الإسلامية السنيّة؛ أقول: إذا علمنا هذا وغيره كان دليلاً على دحض المقولة التي ينقلها الكاتب عن كتّاب أغلبهم من الوهابيين، من أن

الفرس قد انضموا إلى الشيعة، وإلى حركات أخرى متطرفة كالغلاة، وأنهم أصحاب الحركة الهدّامة التي أدّت إلى انحلال الحضارة الإسلامية في الماضي. أما الأجيال اللاحقة من أبناء فارس فقد تشيع الكثير منهم لمذهب أهل البيت عليهم السلام، على أساس من الدليل العلمي والبرهان التام، وقادوا الى جانب إخوانهم المسلمين الشيعة العرب وغيرهم من شيعة البلدان والقوميات الأخرى، مهمة حفظ العلوم الإسلامية وحركة الإسلام، المستوعبة للمستجدّات المتوالية عبر العصور، عن طريق حركة الاجتهاد العلمي، المعروفة لدى المسلمين الشيعة، وخير دليل على ذلك هو الكم الكبير لمؤلفاتهم ومصنفاتهم العلمية في مختلف العلوم الإسلامية والطبيعية، التي تُعدّ بمئات الآلاف من الكتب والمخطوطات في مكتبات العالم الإسلامي، بل والمكتبات العالمية في أغلب الحواضر والبلدان الأجنبية(١).

كما أن الإسلام الحضاري الذي يقدمه المسلمون الشيعة اليوم، بقيادة علمائهم من مختلف القوميات من خلال أطروحة النظام الإسلامي، ما هو إلا دليل ساطع آخر على دورهم الرائد في حفظ وتطوير الحضارة الإسلامية، وليس دليلاً علىٰ انحلالها وهدمها كما يدعيه الجابري، وأمثاله من الذين ينقل عنهم المؤلف هذه الادعاءات الفارغة.

والغريب أن الكاتب ينقل هذه الادعاءات الباطلة، ويهمل التعرض للدور الأساسي الخبيث للاستعمار الغربي الكافر وطلائعه الممهّدة له، كالمستشرقين والمبشرين النصارىٰ، في هدم الحضارة الإسلامية.

الشبهة التاسعة والعشرون: إن الشعوبية هي إحدى مظاهر العداء

---

(١) للمزيد من التفصيل راجع: المصدر، السيد حسن - تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.

الأبدي من الفرس للعرب، وقد صعّد هذا المعنى حزب البعث الحاكم في العراق على لسان رموزه ـ خصوصاً صدام ـ بواسطة مؤسساته التي أنشأها النظام لتشويه صورة الجمهورية الإسلامية بعد قيامها في إيران.

ففي مخطوط أصدرته منظمة المؤتمر الشعبي الإسلامي التي أنشأها حزب البعث الحاكم في العراق كتب: «تهدف الشعوبية الجديدة والتي تمثلها الصهيونية والخمينية الى تهديد كيان الأمة العربية...».

وفي كتاب آخر: «لقد بدأت الشعوبية بداية كاتجاه منحرف... إلّا أنها حاولت هدم كل ما هو عربي...».

وهكذا يذكر المؤلف أقوال كتّاب آخرين تعرّضوا بشكل بعيد عن روح البحث العلمي لهذا الموضوع الحساس.

الرد: كان الأولى بالمؤلف ألّا يعتمد في مثل هذه الموضوعات الحساسة على الكتابات الرخيصة، التي اشترى نظام صدام الدموي كتّابها بأبخس الأثمان، والتي راحت تنظّر بتطرّف حاد وبروح عنصرية حاقدة، وتسطر كلاماً فارغاً، يرفضه العقل ويمجّه الوجدان، يحاول أصحابه من خلاله أن ينزعوا كل القيم الإنسانية ـ سواء الدينية منها أو الإنسانية العامة ـ عن العلاقات الاجتماعية، والروابط التاريخية، والتلاقحات الفكرية والثقافية بين الشعوب والقوميات، ويضربوا بعلمانيتهم العنصرية ونعراتهم الجاهلية أساس الإسلام، القائم على المساواة في الخلقة والتفاضل بالتقوى والصلاح. ونحن لا نضيف هنا شيئاً إلى ما أوردناه في إشاراتنا السابقة المختصرة في هذا الموضوع، تاركين للباحثين من طلاب الحقيقة مهمة المراجعة للمصادر الخاصة بهذا الباب؛ لمعرفة المزيد من تفاصيل هذه الحقائق.

كما نحيل القارئ للرد على ما ينقله الكاتب عن هؤلاء الكتّاب العنصريين

ومرتزقة السلاطين، إلى المصادر الخاصة التي بحثت مسألة الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومبدأ ولاية الأئمة عليهم السلام من أهل البيت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وولاية الفقهاء الجامعين للشرائط من بعدهم. ومن أبرز تلك المصادر كتاب بحث حول الولاية، وسلسلة الإسلام يقود الحياة، لآية الله الشهيد الصدر قدس سره، وأمثال هذه الكتب والمؤلفات.

الشبهة الثلاثون: يذكر الكاتب في الهامش ١٦٥ من الكتاب، أن أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة المنوفية بمصر أحمد عبد القادر الشاذلي، يردّ التشيّع كاتجاه ديني إلى أصول غير عربية كاليهودية والهنديّة والفارسية، ويرى أن نظام العقيدة الشيعي ليس عربياً فإنه يرجعه الى تأثيرات يهودية وهندية وفارسية.

الرد: إن التشيع ليس أمراً مستحدثاً، وليس له أصل غير عربي، كاليهودية أو الهندية أو الفارسية كما يدعي الكاتب أو من ينقل عنه، بل إننا من خلال قراءة المصادر التاريخية، وكتب الحديث والتفسير واللغة، نستطيع أن نعرف البدايات الأولىٰ لولادة التشيع.

ففي مناسبات عديدة طرح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذا المصطلح، وجذَّره في وعي الأمة، وأصَّله في ذاكرتها، وعمَّقه في وجدانها.

وبقدر ما أكدت تصريحات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وخطاباته اتجاه التشيع؛ تكونت نخبة متميزة من صحابته صلى الله عليه وآله، كسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم، وهذه النخبة تحمل هوىً وحباً وتبعيةً لعلي بن أبي طالب عليه السلام في أيام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بعنوانه وزيره وخليفته من بعده بنصّه عليه في عشرات المواقف والمناسبات منذ أن صدح بدعوته، بدءاً بعشيرته الأقربين، حتىٰ أصبح لفظ الشيعة لقباً لهؤلاء الصحابة .

ذكر أبو حاتم في كتاب الزينة: أن أول اسم لمذهب ظهر في الإسلام هـو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة هـم: أبـو ذر، وعـمار، والمـقداد، وسلمان الفارسي.

وقال أبو محمد الحسن بن موسىٰ النوبختي في كتابه الفـرق والمـقالات: «الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب، المسمون بشيعة علي في زمان النبيﷺ وما بعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته».

ومن نماذج النصوص الدالة علىٰ نشوء التشيع في أيام الرسولﷺ وتحت رعايته ما يلي:

روى ابن حجر المكي في الصواعق عن الديلمي أن رسول اللّهﷺ قال: «**يا علي، أنت وشيعتك تردون عليَّ الحوض، رواء مرويين، مبيضّة وجـوهكم، وإن عدوك يردون عليَّ الحوض ظماء مُقمَحين**»[1].

وقال بعد ما أورد قوله تعالىٰ: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾: «أخرج الحافظ جمال الدين الزرندي عن ابن عباس: أن هـذه الآية لما نزلت، قالﷺ لعلي: «**هو أنت وشيعتك. تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوّك غضاباً مقمحين**».

وقال: «وأخرج الدارقطني عن رسول اللّهﷺ أنه قال: «**يا أبا الحسن، أمّا أنت وشيعتك في الجنة**».

وقال: «وأخرج أحمد في المناقب أنهﷺ قال لعلي: «**أما ترضىٰ أنك معي في الجنة، والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجـنا خـلف ذريـتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا**»؟

وقال: «وأخرج الطبراني أنهﷺ قال لعلي: «**أول أربعة يدخلون الجـنة أنـا**

---

(١) مقمحين: من أقمحه الغُلّ إذا ضاق علىٰ عنقه فاضطره إلى رفع رأسه.

وأنت والحسن والحسين، وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذريتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا»(١).

وروى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عساكر بسنده عن جابر بن عبد الله قال: «كنّا عند النبي صلى الله عليه وآله فأقبل علي فقال النبي صلى الله عليه وآله: **والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**، ونزلت: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية»(٢).

وقال: «وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي: **هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين**»(٣).

وقال: «وأخرج ابن مردويه عن علي قال: **قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: ألم تسمع قول الله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض. إذا جاءت* الأمم للحساب تدعون غرّاً محجّلين**»(٤).

وروى الخطيب البغدادي في كتابه موضحاً أوهام الجمع والتفريق بسنده عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام : «**يا أبا الحسن، أما إنك وشيعتك في الجنة**».

وروى الهيثمي في مجمع الزوائد عن أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عندي، فقعدت إليه فاطمة عليها السلام ليلة ومعها علي عليه السلام،

---

(١) راجع الصواعق المحرقة: ٩٦.

(*) كتبت في المصدر هكذا «جئت» والصواب ما أثبتناه.

(٢ و٣ و٤) الدر المنثور ٦: ٣٧٩.

فرفع رسول اللّه صلى الله عليه وآله رأسه إليه فقال: **أبشر يا علي. أنت وشيعتك في الجنة»**.

وروى في مجمعه أيضاً عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: **«أنت معي وشيعتك في الجنة»**.

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.

وروىٰ ابن المغازلي الشافعي في المناقب بسنده عن أنس بن مالك قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: **يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم**، ثم التفت إلى علي عليه السلام فقال: **هم من شيعتك وأنت إمامهم»**.

رواه الخوارزمي في مناقبه، وابن حسنويه الموصلي في در بحر المناقب، والقندوزي الحنفي في الينابيع.

وروىٰ الحمويني الشافعي في فرائد السمطين عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: «كنّا عند النبي صلى الله عليه وآله فأقبل علي عليه السلام، فقال صلى الله عليه وآله: **قد أتاكم أخي**. ثم قال صلى الله عليه وآله: **والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»**.

وأخرج الحاكم الحسكاني الحنفي في شواهد التنزيل[1] بالإسناد إلى علي عليه السلام قال: **«قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله**: **يا علي، ألم تسمع قوله تعالىٰ: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)؟ هم شيعتك، وموعدي وموعدك الحوض. يدعون غرّاً محجّلين»**.

ومن المصادر الأخرىٰ التي ذكرت نزول الآية ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ في علي عليه السلام وشيعته، وأنهم هم الفائزون يوم القيامة:

١ ـ تفسير الطبري.

٢ ـ روح المعاني للآلوسي.

---

(١) شواهد التنزيل: ٣: ٣٥٦ ـ ٣٦٦، ح ١١٣٥ ـ ١١٤٨.

٣ ـ جواهر العقدين للسمهودي.

٤ ـ تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي.

٥ ـ فتح القدير للشوكاني.

٦ ـ ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر.

٧ ـ أنساب الأشراف للبلاذري.

٨ ـ نظم درر السمطين للزرندي.

٩ ـ كفاية الطالب للكنجي الشافعي.

١٠ ـ المناقب للخوارزمي.

١١ ـ نور الأبصار للشبلنجي.

١٢ ـ ينابيع المودة للقندوزي الحنفي.

١٣ ـ رشفة الصادي لأبي بكر بن شهاب.

١٤ ـ فرائد السمطين للحمويني.

وهكذا نصل إلى حقيقة كبرىٰ في معرفة جذور التشيع ونشأته وميلاده علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

إن مشاهير علماء المسلمين من المحدثين والمفسرين واللغويين، يوضحون أن الشيعة هم أتباع أهل البيت وأولياؤهم، وأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوىٰ، هو الذي سمّى أتباع علي عليه السلام بهذا الاسم.

ومن ذلك نفهم أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يمهّد لتعريف أمته بمستقبل الأحداث والتطورات في حياتها من بعده، كجزء من البيان والتبليغ؛ ليحدّد من ينبغي لهم أن يهفوا إليه من بعده، ومن يشايعون ويتبعون.

إن هذه الحقائق العلمية تلغي كل تفسير وتخرّص وتشويه لنشأة التشيع وهويته الحقيقية، فالبذرة الأولىٰ لنشأة التشيع إذن، كانت علىٰ عهد رسول

اللّهﷺ وتحت رعايته، غير أنه تطور يوم وفاتهﷺ إلى مدرسة إسلامية وخط فكري وسياسي حول الإمام عليعليه السلام، يستلهم من ذلك البيان النبوي فكره وموقفه، فسمّيت هذه المدرسة والحركة بالشيعة(١).

الشبهة الحادية والثلاثون: كان السيد محسن الحكيم يحاول الاتصال بالدولة الجديدة، ولكن بعد أن استعصىٰ عليه ذلك؛ حاول أن يظهر احتجاجه عن طريق زياراته المتكررة للكاظمية وسامراء صيف عام ١٩٦٣ م .

الرد: الصحيح هو أن آية اللّه العظمىٰ السيد الحكيمقدس سره بعنوانه المرجع الأكبر آنذاك مارس ضغطاً علىٰ الدولة الجديدة عن طريق وسطاء ومبعوثين لتنفيذ مطاليبه، ولا يصح بذلك تصوّر أنه حاول الاتصال بحكومة عبدالسلام عارف من موقع التنزّل فاستعصىٰ عليه ذلك.

فقد جاء في مذكرات السيد مهدي الحكيم حول الفترة التي أعقبت سقوط حكومة عبد الكريم قاسم ما يلي:

«بعد مجيء عبد السلام طلبوا من (السيد الحكيم) أن يرسل برقية تأييد، ولكنه لم يوافق، لأنه كان واضحا لديه أن هؤلاء (حزب البعث) عندهم أطروحة فكرية، وذلك بعكس عبد الكريم قاسم، والسيد كانت عنده حساسية شديدة من الاطروحة الفكرية التي تقف في مقابل الأطروحة الإسلامية.

كما أنه كان يعلم أن هؤلاء كانوا يفكرون بعقلية السيطرة على الناس بالقوة والقهر والإرهاب، وعندما أثبتت الأيام والأحداث الطبيعة الإرهابية للبعثيين العفالقة؛ تحرك السيد الحكيم، وكان في نيته إبراز وجود في مقابل وجود

---

(١) لمزيد من التفصيل في ذلك تراجع مجلة رسالة الثقلين، العدد ٢٦، السنة السابعة، موضوع نشأة التشيع، ويراجع أيضاً كتاب عبد اللّه بن سبأ، وكتاب معالم المدرستين، للعلامة العسكري، السيد مرتضىٰ.

البعثيين، ولكي يقول: إنكم لستم المسيطرين على الساحة، إنما هناك وجود ديني، كما أراد أن يجعل الناس يفهمون بأن هناك إمكانية قائمة وموجودية للمواجهة.

وكان الغرض من التحرك ـ زيارة العتبات المقدسة ـ إيجاد وعي جماهيري، يستفيد منه التحرك الإسلامي، أو الأطروحة الإسلامية، وبعبارة أخرى نستطيع القول: بأنه كان تقوية للمعنويات.

إن الشيء الذي حدث (انقلاب عبد السلام ضد البعثيين) ليس انتصارا لتحرك السيد الحكيم، وإنما هو حدث خوفا من أن ينتج تحركه لشيء غير متوقع على الساحة، لذا كان يتوجب عليهم المجيء بشخص شرس مثل (عبد السلام عارف) لكي يسيطر على مقاليد الحكم بهذه الصورة؛ لأن البعثيين لم تكن لديهم القابلية للقيام بهذه المهمة الكاملة. فالتغيير الذي حدث لم يكن هدفه إزاحة البعثيين فقط، ولكن الهدف كان أبعد من ذلك، وهذا ما لاحظناه من إعلان الاشتراكية في أيام عبد السلام عارف؛ حيث نستطيع اعتبار ذلك بمثابة الضربة للسوق الشيعية، لأن التجارة في العراق كانت بيد المسلمين الشيعة، وقد هدمت السلطات سابقا ـ الجانب العشائري ـ وعند إعلان الاشتراكية هدموا الجانب الاقتصادي، ومن ثم يأتي الدور للجانب القيادي ـ المرجعي ـ طبعاً... أراد (عبد السلام) المجيء الى النجف وكان في نيته أن يزور (السيد الحكيم)، لكن السيد لم يوافق علىٰ ذلك... وعلى كلٍ فقد تحرك هؤلاء (كبار المسؤولين في الدولة)... وتحدثوا معه (السيد الحكيم) حول الموضوع فردّ عليهم بأن الأوضاع السائدة غير صحيحة... وفي النهاية رفض (السيد الحكيم) طلبهم، واشترط لمقابلة عبد السلام عارف أن يلغي قانون (الأحوال الشخصية والقوانين الاشتراكية) فوراً، وبعدها تكون المقابلة،

فاقترحوا عليه أن تتم الزيارة أولاً ثم يجري التباحث أثناءها بتلك المواضيع بشكل مباشر فأصرّ (السيد الحكيم) على إلغاء تلك القوانين كشرط مسبق»[١].

الشبهة الثانية والثلاثون: عاش آية اللّٰه الخميني، وعمل في النجف في عزلة كاملة عن دائرة كبار العلماء الشيعة في العراق.

الرد: لم يعمل الإمام الخميني﵀ في النجف الأشرف في عزلة كاملة عن دائرة كبار علماء الشيعة، و لعل الحذر والطريقة الخاصة التي يتبعها العلماء ومراجع المسلمين الشيعة في تنسيق الأعمال بينهم في تلك الظروف العصيبة، هي التي أوحت للمؤلف، أو من استقىٰ منه مثل هذه التصورات. نعم، كان للإمام الخميني﵀ معارضون في النجف الأشرف، يتوجسون خوفاً من مستقبل حركته، إلّا أن نظام الشاه العميل وأجهزة مخابراته (الساواك) لعبت دوراً خبيثاً في تغذية وتضخيم هذه المعارضة. وكان هناك أيضاً إعجاب كبير بل تأييد واسع لحركة الإمام من قبل الكثير من الفقهاء والعلماء وعلى رأسهم آية اللّٰه العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر﵀، وقد قام بعض هؤلاء العلماء بترجمة دروس بحث الإمام الخميني﵀ في فقه الحكومة الإسلامية التي كان يلقيها على طلبته في البحث الخارج في حوزة النجف الأشرف إلى اللغة العربية وتوزيعها علىٰ طلاّب الجامعات، والأوساط الثقافية والعلمية في العراق. يضاف إلى ذلك أن الكثير من العاملين الإسلاميين كانوا يراجعونه في الكثير من الأمور والمشاكل في عملهم الإسلامي، ويطلبون منه توجيههم ودعمهم

---

(١) الحكيم، السيد محمد مهدي ـ التحرك الإسلامي في العراق (من مذكراته الخاصة): ٦٤ ـ ٦٨

وحمايتهم أمام ما يتعرضون له من اضطهاد وتنكيل، من قبل نظام البعث الدموي. ومن أبرز الأمثلة على ذلك الوفد الذي زاره من أبناء انتفاضة العشرين من صفر عام ١٩٧٦م؛ لإصدار بيان أو العمل على الوقوف في وجه مهزلة المحكمة، التي شكّلت لمحاكمة المتهمين بقيادة المواكب الحسينية والمسيرات الشعبية الثائرة، التي انطلقت من النجف الأشرف إلى كربلاء المقدسة، وإيقاف إصدار الأحكام بحقهم أو إلغائها، وغير ذلك من الأمثلة والشواهد الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

الشبهة الثالثة والثلاثون: كانت علاقات الخميني بحزب البعث، الذي وفّر له الدعم المالي والبرامج الإذاعية الموجهة الى إيران، وكذلك التدريب العسكري والتسليح لمؤيديه.

الرد: هذا ادعاء لا صحة له؛ إذ أن الإمام الخميني قدس سره لم يطلب أبداً أيّ دعم مالي أو إعلامي أو تسليحي من حكومة حزب البعث الحاكم آنذاك، بل كان يرفض التعامل معهم، ويعتبر رؤوس السلطة والنظام بحكم الكفرة، لا يجوز الركون اليهم. وهذا ما نقل عن سماحته عندما لم يردّ تحية السلام على أعضاء القيادة البعثية، التي حضرت مجلس الفاتحة المقام بمناسبة استشهاد نجله آية اللّه السيد مصطفى قدس سره؛ معللاً ذلك بأنهم بحكم الكفرة فلا ردّ لسلامهم. أما ما كان يحصل من تنسيق لتحصيل بعض الإمكانات العملية، واستثمار بعض الفرص المواتية لممارسة دور سياسي وإعلامي، وأمثال ذلك ضد نظام الشاه، فقد كان يتم من قبل تشكيلات وشخصيات، لا ترتبط مباشرة بالإمام الخميني قدس سره ولا تأخذ منه التوجيهات للقيام بهذه الأعمال.

ومن الأدلّة الصارخة علىٰ ذلك موقف الحكومة العراقية السلبي من الإمام

الخميني أثناء اشتعال أوار الثورة في إيران ومن أبرزها إخراجه من العراق[١].

الشبهة الرابعة والثلاثون: إن آية اللّه الخوئي ظلّ متمسكاً بموقفه المتحفظ، حتى بعد قيام الثورة الإسلامية، وكانت الشخصية المنافسة له، والتي كان يروّج لها الإسلاميون هو الصدر، وكان عليه أن يحصل على تأييد إيران له ضد الخوئي.

الرد: لقد كان موقف آية اللّه العظمىٰ السيد الخوئي﴿رح﴾ مؤيداً للثورة الإسلامية في إيران، قبل نجاح الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني﴿رح﴾، وما رسائل تأييده وحثّه للشعب الإيراني المسلم على مواصلة الجهاد والثورة ضد أركان النظام الشاهنشاهي، والالتفاف حول قيادة الإمام الخميني قبل الانتصار، إلّا دليل على موقفه الواضح، والمؤيد للثورة كما يدلّ عليه كرّاس صدر له باسم: «تصريحات خطيرة للإمام الخوئي» قبل انتصار الثورة بسنوات، تأييداً لحركة الإمام الخميني، واستنكاراً للحكم الشاهنشاهي. أمّا بعد الانتصار فكان موقفه متحفظاً ومحتاطاً بسبب ظروف القمع السياسي في العراق، وموقف سلطة البعث المتشدد من الثورة الإسلامية في إيران. ورغم كل ذلك لم يخضع لضغوط السلطة المتواصلة، من أجل اتخاذ موقف أو إعلان تصريح ضد الثورة الإسلامية في إيران، وقيادتها المتمثلة بالإمام الخميني﴿رح﴾

أما آية اللّه العظمىٰ السيد الشهيد الصدر﴿رح﴾ ومن يؤمن بموقعه الإسلامي، فلم يكونوا في موقف الضدّ لآية اللّه العظمىٰ السيد الخوئي﴿رح﴾ ـ كما يدّعيه المؤلف ـ وإنما كانت الظروف تدعو لتنوّع في الأعمال دون إلحاق الضرر

---

(١) راجع المستندات والوثائق الخاصة بتلك الفترة، فيها: دواني، علي - نهضت روحانيون إيران: ٢٥١ - ٢٥٥ (بالفارسيّة) وروحاني، سيد حميد - نهضت إمام خميني: ٤٦٧ - ٤٩٨ (بالفارسية) وتاريخ إيران معاصر: ٤٢٢ - ٤٢٤ (بالفارسيّة).

بالحوزة العلمية في النجف الأشرف، مما يقتضي المبادرة والتصدي لامتلاك زمام أمور العمل لقيادة العمل الإسلامي في العراق، أداءً للوظيفة الشرعية في ملء الفراغ القيادي الإقليمي للعراق، وذلك في إطار الخط العام للثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني الكبير قدس سره[١].

الشبهة الخامسة والثلاثون: إن موقف الشهيد الصدر تحوّل من الحرص والحذر الشديدين إلى موقف المواجهة الصريحة مع السلطة الى حدّ التهور.

الرد: الظاهر أن المؤلف يرى أن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفريضة الجهاد في الإسلام والشهادة في سبيل اللّٰه تهور، وهذا منطق وضعي مادي، درجت عليه العقلية الغربية العلمانية، في حين أن منطق الإسلام الذي هو منطق القرآن الكريم ومنطق الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، هو الذي يصوّر لنا مسيرة الإنسان التي لا تتحدد بهذه الحياة الدنيا، بل لابد أن تتصل بحياة حقيقية أخرى تأتي بعدها، وما هذه الحياة الدنيا إلّا دار للتجربة الإنسانية، يخوض فيها الإنسان امتحاناً، يقيس به مدى قدرته على تحقيق وصوله للكمال الإنساني في حياته الفردية والاجتماعية، أو السقوط في مهاوي الضلال والانحطاط.

فالتضحية في هذه الحياة الدنيا بالمال والجاه والأهل والنفس، أمرٌ طبيعي لابد منه، إذا اقتضته مصلحة التجربة الإنسانية لمن أراد النجاح فيها؛ لأن في ذلك تحصيلاً للكمال الإنساني في هذه الحياة الدنيا، والسعادة الخالدة في الحياة الآخرة، وهو مفاد آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها:

---

(١) راجع توصيات وبيانات وخطابات آية اللّٰه العظمىٰ الشهيد السيد محمد باقر الصدر بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

قوله تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل اللّٰه الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل اللّٰه فيُقتل أو يغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئآتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأُكفرن عنهم سيئاتهم ولأُدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند اللّٰه واللّٰه عنده حسن الثواب﴾[٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرّفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾[٣]، وغيرها من آيات القرآن الكريم.

كما وإنه من الطبيعي أنّ تقويم الواقع، وحساب المقدمات والعوامل والنتائج والأرباح والخسائر لأيّ عمل يقدم عليه المسلم، هما من المستلزمات الضرورية التي تقتضيها الحكمة في الأعمال، ومنها الأعمال السياسية، ويعتبر الإسلام ذلك فريضة إلهية، في إطار فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفريضة الجهاد، وبخلافه يحكم الإسلام على هذه الأعمال بالحرمة؛ لأنها من مصاديق إلقاء النفس في التهلكة، ويصدق عليها التهور في العمل. والذي يراجع حركة آية اللّٰه العظمىٰ السيد الشهيد الصدر ﷺ ومواقفه السياسية، يجدها في دائرة الحكمة والتقويم لما يتطلبه الواقع السياسي آنذاك،

---

(١) النساء: ٧٤.

(٢) آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٣) محمد ٤ ـ ٧.

ويجد أن تصميمه على الشهادة في سبيل الله، كان جزءاً من مخطّطه لمواجهة النظام الفاسد للطاغية صدام وعصابته الدموية(١).

الشبهة السادسة والثلاثون: لقد تعاملت القيادة الإيرانية ـ بعد انتصار الثورة الإسلامية ـ بقسوة مع الجماعات الكردية في إيران سنة ١٩٨٠م.

الرد: إن هذا الادعاء بعيد عن الصواب، وبعيد عن ملاحظة وقائع الأمور في تلك الظروف التي أعقبت انتصار الثورة الإسلامية مباشرة، حيث لعب الاستكبار العالمي دوراً خبيثاً في تحريك الشعور القومي لدىٰ الأكراد في المناطق الكردية من إيران، وأراد أن يكون هذا التحرك خدمة لأغراضه الاستكبارية، بعد أن أحسّ بالخطر الذي تشكله الثورة الإسلامية الفتية على نفوذه في المنطقة، فكانت القضية الكردية إحدى الإثارات التي أراد أن يضعف أو يشوّه وجه الثورة الإسلامية من خلالها، وذلك عن طريق دعم مجموعات محدودة من الانفصاليين الأكراد، واضعاً في حساباته أنه في كلا الحالتين ـ سواء نجحت هذه المجموعات الانفصالية وحصلت على مكاسب، أم لم تنجح، واستطاعت الثورة إخضاعهم وإضعافهم أو القضاء عليهم ـ سيكون هو الرابح؛ ففي الحالة الأولى يستطيع أن يضع له موطئ قدم في إيران؛ ليبث سمومه ومؤامراته، وفي الثانية يمكنه إعلامياً أن يشوّه الحقائق، ويظهر بمظهر المدافع عن حقوق الأكراد، ومن ثم يبرز صورة مشوهة، غير واقعية للثورة الإسلامية، من أنها تخوض في دماء الأكراد والقوميات الأخرى، وهي لم تزل في أول أيامها.

---

(١) راجع كتاباته وخطاباته قبل استشهاده رحمه الله، وكذلك كتاب الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار للشيخ محمد رضا النعماني.

لقد كان موقف الجمهورية الإسلامية الفتية في إيران تجاه هذه المجموعات الانفصالية موقفاً دفاعياً، اضطرت فيه لاستخدام القوة بعد أن استنفدت كلّ الوسائل السلمية في ذلك، بما فيها من مفاوضات ووساطات، خصوصاً إذا علمنا أن رؤوس هذه المجموعات الانفصالية كانت طيلة حكومة الشاه محمد رضا خاضعة مطيعة لسلطته، معلنة ولاءها التام له، لكن ما إن انتصرت الثورة الاسلامية وأقيمت الحكومة الإسلامية، حتى تحركت دوائر الاستكبار الأميركية وأعوانها في المنطقة، وشكّلت فصائل انفصالية مسلحة بقيادة بعض الرموز الكردية المعروفة بالعمالة للأجنبي ـ كما تؤكد ذلك الوثائق التي نشرت فيما بعد عن هذه الحركات ـ مثل قاسملو وغيره، وزوّدتهم بالمال والسلاح فأعلنوا التمرد والانفصال في كردستان إيران، كما أعلنوا عن معارضتهم للنظام الإسلامي الجديد، ومطالبتهم بإسقاطه والانفصال من الحكومة الإسلامية المركزية في طهران ومن أبرز أسباب فشل المحاولات الانفصالية هو عدم تجاوب المسلمين الأكراد الإيرانيين؛ بل ورفضهم لهذه المجموعات القوميّة الانفصالية التي تلاشت فيما بعد، لأن المجتمع الإسلامي الكردي في إيران وجد في النظام الإسلامي أُمنيته وحياته الكريمة وحقوقه العادلة بخلاف ما عليه الأكراد في دول أخرى كتركيا والعراق.

الشبهة السابعة والثلاثون: إن النظام الإسلامي في إيران قد فرضه السيد الخميني عليها، وأنه أصبح نتيجة لذلك حكماً ديكتاتورياً، وابتعاداً للشعب الإيراني عن الإسلام.

الرد: إن هذا خلاف الواقع تماماً؛ حيث إن الثورة الإسلامية في إيران انطلقت شعبية منذ أيامها الأولى، واستمرت شعبية إلى يومنا هذا، يدافع عنها الشعب المسلم بكل إمكاناته وبكل فصائله. وكم من الأزمات التي مرّت على

هذه الثورة كان الشعب المسلم فيها المدافع الأول عنها، وعن مكاسبها بدماء أبنائه البررة.

لقد انطلقت الثورة من مدينة قم المقدسة، وهي عرين المرجعية الدينية والحوزة العلمية في إيران، التي تحتفظ بقدسيّة ومكانة خاصة لدى الشعب الإيراني المسلم، فتصاعد لهيبها في أرجاء البلاد طيلة سنوات المواجهة حتى الانتصار. كل ذلك كان بشعار الإسلام وقيادة الإمام الخميني قدس سره والسائرين على خطّه من العلماء المجاهدين. ثم إنّ الشعب بعد ذلك اختار النظام الاسلامي بعد سقوط الشاه بمحض إرادته، عن طريق التصويب المباشر بنسبة ٢ / ٩٨٪، وهو الذي أقرّ الدستور الإسلامي الذي أعلنته لجنة من العلماء والمتخصصين، وأقرّه مجلس نواب الشعب (مجلس الشورى الاسلامي) بأغلبية ساحقة تجاوزت ثلاثة أرباع أعضائه.

فأين دعوى فرض النظام الإسلامي من قبل الإمام الخميني قدس سره علىٰ الشعب الإيراني المسلم من الواقع؟ وأين ذلك من الديكتاتورية المدّعاة في نظام الجمهورية الإسلامية؟

وكما أشرنا فقد أثبتت الأحداث والوقائع المتوالية، مدى التصاق الشعب المسلم المجاهد بالإسلام وبنظامه الإسلامي، ودفاعه عنه بكل ما أوتي من قوة وقدرة. وما صموده الرسالي الرائع في حرب السنوات الثمان التي فرضها الاستكبار العالمي عن طريق النظام العراقي، وتحديه للحصار الاقتصادي والسياسي المضروب حول الجمهورية الإسلامية في إيران من قبل أميركا وحلفائها، وانتصاراته المستمرة على المؤامرات الخارجية والداخلية للمنافقين، إلّا أدلة حاسمة علىٰ مدى إيمان هذا الشعب بالإسلام، واستعداده للتضحية في سبيل دوامه وقوته، وطرحه نموذجاً رائداً للشعوب التوّاقة للحرية والاستقلال والعدل، تحت ولاية وقيادة الفقيه العادل الكفوء.

النموذج الثاني
«كتاب الشيعة والدولة القومية في العراق»[١].

تقويم عام:

١ ـ تميّز الكتاب بقيمة موضوعية، تمثّلت باطّلاع كاتبه علىٰ خلفيات وأسرار الحركات القومية العلمانية، باعتباره أحد أعضائها النافذين في أوساطها القيادية، واستطاع أن يطّلع ـ عن حسٍّ مباشر ـ علىٰ الكثير من خفايا الواقع، وما يجري وراء الكواليس المظلمة من رؤىً وخطط، لا تعلن عادة للوسط العام.

٢ ـ لمّا كانت شخصية الكاتب حسن العلوي قد نشأت في وسط تنشط فيه الحركات القومية العلمانية، مع كونه مسلماً شيعياً من أبناء مدينة إسلامية شيعية، رسمت هذه الخلفية (القومية العلمانية) آثارها في كتابه هذا، علىٰ شكل تأثّر بنهج وطريقة التفكير العلمانية، في عرض مطالب وموضوعات الكتاب المذكور، مما جعل العديد من تفسيراته، وفهمه للواقع والأحداث والآراء والمعتقدات، خاضعة لهذه الطريقة وهذه المنهجيّة.

٣ ـ احتوىٰ الكتاب علىٰ قراءة شمولية للحالة القومية الطائفية للأوساط السياسية الحاكمة في العراق، منذ تأسيس الدولة العراقية (١٩١٤ - ١٩٩١)، وهي قراءة جيدة بشكل عام، وإن كانت لا تخلو من هفوات ـ علّقنا عليها بما

---

(١) كتاب الشيعة والدولة القومية في العراق «١٩١٤م - ١٩٩٠م» من تأليف حسن العلوي.

يناسبها علىٰ شكل شبهات وردود ـ جاءت بلغة صريحة وجريئة في الغالب.

٤ ـ اعتمد المؤلف في كتابه أحياناً علىٰ شهادات ومصادر إنجليزية خبيثة، تستهدف تشويه صورة بعض العلماء والمراجع، وقد أشرنا إلى عدم قيمتها التوثيقية في جانبها السلبي، في ردّنا علىٰ شبهات الكتاب.

٥ ـ لم يورد المؤلف في كتابه تفاصيل كافية عن فترة ما بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨م، وهي فترة مليئة بالأرقام الصارخة والحقائق الدامغة، ولكنه كان قد أشار بشكل جزئي إلى بعضها.

وهذا المأخذ علىٰ الكتاب يجعل منه كتاباً ناقصاً في استيعابه لعنوانه.

٦ ـ يظهر علىٰ المؤلف في كتابه هذا أنّه قد تعسّر فهمه للعديد من المفاهيم والمبادئ الإسلامية، خصوصاً مفاهيم ومبادئ نظرية الإسلام في الحكم، وبالتالي عدم تمييزه بين المواقف المرحلية لبعض علماء المسلمين الشيعة ومراجعهم في المقاطع الأولىٰ من الحكم، بعد تأسيس الدولة العراقية، وبين مبادئ النظرية الإسلامية في الحكم التي يطرحها الفقهاء، ويرفعها الإسلاميون شعاراً اليوم.

٧ ـ إن فهم المؤلف ـ من خلال كتابه ـ للطائفية في العراق هو فهمٌ سياسي من وجهة نظر حكومية، وليس فهماً قائماً علىٰ الرؤية الفكرية والمذهبية لها، مما يجعل تقويمه للطائفية والطائفيين ـ خصوصاً لأبناء الطائفة الإسلامية الشيعية في العراق ـ تقويماً قائماً علىٰ ذلك الفهم السياسي الضيّق، الذي ينأى به عن بعده المبدئي والرسالي.

فليست الطائفة الإسلامية الشيعية في العراق حالة إثنيّة، أو حالة اجتماعية مغلقة، بل هم مسلمو مدرسة مبدئية، تحمل رسالة التشيع للإسلام المحمدي الأصيل، ومذهب أهل البيت عليهم السلام للبشرية جمعاء، فهم الجماعة الصالحة التي

أُعدت جيلاً بعد جيل علىٰ يد رسول اللّـهﷺ، وأهـل بـيته الطـاهرينعليهم السلام، وتواصلت مسيرتها إلى يومنا هذا، وإلى اليوم الذي يتحقق فيه النصر الإلهـي الموعود بظهور ولي الأمر المفدىٰ الإمام المهدي (عج)، الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تُملأ ظلماً وجوراً.

٨ ـ في الكتاب بعض المعلومات الخاطئة، منها قـوله: إن العـالم النـووي العراقي الدكتور حسين الشهرستاني قد أُعدم، والصحيح أنـه لم يـعدم؛ لأنـه استطاع الهروب من السجن في العراق أيام حرب الخليج الثانية.

٩ ـ علىٰ العموم يعتبر الكتاب في ظرف صدوره خطاباً سـياسياً جـديداً، وجريئاً علىٰ الساحة السياسية العراقية والعربية، سلّط الأضواء عـلىٰ قـضايا حسّاسة ومهمة، كانت تختلج في نفوس أبناء الشعب العراقي خاصة ، وأبـناء المنطقة العربية والإسلامية عموماً، ودفع الكثير منهم لاستئناف البحث فـيها، ومحاولة كشف أسرارها وفهمها.

شبهات حواها الكتاب وردودها:

الشبهة الأولىٰ: لما كان علي هاشمياً من قريش، فقد اهتم الشيعة اهتماماً بالغاً بما يروىٰ عن النبي من أنه قال: «**الإمامة في قريش**» وهو المصطلح الذي يعني بلغتنا الحالية (عروبة الخلافة).

الرد: إن الشيعة الإمامية تعتقد أن الخلافة والإمامة في الإسلام بعد رسول اللّهﷺ، هي للمنصوص عليهم من قِبَلهﷺ، وهم معصومون، ومن عـلائمهم أنهم من قريش، ومن بني هاشم بالذات.

وهذا لا يعني دخول العامل القومي أو القـبلي فـي عـلّة اخـتيارهم لهـذا المنصب، بل لكونهم من أهل بيت النبوة والعـصمة الذيـن أذهب اللّـه عـنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بنص القرآن الكريم: ﴿**إنما يريد اللّه ليـذهب عـنكم**

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[1] وهم ـ باستثناء فاطمة الزهراء عليها السلام التي ليس لها منصب الإمامة والخلافة ـ: الرسول الأكرم محمد بن عبد اللّه صلى الله عليه وآله، وعلي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم الرسول، والحسن بن علي عليه السلام، والحسين بن علي عليه السلام، وعلي بن الحسين عليه السلام، ومحمد بن علي عليه السلام، وجعفر بن محمد عليه السلام، وموسىٰ بن جعفر عليه السلام، وعلي بن موسىٰ عليه السلام، ومحمد بن علي عليه السلام، وعلي بن محمد عليه السلام، والحسن بن علي عليه السلام، ومحمد المهدي بن الحسن عليه السلام، وهو الإمام الغائب المنتظر.

أما منصب النيابة العامة عنهم في عصر الغيبة ـ كما هو اليوم ـ فينحصر أمره بمن تجتمع فيه شرائط الولاية النائبة عن الإمام المعصوم عليه السلام وأهمها الفقاهة والعدالة والكفاءة، سواء كان الجامع لهذه الشرائط عربياً أم لا، وقرشياً أم لا.

الشبهة الثانية: لقد كان المثقفون اليساريون العرب والأجانب، يلتمسون في الحركة الشيعية نمطاً من الكفاح الاجتماعي العادل؛ لأنها تمثّل المقاومة العربية في أحشاء المجتمع العربي للسلطة الإقطاعية، التي تمثلت في حكم بني أمية وبني العباس والأتراك، وهي وإن شابها كثير من الأفكار والقيم المحافظة، إلّا أنها قد أثّرت أكبر الأثر في بعض الحركات التقدمية التي شهدتها الدولة العربية.

الرد: هذا الفهم الخاطئ للتشيع خاص بالمثقفين اليساريين العرب المتأثرين بالفكر العلماني الغربي، وقد انتزعوه وفق منطقهم وطريقة تفكيرهم.

أما التشيع الواقعي فهو ذات الإسلام المحمدي الأصيل، وامتداده بكل أبعاده العقائدية والتشريعية والأخلاقية، الذي بشّر به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل

---

(١) الاحزاب: ٣٣.

بيته الطاهرون عليهم السلام، ودعوا البشرية بكل قومياتها وأمصارها إليه.

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ شيعتنا من شيّعنا واتّبع آثارنا واقتدىٰ بأعمالنا**»[١].

وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لا تذهب بكم المذاهب، فو اللّٰه ما شيعتنا إلّا من أطاع اللّٰه عزّ وجل**»[٢].

وجاء عن الإمام العسكري عليه السلام: «**... وشيعة علي هم الذين لا يراهم اللّٰه حيث نهاهم، ولا يفقدهم حيث أمرهم**»[٣].

وعن جابر بن عبداللّٰه الأنصاري قال: «كنّا عند النبي صلى الله عليه وآله فأقبل علي عليه السلام، فقال النبي صلى الله عليه وآله: **والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**. فنزل قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾»[٤].

وهناك عشرات الروايات الأخرىٰ بهذا المضمون.

ولعلّ من يسمّون بالمثقفين اليساريين العرب، قد نظروا إلى الحركة الإسلامية الشيعية، من منظار أنهم مثّلوا الرفض الجهادي لكل الأنظمة الغاشمة والظالمة، والمنحرفة عن خط الإسلام الأصيل عبر التاريخ، إلّا أنّ ذلك ـ كما أشرنا ـ لا يدخلهم في صف اليسار العربي، أو أيّ صف آخر ينادي به هؤلاء المثقفون العلمانيون؛ وذلك للاختلاف المبدئي بينهما جملةً وتفصيلاً.

الشبهة الثالثة: يتفق فقهاء الشيعة مع جميع فقهاء الإسلام، علىٰ تنزيه الذات الإلهية والذات النبوية من الخطأ، ويحصرون العصمة فيما بعد باثني

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٣٠٧، الرقم ١٤٩.

(٢) أُصول الكافي ٢: ٧٣.

(٣) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٣١٩، الرقم ١٦١.

(٤) تاريخ ابن عساكر ٢: ٤٤٢. والآية من سورة البيّنة: ٧.

عشر شخصاً من سكان(*) البشرية الإسلامية.

الرد: بل إن فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول محمد صلى الله عليه وآله هي أيضاً في عداد المعصومين؛ لكونها من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بنص القرآن الكريم: ﴿**إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾(١)، وحديث الرسول صلى الله عليه وآله المشهور بحديث الكساء، فعن أم سلمة رضوان اللّه عليها قالت: «دعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله حسناً وحسيناً وفاطمة فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّل هو وهم بالكساء، ثم قال: **هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**»(٢).

هذا وإن لم يكن للزهراء عليها السلام منصب الولاية العامة علىٰ المسلمين، كما هو للأئمة الاثني عشر عليهم السلام المنصوص عليهم من رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

الشبهة الرابعة: إن بعض الفقهاء يرفضون ولاية الفقيه المطلقة، أي إقامة الحكومة الإسلامية علىٰ أساس ولاية الفقيه.

الرد: ليس هناك من الفقهاء الجامعين للشرائط من يقف رافضاً لولاية الفقيه، حيث إن هناك فرقاً بين عدم القول بإطلاقها فقهياً، حيث لا تلم في شرعيتها لكونها قائمة علىٰ أساس حجة شرعية ورأي فقهي معتبر، وبين رفضها ومعارضتها كموقف سياسي، بل إن هناك إجماعاً علىٰ القول بولاية الفقيه بحدود ما يسمىٰ فقهياً بمبدأ الأمور الحسبية، الذي يشمل إقامة الحكومة الإسلامية وإدامتها، وأنها الحد المتيقن في الحاكم عند إقامة الحكومة

(*) كذا ورد في تعبير الكاتب.

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) رواه الطبري وابن كثير في تفسيريهما، والترمذي في صحيحه، والطحاوي في مشكل الآثار.

الإسلامية[١].

الشبهة الخامسة: ليس الفقهاء كالنبي وكالأئمة في كونهم أولىٰ الناس بأموال الناس، فلو طلب الفقيه الزكاة والخمس من المكلّف، فلا دليل علىٰ وجوب العطاء له شرعاً. ولهذا لا تجوز المساواة بين ولاية المعصوم وولاية الفقيه من حيث العموم والشمول.

الرد: لا خلاف بين الفقهاء علىٰ مستوىً من ولاية الفقيه في حدود الضروري لحفظ النظام الإسلامي، وتحقيق مصلحة الإسلام العليا، وهي الولاية الثابتة للفقيه بالدليل الفقهي المعروف بمبدأ الأمور الحسبية، بمعناه الواسع الذي يشمل إقامة الحكومة الإسلامية وإدامتها، فهي أيضاً مما لا يرضىٰ الشارع المقدس بتركها حسب مفاد هذا المبدأ الفقهي[٢]، بل إن هذه الولاية للفقيه هي الحد المتيقن ثبوته ونفوذه شرعاً في الحكومة الإسلامية عند قيامها، كما هو في حكومة الجمهورية الإسلامية في إيران. وهذا يشمل تنفيذ الأحكام الشرعية، كدفع الخمس والزكاة وغيرهما لو أمر الولي الفقيه بتنفيذها.

الشبهة السادسة: قد يتدخل الصراع الشخصي بين الفقهاء، كسبب في رفض بعضهم لشرعية الحكومة الإسلامية.

الرد: لو كان مقصود الكاتب بالصراع الشخصي هو الاختلاف علىٰ المواقع والأدوار السياسية والاجتماعية، فإن ذلك إن وُجد فهو حالة شاذة لا تلبث أن تنكشف ويتميز الحق من الباطل. علىٰ أن منشأ الصراع عادةً عناصر تنسب

---

(١) وتفصيل ذلك في محله، ومن أراد المزيد فليراجع: التوحيدي، الشيخ محمد علي - مصباح الفقاهة - الجزء الرابع (بحث ولاية الفقيه)، (تقريرات أبحاث السيد أبو القاسم الخوئي) والخوئي، أبو القاسم - صراط النجاة (باب التقليد).

(٢)نفس المصادر السابقة.

نفسها أحياناً لهذا الفقيه أو لذاك، وليس بين الفقهاء أنفسهم، خصوصاً وأن من شروط قبولهم والرجوع إليهم كفقهاء اتصافهم بدرجة عالية من التقوىٰ والعدالة، التي تتنافىٰ وجوداً واستمراراً مع الدوافع والمصالح الشخصية في أداء الوظائف الشرعية.

وتاريخ فقهاء المسلمين الشيعة ساطع بهذه الحقيقة (تقوىٰ الفقهاء وترفّعهم عن مثل هذه الأمور)، وقد أشار الكاتب إلى موارد متعددة منها في كتابه هذا.

أما لو كان مقصود الكاتب هو الاختلاف في الرأي والاجتهاد، فهو أمر إيجابي وطبيعي مألوف، بل هو من أدّلة فتح باب الاجتهاد لدىٰ الإمامية فهو يعمّق مباني الفقه الإمامي ويؤصّلها، ويتكامل به بناء الصرح الإسلامي لنظرياته الحقة.

الشبهة السابعة: إحدىٰ فئات الشيعة في الوسط المتدين هم الشيعة التقليديون، الذين يستخدمون التشيع حرفة لهم، وهؤلاء هم معظم قرّاء التعزية الحسينية والمآتم، وسدنة الأضرحة وخَدَمتها، إلى جانب سادة الحقوق الشرعية، الذين يستخدمون العامة سبباً للكسب والارتزاق. وعُرف معظم قرّاء التعزية الحسينية بالتكسب، فهم كعلماء السنة في الأوقاف مرتزقة يتكسبون بآلام الحسين من الناس البسطاء، كما يتكسب موظفو الجوامع بعلوم الدين.

الرد: إن صحّ هذا نسبياً فإنما يصح في الفترة التي أمعن الإنجليز وعملاؤهم في الحكومة العراقية آنذاك ، في ضرب الحصار السياسي والمالي علىٰ الحوزات العلمية، والمرجعية الدينية للمسلمين الشيعة في العراق، خصوصاً في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، وذلك بعد احتلالهم للعراق عام ١٩١٧م، حتىٰ وصل بهم الأمر إلى نفي مجموعة من كبار العلماء والمراجع العظام إلى خارج العراق بتهمة قيادتهم لحركة الجهاد ضدهم، ومن ثمّ تحميل الحوزات

العلمية في العراق شروطاً تعسفيّة تحجيماً لدورها الرسالي الرائد ، وإضعافاً لقدراتها الاجتماعية والسياسية والمالية، الأمر الذي انعكس أثره سلباً علىٰ الفئات التقليدية التي أشار إليها الكاتب، كقرّاء المجالس الحسينية وأمثالهم، إلاّ أن هذه الحالة ما لبثت أن تقلصت بعد تشكيل جماعة العلماء في النجف الأشرف، بتشجيع ودعم من المرجعية العليا في النجف الأشرف وقيادتها لحركة الصحوة الإسلامية في العراق، ثم امتدادها من خلال حركة التجديد والترشيد التي شملت أغلب الفئات المرتبطة بجهاز المرجعية الدينية العامة، خصوصاً في مرحلة المرجعيات الكبرىٰ، ابتداءً من مرجعية السيد محسن الحكيم‌ﷺ إلى يومنا هذا، فشهد العراق تحولات كبيرة، كان منها بروز شريحة من كبار خطباء المنبر الحسيني، ساهمت بشكل أساسي في بث الوعي الإسلامي، ونشر المعالم الرسالية لمدرسة أهل البيت‌عليهم السلام في المجتمع العراقي، خصوصاً في أوساط طبقاته المثقفة.

الشبهة الثامنة: إن مشكلات العراق السياسية والاجتماعية الراهنة ، إنّما هي نتاج التدمير الهائل للشخصية العربية، التي لم تستطع أن تستعيد وضعها العباسي القديم، وهذا التدمير كان علىٰ يد العثمانيين منذ تسلمهم زمام السلطة.

الرد: لم يكن العباسيون بأقلّ سوءاً من العثمانيين وأضرابهم، حيث ساروا علىٰ سيرة بني أمية في التنكيل والقتل لأئمة أهل بيت النبوة والعصمة‌عليهم السلام، واضطهاد اتباعهم من أبناء علي بن أبي طالب‌عليه السلام وشيعتهم ومحبيهم، وإعمال السيف فيهم ما أمكنهم ذلك(١).

---

(١) للتفصيل راجع: الأصفهاني، أبو الفرج – مقاتل الطالبيين والمقريزي – النزاع والتخاصم وابن الأثير – الكامل فى التاريخ والشيخ الصدوق – عيون أخبار الرضا والمسعودي – مروج الذهب والسيد الأمين – أعيان الشيعة.

الشبهة التاسعة: إن نصوص الفقه الجعفري لا تجيز الخروج إلى الجهاد مع غير الإمام، ولكن المرجع الديني الكبير كان قد ترك أمر القيادة العسكرية للقائد التركي في الحرب ضد الإنجليز.

الرد: هذا الشرط إنما يصح في الجهاد الأولي الابتدائي على مشهور الفقهاء، وإن قال عدد من الفقهاء المتأخرين بعدمه وكفاية الولي الفقيه العادل الكفوء[١]، أما في الجهاد الدفاعي ـ كما هو شأن جهاد الإنجليز المشركين الغزاة آنذاك ـ فيمكن تفويض القيادة العسكرية الميدانية لأيّ مسلم، سواء كان تركياً أو عربياً أو غيرهما، إذا كان ثقةً وكفوءاً وعارفاً بالفنون العسكرية الحديثة، علىٰ أن يبقىٰ قرار استمرار الجهاد وإيقافه بيد الفقهاء الجامعين لشرائط ولاية الأمر. كما أن للفقهاء والمراجع آنذاك لحاظات ترجيحية أخرىٰ، يصطلح عليها في الفقه بالعناوين الثانوية، تلزمهم اضطراراً بقبول القيادة العسكرية الميدانية للضباط المسلمين الأتراك، تحقيقاً لمصلحة إسلامية راجحة في تلك الفترة الحرجة من جهاد العدو الكافر المحارب.

ومن أبرز لحاظات علماء الشيعة الأعلام للمصلحة الإسلامية العليا آنذاك، هو أنهم بالرغم من اضطهادهم ومطاردتهم من قبل العثمانيين في حينه، وقفوا معهم ودعموهم ضد الغزو البريطاني؛ لكون العثمانيين مسلمين والإنجليز الغزاة كفّاراً، بخلاف علماء الخلافة العثمانية ـ كما أشار إليه الكاتب في بعض كتبه ـ فقد تحوّلوا للتعاون مع الإنجليز الكفرة ضد العثمانيين عندما رأوا أن المستقبل مع الإنجليز، مع ما كانوا يتنعمون به من امتيازات في ظل الخلافة العثمانية.

---

(١) راجع: الجواهري النجفي، الشيخ محمد حسن - جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام (باب الجهاد) والحائري، السيد كاظم - الكفاح المسلّح في الإسلام.

الشبهة العاشرة: إن التذكير بدور الشيعة في حركة الجهاد قد لا يأتي بالثناء عليهم دائماً؛ فهناك مجال واسع للاعتقاد بأنهم بسطاء ومثاليون ، ربطوا مصيرهم بمصير دولة مهزومة، كانت مثالاً للجور والاستبداد، وأنهم عاطفيون للغاية حين استفزّهم منظر الجيش غير المسلم، الذي غزا أرض الإسلام، مما يعني وقوعهم تحت تأثير ديني قاهر.

الرد: إن زاوية التقويم هذه التي يشير إليها الكاتب، هي زاوية سياسية علمانيّة، قائمة علىٰ أساس المصالح المادية الفئوية، والتي تصبُّ بالنهاية في دائرة المستعمر الكافر. أما زاوية نظر فقهاء المسلمين الشيعة ومراجعهم في حركتهم الجهادية، فهي حسب القاعدة زاوية مبدئية، قائمة علىٰ أساس الإسلام، ورؤيته العقائدية والشرعية والأخلاقية في نفي سلطة وولاية الكافرين علىٰ المسلمين ـ مباشرة كانت أو غير مباشرة ـ لعلو ورفعة المسلمين وعزتهم بالإسلام، وهي قاعدة شرعية، تُعرف بقاعدة نفي السبيل، المستدل عليها بالآية الكريمة : ﴿**ولن يجعلَ اللّهُ للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلاً**﴾[1].

الشبهة الحادية عشرة: إن اتصالات بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني، مع المرجع الديني الكبير، آية اللّه السيد كاظم اليزدي، أسفرت عن نتائج طيبة، جعلت المس بيل تقول: «إن أولئك الذين اشتركوا معنا في الدراما، لن ينسوا المساندة التي تلقيناها من النقيب في بغداد، والسيد كاظم اليزدي في النجف»، ويشير تقرير آخر إلى أن اليزدي موالٍ لبريطانيا، ويكره الدستوريين.

الرد: دسٌ واضح من المس بيل، إذ لا دليل علىٰ دعواها هذه، ولا حجة لقول ونقل الكفّار الخصوم؛ مما يكون فيه طعن بالمسلمين كما هو معلوم.

---

(١) النساء: ١٤١.

ثم إن تعدد وتنوع مواقف الفقهاء إزاء بعض الأحداث والوقائع، لا يعني التعامل مع أعداء الإسلام. وتاريخ علمائنا الكبار أكبر من هذه الشائعات، ولا يوجد أيّ دليل أو شاهد علىٰ هذه التهمة، التي يحاول ترويجها بعض الكتاب العلمانيين، كعلي الوردي، الذي أشار لهذه الشائعة عن اليزدي سابقاً، في كتابه: لمحات عن تاريخ العراق، دون أن يعتمد علىٰ سند، بل علىٰ مجرّد بعض الشائعات التي كان وراءها الإنجليز وعملاؤهم، خصوصا إذا علمنا أن السيد كاظم اليزدى كان قد أرسل ابنه محمداً ليكون ضمن اللجنة الجهادية، بقيادة المجتهد الشيخ مهدى الخالصي في محور الحويزة، لمواجهة الغزو الإنجليزي على العراق في بدايات القرن العشرين(١).

الشبهة الثانية عشرة: من المعتقد أن السير بيرسي كوكس، ما كان يستطيع الإقدام علىٰ تلك الخطوة (تجهيز حملة عسكرية علىٰ النجف والفرات) لو لم يأخذ ضمانات من السيد اليزدي.

الرد: إن أساس هذا الادعاء هو الشائعات، كما يشير إليه الكاتب في نفس الصفحة.

وصناعة الإشاعة والأكاذيب كانت إحدىٰ الأسلحة الفعّالة التي استخدمها الإنجليز وعملاؤهم؛ لأجل إحباط حركة الجهاد الإسلامي، وتشويه صورة فقهاء ومراجع المسلمين الشيعة في العراق، ومحاولة إلقاء الفتنة بينهم(٢).

---

(١) راجع ردّ الشبهة السابعة عشرة من شبهات كتاب (الطائفية والسياسة في العالم العربي)، ولمزيد من التفصيل راجع: الأمين، حسن – دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، المجلد الرابع، الثورة العراقية: (٣٨٢ – ٣٩٠).

(٢) للمزيد راجع نفس المصادر السابقة، إضافة الى ردّ الشبهة الحادية عشرة من شبهات كتاب (الشيعة والدولة القومية في العراق).

الشبهة الثالثة عشرة: إن خطاب الفقهاء والزعماء كان عربياً خالصاً، يختزله شعارهم الداعي لتأسيس (دولة عربية، وحكومة عربية، والعمل من أجل الجامعة العربية ـ أي الوحدة العربية ـ).

الرد: إذا كان المقصود بالخطاب العربي الخالص للفقهاء والزعماء، وشعارهم الداعي لتأسيس الدولة العربية، هو المدلول القومي له، فالأمر ليس كذلك؛ إذ أن خطاب الفقهاء والزعماء كان إسلامياً في الإطار الإقليمي العربي، وكذلك الدولة التي دعوا إلى تشكيلها، اشترطوا أن يكون علىٰ رأسها حاكمٌ مسلمٌ عربي الإقليم والانتماء الاجتماعي؛ لأن غالبية الشعب العراقي من المسلمين العرب، وقد كان لحاظهم هذا قائماً علىٰ أساس الأمر الواقع، الذي تمخضت عنه التحولات السياسية الكبرىٰ في البلاد الإسلامية والعربية، ففرزت البلدان الإسلامية العربية عن غيرها من البلدان، كتركيا وبلاد فارس وأمثالهما، ومن الأدلة على ذلك ما جاء في ترجمة الوثيقة البريطانية عن ثورة العشرين، «وكانت غاية حلف القبائل بقيادة علماء النجف هي إقامة حكومة دينية، تستمد سلطتها من النجف..»[1].

الشبهة الرابعة عشرة: لم يستطع الطائفيون الشيعة أن يمسكوا الخيوط الرئيسية للصراع؛ لانشغالهم بالتاريخ وتركهم الحاضر.

الرد: فيما سبق[2] أوضحنا أن المسلمين الشيعة ليسوا طائفة إثنية، أو مجموعة مغلقة في تشكلها الاجتماعي، بل هم حملة رسالة مدرسة الإسلام المحمدي الأصيل إلى البشرية جمعاء، وهم ثمرة جهود وجهاد أهل البيت عليهم السلام،

---

(١) الوثيقة البريطانية: **(44 /2719 /7849) 2558 /371 .f. o**. راجع: النفيسي، د. عبد الله فهد – دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث.

(٢)راجع الفقرة (٧) من فقرات التقويم العام للكتاب.

فإذا كان مقصود الكاتب أنهم مرتبطون بتاريخهم الإسلامي، وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت الطاهرين عليهم السلام ارتباطاً مبدئياً، ومقوّمون حياتهم المعاصرة علىٰ ضوء تلك السيرة الشريفة، فهو رأي صحيح عموماً، ولكن هذا لا يعني أنهم منصرفون عن بناء الحياة المعاصرة، بل إن تعاملهم مع هذه الحياة تعاملٌ قائم علىٰ المبادئ الإسلامية التي يؤمنون بها. وقد أثبتوا ذلك خلال تاريخهم الجهادي الطويل. من ذلك مواقفهم الرسالية والإنسانية في حربهم للمستعمرين الإنجليز، وفي انتفاضة ١٥ شعبان الأولىٰ عام ١٩٢٠م المعروفة اليوم بثورة العشرين، وما تلاها من ثورات وانتفاضات ومواقف متواصلة تجاه الظلم والاستبداد، والوقوف أمام مخططات الاستكبار وعملائه، الداعية لمحق هوية الشعب العراقي المسلم وسحق إرادته، وقد كان منها انتفاضة ١٥ شعبان الثانية عام ١٩٩٠م، التي تواصلت آثارها إلى يومنا هذا.

ولقد فات الكاتب أن مفهوم النصر في مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يعني الهيمنة الشخصية أو الطائفية علىٰ مجريات الأمور، بل يعني هيمنة المبادئ والأنظمة الإسلاميّة ولو بعد حين، علىٰ يد العلماء المجاهدين، الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين عليهم السلام.

الشبهة الخامسة عشرة: تنتشر الطائفية الشيعية بين البسطاء والعوام، الذين ما انفكوا وبفعل التعبئة الكبيرة لوعّاظ المنابر وقرّاء التعزية الحسينية، ممن لا يلتزمون بالحقيقة التاريخية كثيراً، يردّدون حكايات هؤلاء الوعّاظ وتقييماتهم غير العلمية، وأحكامهم الساذجة، حتىٰ إذا تثقف الشيعي انسلخ تماماً عن أيّة شائبة طائفية، وقد يلازمه الشعور بالحياء الطائفي إلى مستوىٰ الشعور بالذنب.

الرد: أشرنا إلى الردّ عن هذا الادعاء في الشبهة السابعة فراجع.

كما أن المجالس والشعائر الحسينية كانت ولازالت تمثل العهد علىٰ السير علىٰ الخط الحسيني، والرفض لكل طاغية على نهج يزيد، لذلك انبعث من هذه الشعائر والمجالس الكثير من الثورات والانتفاضات ضد الطغاة في أغلب أدوار التاريخ الإسلامي، بما فيها عهد الخلافتين الأموية والعباسية، وتواصلت إلى يومنا هذا، ومن الأمثلة علىٰ ذلك في تاريخنا الحديث ثورة ١٥ شعبان الأولىٰ عام ١٩٢٠م المسماة بثورة العشرين، وما أعقبها من ثورات وانتفاضات ضد الحكومات الظالمة في العراق، كان آخرها انتفاضة ١٥ شعبان الثانية عام ١٩٩٠م، والتي لازلنا نعيش تحولاتها الجهادية الشعبية في وسط وجنوب العراق. ولعل أفضل شاهد في تاريخنا الحديث هو الثورة الإسلامية في إيران، التي كانت لمبادئ الثورة الحسينية وللشعائر والمجالس الحسينية وخطبائها الدور الأكبر في إشعالها وانتصارها، كما أنها كانت العامل الأساسي في تعبئة المسلمين الإيرانيين بل وغير الإيرانيين، في الدفاع المقدس عن النظام الإسلامي خلال الحرب العدوانية التي شُنّت ضده، وهذه حقيقة لا ينكرها إلّا من تنكّر للواقع والحق.

أما العلّة في انسلاخ من ينسلخ من المثقفين المسلمين الشيعة عن هويته الإسلامية الشيعية، فهي انغماسه بالثقافة المادية العلمانية، وتبعيته المنهجية لها في طريقة التفكير والنظر والمعرفة، وهي علىٰ حد التباين والتعارض مع الفكر الديني للتشيع، ولذا نجد أن الكثير من المثقفين المسلمين الشيعة، يصيبهم نوع من الشعور بالحياء الطائفي إلى مستوىٰ الشعور بالذنب، كما يرىٰ الكاتب، لأنهم سيصبحون من خلال ثقافتهم العلمانية غرباء عن الفكر الديني للتشيع.

الشبهة السادسة عشرة: في تاريخ الصراع الطائفي القديم ما بين العثمانيين والفرس، لم يتعرض ضريح من أئمة الشيعة إلى ضرر، بينما تعرضت

أضرحة الإمام أبي حنيفة والشيخ الكيلاني وسواهما إلى تدمير كامل.

الرد: إن الكاتب لم يذكر في هذا المورد من تاريخ الصراع الطائفي القديم، عمليات الإبادة والقتل الجماعي التي اقترفتها أيدي الجيش العثماني بحق المسلمين الشيعة، والتي تشكّل سببا مثيرا لرد الفعل الشعبي للمسلمين الشيعة تجاهها.

ومن أشهر هذه الجرائم المذبحة العامة للمسلمين الشيعة في بغداد عام ١٦٣٨م، والتي بلغ فيها عدد القتلىٰ حوالي ثلاثين ألفاً[(١)]، والمذبحة الفظيعة التي قام بها الجيش التركي، بقيادة الوالي علىٰ العراق نجيب باشا في كربلاء عام ١٨٤٢م، في اليوم الثاني من عيد الأضحىٰ المبارك[(٢)].

وكذلك المذبحة التي قتل فيها السلطان مراد بنفسه المسلمين الشيعة، بحجة أنهم إيرانيون، وذلك حين تقدّم إلى العراق، ودخل بغداد بعد حصارها، وإعطاء الأمان لأهلها، وقد طالت هذه المذبحة زوار العتبات المقدسة، الذين قدموا لزيارة الإمامين الكاظمين عليهما السلام، ويقدر عدد هؤلاء الزوار الذين لاقوا حتفهم بثلاثمئة زائر شيعي، وكذلك قام بقطع رؤوس الأسرىٰ أمام الملأ[(٣)].

الشبهة السابعة عشرة: إن هؤلاء [الشيعة] يتشاركون في البكاء، وهؤلاء [السنّة] يتشاركون في السلطة... وقد يكون ذلك طبيعياً؛ فهذا يلطم وهذا يحكم، والبكاء صراخ، والحكم حكمةٌ وصمتٌ وعملٌ.

الرد: قد يكون مقصود الكاتب هو مجرد وصف الواقع، إلّا أننا ــ من باب

---

(١) راجع: ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط: ٧٤.

(٢) راجع: جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، قم ـ كربلاء ١: ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) راجع: ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط: ٩٨.

دفع الإشكال المحتمل ـ نشير هنا إلى مسألتين:

المسألة الأولىٰ: لو كانت إشارات الكاتب حول البكاء والعزاء علىٰ مصاب الإمام الحسينعليه السلام في واقعة كربلاء، قد انطلقت من زاوية نظر سلبية ضيّقة، فإن هناك فهماً إيجابياً رسالياً رحباً لهذا الجانب العاطفي من نهضة الإمام الحسينعليه السلام المأساوية، فله أثر كبير في تفاعل المسلمين الشيعة، وتعبئتهم معنوياً ضد صور الظلم والطغيان، حيث إن هذه النهضة الإسلامية الخالدة لا تقتصر علىٰ بُعدٍ أو جانب واحد، بل لها ثلاثة أبعاد شمولية متعانقة، من شأنها بمجموعها أن تربّي الإنسان الرسالي المجاهد، والمجتمع الإسلامي الرائد، وهي:

أولاً: البعد العاطفي التعبوي الذي تكشف عنه العبرة والحزن والأسىٰ، مما جرىٰ علىٰ الإمام الحسينعليه السلام وأهل بيته وأصحابه، من مأساة لا نظير لها في التاريخ البشري.

ثانياً: البعد الفكري والرسالي الواعي للنهضة الحسينية، بما تحويه من مباديء ودروس وعبر .

ثالثاً: البعد السلوكي والحركي الجهادي، الذي يتمثل باتخاذ الموالين الإمام الحسينعليه السلام وأهل بيته وأصحابه، قدوةً وأسوةً في الكفاح والجهاد ضد الظلم والطغيان.

المسألة الثانية: نتساءل: هل اتسم الطغاة الذين توالوا علىٰ حكم العراق بالحكمة في حكمهم، أم إنهم حكموا بالقهر والظلم والجور؟ هذا إذا كانت الحكمة المقصودة للكاتب هي التزام المنطق، وموازين العقل في إعمال الحكومة علىٰ الناس.

ونتساءل أيضاً: هل تُلازم سيادة المبادئ والقيم الجلوس علىٰ كرسي

الحكم، وامتلاك صولجان السلطة؟ فلطالما وجدنا القيم والمبادئ تعلو وتسود بالجهاد والتضحية خارج السلطة والحكم، وأبرز دليل علىٰ ذلك سيرة الأنبياء عليهم السلام وفي مقدمتهم سيرة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويكفي استعراض واعٍ لسيرة الإمام علي عليه السلام والزهراء عليها السلام والإمام الحسن عليه السلام وهم خارج السلطة، لكشف هذه الحقيقة وهكذا في ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي انتصرت فيها مبادئ الإسلام وقيمه باستشهاد الإمام عليه السلام، واستشهاد أهل بيته وأصحابه الكرام، وهكذا في سيرة الإمام السجاد عليه السلام والصادقين عليهما السلام، ومن تلاهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل إن الدور الرسالي لأهل البيت عليهم السلام هو الذي حفظ الإسلام نقياً عن التحريف والتزوير، وهو الذي أعدّ وربّىٰ أجيالاً من العلماء الرساليين والمفكرين الأفذاذ، لبيان معالم الإسلام الأصيل للأمة، وصيانتها علىٰ طريق الاستقامة والرشاد، ونشر الدعوة المحمدية في آفاق الأمم وأمصار الأرض إلى يومنا هذا. وهذا لا يعني عدم استهداف إقامة الحكومة الإسلامية العادلة، بل إنها من الأهداف الضرورية الثابتة عقلاً وشرعاً، ألّا إنها هدف في طول المبادئ والقيم الإسلامية؛ ليصدق عليها أنها حكومة إسلامية.

الشبهة الثامنة عشرة: إن الطائفية السنيّة ينبغي أن تكون المثال الذي علىٰ الشيعة أن يحذوا حذوه.

الرد: الظاهر أن منطق الكاتب في قوله أعلاه، هو منطق المصالح الفئوية الطائفية، أو ما يصطلح عليه في أوربا بالإثنية، في حين أن تربية المسلمين الشيعة ونهجهم كمسلمين، هو نهج مدرسة أهل بيت النبوة والعصمة، وهي تأبىٰ أن تتحجم بهذا الإطار الجاهلي الضيّق.

والمسلمون الشيعة علىٰ ضوء مبدئيتهم هذه، يعتبرون الطائفية علىٰ الطريقة

السنية[١] ـ كما يطلق عليها الكاتب ـ انحرافاً عن خطهم الإسلامي، وتبعيتهم المبدئية للرسول ﷺ وأئمتهم من أهل بيته عليهم السلام[٢].

الشبهة التاسعة عشرة: إن الإيرانيين يقصدون العراق محملين بأموال الحقوق الشرعية والنذور، وهم يزورون قادة عرباً وأبطالاً عرباً. وأنا كعربي أشعر بالزهو لهذا المشهد، ولو كنت قومياً فارسياً لحرّمت علىٰ أبناء ملّتي أن يُصلّوا علىٰ التربة، أو يزوروا مراقد الأئمة العرب.

الرد: إن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم أئمة المسلمين بكافة قومياتهم وأقاليمهم، كما كان الرسول الكريم ﷺ الذي أُرسل للناس كافة. ولم تنحصر إمامتهم ولا مقامهم ولا سيرتهم بدائرة قومية أو إقليمية ضيّقة، رغم أنهم ينتسبون إلى بني هاشم، وهم أشرف بيوت العرب في الحجاز. وكان كبار الصحابة من خلّص مقربيهم، كسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وميثم التمار، وبلال الحبشي، والمقداد بن أسود الكندي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وعشرات غيرهم من كبار الصحابة، ينحدرون من قوميات مختلفة، وينتمون إلى أقاليم مترامية من أرض اللّٰه الواسعة.

والمسلمون الإيرانيون عندما يزورون المراقد المشرّفة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، إنما يزورونهم بما هم أئمة للمسلمين، وقادة للأُمة الإسلامية بعربها وفرسها وتركها وباقي قومياتها، سواء كانوا في العراق أو إيران أو الحجاز أو الباكستان، أو غيرها من بلاد العالم الإسلامي.

الشبهة العشرون: إن الصلاة علىٰ التربة هي لصالح العرب قومياً. فالفرس

---

(١) وهي نهج استعماري يرفضه عادةً أهل السنة الملتزمون بمبادئهم الدينية.

(٢) راجع الشبهة الرابعة عشرة والردّ عليها.

والمسلمون الآخرون من غير العرب يقدّسون تربة عربية[١].

الرد: إن قطعة التراب المصنّعة علىٰ شكل تربة، تتخذ للسجود في الصلاة علىٰ أساس الحكم الشرعي الثابت علىٰ نحو الوجوب عند فقهاء الإمامية الإثني عشرية، وعلىٰ نحو الاستحباب عند أغلب المذاهب الإسلامية الأخرىٰ، لقول الرسول صلى الله عليه وآله برواية الفريقين: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[٢].

وعن هشام بن الحكم أنه قال لأبي عبدالله عليه السلام: «أخبرني عما يجوز السجود عليه، وعمّا لا يجوز، قال عليه السلام: **السجود لا يجوز إلّا علىٰ الأرض، أو علىٰ ما أنبتت الأرض إلّا ما أُكل أو لبس.** فقال له: جعلت فداك ما العلة في ذلك؟ قال عليه السلام: **لأن السجود خضوع للّه عزوجل، فلا ينبغي أن يكون علىٰ ما يؤكل ويلبس، لأن أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة اللّه عزّوجل، فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده علىٰ معبود أبناء الدنيا الذين اغترّوا لغرورها**»[٣].

ولما كانت من شروط موضع السجود الطهارة، جرت السيرة عند المتشرعة

---

(١) يقول الكاتب في كتابه هذا الذي نقوّمه: لهذه التربة قصتان، واحدة شائعة بين البسطاء تزعم أن دم الحسين عليه السلام قد اختلط بهذه التربة، فأصبحت عزيزة ذات قيمة دينية، وقصة أُخرىٰ غير شائعة هي التي نرجّحها، فقد لاحظ عمر بن الخطاب أن جماعة من المسلمين بعد فتح بلاد فارس أخذوا يصلّون علىٰ الأرض المفروشة، فساءه ذلك، وأوصىٰ بأن تظل الصلاة علىٰ الأرض، وأن يبتعد المسلمون عن إدخال الترف إلى طقوس صلواتهم.

وقد يكون بعض المسلمين قد اهتدوا إلى طريقة لتجفيف الطين النقي، المأخوذ من تراب الصحراء، لتلامس جبهة المصلي قطعة التراب المجفف، لا قطعة الفراش الوثير.

(٢) صحيح البخاري ١: ٩١، كتاب التيمم. سنن البيهقي ٢: ٤٣٣، ورواه غيرهما من أصحاب الصحاح والسنن.

(٣) الوسائل ٣ : باب ١، ح ١، وغيرهما من الروايات .

منذ القديم علىٰ اتخاذ قطعة من التربة طاهرة طيبة من أيّ أرض كانت علىٰ الخصوص الأرض الطاهرة لمراقد الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، كالمدينة المنورة والنجف الأشرف وكربلاء المقدسة ومشهد المشرفة وغيرها من المدن المقدسة.

وفي ذلك قال العلامة الأميني: «نحن نتخذ من تربة كربلاء قِطعاً لمعاً، وأقراصاً نسجد عليها، كما كان فقيد السلف مسروق بن الأجدع يحمل معه لبنة من تربة المدينة المنورة يسجد عليها، والرجل تلميذ الخلافة الراشدة، فقيه المدينة، ومعلّم السنّة بها، وحاشاه من البدعة.

فليس في ذلك أيّ حزازة وتعسّف، أو شيء يضاد نداء القرآن الكريم، أو يخالف سنّة الله وسنّة رسوله ﷺ، أو خروج من حكم العقل والاعتبار، وليس اتخاذ تربة كربلاء مسجداً لدىٰ المسلمين الشيعة الإمامية من الفرض المحتم، ولا من واجب الشرع والدين، ولا مما ألزمه المذهب، ولا يفرق أي أحد منهم منذ أول يومها بينها وبين غيرها من تراب الأرض، في جواز السجود عليها، خلاف ما يزعمه الجاهل بهم، وبآرائهم، وإن هو عندهم إلّا استحسان عقلي ليس إلّا، واختيار لما هو الأولىٰ بالسجود لدىٰ العقل والمنطق والاعتبار فحسب كما سمعت.

وكثير من رجال المذهب يتخذون معهم في أسفارهم غير تربة كربلاء مما يصح السجود عليه، كحصير طاهر نظيف يوثق بطهارته، أو خُمرة مثله ويسجدون عليه في صلواتهم»[(١)].

كل هذا علىٰ أساس من أحكام الشريعة الإسلامية المقدسة، وليس للبعد القومي أو الإقليمي للأرض أيّة مدخلية فيه، فهو ليس تقديساً لأرض عربية

---

(١) سيرتنا وسنّتنا: ١٦٦ ـ ١٦٧، ط النجف.

كما يقول الكاتب، بل هو من باب تحقيق شروط الصحة في العبادة، والالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية فيها، واتخاذ تربة من بعض بقاع الأرض كالمدينة المنورة وكربلاء المقدسة، بما هي أرض مقدسة بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وبإمام من أئمة أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، لاغير.

الشبهة الحادية والعشرون: كان برنامج علماء الدين، وقادة ثورة العشرين، وبرنامج محمد حسين آل كاشف الغطاء، وبرنامج محمد رضا الشبيبي يركّز علىٰ الحل الديمقراطي دون سواه.

الرد: إذا كان مقصود الكاتب من الديمقراطية هو المعنىٰ الغربي، الذي يعتبر الشعب مصدر السلطة التشريعية والتنفيذية، فهذا خطأ؛ إذ ليس في برنامج الشيخ آل كاشف الغطاء شيء يشير إلى ذلك، بل العكس[1].

أما إذا كان مقصود الكاتب من الديمقراطية مايساوق مبدأ الشورىٰ في الإسلام، الذي ينظّم دور الأُمة والشعب في نفوذ السلطة والحكومة، وتنظيمها علىٰ أساس نظام الإسلام في الحكم، فهو صحيح. وهذا ما نجده اليوم في نظام الشورىٰ والانتخابات المدوّن في الدستور الإسلامي للجمهورية الإسلامية في إيران.

الشبهة الثانية والعشرون: إن الدارسين في المعاهد الدينية لم يتعلموا قراءة المآتم الحسينية والبكاء علىٰ المنابر، وإنما تفقهوا بالآداب العربية وأنساب العرب، وعلوم اللغة والمنطق والفلسفة.

الرد: إن قرّاء المنبر الحسيني لا يخلو الكثير منهم في تلك الفترة من معرفة آداب العربية، والحِكم والمواعظ، والقصص التاريخية، بحدود حاجته في

---

(١) راجع مشروع كاشف الغطاء في الصفحة ٣٤٦ من نفس الكتاب السابق.

الخطابة والوعظ والإرشاد لعامة الناس، وأنّ علماءنا وفقهاءنا الأعلام يؤكدون على طلبة العلوم الدينية في الحوزات والمعاهد على أهمية قراءة المآتم الحسينية، وإقامة الشعائر الحسينية، واتخاذها أحد السبل الجماهيرية الرئيسية في التعريف بمعالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتوعية الأمة على مسيرتهم الجهادية وتربيتهم للاقتداء بسيرتهم الرسالية الشريفة.

الشبهة الثالثة والعشرون: يختلف الإسلاميون الجدد عن أسلافهم الذين قادوا الحركة الدستورية، وحركة الجهاد والحركة الاستقلالية... الذين أجمعوا علىٰ المشروع الديمقراطي حلاًّ لمشكلات الدولة، والذين لجأوا إلى توسيع العمل بمبدأ الشورىٰ، والاحتكام إلى البرلمان مكاناً لحل وتسوية الإشكالات الراهنة.

الرد: لم يكن القادة الإسلاميون الأوائل قد التزموا الحل الديمقراطي بطريقته الغربية، بل تعاملوا معه انسياقاً مع التيار العام للمثقفين آنذاك، وقصدوا بها (الديمقراطية) ما يساوق الشورىٰ، وحق الشعب بالانتخاب والتصويت فقط، فيما لا يتعارض وثوابت الإسلام[١].

علىٰ أن الإسلاميين الجدد ـ كما يسميهم الكاتب ـ لم يختلفوا عن السابقين، إلّا في درجة العمق والبيان والتفصيل لنظرية الإسلام في الحكم، خصوصاً بعد أن غلب علىٰ تطبيقات الديمقراطية في أنظمة الحكم السابقة والقائمة، الطريقة والنظرية الغربية، القائلة بأن مصدر السلطة التشريعية والتنفيذية هو الشعب، واللتان انتهىٰ بهما الأمر إلى الاستبداد والدكتاتورية، مما أثبت صحة ما ذهب إليه الإسلاميون المتأخرون، من أن الديمقراطية علىٰ الطريقة الغربية تنتهي

---

(١) راجع الشبهة الحادية والعشرون والردّ عليها.

عادةً إلى إحدىٰ صور الاستبداد، سواء كان استبداداً لطبقة حاكمة، أو لأصحاب رؤوس الأموال الكبرىٰ (الرأسماليين)، أو لطائفة أو لشريحة عشائرية أو نخبة حزبية معينة، أو غير ذلك.

وتكفي عملية استقراء شاملة للأنظمة الديمقراطية علىٰ الطريقة الغربية بصورها المتعددة، سواء في بلاد الشرق أو حتىٰ في بلاد الغرب التي هي أُمّ الديمقراطية؛ لنكتشف ما تعانيه الشعوب من ظلم واضطهاد، وسلب للحقوق والحريات، وسوءٍ فاحش في توزيع الثروات الوطنية، ونهبٍ لها، وليكون كلّ ذلك دليلاً صارخاً علىٰ هذه الحقيقة(١).

الشبهة الرابعة والعشرون: لم يدّع القوميون الفرس أنهم محبّون للعرب حتىٰ يقال لهم شعوبيون. وقد يكون مفيداً للقومي الفارسي أن يوصف بعدم حب العرب، كما هو مفيد للعربي أن يوصف بعدم حبّ الفرس، وهذه حالة طبيعية في خصائص الأمم وصراع القوميات.

الرد: ليست هذه الحالة التي يدّعيها الكاتب حالة طبيعية، بل هي حالة يخلقها الحكّام وأعوانهم العنصريون، الذين ينطلقون من المقولة الجاهلية بالامتياز العرقي أو التفوق العنصري، كما هو شأن بني إسرائيل، أو عرب الجاهلية، أو الفرس قبل الإسلام، أو النازيين الألمان في عصرنا الحديث، وأمثالهم، وإلّا فالأصل عدم وجود هذه الخصوصيات المدّعاة، وعدم الصراع فيما بين الأُمم لو ساروا وفطرتهم الأولية السليمة التي قامت عليها مباني وعقائد الأديان الإلهية **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك**

---

(١) للمزيد راجع: الحائري، السيد كاظم – أساس الحكومة الإسلامية.

الدين القيّم﴾[1].

والدليل علىٰ ذلك واقع الأُمة الإسلامية بقومياتها المتعددة، خصوصاً مجتمع الصدر الأول للإسلام. ولولا سلاطين بني أمية وبني العباس والعثمانيين وأمثالهم من الحكام المنحرفين، الذين فرّقوا المسلمين وميّزوا بينهم في التعامل علىٰ أساس قومي أو إقليمي؛ لما آل الأمر بهذه الأُمة إلى بروز حالات من الصراع القومي، والإقليمي بين أبنائها، استطاعت القوى الاستعمارية تغذيتها واعتمادها في سياستها الاستكبارية، وعلىٰ رأسها بريطانيا التي حازت قصب السبق في تمزيق الأمة الأسلامية، وزرع عوامل الصراع الاقليمي والقومي بين بلدانها وقومياتها.

* * *

---

(١) الروم: ٣٠.

الخاتمة

دعوة الغرب لتقويم الإسلام من جديد

وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام

إعادة التقويم من خلال حركة الاستشراق:

إن الاستشراق نظرياً، ومن خلال تعريفه بأنـه «العـلم بـاللغات والآداب والعلوم الشرقية»، يعتبر أهم وأبرز صور الانفتاح الغربي علىٰ الشرق، وكـان من الممكن، لو سار بأمانة علىٰ نهجه العلمي، أن يلاقح بين الحضارات الغربية والشرقية باتجاه خدمة الإنسانية، والتقريب بين الأمم والشعوب المختلفة علىٰ أساس العلم والمصالح المشتركة، وأن يجنبها الكثير مـن الاخـتلافات التـي انتهت بعضها إلى صراعات دموية، هدمت جسور الوفاق طيلة عقود متمادية وأجيال متوالية.

إلّا أنه، ومع الأسف، اتجه ـ غالباً ـ وجهة مخالفة لنهجه العلمي، خصوصاً فيما يتعلق بالإسلام كدين وحضارة وأمّة. ويـمكننا اسـتعراض الكـثير مـن الأرقام والأدلّة الصارخة علىٰ ذلك، والتي استعرضت الكثير منها الكتب التي بحثت في تقويم الاستشراق، ونقد معطياته ونتاجاته.

ونحن هنا وبقلم عجول، نحاول أن نشير إجمالاً إلى هذه الحقيقة. علىٰ أننا لا نطرح ذلك طرحاً سلبياً متشائماً، بل نطرحه بروح إيجابية متفائلة ندعو من خلالها إلى إعادة تقويم الغرب لحركته الاستشراقية والعمل بإخلاص لإعادتها إلى حاقّها العلمي الهادف، إلى الانـفتاح الأمـين والمـخلص عـلىٰ الشـرق، خصوصاً علىٰ الإسلام ديناً وحضارةً وأمّة.

ولو وضعنا الاستشراق في ميزان المقارنة بين النظرية التي أُدّعيت له، وبين الواقع الذي سار عليه لاكتشفنا كم هو بعيد عمّا نُظّر له وأُعلن عنه.

الاستشراق بين النظرية والواقع:

يعرّف الاستشراق اصطلاحاً بأنه: «العلم باللغات والآداب والعلوم الشرقية»[١]. والعالم بها يسمونه بالمستشرق، والذي ينحصر مصداقهُ عادةً بالمتخصص الغربي بتلك العلوم. ومن خلال الاستقراء الشامل لما تمخّض عنه الاستشراق فعلاً نجد أن الغالب علىٰ ما تناوله من الشرق هو الإسلام معارف وحضارةً، ولو أمعنا النظر لوجدنا أن الاستشراق نشأ علىٰ يد الغربيين لذلك كان متماشياً ومتناسباً مع طبيعة الفكر الغربي في كل مرحلة من مراحلهِ التاريخية، ومنسجماً مع نظرة الغرب إلى الشرق، وبالخصوص الشرق الإسلامي، فعندما كانت الطبيعة التبشيرية هي السمة البارزة للفكر والحكومات الغربية؛ كان الاستشراق يندفع بهذا الاتجاه، ويتأكد هذا إذا كان المستشرق ينطلق في عمله من خلال مؤسسة تبشيرية، حينئذٍ سيأخذ الاستشراق مساراً وحركةً، ذات اتجاه تبشيري، وليس علمياً صرفاً، فيمتد عمل المستشرق ليشمل كل ما يخدم مهمة التبشير، فهو عندما يتناول الإسلام فكراً وحضارةً بالبحث والدراسة سيكون ذلك علىٰ ضوء ما تمليه عليه طبيعة الفكر التبشيري. ويشير إلى ذلك المستشرق «درمنغهام» في معرض بيانه عن النفي الكيفي وإثارة الشكوك في معطيات السُنّة النبوية، والتاريخ الإسلامي من قبل المستشرقين (ذوي الدوافع التبشيرية) فيقول: «من المؤسف حقاً أن غالىٰ بعض هؤلاء المتخصصين ـ من أمثال موير، ومرجليوث، ونولدكه، وشبرنجر، ودوري، وكيتاني، ومارسني، وغريم، وغولد صيهر، وغود فروا، وغيرهم ـ في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم علىٰ الخصوص، ومن المحزن أن لا تزال النتائج التي انتهىٰ إليها المستشرقون سلبية وناقصة، ولن

---

(١) المنجد ـ مادة «شرق».

تقوم سيرة علىٰ النفي، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم علىٰ سلسلة من المجادلات المتناقضة... ومن دواعي الأسف أن كان الأب «لامانسي» الذي هو من أشهر المستشرقين المعاصرين، ومن أشدهم تعصباً، وأنهُ شوَّهَ كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبيّ الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعي أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن. فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضىٰ تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر»[١]؟

كما نجد ذلك واضحاً في مجموعة من المجلات الاستشراقية كمجلة (العالم الإسلامي) التي يصدرها المستشرقون الأميركيون والتي أنشأها «صموئيل زويمر»[٢] في سنة ١٩١١م، وتصدر الآن من هارتفورد بأميركا ورئيس تحريرها «كنيث كراج» وطابع هذه المجلة تبشيري واضح. وللمستشرقين مجلة شبيهة بتلك المجلة في طبيعتها واتجاهها التبشيري، وتحمل نفس الإسم (العالم الإسلامي)، مع العلم أن أغلب المحرّرين لمثل هذه المجلات هم من المبشرين كالقسيس «ا.ا.الدر» والقسيس «ا. بشوب» والقسيس «ل. ل.

---

(١) درمنغهام ـ حياة محمد ـ المقدمة ص ٨ ـ ١١. (ومع ذلك فقد وقع درمنغهم في نفس الداء، ونفث في كتابه هذا سُماً ناقعاً، ومفاهيم سيئة منكرة عن الإسلام ونبيّه ﷺ).

(٢) صموئيل زويمر: (١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م) مستشرق أميركي محرر مجلة (عالم الإسلام) له مؤلفات عن الإسلام في العالم، وعن العلاقات بين المسيحية والإسلام منها: «يسوع في إحياء الغزالي» . (القاموس المنجد «في الأعلام»). كان أحد أعضاء الإرسالية الأميركية العربية «التبشيرية» التي تأسست عام ١٨٨٩م وقد افتتح مع المبشر جيمس كانتين أول محطة عمل تبشيرية لهذه الإرسالية في البصرة عام ١٨٩١م، ثم تلتها محطة البحرين التبشيرية عام ١٨٩٣م، واستمر في أداء دوره التبشيري في منطقة الخليج بمشاريع متنوعة هادفة بهذا الاتجاه. (د. التميمي، عبدالملك خلف ـ التبشير في منطقة الخليج العربي: ٤٥ ـ ٧٠).

براون» والقسيس «د. م. دونالدسون»[١].

وهكذا عندما يكون طابع الفكر الغربي السائد هو طابع الفتوحات والسيطرة علىٰ الشرق؛ فإن الاستشراق يندفع بهذا الاتجاه ليخدم كل ما من شأنه تكريس هذا الهدف؛ كتزويد الحكومات المستعمرة بالدراسات والتحليلات الوافية عن الشرق والبلاد المستعمرة، وكذلك تزيين صورة الدول المستعمرة وتبرير ممارساتهم، وإظهارهم بمظهر المنقذ والمحرِّر، وحامل راية الحرية والحضارة مثلاً. أو قد يكون المستشرق عاملاً في إحدىٰ مؤسسات الدول الأوربية بصورة رسمية، كأن يكون مثلاً مستشاراً لوزارة المستعمرات في هذه الدول، كما هو الحال بالنسبة للمستشرق الفرنسي «هانوتو»، الذي كان يعمل مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية، نجدهُ يتجه في دراساته الاستشراقية إلى كل ما يخدم الحركة الاستعمارية لفرنسا في الشرق، بل يحاول توظيف رعيل من المستشرقين لهذا الغرض، من خلال رسم مناهج بحثهم ودراساتهم الاستشراقية من وحي الدوافع الاستعمارية لبلاد الشرق الإسلامي.

وهكذا يصب الجهد الاستشراقي في الإطار الاستعماري للغرب بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن نماذج ذلك ما كتبه «هانوتو» هذا عن المسلمين وعقيدتهم، واضعاً المقترحات الضروريّة في نظره لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الأفريقية الإسلامية تحت عنوان: «قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية»، وقد نشرت جريدة «المؤيد» في تمام القرن التاسع عشر ترجمة لمقالته هذه، نورد مقاطع منها هي قوله: «... في تلك البقعة الإفريقية التي أصبحت مقرّ ملك الإسلام، جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته، جاء القديس

---

(١) الدكتور محمد البهي ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.

لويس ـ الذي ينتمي إلى إسبانيا بوالدته ـ ليضرم نيران القتال في مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده الإمارات الإفريقية الإسلامية، وعاود هذا الخاطر نابليون الأول، فلم يوفق في تحقيقه الفرنسيون إلّا في القرن التاسع عشر، حيث أخنوا علىٰ دولة الإسلام التي كانت لا تني في متابعة الغارات علىٰ القارة الأوربية، فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ سبعين عاماً، وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاما».

«... إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده، حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطواتها شعوبهُ، وقامت تجاههُ مقام رؤسائه الأولين، وهي تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه، وتحشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر يذبّون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال».

«... إن شعباً جمهوري المبادئ (شعب فرنسا) يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له إلّا نفسه ـ لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن عن الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ـ هو الذي تقلّد زمام إدارة شعب آخر، لا يلبث أن ينمو حتىٰ يساويه في العدد، وهو ذلك الشعب المنتشر في الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، والمتّبع لتقاليد وعادات غير التي نقولها ونحترمها... هو الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح المدنية وروحها».

«... ليس الإسلام في داخلنا فقط، بل هو خارج عنّا أيضاً... قريب منّا في «مراكش» تلك البلاد الخفيّة الأسرار،... قريب منّا في «طرابلس الغرب» التي تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الإسلام في البحر الأبيض المتوسط، وبين الطوائف في باطن القارة الإفريقية، قريب منّا في «مصر» حيث تصادمت

معنا الدولة البريطانية فصادمنا إيّاها في الأقطار الهندية، وهو موجود وشائعٌ في «آسيا» حيث لا يزال قائماً في بيت المقدس وناشراً أعلامه علىٰ «مهد الإنسانية مقر المسيح»، ويحسب أنصاره وأشياعه في قارات الأرض القديمة بالملايين، وقد انبعثت منه شعبة في بلاد الصين، فانتشر فيها انتشاراً هائلاً، حتىٰ ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء للّٰه مقام الدعاء «لساكياموني»، وليس هذا بالأمر الغريب، فإنه منتشرٌ في الآفاق...».

«... لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد، غريب عن إسلامنا (في تونس والجزائر) ولا علاقه له به، لأنه وإن كانت البلاد (الإسلامية) التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة بـ(دار إسلام) وإنما هي دار حرب، فإنها لا تزال عزيزة وموقّرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان، والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم أُنثىٰ الأسد حول قفص جلست فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة، ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليها من بينها».

«... يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح، وعلىٰ أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، ولكن لم تثبّط هممهم، نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يشدّون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة... ففي مسألة علاقتنا مع الإسلام تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية، والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلّها صعباً ومتعذراً، كما سنبيّنهُ».

هذا الدافع «الاستعماري» الذي تجلّىٰ عند المستشرق الفرنسي «هانوتو»

خَلق تلك النظرة لدىٰ المسلمين في آسيا وإفريقيا، وهي نفسها التي يحملها المستعمر الفرنسي والإنجليزي والهولندي عند تعامله معهم وتوجيهه إيّاهم، وبهذا تتضح سياسة الاستعمار في الشرق الإسلامي من خلال توجيه الاستشراق كحركة، وتوسيع مفهومه من الإطار العلمي المحض إلى إطار حركة الاستعمار وأهدافه.

وقد لا يكون وراء الاستشراق كحركة دافع واحد يضاف إلى مدعىٰ الدافع العلمي، بل كثيراً ما تجتمع وراءه دوافع متعددة، تنحو به باتجاه استيعاب كل الأغراض، والأهداف المشتركة للقوىٰ الكامنة وراءه؛ فيندفع في مرحلة تاريخية واحدة باتجاهات متعددة، هدفها تشويه وتحريف العقائد والمتبنيات الفكرية، السائدة في الدائرة التي تتناولها دراسات المستشرقين وأبحاثهم، ومثال ذلك ما ذكره لنا الكاتب «أنور الجندي» في معرض بيانه لمخطّطات الاستشراق في ضرب الإسلام والوحدة الإسلامية، من خلال نظرته إلى مصدر الدين، فيقول: «حاول الاستشراق فرض مفهومه أن الدين ظاهرة اجتماعية، لم تنزل من السماء، وإنّما خرجت من الأرض، كما خرجت الجماعة نفسها علىٰ النحو الذي قال به «دوركايم»[(١)] ومدرسة العلوم الاجتماعية التي يتصدر لقيادتها الاستشراق اليهودي، والتي خضع لها وخُدِعَ بها الكثير من الأسماء اللامعة من الذين تلقوا تعليمهم في أوائل هذا القرن في السوربون وغيرها...».

وينظر الاستشراق (والمنهج الغربي كله) إلى الأديان جميعاً من خلال مقولة مضلّلة، تقول: إن الأديان ظاهرة اجتماعية وظاهرة مرحلية تلت مرحلة الوثنيّة، وأعقبتها مرحلة العلم التي لم يَعُد الإنسان أو المجتمع خلالها في

---

(١) دوركايم (أميل) (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م): عالم اجتماعي فرنسي، قال: إن المجتمع هو مصدر الأحداث الأدبية والدينية، (القاموس المنجد «في الأعلام»).

حاجة إلى وصاية الدين، وأن الأمم الراقية الآن لا تحتاج إلى الدين أصلاً.

ومن ثم فإن الاستشراق يمضي إلى التشكيك في قاعدة (عالمية الإسلام) وختم الرسالة، ويفتح الباب واسعاً أمام دعوات البهائية والقاديانية في الدعوة إلى وحدة الأديان، كما يشير دائماً إلى ما ترمي إليه الماسونية، مما يطلق عليه دين البشرية (الهومنيزم).

من كل ما سبق نخلص إلى أن الاستشراق كواقع غالباً لم يكن اتجاهاً علمياً لدراسة الشرق الإسلامي وحضارته كما ادعاه المستشرق الفرنسي الشهير «مكسيم رودنسون»، بل هو في حقيقته حركة واسعة الدوافع والقوىٰ الكامنة وراءه، حتىٰ استوعب في كثير من مراحله وأدواره أغلب التطلعات الحضارية لأوربا، وحركتها الاستعمارية في الشرق خصوصاً الإسلامي منه.

ويتأكّد هذا المعنىٰ عند استعراضنا لنشأة الاستشراق وتبلوره ضمن مسير حركته الأولىٰ، ويتأكّد لنا أكثر عند تقويمنا للجهد الاستشراقي المطروح ضمن مراحل تكوّنه وصيرورته إلى عصرنا الحاضر. وتمهيداً لذلك نعرض عدّة خلفيّات في واقع الكثير من المستشرقين، استُلّت من خلال تتبع مسيرة حركة الاستشراق لنسلّط من خلالها الضوء علىٰ منهجيّة التقويم والمراحل التي مرّ بها:

الخلفية الأولىٰ:

بلحاظ نشأة الاستشراق واقترانه بالتبشير بصبغته الاستعدائية التي بدأ بها؛ بهدف اختراق المسلمين ثقافيّاً، لدحرهم باستلاب مواطن قوّتهم وإخمادها في واقعهم، نجد أنّ أوائل المستشرقين كانوا مبشّرين نصارىٰ، وكان طابع احتقار الإسلام والمسلمين السمة البارزة في اتّجاهاتهم الفكرية والثقافية، مما انعكس بشكل كبير علىٰ ما استهدفوا دراسته من الإسلام وواقع المسلمين،

فجاءت تلك الدراسات والأبحاث مشوّهةً ناقصةً مليئة بالمثالب والافتراءات التي لا تستند إلىٰ دليل. فهم لا يرون لغير مذهبهم فضلاً وحقّاً في الوجود، يقول هنري جيسب المستشرق والمبشّر الأميركي: «المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدّرونها قدرها... إنهم لصوص، وقتله، ومتأخّرون، وإن التبشير سيعمل علىٰ تمدينهم»(١). إن هذا المعنىٰ الذي أشرنا إليه يعتبر جزءاً أساسياً من التفكير الغربي، وغريزةً موروثةً، وانطباعاً راسخاً فيهم منذ سقوط الأندلس.

وقد اتّخذت المواجهة للإسلام شكلاً جديداً بعد الحروب الصليبية، حيث انتهجت أسلوب الغزو الفكري المبرمج للمسلمين؛ بهدف فصلهم عن الأسس والمضامين الحيّة لدينهم، والتي يكمن فيها سرّ قوتهم، مما خلّف تأثيرات بالغة في عقول الغربيين، استثمرتها المؤسسات السياسية، ووظّفتها في عمليّة خلق الأرضية الفكرية والثقافية بغزو شامل للشرق وإحكام السيطرة الاستعمارية عليه.

الخلفيّة الثانية:

إن الكثير من المستشرقين الذين كرّسوا حياتهم لدراسة كل ما يتعلّق بالإسلام ببُعديه الآيديولوجي والحضاري؛ قد تركّز في أذهانهم اعتقاد ثابت بأن الإسلام الأصيل يشكّل خطراً حقيقيّاً، يقف سدّاً منيعاً أمام كل التطلّعات الاستعمارية ـ لدولهم الغربية ـ في الشرق، بل إنه يحمل في واقعه النقيض الشامل لمدارسهم الفكرية وكيانهم الحضاري، ويهدّد بالزوال كلّ وجودهم القائم علىٰ أساسها، لما يملكه من عمق وواقعية وشمولية، منحته وتمنحه القدرة الفائقة علىٰ التغيير والامتداد إلى أي مجتمع إنساني، يجد طريقاً للنفوذ إليه. وإلى هذا يشير لورانس براون بصراحة، في كتابه الذي أصدره

(١) د. خالدي ود. فروخ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ٣٧.

عام ١٩٤٤م قائلاً: «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته علىٰ التوسع والإخضاع وفي حيويّته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي» ويضيف براون في مناسبة أخرىٰ قائلاً: «إذا اتّحد المسلمون في امبراطوريّة؛ أمكن أن يصبحوا لعنةً علىٰ العالم وخطراً... أمّا إذا بقوا متفرّقين فإنهم يظلّون حينئذ بلا وزن وتأثير»[١].

وبنفس المضمون نشرت مجلة العالم الإسلامي ـ **The Muslim [Word]** الاستشراقية التي تصدر في لندن ـ في عددها المؤرّخ في حزيران سنة ١٩٣٠م ما نصّه: «إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر علىٰ العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب منها: إنّ الإسلام منذ أن ظهر في مكّة لم يضعف عددياً، بل هو دائماً في ازدياد واتّساع، ثم إنّ الإسلام ليس ديناً فحسب[٢]، بل إنّ من أركانه الجهاد ولم يتّفق قطّ أنّ شعباً دخل في الإسلام ثمّ عاد نصرانياً»[٣]. ولعلّ المستشرق الألماني كارل بيكر كان أكثر صراحة حينما قال: «إن هناك عداءً من النصرانية للإسلام، بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطىٰ أقام سدّاً منيعاً في وجه انتشار النصرانية، ثم امتدّ إلىٰ البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها»[٤].

---

(١) C F Brown 37, Islam And Missions: 44 - 48.

عن د. خالدي، مصطفىٰ ود. فروخ، عمر ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ٣٧.

(٢) يقصد ـ حسب عقيدتهم ـ أنّ الدين هو الذي ينحصر في إطار الكنيسة والطقوس المقرّرة من قبلها فقط، لا كما نعتقد من أن الدين ـ كما هو الإسلام ـ عقيدة ونظام شامل لكافة أبعاد الحياة وجوانبها.

(٣) عدد يونيو سنة ١٩٣٠م تحت عنوان «الجغرافية السياسية للعالم الإسلامي».
The Political Geography Of The Mohammadan World.

(٤) راجع د. محمد البهي في «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»: ٥٢٧. وراجع أيضاً جريدة البلاغ الكويتية العدد ٥٨: ١٢. وراجع أيضاً مجلة البعث الإسلامي الهندية العدد ٩، السنة الثامنة.

الخلفية الثالثة:

إنّ منهجية البحث الاستشراقي ومنطقه، عبارة عن محاكاة الماديّة الوضعيّة، ومنهج العلمانية الضاربة في صميم الوجود الغربي، وإن رؤيته منتزعة من بيئة تلك المنهجيّة الغربيّة. لذلك فقد كانت أكثر الدراسات الاستشراقية بعيدة كل البعد عن المسلك الإلهي والمنطق العقلي، الذي تتميزّ به المدرسة الإسلاميه، إن لم نقل إنها جاءت مشبّعة بالروح الماديّة التي تتحكّم في طريقة تفكير تلك المجتمعات، وبهذا الصدد يرىٰ دينيه[1] مثلاً: «أنه من المتعذّر إن لم يكن من المستحيل أن يتجرّد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة...، وأنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يُخشىٰ علىٰ صورتها الحقيقية من شدّة التحريف فيها. ورغم ما يزعمون من اتّباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجادّ؛ فإننا نلمس من خلال كتاباتهم محمّداًﷺ يتحدّث بلهجة ألمانيا إذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطاليا إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغيّر صورة محمدﷺ بتغيّر جنسية الكاتب، وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها من أثر. إنّ المستشرقين يقدّمون لنا صوراً خياليةً هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التأريخية التي يؤلّفها أمثال «وولتر سكوت»[2]، و«الكسندر دوماس»[3]. وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصها من

---

(١) هو «ألفونس اتيان دينيه»، وهو عالم مستشرق درس الشرق ونتاجه دراسة عميقة، حتىٰ اهتدىٰ إلى الإسلام واعتنقه، وأصبح سيفاً من سيوفه يدافع عنه، ويردّ الشبه والمكائد التي يثيرها أعداؤه «من بحث للدكتور شوقي أبو خليل».

(٢) سكوت (وولتر): (١٧٧١ ـ ١٨٣٢م)، شاعر وروائي اسكتلندي من أشهر رواياته «آيفنهو» و «ابنة الجرّاح» (موسوعة المورد ٩: ١٠).

(٣) دوماس (ألكسندر): روائي فرنسي (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م)، وضع عدداً كبيراً من الروايات التاريخية. من أشهر رواياته: «الفرسان الثلاثة» و «الكونت دي مونت كريستو» تراجع (موسوعة المورد ٤: ٧).

أبناء قومهم، فليس عليهم إلاّ أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة. أما المستشرقون فلم يُمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوّروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري»[١].

إنّ من الأمور التي باتت واضحة اليوم هي ارتباط المنهج ـ كرؤية فكرية وطريقة للعمل ـ بالموقف الفكري والثقافي من حيث الانتماء والهويّة، وهذه العلاقة لا تستثنىٰ في حقل دون حقل، ولا في طريقة دون أُخرىٰ. فخلاصة الخلفيات السالفة الذكر هي: أن جهود كثير من المستشرقين، وثمرات حركتهم تصدر جميعاً وفق أهداف مشخّصة سلفاً، وتقع عند التأمّل علىٰ نسق واحد، يتمثّل في موقفهم الفكري والثقافي، وما يلزمه من دفاع عن الهويّة الغربية بصورة عامة. ولهذا السبب نجدهم قد جانبوا الحق، فأوقعوا الكذب والاختلاف في دراساتهم، فكانت أساليبهم لا تنبئ عن أمانتهم وصدقهم في مجالات البحث العلمي، مترسّمين هدفهم الراسخ أوّلاً وقبل كل شيء وهو: تمهيد الأرضية لعالميّة الغرب وسيطرته، كقاعدة تأسّست عليها الحركة الاستشراقية العالمّية.

من الواضح لمتتبعي شؤون الحضارات الإنسانية أن للغرب حضارة خاصة، يتميّز بها عبر تأريخه الطويل، تدفعنا لأخذها بنظر الاعتبار ضمن المؤثّرات الآيديولوجية علىٰ موضوع دراستنا للاستشراق، وبعبارة أُخرىٰ: إن منهج دراستنا للمدارس الاستشراقيّة التي برزت علىٰ سطح الواقع الميداني يجب أن يتم علىٰ ضوء تشخيصنا المسبق للخصائص الإضافية للحضارة الغربية، التي نشأت فيها وترعرعت في أجوائها. وباستقرائنا للنماذج البارزة من المدارس الاستشراقية في إطار التأريخ الغربي يمكننا استخلاص المميزات الأساسية

---

(١) دينيه، «محمد رسول الله» المقدمة: ٢٧ و٢٨ و ٤٣، و ٤٤.

التالية لهذه المدارس:

١ ـ العداء والحقد للإسلام بكونه ديناً، وللحضارة الإسلامية بمختلف معطياتها وانعكاساتها وامتداداتها الزمانية والمكانية، ويعزىٰ ذلك إلى الصراع الطويل الذي كان محتدماً بين الطرفين إثر استيقاظ الغرب بشكل عام علىٰ صوت الإسلام والدعوة الإسلامية، حيث كانت غارقةً في وحشيّة القرون الوسطىٰ والحروب القبلية، والصراعات بين الأمراء والنبلاء والملوك، وحيث تحكم الكنيسة آنذاك بأفكارها الخرافية وسيطرتها علىٰ مراكز القرار، وابتداع أساليب الظلم والجور باسم الدين المسيحي. في هذه الفترة المظلمة جاء الإسلام بمثابة حافز ومنبّه عظيم لإيقاظ الغرب بالخصوص، لأن الدولة الإسلامية أصبحت قريبة ومجاورة للجسد الغربي «في إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط وجنوبه» وهي تحمل فكراً جديداً وعقيدة ساطعة. فلم يكن من الكنيسة وملوك الغرب إلّا أن يشحنوا الغربيين بالعداء للمسلمين علىٰ أنهم كفرة برابرة، يجب مواجهتهم بعنف دموي، وسحقهم وإبادتهم. وابتدأت المعارك، فكانت «بلاط الشهداء» المعركة الأولىٰ عام ٧٣٢م التي مهّدت للحروب الصليبية، حتىٰ تمكّن الغربيون عام ١٠٩٩م من دخول القدس بقيادة «غودفري دي بويون»[١]. ولم تكن هذه هي المعركة الوحيدة التي خاضها الغربيون ضد المسلمين، فقد قاد الفرنسيون وحدهم خمس حملات صليبية، كان آخرها الحملة الصليبية الثامنة عام ١٢٧٠م، التي قادها لويس التاسع، وقد

---

(١) غودفري دي بويون (١٠٦٠ ـ ١١٠٠م): أمير فرنسي اشترك في الحملة الصليبية الأولىٰ (١٠٩٦ ـ ١٠٩٩م) وأسهم في حصار القدس، أول ملوك المملكة اللاتينية في بيت المقدس (١٠٩٩ ـ ١١٠٠م)، توفي بعد أن أُصيب بحمّىٰ التيفوئيد في أغلب الظن، عدّته الأساطير المتأخرة «الفارس النصراني الأمثل». (موسوعة المورد ٥: ٢٧).

مُنيت بالفشل الذريع.

إن هذا الصراع المرير قد انعكس علىٰ كافة الجوانب الحيوية للغربيين، حتىٰ امتدّ إلى الحياة الأدبية والثقافية، وألقت بظلالها الثقيلة علىٰ الدراسات والبحوث التي تعالج قضايا الشرق عموماً، والإسلام بشكل خاص، فجاء العديد من الدراسات محمّلاً بالتشويه المتعمّد لصورة الإسلام، وشخصيّة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، كما في كتاب «تاريخ فرنسا» للمستشرق الفرنسي «جوليمين» حيث جاء: «إنّ محمّداً مؤسس دين المسلمين، قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم، وأن يُبدّلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين «المسلمين» وبين النصارىٰ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرّهم وإحسانهم. ماذا كان حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنّا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين»[١].

وعندما نلاحظ كتابات أغلب الغربيين نراهم يضعون أنفسهم في الغرب ثم ينظرون منها، فيعكسون وجهة نظر الغرب إلى الشرق الإسلامي، كما جاء في الدراسة التي أعدّها المستشرق الفرنسي اليهودي الأصل «مكسيم رودنسون» تحت عنوان «الصورة الغربية، والدراسات الغربية الإسلامية»، نختار منها المقاطع التالية مصداقاً لما أشرنا إليه: «كان المسلمون يشكّلون تهديداً للعالم المسيحي الغربي قبل أن يصبحوا مشكلة بزمن طويل. فقد حدث ـ في نظر الأوربيين ـ تحوّل في القوىٰ في الأقسام البعيدة من الشرق، وقام شعب هائج

---

(١) جوليمين، «تاريخ فرنسا»: ٨٠ ـ ٨١.

هم «العرب أو السراسنة»[١]، عرف بالسلب والنهب، وهو علاوة علىٰ ذلك شعب غير مسيحي، فاجتاح وخرّب أراضي واسعة، وانتزعها من قبضة المسيحية... ولقد وصلت الكارثة أخيراً إلى إسبانيا والشواطئ الإيطالية وبلاد الغال، وكانت موجة البرابرة الغزاة ذاتها هي دائماً المسؤولة»[٢].

٢ ـ الروح التبشيرية كانت غالبة علىٰ معظم كتابات المستشرقين، حتىٰ ليمكن القول: إن المدارس الاستشراقية قد نصبت نفسها حامية للنصارىٰ، رافعة شعار الدفاع عن الشرقيين منهم، مستخدمة بذلك شتّىٰ الوسائل والأساليب لتحقيق هذا الهدف، وهذا يفسّر لنا سرّ الإسفاف والسقوط في الافتراء الذي مارسه المستشرقون لتشويه الحقائق الإسلامية.

ومما يحكي هذه الحقيقة، بل هو دليل صريح عليها ما جاء في كتابات المستشرق الفرنسي رودنسون ما نصّه: «لقد برزت صورة الإسلام، ليس كما قال البعض بنتيجة الحروب الصليبية، بقدر ما برزت بنتيجة الوحدة الآيديولوجية التي تكوّنت ببطء في العالم المسيحي اللاتيني. وقد أدّت هذه الوحدة إلى رؤية أوضح لمعالم العدو، كما أدّت إلى تضافر الجهود نحو الحروب الصليبية. وفي القرن الحادي عشر وبنتيجة زيارات الحجّاج

---

(١) السراسنة: هذه الكلمة آتية من الكلمة اللاتينية Saracenus (نقلاً عن اليونانية Sarakenos)، وتطلق علىٰ المسلمين. وقد ظهر هذا الاصطلاح أول مرة في مؤلفات كتّاب القرن الأول الميلادي، وقصدوا به البدو الذين كانو يعيشون منذ أزمان طويلة علىٰ أطراف المناطق الزراعية ما بين النهرين، ويهدّدون طرق التجارة أو يحمونها بتكليف من القوتين العظميين يومذاك: الرومان والفرس، والكلمة في اليونانية تعني ساكني الخيام، وتستخدم في كتابات الأوربيين استخداماً يعطي معنىٰ السلب والنهب والتدمير، ولا تطلق إلّا علىٰ المسلمين. (راجع تراث الإسلام ترجمة د. السمهوري، الهامش: ٢٨).

(٢) رودنسون: مكسيم: (تراث الإسلام)، القسم الأول. تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة: د. السمهوري: ٢٧ و ٢٨.

المتزايدة في العدد وفي التنظيم للأرض المقدّسة «في فلسطين»، والتي كانت قد تحوّلت إلى هجمات مسلّحة ضد (البدو أصحاب السلب والنهب) «المسلمين» ، توطّد لدىٰ الأوربيين المثل الذي يمكن أن يُحتذىٰ للدخول إلى الأرض المقدّسة. كما أن القيمة الأخروية للقدس وللقبر المقدّس الذي دنّسه وجود الكفّار، والقيمة التطهيرية للحج، والفكرة القائلة بأنه من الواجب تقديم العون للمسيحيين الشرقيين الذين أُذِلّوا، كانت كلها من الأمور التي أدّت إلى جعل الحملة علىٰ الأرض المقدّسة واجباً مقدّساً، يوضع نصب أعين المؤمنين (المسيحيين)»[١].

٣ ـ تعميق الروح العنصرية للثقافة الغربية في الدراسات الاستشراقية، وإبراز التراث والتاريخ الغربي بشكل مبالغ به، والتمجيد بحضارة الإغريق، والحطّ من قيمة الحضارة الإسلامية، والتقليل من شأن اللغة العربية «لغة القرآن الكريم».

وهنا لابدّ من الإشارة إلى نقطة جوهرية وهي: أن الثقافة الغربية المعدّة للتصدير، والتي سرت إلى تنظيرات الدراسات الاستشراقية، هي ثقافة نصرانية خالصة، بل هي تجهّز وتُعدّ إعداداً خاصاً للتصدير إلى الأمّة الإسلامية.

تقول جريدة «لاستامبا» الإيطالية النصرانية عن ذلك: «إنّ وطنيّة الرهبانيات الفرنسية في المشرق هي وطنية نقيّة وغيورة، والثقافة التي تنشرها هي ثقافة مسيحية خالصة وفرنسية واضحة، إنّها قبل كل شيء ثقافة فرنسية، ومن ثم مسيحية، لقد أصبحت فرنسا سيدة...»[٢]. وقد ذكر ذلك الشاعر

---

(١) رودنسون، مكسيم «تراث الإسلام»، تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة: د. السمهوري: ٣١.

(٢) مجلة المنتقىٰ، العدد الأول، نقلاً عن مجلّة لاستامبا الايطالية.

الباكستاني المعروف محمد إقبال، حيث قال: «إن سحر الإفرنج أو فنّه ـ ثقافته ـ أذاب الصخور وأسالها ماء»[1].

والشواهد كثيرة لبيان تأثير التعصّب للثقافة الغربية علىٰ المدرسة الاستشراقية، منها كتاب «مجد الإسلام» للمستشرق الفرنسي «جاستون فييت».

والذي يلفت النظر في أغلب كتب المستشرقين هذه، هو: العناوين البرّاقة لكتبهم والتي تخالف المضمون الحقيقي لها بشكل كبير، ولعلّها إحدىٰ الأساليب للتمويه علىٰ القرّاء، حيث أن المضامين تخفي بين طياتها شبهات تعمل عملها في نفسيّة القرّاء وأذهانهم. فكتاب «مجد الإسلام» مثلاً الذي أشرنا إليه يبدأ من فصله الأول حتىٰ نهايته بترديد أفكارٍ مشوّهة عن الإسلام، وعن الرسول محمدﷺ، وعن التاريخ الإسلامي، طالما قد تكرّرت في كثير من كتب المستشرقين.

فمثلاً عندما يتحدّث الكاتب عن التاريخ الإسلامي لا يذكر إلّا الوقائع والحروب فقط، وقيام الدولة الإسلامية وسقوطها، وقد فاته أن للمسلمين تأريخاً آخر غير هذه السلسلة الطويلة من الوقائع والحروب، فاته تاريخ المجتمع الإسلامي كيف نشأ وكيف قام، وكيف تطوّر وعمل قدر إمكانه على إبراز حضارة امتدّ إشعاعها إلى الغرب بالذات رغم إسفاف حكّامه وفسادهم وظلمهم فى عهود بني أميّة وبني العبّاس والعثمانيين، في وقت كانت غارقة في ظلمات الجهل والانحطاط. كما لا يتناول تاريخ اللغة العربية، وكيف سارت من الخليج إلى المحيط وتجاوزتها إلى ما وراء النهرين، وآسيا الوسطى، وجنوب شرقها، وشبه القارة الهندية. فليس بين فصول الكتاب ذكر لنواحي من

---

(١) الندوي، أبو الحسن «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»: ١٧٢.

حضارتنا الإسلامية، أو أثر من آثار تراثنا ودوره العلمي في انتشار الإسلام. وكل ما هناك هو أنه يقف في نهاية الكتاب ـ وهو بيت القصيد ـ فيقول: «إن الحضارة الإسلامية ركدت؛ لأنها لم تقم علىٰ أساس حضارة اليونان»(١).

٤ ـ نزعة التعصّب الاستكباري التي نجدها مهيمنة علىٰ أغلب الدراسات الاستشراقية. وقد أشرنا إلى هذا المعنىٰ سابقاً بما كتبه المستشرق الفرنسي «هانوتو» الذي كان يعمل مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية حيث قال: «إن شعباً جمهوري المبادئ «شعب فرنسا» يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له إلّا نفسه، لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة، هو الذي تقلّد زمام إدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتىٰ يساويه في العدد، وهو ذلك الشعب المنتشر في الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، والمتّبع لتقاليد وعادات غير التي نعنو لها ونحترمها... وهو الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح المدنيّة وروحها»(٢).

ويمكن أن نستطلع رأي مستشرق فرنسي آخر وهو «مكسيم رودنسون» الذي يعتبر أحد أركان المدرسة الاستشراقية، والذي يتجلّىٰ بالبزّة العنصرية الاستكبارية، بشكل لا يقبل الشك حيث يقول: «وهكذا بعد أن أصبح القتال أكثر تركيزاً وتوجيهاً، كان لابدّ من إعطاء العدو صفات أوضح وأدق، وكان لابدّ من تبسيط صورته وإعطائها طابعاً نمطيّاً. كان «السراسنة» ـ يقصد بهم

(١) من دراسة حول كتاب «مجد الإسلام» للاستاذ الدكتور حسين مؤنس، استاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة، نشرت بالملحق الأدبي لجريدة الأهرام «أهرام الجمعة»، وتتضمن عرضاً وتحليلاً ومناقشة للفكر الاستشراقي يبين واقع انتاجه العلمي.

(٢) د. محمد البهي «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»: ٣٢.

المسلمين ـ بالنسبة للحجّاج (المسيحيين) مجرّد أعداد زائدة لا وجود لها، ومجرّد كفّار تافهين، حكّام بحكم الأمر الواقع، يتحرك المرء بينهم بلا مبالاة ... وفي الواقع لم تكن لدىٰ أوربا المسيحية صورة واحدة عن العالم المعادي، الذي كانت في صدام معه، بل كانت لديها عدة صور...»[١].

تقويم الإسلام من جديد وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

إن الدول الغربية لعبت دوراً كبيراً في تحديد طبيعة النظرة الغربية إلى الشرق الإسلامي، وخصوصاً بعد منتصف القرن التاسع عشر. يقول المستشرق رودنسون: «لقد كان التفوّق الأوربي من النواحي الاقتصادية والفنية والعسكرية والسياسية والثقافية طاغياً، في الوقت الذي كان فيه الشرق يغرق في التخلّف، وأصبحت إيران والإمبراطورية العثمانية ـ عمليّاً ـ محميّتين أوربيتين»[٢].

لقد أراد الغرب أن يكرّس عظمته ويحمّل ظلاله الثقيلة على العالم، وانعكست هذه الإرادة علىٰ الثقافة الاجتماعية والرأي العام للمجتمعات الشرقية، فأصبح كل ما من شأنه أن يفتح نافذة التطلّع نحو الإسلام أو العودة إلى تحكيمه، أو دراسة منهجه الأصيل وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتأثيره في العالم الإسلامي ضرباً من الجمود والتحجّر، ونزوعاً نحو الرجعية والتخلّف والتعصب. وهذه هي صورة التطلّعات الإسلامية في نظر الكثير من المستشرقين، أو هكذا يصوّرونها للآخرين من خلال كتاباتهم ومناهج عملهم.

---

(١) رودنسون: مكسيم «تراث الإسلام»، تصنيف: شاخت وبوزورث: ٣١ و ٣٢.

(٢) مجلة رسالة الجهاد، العدد ٧٠، السنة السابعة: الاستشراق في الميزان: ٥٩.

فمثلاً، عندما تأسست «حركة الجامعة الإسلامية»[١] في القرن التاسع عشر كردّة فعل للاستعمار الغربي، وازدياد نفوذ دوله علىٰ حساب الدول الإسلامية؛ تعالت صرخات الغرب والأوربيين بشكل خاص في وجه هذه الحركة، وبفعل الوسائل الإعلامية والثقافية كالصحافة والأدب والفنون الأخرىٰ استطاعت هذه الدول الاستعمارية توجيه المجتمع الغربي ورأيه العام ضد هذه الحركة. وقد كتب أحد المستشرقين الفرنسيين في ذلك قائلاً: «كانت حركة الجامعة الإسلامية (Pan - Islamism) هي الغول المرعب في ذلك العصر، علىٰ نفس الطريقة وفي نفس الزمن اللذين انتشر الرعب فيهما من «الخطر الأصفر»[٢]، وكانت هذه الكلمة ـ حركة الجامعة الإسلامية ـ نفسها توحي بالتطلّع الإسلامي للسيطرة وبآيديولوجية عدوانية، وبمؤامرة علىٰ نطاق عالمي»[٣].

هذه لفتات نقدية لم ندخل في تفاصيلها، فإن ذلك يحتاج إلى دراسة موسوعية كبيرة، إلّا أننا اكتفينا بكليات يمكن أن تكون مداخل لدراسات تفصيلية أكبر وأوسع، علىٰ أننا هنا نختم كتابنا هذا بالدعوة للقيام بأمرين علىٰ مستوىٰ كبير من الأهمية في هذا المجال هما:

أولاً: تشكيل لجنة علمية تضم علماء ومفكرين إسلاميين، ينتمون إلى

---

(١) حركة ظهرت في القرن التاسع عشر، واستهدفت توحيد المسلمين في دولة كبرىٰ علىٰ رأسها خليفة قادر علىٰ وقف الغزو النصراني للديار الإسلامية، يعتبر جمال الدين الأفغاني أبرز الداعين إليها. وقد رعاها السلطان عبدالحميد الثاني، وشنّ حملة واسعة للتبشير بها، بيد أن أثرها ضعف وتضاءل إثر سقوطه عام ١٩٠٩م. وهي غير الجامعة الإسلامية المحدثة، التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية. (عن موسوعة المورد ١٠: ١٩٨).

(٢) يُزعم أنه ناشيء عن تعاظم قوّة العرق الأصفر بملايينه التي تفوق الحصر، وقد يطلق علىٰ العرق الأصفر نفسه بوصفه مصدر هذا الخطر.(عن موسوعة المورد ١٠: ١٨٥).

(٣) CF J-J.Wardenburg, L' Islam Dans Le Miroir De l' Occident (Paris - The Hague, 1963), pp.102 - 6.

امهات المدارس والمذاهب الإسلامية المعتبرة وعلىٰ رأسها مدرسة أهل البيتعليهم السلام، تكون مهمتهم إعادة دراسة التنظير الغربي للإسلام، خصوصاً من محور الاستشراق، بنظرة شمولية مترابطة، والتركيز علىٰ تقويم محتوىٰ الإنتاج الموسوعي له، وتدعيم الرؤية العلمية والمنطقية لمعالجات أخطاء وشبهات المفكرين الغربيين وفي مقدمتهم المستشرقون حول الإسلام بالتصويب والردّ خصوصاً وفق منظور مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ثانياً: وضع منهج علمي ورسم برنامج هادف، ويدعىٰ كبار المفكرين ×الغربيين وفي مقدمتهم كبار المستشرقين لمناقشته، واعتماد أفضل المناهج لدراسة جديدة للإسلام وفق مدرسة أهل البيتعليهم السلام، ديناً وحضارةً وأمّة، بروح الانفتاح علىٰ الحقيقة، وتحقيقاً للأهداف الإنسانية المشتركة بين الأمم والشعوب، بعيداً عن روح التعصب والاستكبار والاستهانة، ليكون الاستشراق بذلك البوابة الواسعة للحوار الهادف بين الغرب والشرق، وأحد أبرز العوامل للتقريب بينهما علىٰ أسس العلم والحق والعدل.

❊ ❊ ❊

الفهـــارس

فهرس الآيات الشريفة

الآية	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى...﴾	١٢٠	١٠٢،١٤
﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ...﴾	٨٩	١٥
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ...﴾	١٤٦	١٥
﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ...﴾	١٠٠	١٦
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ...﴾	٨٨	١٧
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ...﴾	٤٤	١٧
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم...﴾	١٠٩	١٨
﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾	١٠٥	١٨
﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ...﴾	١٠١	١٨
﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ...﴾	١٣٥	١٩
﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً...﴾	٨٠	٣٠
﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ...﴾	٧٥ـ٧٧	٣٤،٣١،١٥
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ...﴾	٢٥٧	٣١١،٤٧،٣٦
﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ...﴾	١٤٥	٣٧
﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾	١٢٤	٣٨
﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾	١٩٠ـ١٩١	٣٩

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾	١٩٣	٣١٢،٣٠٤،٤٠
﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾	١٩٠ـ١٩٣	٤٣
﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ...﴾	٤١ـ٤٢	٨٩
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ...﴾	١٤٣	٥،١١٩،١٣٣، ١٥٩
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ......﴾	١٦٤	١٤٧
﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ...﴾	٢٤٢	١٤٨
﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ...﴾	٢٨٢	١٦٧
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ...﴾	٣٠	١٩٩
﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّماواتِ...﴾	٣٣	١٩٩
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ...﴾	١٧٩	٢٠٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾	١٧٨	٢٠٣
﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...﴾	١٩٤	٢٠٣،٢٠٥،٣١٢، ٣٦٠
﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم...﴾	٢١٥	٢٣٦
﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ...﴾	١٧٧	٢٣٦
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ...﴾	٤٠	٢٩٨
﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾	١٩٠	٣٠٤،٣١٢،٣٦٠
﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفِتْنَة أشدّ...﴾	١٩١ـ١٩٢	٣٠٤،٣١٢،٣٦٠
﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾	١٢٤	٣٠٨
﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾	٢٥٦	٣٠٩
﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة...﴾	١٣٨	٣٠٩

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ...﴾	١٩٤	٣٦٧

سورة آل عمران

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾	١١٠	٥،١٠٨،٢٣١، ٢٥٤،٢٦٦،٣١٥
﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ...﴾	١٨٧	١٥،١٦
﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ...﴾	٦٩	١٧
﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ...﴾	٧٢	١٧
﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ...﴾	٧٨	١٨
﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ...﴾	٧٥	٢٠
﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ...﴾	٦٦	٢٦
﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ...﴾	٦٤	٢٧،٣١١
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾	٢٣	٢٧
﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ...﴾	٧٠	٢٧
﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾	١٩٩	٢٨
﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾	٧١	٣١
﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ...﴾	١٠٠	٣٧
﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ...﴾	١٤٠	٥٤
﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً...﴾	١٦٤	١١٢
﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم...﴾	٨١	١١٣
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيلِ...﴾	١٩٠ـ١٩١	٢٣٨
﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي...﴾	١٩٣ـ١٩٥	٤١٣

سورة النساء

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ...﴾	٤٦	١٥، ٢٠، ٣١
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾	٥١	١٩
﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ...﴾	١٦٠	٢١
﴿لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾	١٦٢	٢٨
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ...﴾	٦١ـ٦٣	٣٤
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ...﴾	١٤٢ـ١٤٣	٣٤
﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾	١٣٦	٣٦
﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله...﴾	٧٦	٣٩
﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء...﴾	١٤٣	٥٤
﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾	١٤١	٩٩، ٤٢٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ...﴾	٥٩	١١٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾	٦٤ـ٦٥	١١٣
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ...﴾	١٦٣ـ١٦٥	٢٠١
﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ...﴾	١٠٥	٢٠٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ...﴾	٥٩ـ٦٥	٢١١
﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ...﴾	٩٥	٢٣١
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾	١	٢٣٥
﴿وَاعْبُدُواْ الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ...﴾	٣٦	٢٣٦
﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ...﴾	١٦٥	٣٠٢
﴿لاَ يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾	٩٥	٣١٥
﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ...﴾	٧٤	٤١٣

سورة المائدة

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾	٤١	٣١،١٧
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء الله...﴾	١٨	٢٠
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أن آمنّا بالله...﴾	٥٩	٢١
﴿وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلإِثْمِ...﴾	٦٢	٢١
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً...﴾	١٥	٢٥
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ علىٰ فَتْرَة...﴾	١٩	٢٥
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ...﴾	٦٨	٢٦
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ...﴾	٦٤	٣٠
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ...﴾	١٧	٣٠
﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا...﴾	١٣	٣١
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى...﴾	٥١	٣٧
﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ...﴾	٥٧	٣٧
﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ...﴾	٨١	٣٧
﴿قُل لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ...﴾	١٠٠	٥٣
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾	٦٧	١١٣
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ...﴾	٣	٢٠٣،١١٣
﴿قُل يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ...﴾	٧٧	١٦٣
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مصدّقاً...﴾	٤٨	٢٠٣،١٧٧
﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا...﴾	٤٤	٢٠٢
﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ...﴾	٤٦ـ٤٧	٢٠٢
﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ الله...﴾	٤٩ـ٥٠	٢٠٢

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ ٤٥ ٢٠٤

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ...﴾ ٨٢ ٣٠٠

سورة الانعام

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ...﴾ ٢٠ ١٦

﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ...﴾ ١١٤ ٢٧

﴿وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ...﴾ ٩١ ٣٠

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ ٤٨ ١١٢

﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾ ١٥٣ ١٩٨،١١٤

﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ...﴾ ١٤٩ ٢٠١

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ...﴾ ١٤٨ ٢٤٠

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ...﴾ ١٢٥ ٣١٠

سورة الاعراف

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ...﴾ ١٧٥ ٥٤

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ...﴾ ١٩٨ ١٦٥

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ...﴾ ٥٩ ـ ٦٢ ٢٠٠

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ...﴾ ٦٧ـ٦٨ ٢٠٠

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ...﴾ ١٧٤ـ١٧٦ ٢٣٩

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ...﴾ ١٥٤ ٢٩٨

﴿قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ...﴾ ١١٦ ٢٩٩

سورة الأنفال

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ...﴾ ٥٦ ١٦

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ ٤٩ ٣٥

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً...﴾	٢٥	١٧١،٣٨
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ...﴾	٣٩	١٠٨،٤٠
﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا...﴾	٣٨ـ٤٠	٤٣
﴿وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ...﴾	٤٦	١١٣
﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله...﴾	٦٢ـ٦٣	١٨٠
﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا...﴾	٧ـ٨	٣٢٤،٢٧٧،٢٥٥
﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ...﴾	٣٠	٢٨٣
﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾	٦٠	٣٦٣،٢٩٩
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ...﴾	٣٦ـ٣٩	٣٠٥
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾	٣٩	٣٦٠

سورة التوبة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ...﴾	٣٤	٣٠٠،٢١
﴿وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ...﴾	٣ـ٤	٣٢
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ...﴾	٦	٣٢
﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ...﴾	٧	٣٣
﴿بَرَاءةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم...﴾	١ـ٣	٣٨
﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَأَيْمَانَ لهم...﴾	١٢	٣٨
﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ...﴾	١٤	٣٩
﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾	٢٩	٣٩
﴿وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾	٣٦	٤٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ...﴾	١٢٣	٤٠
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾	٣٣	٢٨٠،٢٥٤،٤٢، ٣٠٢

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ...﴾	٧ـ٨	٢٦٩
﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ...﴾	٣٠	٢٨٠
﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله...﴾	٣١	٢٩٩

سورة يونس

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ...﴾	٣٩	٢٤
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾	١٣	٣٦
﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ...﴾	٣٥	١٩٨
﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء...﴾	٢٤	٢٣٨
﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ...﴾	٨٣ـ٨٦	٣٠٣

سورة هود

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ...﴾	١١٣	٣٧
﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾	٤٩	٧٣

سورة يوسف

﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ...﴾	١٠٨	١٩٨

سورة الرعد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ...﴾	١١	٩٧
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ...﴾	١٦	٢٣٠، ٣١٤
﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾	١٩ـ٢١	٢٣٤
﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا...﴾	٣	٢٣٨

سورة إبراهيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾	٤	٣٠٢

سورة النحل

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾	١٢٥	٣٠٣،٤٦،٢٧
﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى...﴾	٩٠	٢٣٥
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم...﴾	٤٣ ـ ٤٤	٢٣٩
﴿وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ...﴾	٥١	٢٩٨
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ الله...﴾	٣٦	٣٠١
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ...﴾	١٢٦	٣٥٩

سورة الإسراء

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾	٧٠	١٩٧، ٢٢٦، ٢٣٠، ٣١٤، ٣١٥
﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ...﴾	٢٥	٢٠١
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾	٢٣ـ٢٤	٢٣٣
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ...﴾	٢٦	٢٣٦
﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ...﴾	١٠٥ـ١٠٦	٣٠٢

سورة طه

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ...﴾	٩	٣٠٣
﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى...﴾	٢٤ـ٣٢	٣٠٣
﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ...﴾	٣٦	٣٠٣
﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي...﴾	٤٢ـ٤٤	٣٠٣

سورة الانبياء

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ...﴾	٢١_٢٤	٣١
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ...﴾	١٠٧	٣٠١،٤١
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ...﴾	١٠٥	٢٥٥،٢٠٠

سورة الحج

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾	٥٤	٢٥
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...﴾	٣٩_٤٠	٣٦٠،٣٠٥
﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ...﴾	٤١	٣٠٩
﴿لَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾	٤٠	٣١٦

سورة المؤمنون

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ...﴾	٥٢_٥٣	١١٤
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ...﴾	١١٥	١٩٩

سورة النور

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ...﴾	٣٩_٤٠	٣٦

سورة الفرقان

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾	١	٣٠٢،٤٢

سورة الشعراء

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...﴾	٢١٤	٢٣٥

سورة النمل

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا...﴾	٥٢	٣٦

سورة القصص

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ...﴾	٥٢ـ٥٥	٢٩
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...﴾	٧١ـ٧٢	٣١
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ...﴾	١٧	٣٨
﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ...﴾	٥	١٤٥، ٢٠٠، ٢٥٥
﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء...﴾	٣٢	٢٩٩
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا...﴾	٤ـ٦	٣٠٤

سورة العنكبوت

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾	٤٦	٢٧
﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا...﴾	٢ـ٣	٧٦
﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾	٨	٢٣٢

سورة الروم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ...﴾	٥٦	٢٥
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله...﴾	٣٠	١٧٧، ٢٠٩، ٢٢٦
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ...﴾	٣٨	٢٣٦
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله...﴾	٣٠	٢٥٥، ٣٠٩، ٤٤١
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ...﴾	٦٠	٣١٠

سورة الأحزاب

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾	١٢	٣٤
﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾	٢٦	٣٩
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾	٧٢	١٤٧

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ...﴾ ٣٩ـ٤٠ ٢٠١
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا...﴾ ٤٥ـ٤٨ ٣٠٢،٢٠١
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن...﴾ ٤٠ ٢٠٢
﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ...﴾ ٤٧ ٣١٤،٢٣٠
﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ...﴾ ٦ ٢٣٥
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ...﴾ ٣٣ ٤٢٢،٤٢٠،٣٠٩

سورة السجدة

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا...﴾ ٢٤ ٦

سورة سبأ

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ ٦ ٢٥
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا...﴾ ٢٨ ٣٠١،٤١

سورة الزمر

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾ ١٨ ٦٢
﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا...﴾ ٩ ٣١٤،٢٣٠

سورة غافر

﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ ٨٣ ١٦٤
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ...﴾ ٥٦ ١٦٩
﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله...﴾ ٣٥ ٣١٠

سورة فصّلت

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ...﴾ ٥٣ ١٤٨

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ...﴾ ٥ ١٦٥

سورة الزخرف

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا...﴾ ٥٤ ٣١٠

سورة الجاثية

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ...﴾ ١٣ ٢٣٨

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله...﴾ ٢٣ ٣١٠

سورة محمد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا الله يَنصُرْكُمْ...﴾ ٧ ١٨٠

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...﴾ ٢٢ـ٢٣ ٢٣٣

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن...﴾ ٤ـ٧ ٤١٣

سورة الفتح

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ...﴾ ٢٨ ٢٠٣، ٢٥٤، ٣٠٢

سورة الحجرات

﴿يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾ ١٣ ٢٣٠، ٢٣١، ٣١٤، ٣١٥، ٣٨٥

سورة الذاريات

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...﴾ ٥٦ ١٩٩

سورة القمر

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ...﴾ ١٤ـ١٥ ٢٣٢

سورة الحديد

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ...﴾	٢٨	١٦٨
﴿...وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ...﴾	٢٧	٣٠٠
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا...﴾	٢٥	٣٠٢

سورة الحشر

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ...﴾	١١	٣٤
﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾	٢	٣٦٣،٣٩
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ...﴾	٢١	٢٣٨
﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ الله...﴾	١٣	٢٩٩

سورة الممتحنة

﴿لا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾	٨ـ٩	٣١٧،٣٠٥

سورة الصف

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾	٩	١٩٣،١٨٦،٤٢، ٣٠٢

سورة الجمعة

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾	٢	١٦٧

سورة المنافقون

﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله...﴾	١ـ٨	٣٥
﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾	٨	٩٩

سورة الطلاق

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجا﴾	٢	٧٠،٥٤
﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾	٣	٧١

سورة التحريم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾	٩	٣٥

سورة المزّمل

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ...﴾	١٥	٣٠٢،١١٢

سورة المدثر

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ...﴾	١٨ـ٢٠	٢٧٤

سورة الانسان

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾	١ـ٣	١٩٩
﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا...﴾	٣	٢٢٧

سورة المطففين

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾	١١ـ١٤	٣١٠

سورة الانشقاق

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا...﴾	٦	١٤٦

سورة الشمس

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا...﴾	٧ـ١٠	٢٢٧،١٩٨

سورة العلق

﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ...﴾ ١ـ٥ ٥٦

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ...﴾ ٧ ٤٢١

سورة العصر

﴿وَٱلْعَصْرِ ... وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ١ـ٣ ٥٩

* * *

فهرس الاحاديث الشريفة

الحديث	الصفحة
(إنكم تتمّون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله)	٥
(إنّي قد تركت فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما...)	٦
(والذي بعثني بالحق نبيّا لو أن رجلاً لقي الله...)	٦
(إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح...)	٦
(انظروا أهل بيت نبيّكم، فالزموا سمتهم...)	٦
(نحن شجرة النبوة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة...)	٧
(تالله لقد عُلّمت تبليغ الرسالات، وإتمام العِدات...)	٧
(جعلهم الله حياة للأنام ومصابيح للظلام...)	٧
(لا يقاس بآل محمدﷺ من هذه الأُمّة أحد)	٧
(فإنّهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين...)	٧
(إنّما الأئمة قوّام الله علىٰ خلقه، وعرفاؤه...)	٧
(آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً، وتركوا...)	٧
(أما إنّه ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب...)	٨
(كلّ ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل)	٨
(معنا راية الحق، من تبعها لَحِق، ومن تأخر...)	٨
(فكانوا [أهل البيتعليهم السلام] هم السبيل إليك [الله]...)	٨
(فلا تَقَدّموهما فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا...)	٨
(الكتاب ترجمان النيّة)	١٠

(من جهل شيئاً عاداه....)	١٦٢،٢٤
(العلم حياة الاسلام وعماد الدين....)	٢٥
(لو ان العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا....)	٢٦
(ومن انصافه [المرء] قبوله الحق إذا بان له....)	٢٨
(إحذروا الشبهة؛ فانها وضعت للفتنة....)	٢٩
(... واشهد ان محمداً عبده ورسوله، ارسله بالدين المشهود....)	٢٩
(انما سميت الشبهة شبهه لانها تشبه الحق....)	٢٩
(اني لا اتخوف على امتي مؤمنا ولا مشركاً،....)	٣٣
(من مشىٰ مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم....)	٣٨
(والجهاد واجب مع الامام العادل.....)	٤٤
(لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن....)	٤٤
(العقل: ما عبد به الرحمن واكتُسب به الجنان.....)	٥٤
(العارف بزمانه لا تلتبس عليه اللوابس....)	٥٥
(كن موقناً تكن قوياً....)	٧١
(لا معقل امنع من الاسلام....)	١٠٨،٧١
(العالم بزمانه لا تلتبس عليه اللوابس....)	٧١
(أُنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمّد.....)	٧٨
(سحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب...)	٧٩
(اني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً....)	٨٠
(ان الحسين (ع) لما فصل متوجهاً إلىٰ العراق أمر بقرطاس....)	٨٠
(اسمع المؤذن تعرف الجواب)	٨١
(العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس....)	٨٣

(لا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون....)	٩٠
(ليأذن بحرب مني من أذلّ عبدي المؤمن...)	١٠٠
(الاسلام يعلو ولا يعلىٰ عليه....)	١٠٨
(اعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتىٰ تعرفوا الذي تركه...)	١٥١
(يا معاذ علّمهم كتاب الله وأحسن أدبهم على الأخلاق...)	١٥٢
(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد الله عليّ....)	١٥٢
(إعلم يا مالك أنّي وجهتك إلىٰ بلاد قد جرت....)	١٥٣
(ثم اعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلّا ببعض...)	١٥٣
(وبعد هذا فلا تُطوّلن احتجابك عن رعيّتك...)	١٥٤
(طوبىٰ لمن يألف الناس ويألفونه علىٰ طاعة الله...)	١٥٨
(غير منتفع بالحكمة عقل مغلول بالغضب والشهوة...)	١٦٦
(رأي الرجل علىٰ قدر تجربته....)	١٦٦
(العقل غريزه يزيد بالعلم والتجارب...)	١٦٦
(فالأيام تفيد التجارب...)	١٦٦
(لولا التجارب عميت المذاهب، وفي التجارب....)	١٦٦
(ولتستقبل بجدّ رأيك من الأمر....)	١٦٧
(ولا يطمعنّ... القليل التجربة المعجب برأية....)	١٦٧
(ومن لم يُهذّب نفسه لم ينتفع بالعقل....)	١٦٨
(... الهوىٰ شريك العمىٰ....)	١٦٨
(ولا تظنوا بي استثقالاً في حق....)	١٧٠
(... ياهشام، مجالسة أهل الدين شرف...)	١٧٠
(المسلم مرآة أخيه، فاذا رأيتم من أخيكم....)	١٧٠

(لا تجلسوا عند كلِّ داعٍ مُدّعٍ يدعوكم من اليقين....) ١٧١

(لمّا خلق الله العقل قال له: أقبل فاقبل، ثم....) ١٩٧

(العقول أئمة الأفكار....) ١٩٧

(إنّ لله على الناس حجتين: حجّة ظاهرة وحجّة....) ١٩٧

(العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب...) ١٩٨

(ايها الناس أحيوا القصاص واحبوا الحق...) ٢٠٤

(قُلت أربعاً أنزل الله تعالىٰ تصديقي بها....) ٢٠٤

(فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك... والقصاص...) ٢٠٤

(ارسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة....) ٢٢٢

(إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين) ٢٢٢

(وأهل الأرض يومئذٍ مللٌ متفرقة....) ٢٢٢

(من تعدىٰ الحق ضاق مذهبه، ومن اِقتصر...) ٢٢٨

(إنّ للولد على الوالد حقاً، وإنّ للوالد على....) ٢٣٣

(يجب للوالدين على الولد ثلاثة أشياء....) ٢٣٤

(من حقّ الولد على والده ثلاثة: يحسّن...) ٢٣٤

(أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم...) ٢٣٤

(حق الولد على الوالد أن يحسّن اسمه، ويحسّن أدبه....) ٢٣٤

(مروا أولادكم بطلب العلم...) ٢٣٤

(في قوله تعالىٰ: الذين يصلون... من ذلك صلة الرحم...) ٢٣٤

(في قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام...﴾ هي أرحام الناس....) ٢٣٥

(نعم، حقّ الرحم، لا يقطعه شيء وإذا كانوا....) ٢٣٥

(يا أيها الناس: قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا...) ٣١١
(كان رسول الله (ص) إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم...) ٣١٣
(إنّ النبي (ص) كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوىٰ الله عز وجل...) ٣١٣
(لا تقاتلوهم حتىٰ يبدأوكم، فإنكم بحمد الله علىٰ حجّة...) ٣١٣
(استعملتموه حتىٰ إذا كبُر وعجز منعتموه، انفقوا عليه من بيت المال....) ٣١٦
(ألاعصابة تشدّ لأمر الله تطلب عدوّها؟ فإنها أنكأ للعدو وأبعد للسمع...) ٣٣١
(ومر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلىٰ بيت المقدس، فإذا فتح الله...) ٣٤٧
(والجهاد واجب مع الإمام العادل...) ٣٤٩
(لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يُؤمن على الحكم، ولا يُنْفِذْ في الفيء....) ٣٤٩
(... يقاتل عن بيضة الإسلام قال: يجاهد؟ قال: لا إلّا أن يخاف...) ٣٥٠
(يا أبا محمّد لا ولا مدّة قلم، إن أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا...) ٣٥٣
(... يا صفوان، كلّ شيء فيك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً...) ٣٥٣
(إنّ لله تبارك وتعالىٰ مع السلطان أولياء...) ٣٥٤
(يا زياد، إنّك لتعمل عمل السلطان؟...) ٣٥٤
(فهمت كتابك وما ذكرت من الخوف علىٰ نفسك...) ٣٥٤
(عليكم بتقوىٰ الله وحده لا شريك له، وانظروا لأنفسكم، فوالله إنّ...) ٣٥٥
(إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم...) ٣٥٨
(ألّا يا أيها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب....) ٣٨١
(ياعليّ، أنت وشيعتك تردون عليَّ الحوض، رواء مرويين، مبيّضة وجوهكم...) ٤٠٣

(هو أنت وشيعتك. تأتي أنت وشيعتك...) ٤٠٣
(يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة...) ٤٠٣
(أما ترضىٰ أنك معي في الجنه، والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا...) ٤٠٣
(أول أربعة يدخلون الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وذريتنا...) ٤٠٤
(والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة...) ٤٠٤،٤٢١
(... هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين) ٤٠٤
(أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض. إذا جاءت الأمم...) ٤٠٤
(يا أبا الحسن أما إنك وشيعتك في الجنة...) ٤٠٤
(أبشر ياعلي أنت وشيعتك في الجنة....) ٤٠٥
(أنت معي وشيعتك في الجنة...) ٤٠٥
(يدخل من أُمتي الجنة سبعون ألفاً لاحساب عليهم... هم شيعتك...) ٤٠٥
(والذي نفسي بيده، أن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة...) ٤٠٥
(يا علي ألم تسمع قوله تعالىٰ: ﴿إن الذين...﴾ هم شيعتك...) ٤٠٥
(إنّ شيعتنا من شيّعنا وأتّبع آثارنا واقتدىٰ بأعمالنا...) ٤٢١
(لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ماشيعتنا إلّا من أطاع...) ٤٢١
(شيعة علي هم الذين لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم...) ٤٢١
(جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) ٤٣٦
(السجود لا يجوز إلّا على الأرض، أو علىٰ ما أنبتت الأرض إلّا...) ٤٣٦

فهرس مصادر الكتاب

أولاً ـ الكتب العربية والمعربة:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري (ع).

٣ ـ تفسير شبر.

٤ ـ تفسير القمي.

٥ ـ تفسير الطبري.

٦ ـ تفسير ابن كثير.

٧ ـ البيان في تفسير القرآن ـ السيد ابو القاسم الخوئي.

٨ ـ مباحث في علوم القرآن ـ الدكتور صبحي الصالح.

٩ ـ الظاهرة القرآنية ـ مالك بن بني.

١٠ ـ التمهيد في علوم القرآن ـ الشيخ محمّد هادي معرفة.

١١ ـ علوم القرآن ـ السيد محمّد باقر الحكيم.

١٢ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ـ الطبرسي.

١٣ ـ نهج البلاغة.

١٤ ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد المعتزلي.

١٥ ـ نهج السعادة ـ المحمودي.

١٦ ـ فلسفتنا ـ السيد محمّد باقر الصدر.

١٧ ـ اقتصادنا ـ السيد محمّد باقر الصدر.

١٨ ـ دروس في علم الاصول ـ السيد محمّد باقر الصدر.

١٩ ـ المحنة ـ السيد محمّد باقر الصدر.
٢٠ ـ سنوات المحنة وأيام الحصار – الشيخ محمد رضا النعماني.
٢١ ـ اساس الحكومة الاسلامية ـ السيد كاظم الحائري.
٢٢ ـ الكفاح المسلح في السلام ـ السيد كاظم الحائري.
٢٣ ـ الكافي ـ للكليني.
٢٤ ـ البحار ـ للمجلسي.
٢٥ ـ المحاسن ـ للبرقي.
٢٦ ـ أمالي المفيد.
٢٧ ـ نور الثقلين ـ الماحوزي.
٢٨ ـ الأصول العامة للفقه المقارن ـ السيد محمّد تقي الحكيم.
٢٩ ـ تحف العقول ـ الحرّاني.
٣٠ ـ مكارم الأخلاق ـ الطبرسي.
٣١ ـ كنز العمال ـ المتقي الهندي.
٣٢ ـ معنى التكنلوجيا ـ أسامة أحمد سامح الخالدي، ويوسف أحمد الشيراوي.
٣٣ ـ مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية الاميركية ـ فرانسيس انتوني بويل.
٣٤ ـ صلح الامام الحسن (ع) ـ محمّد مهدي شمس الدين .
٣٥ ـ ثورة الامام الحسين (ع) ـ محمّد مهدي شمس الدين.
٣٦ ـ اهل البيت ومصلحة الاسلام العليا ـ فؤاد كاظم المقدادي.
٣٧ ـ جواهر لكلام في شرح شرائع الاسلام ـ محمّد حسن النجفي.
٣٨ ـ وسائل الشيعة ـ الحرّ العاملي.

٣٩ ـ تاريخ الخميس ـ الدياربكري.
٤٠ ـ السيرة الحلبية ـ الحلبي الشافعي.
٤١ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام.
٤٢ ـ السيرة النبوية ـ لابن كثير.
٤٣ ـ السيرة النبوية ـ لابن دحلان.
٤٤ ـ المغازي ـ الواقدي.
٤٥ ـ مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهر آشوب.
٤٦ ـ تاريخ الامم والملوك ـ الطبري.
٤٧ ـ صحيح مسلم.
٤٨ ـ المواهب اللدنية ـ القسطلاني.
٤٩ ـ الدر المنثور ـ السيوطي.
٥٠ ـ البدء والتاريخ ـ البلخي.
٥١ ـ مقاتل الطالبيين ـ ابو الفرج الاصفاني.
٥٢ ـ الحكومة الاسلامية ـ الامام الخميني.
٥٣ ـ منهج البروجردي في بحث ولاية الفقيه ـ محمّد مهدي الآصفي.
٥٤ ـ معالم المدرستين ـ مرتضىٰ العسكري.
٥٥ ـ الغدير ـ عبد الحسين الاميني.
٥٦ ـ مجمع الزوائد ـ الهيثمي.
٥٧ ـ تاريخ ابن كثير.
٥٨ ـ شواهد التنزيل للحسكاني.
٥٩ ـ تاريخ اليعقوبي.
٦٠ ـ مسند أحمد.

٦١ ـ الفصول المهمة ـ لابن صباغ المالكي.
٦٢ ـ تذكرة الخواص ـ لسبط بن الجوزي.
٦٣ ـ الكامل ـ ابن الاثير.
٦٤ ـ علي والخلفاء ـ نجم الدين العسكري.
٦٥ ـ سيرة الائمة الإثني عشر ـ هاشم معروف الحسني.
٦٦ ـ الفتوحات الاسلامية ـ ابن زيني دحلان.
٦٧ ـ الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام ـ جعفر مرتضىٰ العاملي.
٦٨ ـ الطائفية والسياسة في العالم العربي ـ فرهاد إبراهيم.
٦٩ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ أغا بزرك الطهراني.
٧٠ ـ سنن الترمذي.
٧١ ـ تاريخ إيران بعد الاسلام ـ إقبال عباس.
٧٢ ـ مصابيح السنة ـ البغوي.
٧٣ ـ الفرقة الوهابية ـ السيد أبو يعلىٰ النقوي.
٧٤ ـ الترغيب والترهيب ـ الحافظ المنذري.
٧٥ ـ دائر المعارف الشيعية ـ حسن الأمين.
٧٦ ـ دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ـ عبد الله فهد النفيسي.
٧٧ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ـ السيد حسن الصدر.
٧٨ ـ عبد الله بن سبأ ـ مرتضىٰ العسكري.
٧٩ ـ التحرك الاسلامي في العراق ـ السيد محمّد مهدي الحكيم.
٨٠ ـ الشيعة والدولة القومية في العراق (١٩١٤م ـ ١٩٩٠م) ـ حسن العلوي.
٨١ ـ تاريخ ابن عساكر.
٨٢ ـ مشكل الآثار ـ الطحاوي.

٨٣ ـ صحيح الترمذي.
٨٤ ـ مصباح الفقاهة ـ محمّد علي التوحيدي ـ تقريرات أبحاث السيد الخوئي.
٨٥ ـ النزاع والتخاصم ـ المقريزي.
٨٦ ـ عيون أخبار الرضا ـ الصدوق.
٨٧ ـ مروج الذهب ـ المسعودي.
٨٨ ـ أعيان الشيعة ـ الأمين العاملي.
٨٩ ـ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ ستيفن همسلي لونكريك.
٩٠ ـ موسوعة العتبات المقدسة (كربلاء) ـ جعفر الخليلي.
٩١ ـ صحيح البخاري.
٩٢ ـ سنن البيهقي.
٩٣ ـ سيرتنا وسنتنا ـ عبدالحسين الأميني.
٩٤ ـ حياة محمّد ـ در منغهام.
٩٥ ـ التبشير في منطقة الخليج العربي ـ الدكتور عبد الملك خلف التميمي.
٩٦ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ محمّد البهي.
٩٧ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ـ الدكتور مصطفىٰ الخالدي والدكتورعمر فروخ .
٩٨ ـ محمّد رسول الله – ايتين دينيه.
٩٩ ـ تاريخ فرنسا ـ جوليمين.
١٠٠ ـ تراث الاسلام ـ مكسيم رودنسون.
١٠١ ـ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ـ أبو الحسن الندوي.
١٠٢ ـ مجد الإسلام ـ حسين مؤنس.

١٠٣ ـ الوحي المحمدي ـ محمّد رشيد رضا.
١٠٤ ـ الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ ـ الشيخ محمّد جواد البلاغي.
١٠٥ ـ أمالي الطوسي.
١٠٦ ـ كشف الغمّة ـ الأربلّي.
١٠٧ ـ الحياة السياسية للامام الخميني ـ محمّد حسن رجبي.
١٠٨ ـ من لا يحضره الفقيه ـ الصدوق.
١٠٩ ـ غرر الحكم ـ للإمام علي عليه السلام.
١١٠ ـ الوصية الإلهية السياسية – للإمام الخميني.

ثانياً: المصادر الفارسية

١ – نهضت روحانيون ايران – علي دواني.
٢ – نهضت امام خمينى – سيد حميد روحاني.
تاريخ ايران معاصر – الدكتور السيد جمال الدين مدني.

ثالثاً: الموسوعات:

١ -- الموسوعة السياسية
٢ – الموسوعة الكويتية
٣ – الموسوعة البريطانية
٤ – موسوعة المورد – منير البعلبكي.

رابعاً: القواميس والمعاجم:

١ – القاموس المنجد في اللغة والاعلام
٢ – لسان العرب «قاموس لغوي» – العلامة ابن منظور

٣ - المعجم الوسيط
٤ - مجمع البحرين - الشيخ فخر الدين الطريحي

خامساً: الصحف والمجلات

١ - جريدة الاهرام - مصر
٢ - جريدة البلاغ - الكويت
٣ - مجلة رسالة الثقلين - الجمهورية الاسلامية في ايران
٤ - مجلة البعث الاسلامي - الهند
٥ - مجلة المنتقىٰ - باريس
٦ - مجلة رسالة الجهاد - ليبيا

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٥

المدخل: رؤية قرآنية في أبعاد العداء الثقافي للإسلام والموقف منه ١١

رؤية قرآنية في أبعاد العداء الثقافي للإسلام.................... ١٣

رؤية قرآنية في الموقف من أعداء الإسلام ٢٤

الفصل الأول: رؤية رسالية لقضايا معاصرة ٤٩

رسالتنا بين الأهداف والوسائل ٥١

رسالتنا بين النظرية والتطبيق.................................... ٥٦

مسيرتنا الرسالية بين الثبات والتغيّر ٦١

الواقعية في العمل الرسالي ٦٥

مسيرتنا بين الحالة المرحلية والحالة المرضيّة ٧٤

لا تُلبسوا الحقّ بالباطل ٨٤

مسار وعي الأُمم ونهضة الشعوب ٩١

لا معقل أمنع من الإسلام ٩٨

الفصل الثاني: قضايا في أفق الصحوة الإسلامية المعاصرة ١٠٩

الثورة الإسلامية معالم أصيلة وحركة تكامل في المطلق.......... ١١١

الثورة الإسلامية ونظام القوىٰ العالمي.......................... ١٢٠

الثقلان المباركان محورا الحركة التغييرية للإمام الخمينيﷺ ١٣٤

الإئتلاف مع الأُمة في معادلة التغيير الإسلامي.................. ١٤٦

التطرف: الأسباب والعلاج ١٥٩

الفصل الثالث: ثقافتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب ١٧٣
رسالتنا والتحديات المعاصرة ١٧٥
أصالتنا وتحديات التبعية المنهجية للغرب ١٨٧
مقولات في منهجية الخطاب الثقافي الإسلامي ١٩٤
إشكاليات حول منهجية الخطاب الثقافي التغريبي ٢١٢
حقوق الإنسان في الإسلام «المبادئ والامتيازات» ٢٢١
العولمة جولة استكبارية جديدة ٢٤١
حوار الحضارات أم صراع الحضارات ٢٥٦
قراءة في مصائد الاستكبار ٢٧٠
الإرهاب بين ثقافتين ٢٨٤
أولاً: الإرهاب في الثقافة الغربية ٢٨٤
ثانياً: الإرهاب في الثقافة الإسلامية ٢٩٧
التجربة التاريخية الإسلامية ومنطق القوة ٣١٩
سنّة الله في قمع الفتنة وردع العدوان ٣٥٨
الفصل الرابع: شبهات علمانية في الميزان «نماذج معاصرة» ٣٦٩
تمهيـــد ٣٧١
النموذج الأول: كتاب الطائفية والسياسة في العالم العربي ٣٧٣
النموذج الثاني: كتاب الشيعة والدولة القومية في العراق ٤١٧
خاتمة: دعوة الغرب لتقويم الإسلام من جديد وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٤٤٣
الفهارس ٤٦٦
فهرس الآيات الكريمة ٤٦٩
فهرس الأحاديث الشريفة ٤٨٥
فهرس مصادر الكتاب ٤٩١
فهرس المحتويات ٤٩٩

صدر للمؤلف

١ ـ سلسلة كتب تضمّنت: دراسات حول تاريخ العراق السياسي الحديث (١٩٥٨م ـ ١٩٨٨م).

٢ ـ السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط.

٣ ـ الإسلام وشبهات المستشرقين.

٤ ـ أهل البيت عليهم السلام ومصلحة الإسلام العليا.

٥ ـ قضايا معاصرة علىٰ ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام.